الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الثانى والثلاثون . السنة الثالثة . سبتمبر ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 32 - September 2001



تقرير رئاسى أمريكى
"خَريف خَطِر"
محمد حسنين هيكل

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد الثانى والثلاثون
سبتمبر ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- **أحمد مستجير** .. أستاذ بكلية الزراعة ـ جامعة القاهرة.
- **دياب أبو جهجه** .. رئيس الرابطة العربية الأوروبية فى بلجيكا.
- **رشدى سعيد** .. أستاذ جيولوجيا مصرى مقيم فى الولايات المتحدة.
- **سلامة أحمد سلامة** .. صحفى.
- **سيان ريز** .. صحفى بريطانى.
- **شريف بسيونى** .. أستاذ القانون بجامعة «دى بول» بشيكاغو، ورئيس الجمعية الدولية لقانون العقوبات بفرنسا.
- **طارق البشرى** .. كاتب ومؤرخ.
- **الطاهر مكى** .. أستاذ الأدب المقارن بجامعة القاهرة.
- **عادل الألوسى** .. كاتب عراقى.
- **عصمت داوستاشى** .. فنان تشكيلى مصرى.
- **محمد حسنين هيكل** .. صحفى.
- **محمد الرميحى** .. كاتب ـ أمين عام المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت.
- **محمد فؤاد الذاكرى** .. باحث سورى فى التراث العلمى العربى.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجى ـ نبيل تاج ـ محمد حاكم ـ سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٢ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهماً ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالاً ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..

عولمة العدالة

كيف يكون قتل فرد واحد جريمة تعاقب عليها التشريعات الوطنية كافة، بينما ليس هناك عقاب على قتل الآلاف، بل الملايين؟

السؤال الذى يبدو بدهياً، والذى يبدو أيضاً أنه لم يكن مطروحاً ـ لأسباب متعددة ـ على الفكر الإنسانى طوال عصور طويلة من التاريخ البشرى المعروف، وجد طريقه أخيراً ليحتل رقماً متقدماً على «الأجندة السياسية» لعالم جديد تُعاد صياغته، ويتعدد صائغوه: المنظورون.. و«الآخرون».

وبغض النظر عن الاختلاف «لغوياً أو سيكولوجياً» حول مصطلح «العولمة» الذى صار الأكثر شيوعاً فى التعبير عن «العالم الجديد»، فقد كان من الطبيعى أن يكون القانون «الدولى»، كما هى مسائل الحرب والسلام، غير بعيد عن جديد التشكلات.. والتحولات.

وكما تذكر أدبيات فلسفة القانون، فإن القوانين تصاغ دائماً فى مسافة «بين» مطلق العدالة، إذا جاز لنا تبنيها، وبين موازين قوى قائمة فعلاً.. تضمن توازناتها انتقال الصياغات المثالية الحالمة إلى واقع «على أرض تظلها سماء».

غير بعيد عن هذا كله تأتى ـ أولاً ـ محاكمة الرئيس اليوغسلافى السابق سلوبودان ميلوسوفيتش فى لاهاى. وتأتى ثانياً: «المحاولة الجادة» لجر رئيس الوزراء الإسرائيلى أريل شارون إلى المحاكمة الجنائية فى بروكسل. كما تأتى ـ ثالثاً ـ الجهود المبذولة لإنشاء المحكمة الجنائية الدولية. والتى تنتظر استكمال إجراءات التصديق بعد أن أيَّدت إنشاءها ١٢٠ دولة فى روما قبل ثلاث سنوات.

وفضلاً عن الخلط الحادث عند الكثيرين بين الملفات الثلاثة، بالإضافة إلى محكمة العدل الدولية التى مقرها أيضاً فى لاهاى، فإن المسألة برمتها، رغم ما لإنشاء نظام ما للعدالة الدولية من تبعات سياسية وقانونية، لم تحظ عربياً بالاهتمام الذى تستحق.

كما يقول أحد قضاة محاكمة ميلوسوفيتش الأربعة عشر (المصرى: فؤاد رياض) والذى يعتقد أنها أهم طفرة فى تاريخ البشرية الحديث. لماذا؟ لأن المجتمع الدولى كان يبدو محكوماً بشريعة الغاب مقارنة بالمجتمعات المحلية. فمن يسرق رغيفاً أو يقتل شخصاً فيها يُحاكم ويُسجن، بينما لا يتعرض مرتكبو المجازر ضد شعبهم أو الشعوب الأخرى للمحاسبة. الآن.. أصبح الاعتداء على الشعوب الآمنة جريمة لا تغتفر أيضاً. إن القيمة الردعية للمحكمة تنبع من أنه ليس بوسع أحد مهما علت منزلته، سواء كان رئيساً لدولة أو قائداً لجيش، أن يبقى فوق المساءلة الدولية. كما أن التذرع بمفاهيم «السيادة» التقليدية للدولة، لم يعد لها مكان. لأن المحكمة الدولية ليست بلداً آخر، فهى تمثل المجتمع الدولى بأسره، ومرجعيتها تسبق المرجعية القانونية المحلية.



«وجهات نظر» اختارت لتغطية هذا الموضوع من جوانبه المختلفة د. شريف بسيونى القانونى الدولى الذى ترأس اللجنة القانونية المؤسِّسة للمحكمة الجنائية الدولية، بعد أن تولى التحقيق ـ بتكليف من الأمم المتحدة ـ فى انتهاكات القانون الإنسانى الدولى فى يوغسلافيا فى الفترة من ١٩٩٥ ـ ١٩٩٨. وهو أستاذ القانون بجامعة «دى بول» بشيكاغو ورئيس الجمعية الدولية لقانون العقوبات بفرنسا ورئيس المعهد الدولى للدراسات العليا فى العلوم الجنائية بإيطاليا. وله ٥٤ كتاباً و١٧٦ مقالاً فى القانون منشورة باللغات العربية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية.

ودكتور بسيونى الذى تم ترشيحه عام ١٩٩٩ لجائزة نوبل للسلام عن جهوده التى استهدفت تشكيل محكمة جنائية دولية، كانت الأمم المتحدة قد رشحته لشغل منصب المدعى العام فى المحكمة الجنائية الدولية لمجرمى الحرب فى يوغسلافيا السابقة، إلا أن بريطانيا اعترضت على ذلك. ويومها نسبت «نيويورك تايمز» إلى مصدر عال ببعثة المملكة المتحدة لدى المنظمة الدولية، أن سبب الاعتراض يعود إلى كونه «مسلم» الديانة. وهو أمر يستوجب التوقف عنده عندما يتعلق الأمر بمجتمع دولى لا يعترف بالتمييز على أساس من العرق أو الجنس أو الديانة أو اللون! وبالفعل أسفر التصويت فى مجلس الأمن يومها عن موافقة سبع دول واعتراض سبع أخرى وامتناع دولة واحدة عن التصويت. واحتاج الأمر إلى أربعة عشر شهرًا كاملة من المفاوضات قبل أن يتم الاتفاق على البديل.. ريتشارد جولد ستون.



على الناحية الأخرى، ومن واقع «التجربة الفعلية»، يكتب لـ«وجهات نظر» ـ أو بالأحرى ـ يحكى لقارئها «دياب أبو جهجه» رئيس الرابطة العربية الأوروبية التى نجحت عبر جهد شاق استمر لسنوات فى تحريك الدعوى القضائية لمحاكمة رئيس الوزراء الإسرائيلى أريل شارون أمام المحاكم البلجيكية لدوره فى مذابح صابرا وشاتيلا.

ففى زمن تذوب فيه عمليًا الحدود أو تكاد. وتتنوع فيه الأعراق فى المجتمع الواحد نتيجة لموجات الهجرة البشرية المتتالية بعد الحرب الثانية. تأتى أهمية التوقف عند تجربة «أبو جهجه» وزملائه من الشباب الأوروبى ذى الأصول العربية. والذين أجادوا استخدام مفاهيم وآليات الغرب من احترام للمجتمع المدنى والاعتراف بالآخر، وإتاحة فرص التأثير والتفاعل والتحريك الاجتماعى أمام الشباب، لينجحوا ـ ربما للمرة الأولى ـ فى تكوين ما يمكن اعتباره «لوبى» عربيا مؤثرا.

يحكى (الباحث البلجيكى ذو الأصول العربية) كيف تمثل الأمر الأكثر صعوبة فى إقناع الأطراف «العربية الرسمية» التى لا مفر من التعاون معها لتجهيز مستندات القضية، إن القضية جدية «فمجرد التفكير بمقاضاة مسؤول إسرائيلى كان يستدعى الابتسامات الساخرة من الكثيرين لأن ذهنية المؤامرة التى تسيطر على العقل العربى، تصور له عدوه وكأنه يسيطر على العالم ويتحكم بمسار كل الأمور..»

ويحكى كيف أنهم نجحوا ـ عبر جهد متواصل ـ فى تحضير الرأى العام الأوروبى عامة والبلجيكى خاصة لتقبل فكرة مقاضاة مجرمى حرب إسرائيليين. حتى إن محاولة الحكومة البلجيكية تعديل القانون استجابة للضغوط الإسرائيلية فشلت أمام الرأى العام الذى كان قد تعاطف مع القضية ومع سعاد سرور المدعية الرئيسية فيها.

أيًا ما كان الأمر فإن التجربة (المحاولة) غير المسبوقة تظل تفاصيلها مثيرة. ويظل رصدها مهمًا فى مجتمع دولى تتغير ـ مثلما كل الأمور ـ آلياته الدبلوماسية.



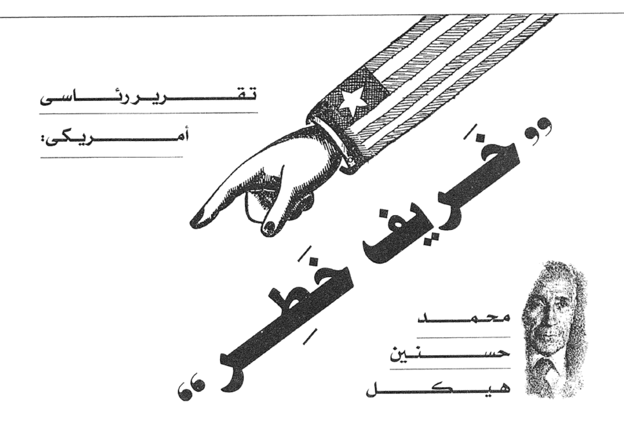
هل نحن أمام خطوة أو خطوات حقيقية على الطريق نحو عدالة «حقيقية» تتجاوز مفاهيم السيادة التقليدية وتقدم عليها حقوق الإنسان؟

أم أن «المعايير المزدوجة»، وحقيقة موازين القوى التى لا يمكن تجاهلها، ستكون كفيلة بإجهاض أحلام الجميع: الشباب الآملين فى غد مختلف، والقانونيين الطامحين إلى نقل أفكارهم حول الحق والعدل من سطور كتبهم الفخمة الأنيقة إلى ساحات غمرتها الدماء والدموع؟!

قبل نصف قرن، وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، شعر الكثيرون ـ محقين ـ بأن الحلفاء يطبقون قانوناً خاصاً لأنفسهم وقانوناً خاصاً للمهزومين. ونظرياً فإن محكمة لاهاى تحاكم مجرمى الحرب فى يوغسلافيا طبقاً للقانون الدولى، وباسم المجتمع الدولى. وليس باسم الحلفاء المنتصرين، كما كان الحال فى محاكمات «نورمبرج».

رجال القانون يصرون ـ وهم محقون ـ على أن يقولوا هذا. ولكن رجال السياسة ـ فى الأغلب ـ لا ينظرون للأمر من الزاوية نفسها.

وجهات نظر



تقرير رئاسي أمريكي:

"خريف خطر"

محمد حسنين هيكل

مقدمة

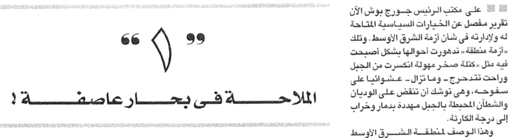
هذا الحديث ليس نتيجة جهد صحفي مقصود، وإنما هو محصلة لقاءات وحوارات جرت في إطار شخصي مع زملاء وأصدقاء أثناء زيارة للولايات المتحدة عدت منها أخيرًا. ولم يكن في نيتي أن أكتب عن هذه الزيارة شيئًا، لكنه خطر لي أثناء عبور المحيط - قرابة سبع ساعات في الطائرة - أن هذه الولايات المتحدة الأمريكية تستحق - أكثر من أي وقت مضى - نظرة على شخصيتها في محاولة لاستكشافها أو إعادة اكتشافها مرة أخرى. وبالفعل فقد حاولت إعادة النظر إلى أمريكا من جديد بعد نصف قرن على أول نظرة إليها عبر المحيط سنة ١٩٥١. وفي العدد الماضي من «وجهات نظر» عرضت بعض الملاحظات والاستنتاجات مما توصلت إليه في محاولة فهم الشخصية الأمريكية، ولم أكن أريد أن أزيد.

ثم كان أنني - وبمحض مصادفة - اطلعت على تقرير عن سياسة أمريكا في الشرق الأوسط عرفت أنه الآن - هذه الأيام - على مكتب الرئيس الأمريكي «جورج بوش» ينتظر من الرئيس أن يقرأه، وينتظر على الهوامش علامات مما يخطه هذا الرئيس الجديد لأمريكا من ملاحظات على ما يقرأ، وهو معظم الأحيان - كما سمعت - علامات استفهام أو علامات تعجب يفهمها معاونوه الأقربون، وأولهم السيدة كونداليزا رايس «مستشار شئون الأمن القومي في البيت الأبيض» وتترجمها إيضاحات أو شروحات لرئيسها - وتلميذها - (جورج بوش). تيسيرا عليه، وتهوينا للمشقة.

وكان الاطلاع على هذا التقرير المعروض الآن على الرئيس هو الذي استدعى إلى ذاكرتي تلك الأحاديث التي اعتبرتها شخصية مع زملاء وأصدقاء، على امتداد أسبوعين في أمريكا.

وفي ذلك التفاعل بين عين تقرأ وذاكرة تسترجع، راودني الظن بأن تلك المحاولة التي سبقت لاستكشاف الشخصية الأمريكية قابلة لأن تلحق بها زيادة تجرب أن تطل على القرار الأمريكي في الشرق الأوسط وتوجهاته في المرحلة القادمة. وذلك - في هذا الحديث - قصدي.

هـ.



"١"

الملاحة في بحار عاصفة!

على مكتب الرئيس جورج بوش الآن تقرير مفصل عن الخيارات السياسية المتاحة له ولإدارته في شأن أزمة الشرق الأوسط. وتلك «أزمة منطقة» تدهورت أحوالها بشكل أصبحت فيه مثل «كتلة صخر مهولة انكسرت من الجبل وراحت تتدحرج - وما تزال - عشوائيا على سفوحه، وهي توشك أن تنقض على الوديان والشطآن المحيطة بالجبل مهددة بدمار وخراب إلى درجة الكارثة.

وهذا الوصف لمنطقة الشرق الأوسط وأزمتها الحالية ليس من عندي، ولكن صاحبه هو «هنري كيسنجر» الذي لم يشارك في أعمال اللجنة الرئاسية التي وضعت التقرير، وكان يود لو انضم إليها لكن مستشاري الرئيس الأقربين اعترضوا برغم أن عددا منهم سبق لهم العمل معه (وأولهم وزير الخارجية «كولين باول» الذي كان لعدة سنوات مساعدا خاصا لكيسنجر). وكانت أسباب الاعتراض متنوعة، بينها بداية (وذلك رأي «جورج بوش» الأب) أن «هنري سوف يظل باستمرار أسيرا لتجربته السابقة في المنطقة»، وتلك تجربة مضى زمنها لأن الظروف تغيرت. ثم (وذلك رأي «ديك تشيني» نائب الرئيس) فهناك خشية «أن هنري لن يعمل من أجل توسيع خيارات الرئيس، وإنما سوف يعمل لتوسيع نفوذه الشخصي، وتلك طبيعة «هنري» لا تتغير مهما تغيرت الظروف».

ولم تعتمد اللجنة الرئاسية توصيف «هنري كيسنجر» لأحوال الشرق الأوسط الراهنة بما فيها كتلة الصخر المهولة التي تهوي على سفوح الجبل وتهدد الوديان والشطآن، وإنما اختارت اللجنة وصفا آخر عنونت به تقريرها الرئاسي، وهو عنوان لم يبتعد كثيرا عن أوصاف «هنري كيسنجر» لأحوال المنطقة، بل تابعه في استلهام تقلبات الطبيعة ومفاجآتها، فقد كان العنوان الذي اختارته مجموعة العمل الرئاسية لتقريرها هو «الملاحة في بحور مضطربة» Navigating Through Turbulence.

وهكذا، ففي حين رأى كيسنجر أن المنطقة صخرة هاوية من قمة جبل فإن المجموعة الرئاسية رأتها بحورا مضطربة تتلاطم فيها العواصف!

□

والواقع أن تقرير «المجموعة الرئاسية» بشأن الشرق الأوسط وخيارات السياسة الأمريكية وسط هذه المنطقة «المضطربة» كان واحدا من خمسة تقارير تمثل قائمة أولويات السياسة الأمريكية من منظور الإدارة الحالية. والتقارير الخمسة تعالج خيارات القرار الأمريكي في: شرقي آسيا (الصين واليابان) - أوربا (حلف الأطلنطي والسوق الأوربية) - شبه القارة الهندية (الهند وباكستان وما حولهما) - الخليج (وهو في التقرير الأمريكي مواقع إنتاج

الإدارة الأمريكية الجديدة أقلقتها الأصداء التى وصلتها من المنطقة بما فيها الترحيب بنجاح «بوش» على أساس معرفة وصداقة قديمة تربط «آل بوش» بسياسيين وساسة فى الشرق الأوسط

النفط وضمنها العراق وإيران وشمالا حتى القوقاز) - وأخيرا منطقة الشرق الأوسط (والمقصود بها أساسا هى ساحة الصراع العربى الإسرائيلى).

□

ويستحق الملاحظة أن هذه التقارير الرئاسية الخمسة - الأولويات الرئيسية للسياسة الأمريكية - لم تكن أول ما عرض على الرئيس بوش من مقترحات، وإنما كانت هناك قبل ذلك أوراق عمل أعدت على عجل فى «فترة الريبة». التى لحقت بانتخابات الرئاسة الأمريكية الأخيرة! عندما ظهرت نتائجها تتأرجح بين «جورج بوش» و«آل جور» لأيام طالت إلى شهر وزيادة.

كانت «فترة الريبة» تلك مسألة غير معتادة فى السياسة الأمريكية. فالمعتاد أن تظهر نتائج الانتخابات، ويتحدد المرشح الفائز بالرئاسة، وتكون لديه فترة انتقالية مدتها ثلاثة شهور تقريبا، يختار فيها طاقم إدارته ويعهد إليه بخطوط حملته الانتخابية حتى يحولها إلى سياسات. بحيث إنه - منذ الأسبوع الأول من شهر نوفمبر حين تجرى انتخابات الرئاسة وتعلن النتائج، وحتى الأسبوع الأخير من شهر يناير حين يؤدى الرئيس الجديد قسمه الدستورى بادئا عهده - تكون العجلة مستعدة للدوران خصوصا أن شخصية وكفاءة أى رئيس تقاس بإيقاع إدارته خلال المائة يوم الأولى من رئاسته، حتى تنتهى فترة السماح الممنوحة له فى ظرف عام، ومن ثم يبدأ الحساب عسيرا ويشتد!

لكنه فى حالة «جورج بوش» و«آل جور» وقع ما لم يكن معتادا، لأن نتيجة الانتخابات تحولت إلى جدل وصل إلى القضاء: من محكمة إدارية محلية فى ولاية فلوريدا وحتى المحكمة العليا فى واشنطن. ومع الانشغال بالمعارك القانونية والسياسية والإعلامية بين الحزبين (الجمهورى والديمقراطى) والمرشحين (بوش وجور)، بدا كل شىء مؤجلا بما فيه السياسات والخيارات والقرارات - وكذلك تشكيل طاقم الإدارة نفسه - فيما عدا قلة محددة من الأعوان الأقربين، ولم يكن فى مقدور أحد منهم أكثر من التفكير فى ترتيبات مؤقتة تسد ثغرة وتغطى فجوة ولا تزيد.

والحاصل أن المطلوب الأساسى فى هذه الفترة كان نفسيا، ومخافة أن يقع فى روع العالم - على حد تعبير تردد ساعتها - أن البيت الأبيض يوشك أن يصبح نوعا من جدران ليس وراءها سكان). وفى الحقيقة، فإن الاتجاه الذى ساد وقتها هو النزوع إلى تحركات «تشاغل» وليس خطى «شغل» حقيقى مدروس وقابل للاستمرار أكثر من أسابيع قليلة.

وكان هناك إدراك مبكر لدى مجموعة المعاونين الأقرب إلى الرئيس بوش أن العالم كله سوف يتفهم حاجة الإدارة الجديدة إلى فسحة وقت، إلا منطقة واحدة تتملكها العصبية باستمرار، وتحرج الجميع ونفسها أيضًا وهى منطقة الشرق الأوسط. والسبب عندهم - وعند غيرهم أيضًا! - أن السياسات فى هذه المنطقة معظمها سياسات شخصية، والأعصاب السياسية للأفراد عادة أكثر حساسية من الأعصاب السياسية لبلاد تدير أمورها مؤسسات وتحركها إستراتيجيات لا تتعلق بـ«مخاوف وهواجس» أمراء ورؤساء يتصرفون مثل راكب دراجة عليه أن يتحرك طول الوقت، أو يسقط على الأرض إذا كف عن الحركة!

□

وكان من نتيجة ذلك أن إدارة بوش «القادمة» بعد فترة الريبة قررت مبكرا إرسال وزير الخارجية المرشح «كولين باول» بحيث تكون أولى مهامه فى منصبه الجديد رسالة إلى أمراء ورؤساء الشرق الأوسط من ثلاثة بنود:

- لا داعى الآن للانسياق لضغوط الرأى العام العربى والتعجل بالتورط فى مطالبات برفع الحصار عن العراق.

- لا داعى للانسياق لضغوط الرأى العام العربى وتصعيد الأزمة مع إسرائيل بما يؤدى إلى «تخريب مساعى السلام».

- لا داعى للإسراع فى زيارات عربية على مستوى القمة إلى واشنطن فى الفترة المبكرة من عمل الإدارة.

وهكذا، فإن الإشارات الثلاثة التى حملها «كولين باول» إلى المنطقة كانت طلبا صريحا لفسحة وقت تعوض ما ضاع أثناء فترة الريبة قبل أن تتأكد نتائج الانتخابات. وفيما يظهر، فإن أركان الإدارة الأمريكية الجديدة أقلقتهم بعض الأصداء التى وصلتهم من المنطقة بما فيها الترحيب بنجاح «جورج بوش» على أساس معرفة وصداقة قديمة تربط «آل بوش» ورجالهم بسياسيين وساسة فى الشرق الأوسط، وبالذات من أيام حرب الخليج والتحالف الذى جرت الحرب تحت أعلامه. وكانت تلك الأصداء موضع حرج للرئيس الأمريكى الجديد وفريقه، لأن الصحافة الأمريكية أو بعض كتابها وجدوها فرصة للإشارة إلى الفوائد الشخصية الهائلة التى عادت على «آل بوش» ومساعديهم وأولهم «ديك تشينى» (وزير الدفاع فى إدارة بوش الأب - ونائب الرئيس فى إدارة بوش الابن)، وهى فوائد زادت وفاضت ودارت حولها أقاويل لا ضرورة لإعادة بعثها ونشرها الآن بعد أن كاد النسيان يطويها.

وهكذا، فإن الرسالة إلى المنطقة بطلب الانتظار كانت عاجلة لظروف طارئة ولدواع شخصية أيضا، وقد حملها وزير الخارجية بكل الرقة والكياسة المتاحة لجنرال سابق - مع أنه خدم سنين طويلة فى البيت الأبيض!

ومما يستلفت النظر أن نفس الرسالة عندما نقلت إلى السعودية وإلى بعض دول الخليج لم يكن المكلف بنقلها وزير الخارجية «كولين باول»، وإنما تركت المهمة لـ«بوش الأب» الذى شرح بنفسه فى أحاديث تليفونية متعددة وطويلة «ظروف إدارة الابن» - للأمير عبد الله ولى عهد السعودية ولاثنين أو ثلاثة غيره من أمراء الخليج، وقد تفهم الأمير عبد الله ظروف الأصدقاء وقدر حاجتهم إلى فسحة وقت.

وكان الاتصال بولى عهد السعودية وغيره من أمراء الخليج إشارة إلى «نية» و«قصد» كان مطلوبا من وقت مبكر صياغتهما كإستراتيجية وسياسة.

□

وعندما جاء وقت تحويل البرنامج الانتخابى للحزب الجمهورى، وتقديرات الرئيس المنتخب ومجموعة الرجال الأقوياء المقربين منه، انطلقت مجموعات العمل الرئاسية تسابق الوقت بتقاريرها حتى تلحق البيت الأبيض وساكنه الجديد.

وكان البيت الأبيض الجديد قد أعطى لكل مجموعات العمل الرئاسية توجيها عاما تلقاه الجميع، لكنه أعطى للمجموعة المختصة بكل أولوية مزيدا من التفاصيل عن رؤية الرئيس وإدارته لمجال عملها فى كل منطقة.

....

....

وكانت الخطوط الرئيسية فى التوجيه العام الذى تلقته مجموعات العمل الرئاسية تعطى للجميع تصورا متكاملا. وكان الرجل الذى قام بالمهمة والإيضاح هو نائب الرئيس «ديك تشينى». وكان مؤدى التوجيه العام للجميع:

(١) إن الولايات المتحدة تجد نفسها الآن فى وضع فريد لم يتح لأى قوة غالبة فى التاريخ. فقد تمكنت من النصر فى الحرب الباردة وانهار الاتحاد السوفيتى أمامها. كما أن الإمبراطورية السوفيتية تناثرت أجزاء وأشلاء متفرقة وأحيانا متخاصمة. وفى الوقت الحالى فإنه لم يعد هناك تحد للقوة الأمريكية، كما أن كل التحديات المحتملة مؤجلة الآن إلى سنين وحقب (الصين تحد محتمل لكن أمامه وقتاً طويلاً - واليابان تحد محتمل لكن الفرصة أفلتت منه، وسوف تظل فالتة إلا إذا استطاعت اليابان فى المستقبل إنشاء علاقة خاصة من نوع يصعب التنبؤ به الآن مع الصين - كما أن أوربا الغربية تحد محتمل شريطة أن تتمكن من تحقيق وحدتها كاملة، وذلك الآن فى مجال الأحلام).

يترتب عليه أن الولايات المتحدة الآن «متفوقة بمراحل»، وهذا التفوق مضمون فى المستقبل المرئى، ومسئوليتها الحقيقية أن تعمل بكل الوسائل على الاحتفاظ به وتدعيمه، وتلك هى المهمة الأولى للسياسة الأمريكية وللقدرة الأمريكية فى كل مجال.

والرأى السائد فى الإدارة الجديدة أن الولايات المتحدة حققت «قيادتها المطلقة» للعالم فى عهد «ريجان» و«بوش» لأنها استطاعت أن تمسك باللحظة التاريخية وتستعمل إمكاناتها المادية والمعنوية للحفاظ على مكاسبها وهو ما ينبغى للإدارة الجديدة أن تعود إليه وتحافظ عليه.

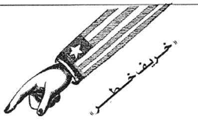
ويستعيد التوجيه إلى ذاكرة سامعيه أن الإمبراطورية البريطانية احتفظت بسيادتها على البحر الأبيض - وهو مركز الثقل فى الإستراتيجية العالمية طوال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين - بمجرد «تعويد» الآخرين على فكرة سيطرتها على البحار، فى حين أنه على ساحة الواقع لم يكن لديها فى البحر الأبيض طول هذه «القرون» غير تواجد عسكرى محدود فى إمكانياته عند مداخل البحر الأبيض ومخارجه فى السويس وجبل طارق. ثم أسطول فوق مياه البحر يتكون من بارجة واحدة وست مدمرات فردت أعلامها ترفرف على الموج ما بين قبرص ومالطة. والولايات المتحدة فى وضع أقوى عشرات المرات مما كانت عليه الإمبراطورية البريطانية، وكل ما يلزمها هو ترسيخ «عادة» الإقرار بوجودها فى «كل مكان»، وتأكيد هذا الوجود بحيث يصبح عنصرا مؤثرا على القرار فى «أى مكان».

....

....

(٢) إن الاقتصاد الأمريكى ما زال الأكثر حيوية والأقدر على التجدد، وتلك حقيقة تعكسها سيادة الدولار على غيره من العملات فى أسواق العالم، ولا ينبغى أن يؤخذ ما حدث فى أسواق المال - خصوصا لشركات «التكنولوجيا الجديدة» التى انهارت قيمة أسهمها - دليلا على

حققت الولايات المتحدة «قيادتها المطلقة» للعالم فى عهد «ريجان» و«بوش» لأنها استطاعت أن تمسك باللحظة التاريخية وتستعمل إمكاناتها المادية والمعنوية للحفاظ على مكاسبها وهو ما ينبغى للإدارة الجديدة أن تعود إليه وتحافظ عليه



«هشاشة» فى القوة الاقتصادية الأمريكية. ذلك أن الطفرة التى حملت أسهم شركات التكنولوجيا الجديدة إلى ذروة السوق هى نوع من «الصرعات» التى تحدث من جراء التوقعات المبالغ فيها فى مراحل التحول البارزة فى قوى الإنتاج. والحقيقة أن هذه الطفرة من توابع اختراقات فى تكنولوجيا المعلومات جعلت كثيرين يتصورون أن مجرد «وجود فكرة» جاهزة لقبول المخاطرة يخلق حالة يستطيع فيها الاستثمار أن يستغنى عن «رأس المال» وقد ثبت أن ذلك وهم مستحيل. والنتيجة أن «الطفرة» فرقعت مثل فقاعات الصابون وكانت عملية تصحيح لأوضاع السوق ضرورية وواجبة!

وفى حقيقة الأمر، فإن ما أخذته عملية «تصحيح الوهم» فى الأسواق كان هو بالضبط ما جاء به «الاستسلام للوهم» من زيادات فى حجم «التعاملات» خلقت إحساسا زائفا بالرخاء عندما تضخمت - وخلقت إحساسا مبالغا فيه بأزمة «الرأسمالية» عندما فرقعت. بينما الأكيد أن الرأسمالية الأمريكية هى « الآن فى أقصى درجات قوتها وكل ما يلزمها هو : ترك الأسواق مفتوحة ومنع أى طرف من التدخل فى حركتها».

والإدارة الديمقراطية السابقة (إدارة كلينتون) مسئولة إلى حد كبير عن «تشجيع الأوهام»، وهى لم تفعل ذلك فى مجالات «المال» وحدها وإنما فعلته فى مجالات كثيرة، وأهمها مجال «الأمن».

وفى حين أن إدارة جمهورية (ريجان وبوش الأب) هى التى أدارت بنجاح معركة سقوط الشيوعية والاتحاد السوفيتى، فإن إدارة ديمقراطية «كلينتون» عجزت عن استغلال فرصة هذا السقوط وتهاونت فى ضرورات التفوق الأمريكى.

....

....

(٣) إن الإدارة الجمهورية العائدة إلى موقع القرار عليها أن تستأنف خطط الدفاع الإستراتيجى كما تصورتها إدارات «ريجان» و«بوش» (الأب)، وأولها مواصلة برنامج حرب النجوم، والخطوة التالية فيها إنجاز شبكة الصواريخ المضادة للصواريخ لأن هذه الشبكة هى التى تعطى الولايات المتحدة درعا واقية ضد المخاطر مهما كان مصدرها.

وإذا كان هناك من يتصور أن إستراتيجية الردع المتبادل القائمة على توازن فى القوة النووية بين الدول التى تملك إمكاناتها ماتزال كافية فهؤلاء على خطأ كبير. لأن الردع النووى المتبادل كان إستراتيجية صالحة لمرحلة الحرب الباردة بين قوتين تملك كل منهما إمكانية تدمير القوة الأخرى سواء بضربة أولى من منصات إطلاق ثابتة (على البر) أو بضربة ثانية من منصات إطلاق متحركة (فى الغواصات)، لكن الظروف الآن مختلفة. ومرجع الاختلاف أن القوى النووية فى العالم تعددت بدخول الصين والهند وباكستان وكوريا الشمالية بترسانات نووية مؤثرة، وذلك يفرض على الولايات المتحدة إستراتيجية جديدة لا تردع طرفا واحدا أو طرفين وإنما تواجه كل الأطراف (بما فيها أطراف هى اليوم صديقة). والسبيل إلى ذلك درع منيعة حول الولايات المتحدة (ثعبان يمنع ويبلع كل ثعابين الخصوم قبل الوصول إلى الشواطئ والمدن ومواقع القوة الأمريكية) وبعدها يصبح الآخرون تماما تحت رحمتها تتصرف إزاءهم كما تشاء. وذلك مهما كانت تكاليفه أرخص من أى سباق نووى يعتمد على الردع، خصوصًا وقد اتسع طابور الداخلين إلى مجال القوة النووية وهو طابور طويل يضم دولاً صغيرة و«مارقة» يرضيها أن تعتبر نفسها ندا للولايات المتحدة فى إستراتيجية ردع متبادل!

....

....

(٤) إن الإدارة الجمهورية الجديدة عليها أن تمارس دورها فى الدفاع والتمكين للمصالح الأمريكية «بغير قيود» لا تستوجبها «الضرورات». و« الإدارة الأمريكية» وحدها هى الطرف الوحيد الذى يحق له توصيف المصالح الأمريكية دون اعتبار لأى ضغوط. وفى مجال العمل السياسى، فإن الإدارة تستطيع أن تمارس «دورها» داخل الأمم المتحدة وفى الوقت نفسه تستطيع ممارسة «مسئوليتها» خارج الأمم المتحدة (بالذات فى مناطق حساسة بالنسبة للمصالح الأمريكية ومنها منطقة الشرق الأوسط).

وما حدث هو أن إدارة كلينتون سبق لها أن ورطت الولايات المتحدة فى تعهدات بدعوى المحافظة على البيئة (بروتوكول كيوتو)، أو بدعوى حرية المنافسة التجارية (اتفاقيات منظمة التجارة العالمية)، وتلك كلها وغيرها تنازلات أعطت العالم إشارات خاطئة مفادها أن الولايات المتحدة يمكن تطويعها أو يمكن ابتزازها. وقد سمحت إدارة كلينتون بذلك لأنها وضعت نفسها موضع الدفاع عندما فقدت «رئاستها» ذلك الأساس الضرورى للمشروعية الأخلاقية نتيجة لفضائح كلينتون الجنسية وأشهرها فضيحة (مونيكا لوينسكى). لكن الإدارة الجمهورية الجديدة ليست مكشوفة بحالة «عرى أخلاقى» من هذا النوع.

وهنا دخل على التوصية تحذير يطلب من الكل أن ينتبهوا إلى احتمال أن يتصور بعض الأطراف أن فى مقدورهم ممارسة نوع من التطويع والابتزاز بظن أن الإدارة الجديدة وصلت إلى البيت الأبيض بأقل فارق فى أصوات الناخبين فى أى انتخابات سابقة (٣٠٠ صوت)، ووسط ضجة شديدة عن سلامة عملية الفرز (أعيدت عشرات المرات يدويا وآليا). وكذلك يمكن أن يحل التطويع والابتزاز السياسى محل التطويع والابتزاز الأخلاقى . وهنا فإن ضرورات القوة تفرض على الإدارة الجديدة أن تأخذ المبادرة فى يدها، وأن تأخذها بشدة وبحزم لا يدع لأحد مجالا للشك فى أن القرارات الأمريكية تصدر عن شرعية مجروحة أو يمكن تجريحها!

....

....

(٥) إن الإدارة الجديدة يتعين عليها أن تمارس سياساتها فى العالم فى إطار مناطق متصلة، وليس فى إطار دول محددة. والحاصل أن أوضاع العالم كما برزت بعد الحرب العالمية الثانية وأثناء الحرب الباردة تكشف أن القضايا المطروحة على الساحة الدولية تكشف عن «آفاق» وليس عن «حدود»، حتى وإن كانت الحدود شاسعة (شبه قارات).

وهنا، فإن الصين هى منطقة شرقى آسيا وليست بلدا واحدًا عاصمته «بكين» - والهند هى شبه القارة الهندية وليست «دلهى» - ومنطقة البحيرات هى وسط أفريقيا وليست «كينشاسا».

وحتى فى حساب الأزمات المحلية فإن أزمة «كوسوفو» مثلا هى أزمة منطقة «البلقان» كلها، وليست أزمة إقليم من بقايا يوجوسلافيا القديمة. ومشكلة العراق هى مستقبل منطقة الخليج العربى كله، وقضية الصراع العربى الإسرائيلى هى أمن شرق البحر الأبيض المتوسط، وليس السلطة الوطنية الضعيفة فى غزة أو إسرائيل المستقوية فى تل أبيب!

....

....

خمـــس أولويـــات للســـياســة الأمريكيـــة: الصـــين - حـــلف الأطلنـــطى والســـوق - شبه القـارة الهنـــدية - الخليـــج - الشـــرق الأوســـط

وهكذا، فإن السياسة الأمريكية عليها أن تتعامل مع «مناطق » وليس مع «مواقع»، لأن ذلك هو مدلول الخريطة السياسية ومقتضاها. وفى نفس الوقت، فإن التعامل مع مناطق يمكّن السياسة الأمريكية من استيعاب وتفريغ ادعاءات «قوى محلية» تتصور نفسها قائمة على «أدوار إقليمية» فى المناطق التى توجد فيها ومن ثم ترتب لنفسها امتيازات تطالب بها.

(٦) إن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تدعى لنفسها «رئاسة العالم» وإلا جلبت لنفسها مشكلات تستثير الحساسية أو تستدعى المنافسة أو تستفز الآخرين بغير لزوم لكن عليها فى نفس الوقت أن تحتفظ لنفسها بالكلمة الأخيرة فى أى موضوع.

وذلك يعنى :

- أن الولايات المتحدة لا تقبل قسمة أو توزيعا فى مسئولية القرار العالمى.
- ولا تقبل قيادة جماعية أو نوعا من مجلس الإدارة مسئولا بالتضامن حتى ولو كان لرئيسه صوتان أو حتى ثلاثة !
- ولحل هذه الإشكالية فإن المدخل إلى ما تريده واشنطن يكون التشاور مع الأطراف الدولية الكبيرة، كل على حدة، ومع كل طرف داخل المنطقة التى تتصل بأمنه المباشر أو مصالحه، دون ضرورة لإشراك كل الأطراف فى كل المسائل، مع ملاحظة أن الوصول إلى توافق عام زيادة لا حاجة إليها وأفضل منها أن تحجز الولايات المتحدة لنفسها حق رؤية الأفق كاملا وسلطة الحركة عليه بمفردها.

واتساقا مع فكرة التشاور، تلاقى «بوش» مع «بوتين» وقرر «أنه نظر فى عينه واكتشف أنه يستطيع الثقة به». وحتى بعد أن تكررت اللقاءات بين الرجلين فى أكثر من مؤتمر (بينها مجموعة الثمانية فى جنوا) كانت مستشارة الأمن للرئيس «بوش» وهى السيدة «كونداليزا رايس» فى زيارة للكرملين قابلت فيها «بوتين» بعد عشرة أيام من اجتماعات جنوا وقالت «كونداليزا رايس» وهى على باب الكرملين : «إن الاتحاد السوفيتى (السابق) كان يمثل تهديدا للولايات المتحدة وأما روسيا فهى الآن صديق» !

وكانت تلك هى الخطوط العامة للتوجيهات التى أعطيت للمجموعات الرئاسية فى كل المناطق - بما فيها المجموعة الرئاسية للشرق الأوسط!

□

وفيما يتعلق بالشرق الأوسط تدخلت السيدة «كونداليزا رايس» فطرحت نيابة عن رئيسها ثلاث ملاحظات:

- الأولى أن أزمة الشرق الأوسط تحتاج فيما ثبت بالتجربة إلى «معجزة».
- والثانية أن رؤساء أمريكيين سابقين اقتربوا من الأزمة ولم يأخذوا منها إلا «حرق أصابعهم».
- والثالثة أن «چورج دبليو» - رئيس لا يعتبر نفسه صانع معجزات «تحول قطعة الحجر إلى رغيف خبز»، كذلك فهو لا يريد أن يحرق أصابعه !!

فصل شئون البترول
عن تفاعلات الصراع العربى الإسرائيلى
مطلب رئيسى لسياسة بوش!

"٢"

من «كلينتون» إلى «بوش»

■■ لم يخرج تقرير اللجنة الرئاسية عن الخيارات السياسية المتاحة للرئيس بوش فى الشرق الأوسط فجأة إلى النور، ولم يطبخ هذا التقرير على عجل ليقدم للإدارة الجديدة على صينية أو على طبق فور طلبه.

وإنما كان للتقرير الرئاسى أساس أبعد من ذلك وأعمق، لأن قسما كبيرا من أفراد المجموعة التى عكفت على إعداده كان لها سابق اهتمام بالمنطقة، ولذلك فإن معظم الجهد كان عملية تنسيق وتنظيم ومضاهاة وصقل. وفى الواقع، فإن الصورة النهائية للتقرير لم تكتمل إلا فى شهر يونية الأخير (٢٠٠١) عندما قام اثنان من المشاركين فى إعداده بزيارة «اللحظة الأخيرة» للمنطقة حتى يجرى تقديم التقرير وعليه «اللمسة الأخيرة».

كانت مجموعة العمل الأصلية تضم قرابة أربعين وزيرا وسفيرا وخبيرا سبقت لهم الخدمة فى إدارات جمهورية من قبل. وكانت للمجموعة الكبيرة لجنة إدارة ضيقة ضمت وزراء خارجية (بينهم «الكسندر هيج» من إدارة ريجان الأولى مثلا)، ومستشارى أمن قومى (منهم «انتونى ليك» من إدارة ريجان الأولى أيضًا)، وسفراء عملوا فى المنطقة (مثل «صمويل لويس» الذى خدم ثمانى سنوات سفيرا فى إسرائيل).

وقد تولت اللجنة ترتيب وتنسيق زيارات ولقاءات لأعضائها على اتساع عواصم الشرق الأوسط وذلك لاجراء حوارات «إستراتيجية معمقة» وهنا، فإن أحد عشر عضوا من أفراد مجموعة العمل قاموا بزيارة للمملكة العربية السعودية وللأردن ولإسرائيل وللضفة الغربية، وقابلوا مجتمعين أو فرادى كل من ظنوا أن لديه شيئا مهما يسمعونه منه.

وعندما فرغت المجموعة من إعداد تقريرها وقد ركزت عليه طوال شهور الربيع - قررت إرسال اثنين من أعضائها هما «دافيد بروك» و«روبرت ساتلوف» فى أوائل الصيف (يونية) إلى المنطقة لمهمة «النظرة الأخيرة» وإضافة «اللمسة الأخيرة»!

وأخيرا أكملت اللجنة تقريرها فى ثمانين صفحة، ثم إنها وضعت فوقه تلخيصا لمجمل ما فيه فى حالة ما إذا لم يجد الرئيس وقتا كافيًا لقراءة ثمانين صفحة!

□

المدخل العام للتقرير يبدأ بعرض واسع يطرح على الرئيس بوش وكبار معاونيه صورة ما تغير فى الأفق الإستراتيجى للمنطقة منذ ترك الجمهوريون رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية عند سقوط «بوش» (الأب) أمام كلينتون فى انتخابات سنة ١٩٩٢.

ويحدد التقرير «أن آخر إدارة جمهورية - وهى إدارة «بوش» الأب - تركت منطقة الشرق الأوسط وقد تحققت فيها ثلاثة إنجازات كبيرة يمكن البناء فوقها:

■ الإنجاز الأول: هو فتح الطريق أمام سلام شامل فى المنطقة، وذلك بمؤتمر مدريد سنة ١٩٩١ الذى قصدت إليه كل الدول العربية «راغبة وقادرة ومستعدة» لصنع السلام مع إسرائيل من خلال مفاوضات سياسية لها مساراتها المختلفة ومن خلال مؤتمرات للتعاون الإقليمى متنوعة فى موضوعاتها لكن هدفها واحد - ! - وهو أن توفر للكل نصيبا فى «جوائز السلام»! وتشرك دول المنطقة دون تمييز فى أجواء من التعاون تساهم فيه «تركيا» بالتحديد وبالاسم لأن «ذلك يحقق توازنا فى القوى محكما وفاعلا».

وقد لحقت بمدريد اتفاقيات سلام بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وبين إسرائيل والمملكة الأردنية، وتلى ذلك أن «نصف دستة» من الدول الأعضاء فى جامعة الدول العربية أقامت علاقات مع إسرائيل شملت السياسة والاقتصاد ومجالات أخرى فى التعاون المشترك فيها الأمن وتبادل معلومات المخابرات!».

....

....

[لم يذكر التقرير أن التعاون فى مجال تبادل معلومات المخابرات وصل إلى حد أن «الموساد» قدمت لبعض الدول العربية صور برقيات شفرية ملتقطة من شبكات دول عربية أخرى.. وقدمت لها أيضًا تسجيلات لمحادثات تليفونية جرت بين مسئولين عرب وفيها ما يهم مسئولين عربا آخرين تحرص عليهم إسرائيل - أكثر من ذلك فإن إسرائيل قدمت لإحدى الدول العربية محضرًا لوقائع لقاء سرى جرى بين وزير الدفاع فى دولة عربية ثانية ومدير المخابرات فى دولة عربية ثالثة!].

....

....

■ الإنجاز الثانى: أن مطلبا إستراتيجيا شديد الأهمية تحقق بالكامل فى الوقت الذى ترك فيه بوش الأب مكانه (بعد انتخابات الرئاسة ١٩٩٢) وذلك المطلب هو ضمان «أمن الخليج» ومورارده البترولية الحيوية على نحو نموذجى حلم به كل رئيس أمريكى وعجز عن بلوغه - لكن «حرب الخليج الثانية» مكّنت منه.

كان المطلب النموذجى لتحقيق أمن الخليج هو إجراء فصل كامل بين الداخل والساحل فى العالم العربى، أى عزل «الخليج العربى» عن «الشام» (وفيه سوريا وفلسطين)، وكذلك عن مصر. وذلك يعنى أن «شئون» البترول تنفصل عن «قضايا» الصراع العربى الإسرائيلى (بما يعنى عمليا فك الارتباط بين دول مجلس التعاون الخليجى وبين بقية العالم العربى من دول جامعة الدول العربية).

وكان المطلوب بالدرجة الأولى من أطراف التحالف الذى خاض حرب الخليج إخراج العراق من الكويت، لكن ذلك الهدف استعمل مقدمة لها ما وراءها.

● أوله أنه بهذا التحالف أصبح بعض العرب شركاء إستراتيجيين لإسرائيل حتى وإن لم يقصدوا، وكانت تلك الشراكة هى ما أقنع إسرائيل بالامتناع عن الرد على صواريخ عراقية طالت بعض مدنها (خلال ليالى القتال من منتصف يناير إلى أواخر فبراير ١٩٩١).

● وثانيه هو تحصين أمن الخليج بصورة حاسمة، والتأكد من فصل «شئون البترول» عن «قضايا الصراع العربى الإسرائيلى» عندما تم نزول القوات الأمريكية وتمركزها فى كل دول مجلس التعاون الخليجى دون أى اعتراض.

● وثالثه وهو الأهم أن الرأى العام العربى «تعود» على وجود القوات الأمريكية على مياه الخليج وشطآنه وقواعده، ولم يعد فى ذلك «بالعادة» ما يزعج أو يثير!

■ والإنجاز الثالث هو ما بدا من أن العالم العربى يقبل عموما بأهم ظواهر «العولمة»، فقد أصبحت صيحة اقتصاد السوق هى اللازمة المسموعة فى كل محفل عربى، ومعها جرت «إعادة هيكلة اقتصادية ومالية» قامت بها معظم الحكومات العربية أو اتجهت إليها، كما انفتحت شهية المستهلكين العرب لأنواع من السلع الاستهلاكية الغربية طلبتها ودفعت ثمنها مقبلة عليها وسعيدة بها، وتم ذلك دون مقاومة تذكر.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الفضاء العربى وقع فيه كسر قبضة أى دولة عربية تتصور أنها تستطيع السيطرة أو التوجيه داخل بلد واحد. أو التأثير فيما هو أوسع. والسبب أن «الفضائيات العربية» الناطقة باللغة العربية فتحت الأجواء العربية لكل ريح من أى اتجاه.

....

....

[لم يتطرق التقرير الرئاسى إلى أكثر من ذلك فى ذكر دور الفضائيات العربية فى حساب القرار الأمريكى، لكنى ناقشت وجهات نظر مختلفة عن هذا الدور أثناء زيارة أخيرة لأمريكا - وبينه:

● أن الفضائيات العربية أنهت قدرة أى حدث يقع فى العالم العربى - مهما كانت درجة خطورته - على تعبئة رأى عام متماسك وقوى لأن هذه الفضائيات حولت الوعى العربى إلى ثقوب يتسرب منها بالليل ما يجئ به النهار.

● وأن هذه الفضائيات سببت حالة استغناء بمشاهدة الصور عن المشاركة بالفكر أو الفعل، والنتيجة أن «العربى» مدعو كل ليلة لكى يتفرج على «مسلسلات الأحوال العربية»، وعليه أن يجلس أمام الشاشة لأنه لا يستطيع القفز داخلها للمشاركة فى هذه الأحوال.

● وأن هذه الفضائيات ربطت المشاهد العربى إلى حكايات الماضى فانشغل بها لأنها وافقت نزعة الموروث الشعبى عنده إلى القصص والحكايا.

● وأن هذه الفضائيات بتضارب القصص والحكايا استباحت بالأهواء ما وافق غرض كل قاص وحاك حتى فقد الرأى العام العربى على اختلاف توجهاته احترامه لأى مرجعية تلهم، وأهم من ذلك تصوره لأى رؤية مستقبلية تجمع!

وفى المحصلة النهائية، فإن هذا المناخ الذى اختلط فيه كل شيء بكل شيء هيأ فرصة سانحة ولعلها مثالية لعملية هدر عقلى ونفسى تغرق الإرادة العربية دائخة فى دواماتها!

وذلك كان مطلبا عزيزا لقوى دولية عديدة وقد نالته أخيرا سواء بذكائها أو بغفلة غيرها!]

....

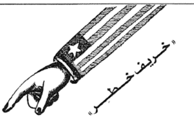
....

والمدهش أن التقرير بعد ذلك يلاحظ أنه «مع أن الاقتصاديات العربية على وجه العموم فشلت فى الإفادة من الجانب الإيجابى للعولمة، لأنها عجزت عن زيادة نصيبها فى التجارة العالمية - بل إن بعضها فقد شيئا مما كان لديه - فإن رياح العولمة أشاعت فى المنطقة جوا من المرونة (أو من الرخاوة) مفتوحا للتأثير. وقد امتد بعض التأثير إلى مجالات الحريات الديمقراطية وحقوق الإنسان، لكن الحكومات العربية مع اختلاف «أشكالها وألوانها» استجمعت ما لديها من سلطة لتقاوم التيارات على هذه الجهة وتصدها!».

وكان ذلك هو المدخل العام لتقرير المجموعة الرئاسية الذى قرأه أو يقرؤه أو يوشك أن يقرأه الرئيس بوش الآن، أو على الأقل يطلع على ملخصه أو يسمع شرحا له تقوم به «الأستاذة» كوندوليزا رايس مستشاره للأمن القومى.

□

وينتقل التقرير من هذه الإنجازات التى تحققت أيام آخر إدارة جمهورية (بوش الأب) وهى كبيرة بأى معيار، إلى ما حدث تحت إدارة كلينتون التى تهاونت وتراخت فإذا هو الانحراف والانحدار على منعطفات خطرة، تهوى إلى



البحور المضطربة. والتقرير يعد أربعة منعطفات حدث فيها الانحراف والسقوط:

«١ - إن مسيرة السلام تعطلت أمام عراقيل واجهتها، أهمها ذلك الانفجار الشعبى الفلسطينى الذى وقع فى سبتمبر سنة ٢٠٠٠ ووصل إلى درجة من العنف المتبادل بين الفلسطينيين والإسرائيليين تحول إلى نوع من حرب العصابات. وأدى ذلك إلى ضياع «فكرة المفاوضات» و«منطق الحل الوسط»، وكانت تلك الفكرة وهذا المنطق «دعامتين رئيسيتين» فى عملية بناء شرق أوسط جديد!».

«٢ - ترتب على ذلك أن موجة من المشاعر المعادية لأمريكا اجتاحت العالم العربى ومازالت أمواجها الداكنة بالكراهية تتدفق فى عواصمه حتى تلك العواصم التى تعتبر الأقرب من السياسة الأمريكية مثل القاهرة والرياض ومسقط.

وكان أن «السلام الأمريكى Paxa Americana» الذى طلع على المنطقة وشاع الظن بأنه تمكن من تثبيت قواعده - راح يتعرض لضغوط من الرأى العام العربى حتى أن نظما صديقة للولايات المتحدة اضطرت أن تحتفظ لنفسها «بمسافة أمان» تحميها من المشاعر المعادية لأمريكا حتى لا تصل إليها تأثيراتها فى مواضع قاتلة!

ومثلا، فقد اضطر وزير الخارجية المصرى - فى ذلك الوقت - إلى كيل المديح لحزب الله، كما أن وزير الدفاع السعودى هدد بفرض عقوبات على الشركات الأمريكية، ثم إن رئيس وزراء الأردن قاد وفدا موسعا إلى بغداد فى محاولة لإظهار التمرد على الرغبات الأمريكية.

ومع أن الولايات المتحدة تعودت مؤخرا أن تعطى لبعض أصدقائها فى الشرق الأوسط «رخص سماح» إذا هاجموا سياستها خطابيا لإرضاء جماهيرهم - فإن هذه الازدواجية لها آثارها الخطرة، وأولها أن يتحول «التظاهر» بالعداء لأمريكا بكثرة تكراره إلى سياسة ولو باللاوعى. وثانيها أن «الشارع العربى» قد يستعيد قدرته فى الضغط على الحكومات المعتدلة مما يعرض هذه الحكومات لمخاطر حقيقية.»

«٣ - ولقد كان أخطر المنعطفات التى تعثرت عندها «المسيرة» - أيام «كلينتون» - أن تحالف حرب الخليج أخذ يترنح، وأظهر الأعراض أن شعورا عاما ساد فى العالم العربى مؤداه أن شعب العراق دفع ثمنا «لا يمكن قبوله أو الاستمرار فى قبوله»، وبالتالى فإن تحالف حرب الخليج فقد الهدف المشترك الذى قام عليه فى البداية. ثم إن السياسة الأمريكية حاولت أن تواصل التصرف تحت غطاء تفويضه حتى تتمكن من «احتواء النظام فى العراق وتطويقه وإسقاطه».

وفى اللحظة الحالية فإنه يتبدى أن الولايات المتحدة فى محاولتها لتحقيق مطلبها فى العراق لم تعد تجد نصيرا لها إلا داخل حدود الكويت، وهذا وضع بالغ الخطورة خصوصا إذا ترافقت معه - بسبب تدهور الأوضاع وتزايد العداء لأمريكا - عودة إلى نوع من الاتصال بين «شئون البترول» وقضايا الصراع العربى الإسرائيلى.»

«٤ - وفى تداعيات ذلك وغيره تسللت عائدة إلى المنطقة قوى كان الواضح - فى أواخر عهد الإدارة الجمهورية السابقة (بوش الأب) - أنها خرجت من المنطقة إلى غير رجعة.

● وأولى هذه القوى هى روسيا، وخطر عودتها إلى دور فاعل فى الشرق الأوسط ظاهر على ناحيتين:

- من ناحية: فهى قادمة مع توريد أسلحة محظورة لبعض بلدان المنطقة التى يزداد فيها العداء للولايات المتحدة وبينها إيران والعراق وسوريا.

- وعلى الناحية الثانية: فإن روسيا تعرقل فرض نظام جديد للعقوبات على العراق يحل محل نظام سبق لأن النظام الجديد أذكى وهو قادر على إنقاذ الشعب العراقى وتصفية نظام الحكم فى بغداد.

والمناخ السائد فى المنطقة يعزز عودة روسيا ويمكنها من تسويق حججها من ناحية توريد السلاح وناحية عرقلة العقوبات.»

«فمن ناحية توريد السلاح تدعى روسيا بأن لها علاقات وصداقات تقليدية فى المنطقة لعب فيها السلاح دورا كبيرا، مع إن واقع الأمر يقول إن الولايات المتحدة الأمريكية هى أكبر مورد سلاح فى المنطقة ونصيبها فى تجارته مقارنا بنصيب روسيا تسعة إلى واحد، مع العلم بأن الذين يشترون السلاح من أمريكا يدفعون مقدما ونقدا وأما الذين يشترونه من روسيا فدفعهم مؤجل وهو بالتقسيط المريح!

وفيما يتعلق بالعقوبات الجديدة فإن روسيا قادرة على القول بأن النظام المقترح ليس ذكيا، لأنه لا الحكم الحالى فى العراق ولا أى حكم غيره يحتمل أن تجىء به الظروف إلى ذلك البلد - يستطيع قبول الفكرة الرئيسية فى هذا النظام وهى تقوم على نزع وجود الدولة أصلا عن العراق لأن نظام العقوبات الذكية يبدأ من قرار يؤكد وضع كل عائدات العراق من النفط رهن تصرف الأمم المتحدة، هى تبيع وهى تحصل وهى تخصص وهى تعطى لمن تشاء بما فى ذلك أى نصيب تخصصه للعراق: شعبه أو حكومته!

● «وراء روسيا عادت الصين، بل هى الآن فى موقف أقوى لأنها على علاقة تقليدية مع العالم العربى وعلى علاقة مستجدة - تتسع - مع إسرائيل، وهذا يعطى للصين مصداقية القيام بدور لاعب مهم فى الشرق الأوسط يساعدها عليه أنها واحدة من الدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن.

لكن الجزء الخطر فى نشاط الصين فى المنطقة هو تلك العلاقات النامية والمتمددة دون صخب بين الصين وإيران.»

● «والقادم الثالث على طريق العودة، بعد روسيا والصين، هو أوربا، ومع أن أوربا حليف طبيعى للولايات المتحدة إلا أن أوربا فى جزء من طموحها ومصالحها منافس للولايات المتحدة على موارد المنطقة وعلى أسواقها. فإذا أضيف إلى ذلك أن بعض الدول الأوربية وبالذات فرنسا لها مشروعات مستقلة ولها أغراض خاصة بها، فإن عودة أوربا على هذا النحو إلى المنطقة هى فى هذه الظروف - تفتح ثغرات يمكن للبعض استغلالها لتوسيع دائرة المناورة والحركة بما يساعد القوى المعادية للسياسة الأمريكية.»

□

ويصل التقرير إلى نقطة حساسة حين يشير إلى أن الإدارة الديمقراطية السابقة أساءت التقدير، وأساءت التصرف بالأسلوب الذى اتبعه «الرئيس كلينتون» شخصيا حين تصور لنفسه مقدرة التصدى لأزمة الشرق الأوسط وساعده على هذا التصور أنه كان يبحث لنفسه عن مجال يعوض فيه بنجاح غير مسبوق فضيحة هى الأخرى غير مسبوقة..

والحقيقة - كما يرى التقرير - أن «بيل كلينتون» رأى الصعوبات والعقبات ومهاوى الهلاك التى وصلت إليها أحوال المنطقة. لكن «كلينتون» وقع فى خطأ عمره عندما ظن أنه يستطيع تقليد رئيس ديمقراطى سبقه - «جيمى كارتر» (١٩٧٧) - بممارسة دبلوماسية شخصية على نحو ما قام به «كارتر» (مع «أنور السادات» و«مناحم بيجين») فى كامب ديفيد (سنة ١٩٧٨). وهنا يشير التقرير أن كلينتون نسى عدة فوارق كبيرة تتعلق بالحقائق وبالظروف وبالناس. بمعنى أن «جيمى كارتر» - فى تجربته - مارس الدبلوماسية الشخصية بين أهم دولتين فى المنطقة: أكبر دولة عربية تاريخيا وهى مصر، وأقوى دولة عسكريا فى اللحظة الحالية وهى إسرائيل. وكذلك فإن «كارتر» مارس دبلوماسيته مع رجلين كلاهما وراءه سند من نوع ما. «فانور السادات» وراءه «أمل سلام» يعقبه رخاء للشعب المصرى - و«مناحم بيجين» وراءه «أمل أمن» يترتب عليه تحقيق شرعية قانونية لدولة إسرائيل. وترافق ذلك مع ظاهرة أن الدبلوماسية الشخصية كانت بدعة مثيرة جديدة وبراقة فى تلك الأيام قبل ربع قرن. أما الآن فإن الصورة مختلفة - وأسوأ من ذلك أن كل المقولات التى بنى الأطراف عليها مقولاتهم تمت تجربتها. لأن السلام الذى طلبه «أنور السادات» لم يتحقق - والأمن الذى طلبه «مناحم بيجين» لايزال معلقا فى الهواء.

لكن «بيل كلينتون» - على أيامه - لم يدرس «الأحوال» ومتغيراتها بالعمق الكافى، وهكذا فإنه وهو رئيس الولايات المتحدة - وجد نفسه يتفاوض مع رؤساء مليشيات ومسئولين أمنيين فى المخابرات والشرطة. وبالتالى فإنه على طريق طويل من «كامب دافيد» إلى «واى ريفر» إلى «شرم الشيخ» قام بعملية «بهدلة مهينة» لنفسه ولمنصبه ولبلاده ضيعت هيبة أكبر بلد فى التاريخ وفى الدنيا، ومع ذلك لم يتوصل إلى نتيجة لأن «مجرد تورطه مع نوعية الناس» الذين «تفاوض» معهم، «ومجرد تنازله إلى التفاصيل التى رضى بالبحث فيها» - حوّل رئيس الولايات المتحدة فى النهاية إلى رهينة يتحكم فى نجاحها أو فشلها رجال قادمون من الظلام وعائدون إليه، وكلهم ممن لم يكن يجوز من الأصل أن يلقاهم رئيس الولايات المتحدة مهما كانت الظروف.

وللتذكرة فقد استعاد كاتبو التقرير أن الولايات المتحدة كانت تجرى اتصالاتها مع منظمة التحرير الفلسطينية أيام كانت منفية فى تونس وذلك بواسطة سكرتير ثان فى سفارتها هناك. وعندما استجابت المنظمة لكافة الطلبات الأمريكية - كافأتها الولايات المتحدة بقرار من وزير الخارجية «جورج شولتز» يسمح للسفير الأمريكى فى تونس بلقاء مسئولين من المنظمة علنا وبصورة رسمية - واعتبرت المنظمة ذلك القرار فى وقته «حلما تحقق».

وفى عهد «كلينتون» تنازلت هيبة الولايات المتحدة إلى حد أن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية قاد بنفسه عملية الاتصال، والتقى وتحادث وتفاوض، ورفع الكلفة بينه

«شئون الخليج» اختصاص
البيت الأبيض ووزارة الدفاع
و«شئون الصراع العربى الإسرائيلى»
اختصاص وزارة الخارجية
والمخابرات المركزية

الولايات المتحدة
لا تطلب منصب رئيس العالم ولكنها تصر على أن تكون لها الكلمة الأخيرة فى كل موضوع



وبين عشرات من الرجال لم يعرفهم وناداهم جميعا بأسماء الشهرة التى ظهروا بها فى العمل السرى «أبو كذا» و«أبو كذا»، وقد سهر مع بعضهم يتكلم حتى الصباح، ومع ذلك فقد خرجوا من أمامه دون أن يوقعوا على ما طلب منهم بل راوغوه ثم زاغوا منه.

ويرى واضعو التقرير الرئاسى - والأمر كذلك - أن الولايات المتحدة يجب أن تستعيد هيبتها، ثم إن أى مسئول فيها - وحتى تحت مستوى الرئيس - يجب أن يعود إلى سياسة التعامل عن بعد ومن علٍ.

....

....

[لم يتطرق التقرير الرئاسى إلى أسلوب كانت الولايات المتحدة الأمريكية وساساتها يتبعونه مع معارفهم وأصدقائهم من العرب - ولايزالون - باستثناء كلينتون الذى تعامل بأسلوب مختلف ولكن بمضمون لم يختلف.

ومؤدى ذلك الأسلوب أنه «لابد من وضع مسافة واضحة بين أى علاقات ألفة ومجاملة استدعتها ظروف وعلاقات سابقة، وبين أوضاع مستجدة لها اعتباراتها، لأن كثيرين من العرب لديهم الاستعداد - ولأسبابهم - كى يخلطوا بين العام والخاص».

وفى ذاكرتى واقعة معبرة عن فرط تخوف بعض الساسة الأمريكيين من معارفهم العرب إلى درجة الفظاظة، وقد تابعت الواقعة بنفسى حين أصبح «جورج شولتز» وزيرا للخارجية فى إدارة ريجان بعد خروج «ألكسندر هيج».

أيامها كان «جورج شولتز» عضوا فى مجلس إدارة شركة كونسوليدت العربية للمقاولات الذى يرأسه المليونير الفلسطينى «حسيب صباغ» وهو صاحب أكبر نصيب فى الشركة، وكانت مكافاة «شولتز» مائة ألف دولار سنويا عن ثلاثة اجتماعات يحضرها فى السنة.

وبعد عدة أسابيع كان «حسيب صباغ» يرتب زيارة لأمريكا و خطر له وهو يرتب برنامج سفره أن يطلب مقابلة صديقه وزميله السابق فى مجلس إدارة شركته «جورج شولتز» فبعث إليه برسالة شخصية، وفى اليوم التالى تلقى «حسيب صباغ» ردا من سكرتيرة الوزير« شولتز» تحيطه علما بأن الأوضاع تغيرت :

- صداقته الشخصية مع شولتز متوقفة طالما هو فى منصبه.
- المرجو منه أن لا يتصل مباشرة بالوزير أو بمكتبه، ولا يطلب مواعيد معه لأن مجال نشاطه مما لا يشمله اهتمام الوزير حاليا.
- وإذا كان لديه ما يقوله، فإنه يستطيع أن يبعث به إلى مكتب وزير الخارجية كما يفعل أى مواطن فى أى بلد فى العالم].

....

....

«٣»
افصل ما بين البترول وفلسطين!

صلب التقرير الرئاسى كلام صريح موجه للرئيس «جورج بوش» يخاطبه مباشرة بـ: لا تفعل ذلك - وافعل ذاك، وتنبه هنا - وحاذر هناك.

وأول المنهى عنه بالتصريح والتلميح مسألتان:

- المسألة الأولى خطاب للرئيس: لا تخلط فى منطقة الشرق الأوسط - أو ما يسمى كذلك اصطلاحا - بين «نطاقين إستراتيجيين» لأنه لابد أن يظل كل منهما مستقلا بذاته وبعيدًا عن الآخر:

الخليج وما حوله ناحية - وفلسطين وما حولها ناحية أخرى (بمعنى ضرورة الفصل فى سياساته ما بين إسرائيل وبين البترول)، والاعتبار أن الخليج قضية وفلسطين قضية أخرى والمزج بين الاثنتين يخلق تفاعلات تنشأ عنها شحنات خطر يصعب تقديرها.

يضاف إلى ذلك أن الفصل بين النطاقين هو الضمان لإحكام السيطرة على إدارة كل واحد منهما فى حدوده المعينة وفى إطار المحسوب.

- والمسألة الثانية خطاب للرئيس أيضًا: لا تقع فى الأخطاء التى وقع فيها «كلينتون» قبلك.. بمعنى أن عليك أن تحتفظ لنفسك بمسافة كافية تبعدك عن التناول المباشر لأزمات الشرق الأوسط وتحميك من التفاصيل وتحفظ للرئاسة مهابتها.

لكنه فيما يتعلق بقضية الخليج تستطيع أن تقترب أكثر بحكم حجم المصالح وخصوصية الأطراف التى تتعامل معها الولايات المتحدة.

[وهنا يظهر معنى الاتصال - الذى سبقت الإشارة إليه - بين بوش الأب وبين الأمير عبد الله ولى عهد السعودية مباشرة، ومن أثره أن الأمير عبدالله عرف مبكرا وتفهم أن الرئيس الجديد (الابن) ليس مستعدا بعد لموسم زيارات الربيع التى يتسابق إليها أمراء ورؤساء المنطقة على طرق السفر إلى واشنطن.

....

....

[وهكذا فإنه لم يكن فى برنامج الأمير عبد الله زيارة لواشنطن تحدد موعدها ثم تأجل غضبا أو احتجاجا، وإنما كان هناك من البداية وعلى مستوى البيت الأبيض اتفاق على موعد متفق عليه يحل لاحقا إلى خريف قادم ٢٠٠١ أو ربيع ٢٠٠٢].

....

....

وتتضح هنا نتيجة واضحة لها مقدمات جلية ومؤداها أن التعامل مع النطاق الإستراتيجى للخليج وما حوله هو اختصاص يقوم عليه البيت الأبيض، لأن تفاعلات هذا النطاق - خصوصا إذا غاب عنها تأثير نطاق فلسطين وما حولها - تفاعلات محكومة ومضبوطة . وليس من المحتم أن يقوم الرئيس بنفسه بالتعامل مع نطاق الخليج - فالاحتفاظ له فى كل الأحوال بمسافة عازلة مطلب قائم ودائم - وإنما يمكن من البيت الأبيض - من البيت الأبيض باستمرار - أن يقوم بالاتصال «ديك تشينى» نائب الرئيس، كما يمكن أن يساعد فيه وزير الدفاع «دونالد رمسفيلد» لأن قوات الخليج - وهى الضامن الأول والأخير لأمن الخليج - فى دائرة اختصاصه وتحت سلطته المباشرة.

أما فيما يتعلق بالنطاق الإستراتيجى الآخر «وهو فلسطين وما حولها» فهو نطاق يستحسن التعامل معه من بعيد، وفى كل الأحوال من خارج البيت الأبيض أى من وزارة الخارجية أو إدارة المخابرات المركزية حسب ما تقتضيه الظروف. وعلى أرض الواقع فإن وزارة الخارجية لها سفير دائم مكلف بنقل الرسائل بين الأطراف، كما أن وكالة المخابرات المركزية قائمة على ترتيبات فاعلة ومؤثرة!

□

يدخل صلب التقرير بعد ذلك مباشرة مقترحا على الرئيس توصيات يأخذ بها فى سياساته وقراراته.

■ التوصية الأولى:

« عليك » أن تمنع نشوب حرب إقليمية فى الشرق الأوسط.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى :

- عليك أن تؤكد طول الوقت أهمية تحالفنا الإستراتيجى غير المكتوب مع إسرائيل وحتى يفهم الجميع بغير التباس أن القوة الأمريكية غالبة وأن إسرائيل «شريك» إستراتيجى لنا.
- عليك أن تستغل وتستعمل الدول العربية المعتدلة (خصوصا مصر والأردن والمغرب والسعودية) وذلك لتشجيع طرح مبادرات وعرض صيغ تُبقى عملية التسوية مفتوحة طول الوقت.
- عليك أن تواجه المعارضين لسياستنا - الحاليين والمحتملين - بسياسة رادعة . وهنا فعليك أن تتأكد أن سوريا - تحت قيادة بشار الأسد - تدرك أن تشجيعها لعمليات حزب الله سوف تستثير ردود فعل ضرورية تعرض سوريا لضربات إسرائيلية موجعة.

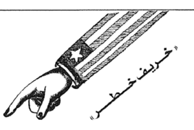
وفى هذا المجال فإن عليك أيضًا إفهام بغداد بأن اقترابها أو تدخلها فى الصراع العربى - الإسرائيلى لا يمكن السماح به. وأن الولايات المتحدة ترقب محاولات العراق لتخويف و ابتزاز الأردن، كما لا يستطيع العراق أن ينتهز فرصة زيادة التوتر فى فلسطين ويجرب القيام بعمليات تعزيز سلطته فى مناطق الأكراد.

- عليك أن تطلب وفورا توقف أعمال العنف بين الفلسطينيين وإسرائيل وعليك أن تجعل الطرفين (!) يدركان دون التباس أن «الالتزام بمسيرة السلام» هو وحده المبرر الذى يبقى الولايات المتحدة طرفا فيها وإذا لم يتأكد ذلك فإن كل طرف عليه أن يتحمل عواقب تهاونه (فى وقف العنف) وعقوبة تأخره فى العودة إلى مائدة المفاوضات (بغير تضييع للوقت).

■ التوصية الثانية:

« عليك » أن تعيد تقييم تجربة المفاوضات بين الفلسطينيين والإسرائيليين بما فى ذلك تجربة «أوسلو» حتى تتضح خطواتك نحو التسوية وتبين أمامك.. وسائلك إلى تحقيق ذلك على النحو التالى :

- عليك أن تقرر - بعد استكشاف مواقف الإسرائيليين والفلسطينيين - إذا كانت الجهود التى بذلت فى الأسابيع الأخيرة من إدارة كلينتون وتحت إشرافه تستطيع توفير أساس تقوم فوقه إضافات ترتفع به إلى المستوى اللازم - أم أن ذلك الجهد كان مضيعة للوقت وبالتالى تفض يدك منه ومن نتائجه.



● عليك أن تقرر هدفا لتدخل إدارتك فى هذه الأزمة فإما أن تختار البحث عن حل دائم - أو تكتفى بسياسة خطوة خطوة مرة أخرى.

● عليك أن تقوم بتحذير الطرفين من قيام أى منهما بعمل منفرد أو التهديد بعمل منفرد ولابد أن يعرف الفلسطينيون دون أدنى شك أنك لن تقبل إعلان قيام دولة فلسطينية من طرف واحد - كما أنه لابد أن يعرف الإسرائيليون أنك لن تقبل بعملية فصل كامل بين الشعبين.

● عليك أن توضح أمام كل من الطرفين أن الولايات المتحدة ليست لها مصالح ملحة تريد ضمانها من توصل الطرفين إلى تسوية - وإذا تم فصل نطاق الخليج عن النطاق الفلسطينى الإسرائيلى - فإن مصالح الولايات المتحدة فى التسوية النهائية بينهما محدودة وكل ما تريد الولايات المتحدة تحقيقه هو وضع نهاية للصراع تبقى الأماكن المقدسة هناك مفتوحة لأتباع كل الأديان. وليس لإدارتك أن تقدم أية «مقترحات أمريكية» لحل عقد مستعصية وإن كان بمقدورها أن تفعل ذلك بشرطين :

١- أن يطلب الطرفان تدخلها بتقديم صيغة حل .

٢- وأن يتعهد كلاهما بقبول الصيغة التى تقدمها.

● عليك إعلام الطرفين بكل الوسائل أن التفاوض هو مسئولية الاثنين وحدهما وأن إدارتك مع استعدادها لأن تتابع عملية التفاوض ليست مستعدة لأن تكون طرفا فيها.

وفى كل الأحوال فإنك بهيبة الرئاسة لا تستطيع أن تتدخل فى مثل هذه المفاوضات ومن الأفضل :

١- ترك المهمة لوزارة الخارجية.

٢- تفعيل دور وكالة المخابرات المركزية.

٣- موقفك بصفة عامة : اقترب من الأزمة عند الضرورة ولكن لا تأخذها فى أحضانك مهما كانت الظروف!

■ التوصية الثالثة:

تستطيع السماح لأطراف دولية غير الولايات المتحدة ببذل جهود لتخفيف حدة التوتر فى الإقليم.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى :

● عليك أن تتعاون فى هذا الصدد مع الأمم المتحدة والاتحاد الأوربى ويكون طلبك من الجميع أن يعملوا بجد على استعادة الهدوء فى الإقليم دون أن يتجاوز أى طرف من هذه الأطراف الدولية ويسمح لنفسه بالتدخل فى عملية التفاوض المباشر.

● عليك دفع الدول الإقليمية الموالية لك - وخصوصا مصر وتركيا - للوصول إلى العالم العربى والعالم الإسلامى وتخفيف أية احتقانات تحصل سواء لدى الشعوب أو لدى القادة.

● عليك أن تجعل مقاومة التحريض بين أولويات مطالبك، وهنا فإنه لابد من التأثير - بأى طرق تراها - فى الرأى العام العربى والإسلامى، ومن المهم تشجيع الحوار على كل المستويات بين الإسرائيليين وبين العرب والمسلمين.

● عليك أن تعمل على استئناف المفاوضات المتعددة الأطراف، فمثل هذه المؤتمرات تساعد عملية السلام أو تخفف التركيز عليها (أى تنتقل من السياسة إلى الاقتصاد ومن لغة الإثارة إلى لغة المصالح).

● عليك أن تتشاور مع الدول المنتجة للنفط لكى تقدم بعض المساعدات للاقتصاد الفلسطينى، ولفت نظرهم إلى أن ارتفاع أسعار البترول يجعل مثل هذه المساعدة بلا تكلفة زائدة ، ثم إن مثل هذه المساعدة تستطيع تغطية انسحاب دول النفط سياسيا من تعقيدات الأزمة (فى فلسطين).

■ التوصية الرابعة:

« عليك » أن تهتم بمثلث سوريا - لبنان - إسرائيل، وتشجيع عملية «تغيير» فى سوريا ولبنان تفتح الباب لمفاوضات قد ترى أنك تستطيع توجيهها.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى :

● عليك تقوية إمكانيات الردع الإسرائيلى لأن ذلك وحده هو ضمان تحجيم إمكانيات حزب الله فى شن هجمات صاروخية على شمال إسرائيل. ومن المهم إبلاغ كل الأطراف باعتقادك أن إسرائيل تملك مشروعية الدفاع عن نفسها بالوسائل التى تقدرها ومن الضرورى أن تدرك سوريا - نقلا عنك مباشرة - أنها سوف تصاب بأضرار جسيمة إذا سمحت بتحويل مواقع الحدود الإسرائيلية - اللبنانية إلى منطقة عمليات عسكرية. وهنا فلا تشجع إسرائيل على استهداف المدنيين عند قيامها بعمليات الردع العسكرى.

● عليك تأييد موقف السكرتير العام للأمم المتحدة فى اعتبار أن الانسحاب الإسرائيلى من جنوب لبنان هو وفاء من جانبها بشروط قرار مجلس الأمن ٤٢٥. ولابد للبنان أن يعرف أنك تربط بين أى مساعدات أو استثمارات لإعادة إعمار لبنان بشرط انتشار الجيش اللبنانى على الحدود مع إسرائيل والبدء فى نفس الوقت بنزع سلاح حزب الله.

● عليك استكشاف الفرص المتاحة فى سوريا . جرب إذا كان فى مقدور الرئيس السورى بشار الأسد أن يقوم بجهد فى تحسين علاقاته مع الولايات المتحدة. معيار قياسك لحسن نواياه هو الطريقة التى يتصرف بها إزاء لبنان وإزاء قضية الإرهاب (حزب الله!).

● عليك أن تتحرك بنشاط أكثر فى لبنان وذلك عن طريق تشجيع مطالبة اللبنانيين بحرية أكبر ، وذلك لفك القبضة السورية عن الشئون اللبنانية. وتستطيع أن تقنع الحكومة اللبنانية بأن تأخرها فى إرسال جيشها إلى حدودها الجنوبية - سوف يفرض عليك أن تعيد توجيه المساعدات الأمريكية للبنان.. لا تقدم مساعدات للجيش اللبنانى.. وجه مساعداتك إلى دعم النواحى الإنسانية ومنها منظمات حقوق الإنسان والهيئات العلمية والمدنية وأى نشاط لمؤسسات المجتمع المدنى فى لبنان!

■ التوصية الخامسة:

عليك أن تمنع تواجد أسلحة متقدمة بما فى ذلك أسلحة الدمار الشامل فى ترسانات دول المنطقة، وعليك أن تحول دون انتشار هذه الأسلحة وبالتأكيد دون استخدامها.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى:

● عليك إيجاد توافق دولى إقليمى على منع انتشار أسلحة الدمار الشامل، وليكن ذلك عن طريق التفاوض والتفتيش وغير ذلك من الوسائل الضرورية لبناء الثقة.

● عليك أن تكون متأهبا للرد بقوة على أية مخالفة، ولابد أن تكون مستعدا على سبيل المثال لاستخدام قوة عسكرية طاغية ضد العراق إذا حاول إعادة بناء ترسانته العسكرية. ومن الأفضل أن ترتب لمثل هذا الاحتمال عن طريق الأمم المتحدة - أو عن طريق تحالف حرب الخليج السابق، وإذا استحال ذلك فعليك أن تكون جاهزا للعمل مع عدد قليل من الأصدقاء يدركون الخطر العراقى، ويتابعون خططه فى مجالات الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية.

● عليك ردع إيران عن امتلاك أية أسلحة متقدمة، والمهم فى حالة إيران أن تكون اجراءاتك ضد القيادة الإيرانية وبدون تأثير على الشعب الإيرانى (لأن إيران حليف قوى إذا سقط نظام الثورة الإسلامية).

● عليك تشجيع فكرة إقامة نظام دفاعى صاروخى تقوم عليه الولايات المتحدة بالشراكة مع بعض الأطراف فى المنطقة، ولتكن البداية بمجموعة دول مجلس التعاون الخليجى، وبعد ذلك تنضم الأردن ومصر وتركيا، وعندما تتهيأ الظروف تنضم إسرائيل. ولذلك فمن المهم تشجيع تركيا والأردن وغيرهما من الدول الصديقة فى المنطقة على استعمال الصاروخ أرو (الذى تنتجه إسرائيل بالتعاون مع الولايات المتحدة).

■ التوصية السادسة:

عليك أن تبذل كل الجهود لمقاومة الإرهاب، فهذا هو الخطر الأكبر فى المنطقة ذاتها ومنها إلى غيرها.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالى:

● عليك أن تدرس قصص النجاح التى شهدتها المنطقة فى مجال مقاومة الإرهاب، وأهمها تجربة تركيا فى التعامل مع حزب العمال الكردى، وتجربة مصر فى التعامل مع الجماعة الإسلامية.

● عليك أن تعمل على عزل ميدان العمليات الإرهابية وخطرها عن مجرى عملية السلام وتقلباتها، وعليك أن تجعل الأطراف - خصوصا الأردن والسلطة الفلسطينية - يدركون أن السماح بصلة بين عمليات الإرهاب وعملية السلام سوف يكلفهم غاليا، وأول التكلفة أن يخسروا صداقة الولايات المتحدة.

● عليك تشجيع أوسع لتعاون دولى وإقليمى ممكن لمواجهة خطر الإرهاب خصوصا من شبكات التطرف الإسلامى. تدَخل بدور نشيط فى مقاومة الإرهاب بواسطة التنسيق بين أجهزة المخابرات، وشجع على تبادل المعلومات سرا لأن هناك دوائر فى العالم العربى والإسلامى على استعداد للتعاون، لكنها لا تريد لأحد أن يسمع ما تقول أو يرى ما تفعل. لاحظ وجود مكامن للإرهاب فى إيران وباكستان واليمن وأفغانستان. ولك أن تتذكر أن فى أوربا دولا قادرة على مساعدتك فى هذا المجال.

● عليك تقدير وسائلك فى العمل المباشر ضد الإرهاب دون أن تتردد لأى اعتبار، وعلى سبيل المثال فنحن نعرف أن بعض مدبرى

سياسة
بوش فى
إطار «مناطق»
وليست فى
«حدود دول»

الشرق الأوسط انفتح لخيارات العولمة ولكن بلدانه لم تستطع الاستفادة من الجانب الإيجابي

انفجار الخبر (في السعودية) موجودون في إيران. لا تتردد في إعلان عزمك على استخدام القوة ضد معاقل الإرهاب أينما كانت ـ وأعط لعزمك مصداقية فعلك!

■ التوصية السابعة:

عليك أن تكون مستعدا للقيام «بإجراءات نهائية» ضد القوى التي تهدد المصالح الأمريكية في المنطقة، وأولها العراق وإيران.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالي:

● عليك تشجيع التغيير في إيران وفي العراق، وعليك أن تلاحظ أن التغيير في إيران يمكن أن يتم بوسائل سياسية، وأما التغيير في العراق فلا يمكن أن يتم بوسائل سياسية. ومعنى ذلك أن التغيير في إيران يمكن أن يتم من الداخل، وأما التغيير في العراق فيقتضي دعما من الخارج لثورة بالعنف أو انقلاب من الداخل. ولتسهيل التغيير في العراق وتقليلا لتكاليف العنف الملازم له يستحسن إشغال صدام حسين وتشتيت انتباهه على أكثر من جبهة واحدة.

● عليك تقدير ردود فعلك العسكري مبكرا إزاء أي تطور يحدث في العراق:

ـ في حالة قيام تمرد ضد النظام في بغداد.

ـ في حالة تعرض صدام حسين للكيانات ذات الاستقلال المحلي في المناطق الكردية شمال العراق.

ـ في حالة رفض صدام حسين نهائيا محاولات إعادة الرقابة والتفتيش على برامج تسليح العراق.

وفي كافة هذه الحالات ليس هناك ما يمنع من أن يكون صدام حسين على علم برد فعل الولايات المتحدة وتصرفها إزاء كل حالة، ويجري ذلك بالتوازي مع إعادة بناء إمكانية مالية وعسكرية وتكنولوجية لقوى المعارضة العراقية، على أن تكون هذه القوى على علم أكيد بحجم الدعم الذي يمكن أن تقدمه لها الولايات المتحدة في كل ما تقوم به من أجل نظام ديمقراطي في عراق ما بعد صدام حسين.

● عليك أن تشجع المعتدلين في إيران ضد المتطرفين، وأن تصل من وراء الاثنين مباشرة إلى الشعب الإيراني: شجع السياحة بين إيران والغرب ـ شجع القطاع الخاص في إيران ـ ابحث عن قنوات لحوار مع القوى الديمقراطية في إيران.

■ التوصية الثامنة:

بصرف النظر عن الموجة المعادية لأمريكا ـ وهي تجتاح المنطقة الآن ـ فإن عليك أن تعزز التيارات والمواقع الموالية للسياسة الأمريكية.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالي:

● عليك أن تتأكد باستمرار من أنه ليس هناك «تآكل» ـ حتى بالتواكل ـ في علاقاتك في المنطقة.

● عليك أن تشجع عملية واسعة للتعريف بالقيم الأمريكية والديمقراطية الأمريكية والممارسة السياسية في أمريكا.

● عليك أن تعمل على ظهور قيادات جديدة صديقة لأمريكا وقادرة على إجراء إصلاحات توفر لها (لهذه القيادات) شرعية مقبولة.

● عليك تشجيع الاتجاه نحو الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان، وفي هذا الميدان فإن عليك أن «تفكر بجرأة وتتصرف في حذر» لأن عملك في هذه المجالات يمكن أن يخلق حساسيات تعطل جهودك. ركز على مصر باعتبارها أكبر دولة عربية. ركز على السلطة الفلسطينية لأن قضية فلسطين موجودة في كل بلد عربي، وهناك احتمالات واسعة لتطورات ديمقراطية مهمة في «عصر ما بعد عرفات»!

....

....

[تلفت النظر في هذا الموقع من تقرير المجموعة الرئاسية للشرق الأوسط عبارة «عصر ما بعد عرفات».

وتلك إشارة مبكرة أو متأخرة إلى نقاش طويل دار في واشنطن أثناء الزيارة الأخيرة التي قام بها رئيس الوزراء الإسرائيلي «آرييل شارون» إلى واشنطن. وكانت هذه الزيارة في أعقاب التفجير الكبير في ملهى ليلي إسرائيلي قرب تل أبيب (قتل فيه ١٦ وجرح ٤٩ إسرائيليا)، وأبدى «شارون» عزمه على توجيه ضربة قاصمة للسلطة الفلسطينية تكسر أو تنهي وجودها في غزة.

وطرح «شارون» ـ ضمن ما طرح ـ اقتراحا بتصفية «ياسر عرفات» أو طرده من غزة وكان رأي وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ـ وكان مديرها «جورج تنيت» يشارك في النقاش «إن التفكير في تصفية «عرفات» ـ على الأقل في الظروف الراهنة ـ خطر مؤكد ذلك أنه إذا تمت تصفيته جسديا فذلك يحوله إلى شهيد تحارب أعلامه حتى بعد موته، وإذا جرى طرده من غزة بالقوة فذلك سوف يحوله إلى بطل يلتف حوله الجميع حتى في المنفى. وكان تقدير «تنيت» أن «عرفات» ما زال له دور يؤديه ولا داعي «لحرق المراحل» بتصرفات متسرعة وغير مضمونة.

وكان تقدير «تنيت» بعد ذلك أنه عندما تنشأ ضرورة «عصر ما بعد عرفات» فإنه من الأفضل إزاحة الرجل دون عنف مع إبقاء السلطة الفلسطينية كجهة يمكن التعامل معها ولو في مطالب ضبط الأمن. وبالتالي فلابد من إيجاد «بديل لعرفات» يقبل بالمهمة ويستعد لها وبحيث يبدو «عصر ما بعد عرفات» نوعا من التغيير الطوعي الفلسطيني وليس نوعا من التغيير القسري الإسرائيلي (طرح أحد مسئولي المخابرات المركزية ثلاثة أسماء يمكن اختيار أحدهم مرشحا لمسئولية «عصر ما بعد عرفات») ثم عادت المناقشة إلى سياقها باقتراح أنه عندما تجيء ساعة «عصر ما بعد عرفات» فإن هذا العصر يمكن أن يبدأ بقدر معقول من حسن السياسة وحسن الإدارة وذلك أمر له سابقة في السياسة العربية من قبل وهي سابقة يمكن تقليدها حتى مع اختلاف الظروف.

وكانت السابقة التي وقعت الإشارة إليها في هذا النقاش في واشنطن ـ أثناء زيارة «شارون» ـ هي ما جرى مع الرئيس «جعفر نميري» عندما قام في السودان انقلاب عسكري عليه أثناء غيابه عن الخرطوم ما بين أمريكا وأوربا، تاركا مسئولية الأمن معلقة بثقته في ولاء الفريق «سوار الذهب» . وعندما علم «جعفر نميري» بأمر الانقلاب سارع بطائرته عائدا إلى بلاده ، ثم عرف عند وصوله إلى القاهرة أن نائبه الفريق «سوار الذهب» انضم إلى الانقلابيين، وبدا أن ذلك زاده إصرارا على مواصلة السفر إلى الخرطوم لينتقم من الجميع: الانقلابيين و«سوار الذهب»، لكن جعفر نميري تلقى في مطار القاهرة من الرئيس «حسني مبارك» وعلى امتداد ساعتين في استراحة الرئيس «نصيحة ودية» تطرح عليه «أفضلية البقاء في القاهرة » وتجنيب السودان وجيشه محنة انقسام مؤكد إذا أصر على مواصلة السفر إلى الخرطوم بطلب الانتقام.

وكان الرأي في مناقشات واشنطن أن هذه السابقة يمكن «تقليدها» مع «عرفات» كما سبق مع «نميري». وبالتالي فإن عصر «ما بعدعرفات» له أن يبدأ من «نصيحة ودية» بدلا من عنف قد يكون دمويا وقد ينتج عنه دون مبرر شهيد أو بطل في حين أن «نميري» تحول بعد سنوات من المنفى في القاهرة من «مُطالب بالانتقام» إلى «مُطالب بالعفو»!].

....

....

وتتوالى توصيات المجموعة الرئاسية موجهة نصائحها للرئيس «جورج بوش» (الابن).

■ التوصية التاسعة:

«عليك» أن تهتم بتقوية قواعد ووسائل عملك في الشرق الأوسط لمواجهة أية احتمالات تنشأ دون أن يفاجئك منها شيء.. وسائلك إلى ذلك على النحو التالي:

● عليك أن تعرف أن إسرائيل هي الركيزة الأولى لضمان أمن الإقليم، والتحالف الأمريكي مع إسرائيل بالفعل وبالقول هو القاعدة المتينة لكل الخطط والسياسات، والحقيقة فإن قوة الشراكة بين البلدين هي أداة الفعل الرئيسية في المنطقة، ولابد أن تكون العلاقة بين الطرفين (الأمريكي والإسرائيلي) نظيفة من أي سبب للتوتر.

● عليك ـ للاستفادة القصوى من هذه الحقيقة الاستراتيجية ـ أن تكفل لإسرائيل «تفوقا نوعيا» متجددا طول الوقت على كل الأطراف العربية، وهنا فإن عليك أن تقاوم وترفض بشدة كل محاولة من جانب أي طرف عربي يطلب أو يسعى للتساوي مع إسرائيل.

● عليك أن تساعد مصر حتى تقوم بمسئوليتها القيادية في إطار سياستك، لكن إذا ترددت مصر في القيام بهذه المسئوليات ـ بما في ذلك المبادرات الإقليمية الاقتصادية التي تشمل إسرائيل ـ ثم تذرعت في ذلك بتعثر عملية السلام، فإن عليك أن تتخذ ما تراه لازما. وعليك أن تُذكر كل من يعنيه الأمر أن مصر وإسرائيل تحصلان على أكبر قدر من المساعدات الخارجية الأمريكية.

● عليك أن تبذل جهدك لتأييد وتسريع عملية التطبيع بين الأردن وإسرائيل، وإقناع الأردن أن ذلك أفضل ضمان له سياسيا واقتصاديا، وحذر الأردن من غواية تصورها أنها تستطيع مغازلة أو مهادنة صدام حسين ـ ذلك سوف يضر بسلامة الأردن واعتداله.

● عليك أن تشجع تركيا على القيام بدور رئيسي في المنطقة مع إفهامها بطريقة واضحة أنها لا تستطيع أن تمارس هذا الدور، ولا أن تحقق نتائجه السياسية والاقتصادية إلا بالتعاون مع إسرائيل. ■

الولايات المتحدة تعودت أن تعطي «رخص سماح» لبعض أصدقائها تمكنهم من مهاجمة سياستها خطابيا لإرضاء جماهيرهم وهذه ازدواجية لها عواقب خطيرة



"٤"

فى انتظار حمامة!

بقى ملحق مختصر أضيف إلى توصيات اللجنة الرئاسية، وقد جاء نتيجة لزيارة اللحظة الأخيرة (يونية ٢٠٠١) - وإضافة اللمسة الأخيرة للتقرير قبل وضعه على مكتب الرئيس.

وملخص الملحق يقول لبوش:

- ليست هناك على الأفق فى الظروف الراهنة فرصة لحل دائم.

- ليس هناك أى سبب للقلق على أمن إسرائيل.

- ليس هناك أمل كبير يمكن تعليقه على مقترحات تتردد هذه الأيام عن وقف إطلاق نار، وعن مراقبين على مواقع مراقبة، وعن ترتيبات من نوع وقف الاستيطان لأنه ليس بين المسئولين فى إسرائيل من يريد أن يسمع عن مثل هذه الترتيبات أو يكررها قولا - مجرد قول - على لسانه.

- الممكن هو «إدارة» أزمة الصراع العربى الإسرائيلى وليس حله.

- إدارة الأزمة مهمة ثقيلة لكنها ليست خطرة طالما أمكن تحقيق المطالب الرئيسية فى صلب تقرير اللجنة الرئاسية (الفصل فى منطقة الشرق الأوسط بين نطاق البترول «سريع الاشتعال»، ونطاق الصراع العربى الإسرائيلى «القابل للانفجار» - ثم التركيز على الدول المعتدلة «الموالية للغرب» على حافة الصراع العربى الإسرائيلى «مصر والأردن»).

- من الممكن أيضًا اتخاذ مجموعة من الإجراءات تكفل تخفيض درجة العنف وبينها تخفيض عدد قوات الأمن الفلسطينى من مستواها الحالى، وهو ٤٠ ألفا إلى أقل من النصف ١٨ ألفا طبقا لما جرت مناقشته أثناء اجتماعات «واى ريفر» - ونزع كل سلاح غير مرخص به فى مناطق السلطة الفلسطينية - وأخيرا ترك القوة الإسرائيلية تكسر «القاعدة الأساسية» التى يستند إليها نشاط منظمات الإرهاب الفلسطينى.

....

....

[كانت اتفاقية «أوسلو» بالفعل تحدد عدد قوات الأمن الفلسطينى بما لا يزيد على ١٨ ألف فرد، لكنه عندما دخلت السلطة الفلسطينية إلى قطاع غزة بدا أن هناك توترات بين القادمين من المنفى فى تونس وبين الذين أقاموا فى قطاع غزة طول الوقت تحت الاحتلال وفى مقاومته.

وفى لحظة من اللحظات ظهرت إمكانية صدام مسلح بين حركة «فتح» وبين حركة «حماس»، ووقتها قامت إسرائيل بإبلاغ السلطة أنها لن تمانع إذا هى تجاوزت حد المسموح به فى أفراد الأمن.. وعلى هذا الأساس ارتفع سقف قوات الأمن الفلسطينى من ١٨ ألفا إلى ٢٥ ألفا، ثم ارتفع مرة ثانية إلى ٣٦ ألفا، ثم وصل فى النهاية إلى ٤٢ ألفا.

وعندما لم تحدث الحرب الأهلية المنتظرة والمطلوبة بين الفلسطينيين وبالتحديد بالاقتتال بين «فتح» و«حماس» - راحت إسرائيل تطلب تخفيض قوات الأمن الفلسطينى إلى الحد المتفق عليه. وراحت تدعى أنه تحت رخصة السماح بزيادة أفراد الأمن فى ظرف معين - فإن السلطة الفلسطينية انتهزت الفرصة وأدخلت سلاحا أكثر من المسموح به لأفراد زاد عددهم عدة مرات عن السقف المقرر.

وربما أن استهداف قوات الأمن الفلسطينى لضربات إسرائيلية مستمرة فى الأسابيع الأخيرة - يكشف أن إسرائيل تحاول الآن - بقتل المحاربين الفلسطينيين - أن تعوض ما فاتها بالاقتتال بين «فتح» و«حماس».]

....

....

ثم تجىء ملاحظة هامة قرب نهاية ملحق التقرير الرئاسى - يونية ٢٠٠١ - تقول:

«لقد لمسنا لدى المصريين اهتماما يعلق أملا على انتخابات رئاسة حزب العمل المقرر لها ٤ سبتمبر ٢٠٠١ - وأملهم أن هذه الانتخابات قد تأتى برجل معتدل يرأس حزب العمل مثل: «يوسى بيلين» أو «حاييم رامون»، لأنه إذا عاد «الحمائم» إلى قيادة حزب العمل فربما أمكن البدء فى المفاوضات، ورفع الحطام والركام مما عوّق وسد مسيرة السلام.

□

فى النهاية يظهر أن سبتمبر - هذا الشهر - وما يليه - سوف يكون موعدا مشهودا - ذلك أن الرئيس «بوش» قبل أن يتوجه إلى ولاية تكساس - لإجازة شهر كامل - طول أغسطس - حضر فى الأسبوع الأخير من يوليو اجتماعا لمجلس الأمن القومى الأمريكى جرت فيه مناقشات مستفيضة لتقرير المجموعة الرئاسية عن أزمة الشرق الأوسط.

وفى هذا الاجتماع - وطبقا لما أورده «جيم هوجلاند» فى «الواشنطن بوست» (عدد ٩ أغسطس) - فإن الرئيس «چورچ بوش» أبدى فى الاجتماع عدة ملاحظات مجملها:

- أنه فى فترة إجازته سوف يأخذ كل ما لديه من تقارير وتوصيات عن أزمة الشرق الأوسط وسوف يبت فيها ويعود جاهزا بقرار.

- أنه يرفض قبول «تلك الصلة» التى يزعم بعض موظفى الخارجية الأمريكية بوجودها بين قضايا الخليج وبين تعقيدات الصراع العربى الإسرائيلى «بوهم» «وحدة الشارع العربى» - ولذلك فإنه عند عودته من الإجازة فى «تكساس» سوف يعطى نفسه حرية التصرف.

- أنه فى اتصالاته بمن اتصل بهم - من ساسة العالم العربى - سأل الجميع عن تصوراتهم لحل الأزمات المستعصية فى منطقتهم، وقد أثار دهشته أنهم فى أزمة الخليج: طلبوا منه أن ينتظر ويترك للزمن أن يفعل فعله - لكنهم فى أزمة الصراع العربى الإسرائيلى طلبوا منه وألحوا عليه فى استعمال سلطته للضغط على إسرائيل وذلك منطق عجز عن فهمه.

- وهكذا - أخيرا - فإنه سوف يعود فى سبتمبر ليتصرف دون انتظار رأى أو توقع تعاون من ناس لايعرفون كيف يساعدون أنفسهم ثم يطلبون من الآخرين أن يساعدوهم وذلك فى تقديره «ضعف وعجز» لا يسمح لنفسه أن يسايره!

....

....

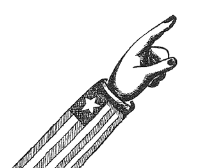
وكذلك فإن المنطقة التى كان صيفها هذا العام حارا - تمشى مرهقة الخطى نحو خريف ملتهب.

ذلك أنه مهما كانت نتائج انتخابات حزب العمل الإسرائيلى - فى سبتمبر الحالى - فإن الأفق الإسرائيلى لايظهر عليه جناح حمامة بيضاء - ثم إن الرئيس الأمريكى العائد من إجازة فى تكساس - اليوم أو غدا - يرجع إلى مكتبه البيضاوى بجناح «صقر» أغبر!

وأما فى العالم العربى فلا أعرف!

على أنه من الإنصاف أن أقول إنه ربما كان أصحاب القرار فى العالم العربى يعرفون - لأن ذلك الدم الذى يسيل على أرض فلسطين فداءً وشهادة يحتاج وراءه إلى ما هو أعز وأكرم من عرقٍ يتصبب خجلاً نتيجة ضعف وعجز رآهما «جورج بوش» قبل إجازته وأثناء إجازته وبعد الإجازة - ثم قرر التصرف كما يشاء دون انتظار ودون اعتبار

الخاص والعام فى علاقة الساسة العرب بمن يظنونهم أصدقاءهم فى أمريكا



محاكمة الطغاة

بين عدالة القانون واعتبارات السياسة

شريف بسيونى

بدأ ظهور نظام التنفيذ المباشر للعدالة الجنائية الدولية عن طريق اللجان والمحاكم الدولية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حينما نصت اتفاقية فرساى Versailles على إنشاء محكمة جنائية دولية لمحاكمة قيصر ألمانيا لارتكابه ما يوصف اليوم بجريمة العدوان، كما نصت الاتفاقية على محاكمة من ارتكبوا جرائم حرب وفقا للمفهوم السائد وقتئذ فى العرف الدولى



فكرة إيجاد نظام عدالة جنائية دولية بدأت فى أواسط القرن السابع عشر حينما أثرت القرصنة سلبا على مصالح الدول الملاحية وأمن الملاحة الدولية، وعلى وجه الخصوص بالنسبة لدول أوروبا، إذ كانت الخطوط الملاحية التى تربطها بالقارة الأمريكية شمالا وجنوبا ومجموعة الجزر التى يطلق عليها الآن جزر البحر الكاريبى تمثل أهمية اقتصادية بالنسبة لها.

ومن هنا، انطلق مبدأ الاختصاص الجنائى العالمى الذى يكفل لكل دولة ملاحية الحق فى ملاحقة ومحاكمة ومعاقبة قراصنة البحر على غرار ذات المفهوم السائد فى ذلك الوقت بالنسبة لمرتكبى جرائم قطع الطرق والسرقة فى كل الأنظمة القانونية، إلا أن ذلك المفهوم طبق وقتئذ على القرصنة البحرية فى أعالى البحار فقط، ومن ثم لم يتعرض لسيادة أى دولة، إذ أن أعالى البحار ليست خاضعة لسيادة دولة ما.

وبمرور الوقت، بدأ مفهوم مبدأ الاختصاص الجنائى العالمى فى التوسع، وبصفة خاصة فى أواسط القرن التاسع عشر حينما طبق على تجارة الرقيق، إذ كان الرأى العام قد استقر فى تلك الآونة على أن تجارة الرقيق تعد انتهاكا للقيم الإنسانية المستقرة لدى دول العالم، ومن ثم، كان على المجتمع الدولى أن يتعاون فى مكافحة مثل تلك الأنماط من الجرائم الدولية إما عن طريق سن تشريعات جنائية وطنية ينفذها القضاء الوطنى إذا ما توافرت له شروط الاختصاص الجنائى على الأشخاص، أو عن طريق إنشاء آليات دولية تقوم بذلك الدور.

بناء على ما تقدم، هناك ثلاث نقاط تتناولها هذه المقالة بالشرح، أولاها تحديد ماهية الأفعال التى تعتبر جرائم دولية، ثانيا: دور الدول فى تنفيذ الالتزامات الدولية لمكافحة هذه الجرائم عن طريق النظم القانونية الوطنية بما فى ذلك الاستناد إلى مبدأ الاختصاص العالمى، وأخيرا، تطبيق العدالة الجنائية الدولية عن طريق اللجان والمحاكم الدولية.

١- الجرائم الدولية

تتصف الجرائم الدولية بصفتين، أولاهما: أن الفعل يخالف القيم الإنسانية المستقر عليها لدى المجتمع الدولى، أو يسبب ضررا لمصلحة مشتركة للمجتمع الدولى. ثانيا: أن ارتكاب هذه الأفعال قد يسبب خطرا على المجتمع الدولى، أو يخل بالأمن أو السلام الدوليين.

أما عن مصدر الجرائم الدولية، فهى ترد فى اتفاقيات دولية، كما يتضمنها ما يسمى بالعرف الدولى، أى ما استقرت عليه الدول فى معاملاتها، ومن ثم فإن هنالك اتفاقيات دولية تقنن الجرائم الدولية، وهى : القرصنة، والرق وتجارة الرقيق والأعمال الشبيهة، الاتجار بالمخدرات، جرائم الحرب، الجرائم ضد الإنسانية، إبادة الجنس البشرى، اختطاف الطائرات «القرصنة الجوية»، أعمال العنف ضد الطيران المدنى، أعمال العنف ضد رؤساء الدول والأشخاص المحميين دوليا مثل الدبلوماسيين وموظفى المؤسسات والهيئات الدولية مثل الأمم المتحدة، الجرائم ضد سلامة الملاحة المدنية الدولية، احتجاز الرهائن المدنيين لأغراض إرهابية، قطع الكابلات التليفونية عبر البحار، استخدام البريد الدولى لإرسال متفجرات أو مواد مخدرة أو أية أشياء مخلة بالآداب العامة، وأخيرا سرقة الآثار القومية والتراث القومى والاتجار الدولى فيهما. أما عن العرف الدولى، فهو يتضمن جريمة العدوان، وبعض أنماط جرائم الحرب وحظر استخدام بعض الأسلحة المسببة للآلام الجسيمة.

هذه الأنماط من الجرائم مدونة فى أكثر من ٢٧٤ اتفاقية دولية أبرمت خلال الفترة ما بين عام ١٨١٥ وعام ٢٠٠١ حيث عنيت جميعا بالمسئولية الجنائية الفردية، وليس بمسئولية الدولة. فعلى سبيل المثال، هناك أربع اتفاقيات معنية بجرائم الحرب هى اتفاقيات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩. أضيف إليها ملحقان إضافيان عام ١٩٧٧، وفى مجال تجريم المخدرات هناك ١٣ اتفاقية دولية أبرمت خلال الفترة ما بين عام ١٩١٢ وعام ١٩٨٨، بينما هناك ١٩ اتفاقية فى مجال الإرهاب أبرمت ما بين عامى ١٩٦٩ و٢٠٠٠. ويجرى الآن التفاوض حول اتفاقية أخرى خاصة بالعمليات الإرهابية التى قد تستخدم أسلحة نووية. من الملاحظ أن لكل من هذه الجرائم عنصرًا دوليًا، وهو ما يجعلها موضع اهتمام دولى، بيد أنه يتعين ملاحظة أنها نابعة من إرادة الدول وليس من مشرع دولى.



من ناحية أخرى، من الضرورى إدراك أن هذه الاتفاقيات تختلف فيما بينها لكونها نتاج مفاوضات سياسية، فتختلف كل منها عن الأخرى فيما تمنحه للدول المنضمة إليها من اختصاص جنائى تستطيع الدول أن تستند إليه فى قوانينها الوطنية. فنجد على سبيل المثال أن الاتفاقيات الخاصة بتجارة المخدرات تسمح بامتداد الاختصاص الجنائى الوطنى للدولة المنضمة إليها على شخص غير موجود على إقليمها، إذا كانت الجريمة المنسوبة إليه قد بدأ الإعداد لها فى الخارج بقصد تنفيذها داخل إقليم الدولة.

علاوة على ذلك، تتضمن بعض الاتفاقيات الخاصة بالجرائم الدولية، مثل تلك المعنية بجرائم الحرب، حق الدول المنضمة إليها فى تبنى نظرية الاختصاص العالمى، والذى يبيح لتلك الدول مباشرة اختصاصها الجنائى الوطنى على أى شخص موجود على إقليمها، بغض النظر عن مكان ارتكاب الجريمة أو جنسية مرتكبها أو المجنى عليه. بيد أنه يتعين مراعاة اختلاف ذلك عن نظريات أخرى تسمح للدول بمد اختصاصها الجنائى خارج إقليمها، كما هو الحال فيما أوردته المادة الثالثة من قانون العقوبات المصرى من معاقبة المصرى على الجرائم التى يرتكبها خارج مصر، إذا كانت تلك الجرائم معاقبًا عليها فى الداخل.

علاوة على ما تقدم، تستطيع بعض الدول مباشرة اختصاصها الجنائى الوطنى على جريمة ارتكبت خارج إقليمها فى حالة ما إذا كان المجنى عليه من بين رعاياها، إذ إنه فى هذه الحالة يكون للدولة الأولوية فى محاكمة مرتكبى تلك الجرائم ضد مواطنيها، بيد أن هذا النوع من الاختصاص الجنائى لا يعد جزءا من مبدأ الاختصاص العالمى الذى يعطى للدولة الحق فى مباشرة اختصاصها الجنائى على واقعة حدثت خارج إقليمها دونما أية علاقة تربطها بمرتكب الواقعة أو المجنى عليهم، إذ إن منبع ذلك الحق هو واجب التعاون الدولى فى مكافحة بعض الجرائم الدولية بموجب اتفاقيات تعقدها الدول أو وفقا للعرف الدولى.

٢- تطبيق العدالة الجنائية الدولية من خلال النظم الوطنية

يتم تطبيق العدالة الجنائية الدولية أولا عن طريق النظم الوطنية التى تعمل على إنفاذ التشريعات الداخلية بما احتوت عليه من جرائم دولية، إذ بذلك تصبح الجريمة الدولية جزءا من القانون الوطنى، وبالتالى تخضع لوسائل التنفيذ الموجودة فى النظام الداخلى، بما فى ذلك العقوبة. خير مثال على ذلك فى مصر ما نص عليه قانون الأحكام العسكرية رقم ٢٥ لسنة ١٩٦٦ من تأثيم جرائم الحرب الواردة فى اتفاقيات جنيف الأربعة باعتبار مصر هى إحدى الدول المصدقة عليها جميعا، فضلا عن تأثيم قانون العقوبات المصرى للعديد من الجرائم الدولية مثل زراعة المخدرات والاتجار فيها، والإرهاب. هذا هو ما يطلق عليه نظام التنفيذ غير المباشر، إذ إن القانون الدولى لا يطبق مباشرة على الأفراد ولكنه يطبق عن طريق الأنظمة القانونية الوطنية، وبالتالى يختلف ذلك عن نظام التنفيذ المباشر والذى يعتمد على إنشاء لجان ومحاكم جنائية دولية

للتحقيق والمحاكمة والمعاقبة، مثل المحكمة الدولية بنورمبرج، والمحكمة الدولية بطوكيو، والمحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة ICTY، والمحكمة الجنائية الدولية لرواندا ICTR، والمحكمة الجنائية الدولية ICC والتى سيرد الحديث عنها تفصيلا لاحقا.

هنا، من الجدير بالذكر أيضا أن النظام الجنائى الوطنى يعتمد على نظريات عديدة تسمح بامتداد الاختصاص الجنائى إلى خارج إقليم الدولة، ومنها نظرية الاختصاص العالمى التى تطبق فقط على بعض الجرائم الدولية المنصوص عليها فى الاتفاقيات الدولية أو العرف الدولى.

٣- اللجان والمحاكم الجنائية الدولية عبر التاريخ الحديث

(أ) مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى: بدأ ظهور نظام التنفيذ المباشر للعدالة الجنائية الدولية عن طريق اللجان والمحاكم الدولية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حينما نصت اتفاقية فرساى Versailles على إنشاء محكمة جنائية دولية لمحاكمة قيصر ألمانيا لارتكابه ما يوصف اليوم بجريمة العدوان، كما نصت الاتفاقية على محاكمة من ارتكبوا جرائم حرب وفقا للمفهوم السائد وقتئذ فى العرف الدولى. بيد أن تلك النصوص لم تطبق، وفشلت المحاولة لأسباب سياسية، إذ لجأ القيصر إلى هولندا فمنحته حق اللجوء السياسى، وتزايد الشعور بالسخط لدى الشعب الألمانى من جراء الاتهامات التى وجهت إلى الضباط الألمان بوصفهم مجرمى حرب دون غيرهم من الحلفاء. ونتيجة لذلك، تغاضى الحلفاء عن إنشاء محكمة جنائية دولية لمحاكمة مجرمى الحرب، وأسندوا محاكمة المتهمين إلى القضاء الألمانى فى ليبزج، مع إسناد مهمة الاتهام إلى النائب العام الألمانى، إلا أنه رفض اعتماد قائمة المتهمين التى أعدها الحلفاء متضمنة أسماء ٨٩٥ من الضباط الألمان واكتفى بمحاكمة ثلاثة وعشرين ضابطا منهم فقط. وفى نهاية المحاكمات، أصدرت المحكمة أحكاما جنائية بالإدانة ضد اثنى عشر ضابطا فقط من هؤلاء، بلغ أقصاها السجن ثلاث سنوات لقائد غواصة ألمانية أمر بتدمير وإغراق باخرة أسترالية كانت تحمل شعار الصليب الأحمر وعلى متنها ستمائة من جرحى الحرب الأستراليين والنيوزيلنديين، ولم يكتف بذلك، بل صعد إلى سطح البحر وأمر بإطلاق نيران المدافع الرشاشة على الناجين منهم فى عرض البحر مما جعل من هذه الجريمة أبشع الصور لجرائم الحرب فى المفهوم البحرى.

وعلى سياق ما تقدم، لعبت المصالح السياسية دورا آخر فى عدم إنشاء محكمة جنائية دولية لمعاقبة الأتراك الذين اتهموا فى عام ١٩١٥ بقتل ما يقرب من مليون أرمنى، إذ كانت تركيا حليفة لألمانيا فى الحرب العالمية الأولى. إن ما نسب للأتراك كان على سند من جريمة دولية جديدة أطلق عليها مصطلح «الجرائم ضد الإنسانية»، أخذا عن ديباجة اتفاقية لاهاى لعام ١٩٠٧ المعنية بتقنين العرف الدولى فى النزاعات المسلحة. استخدم هذا المصطلح لوصف الجرائم التى ارتكبت من قبل مواطنين أتراك ضد مواطنين أتراك أيضا داخل تركيا، إذ إنها كانت تشبه جرائم الحرب، إلا أن العرف الدولى المتفق عليه وقتئذ لم يتضمن ذلك حيث إن جرائم الحرب ترتكب من مقاتلى دولة ضد مقاتلى أو مواطنى دولة أخرى فى حين أن الجرائم ضد الإنسانية تشمل مواطنى الدولة. إلا أن هذه الجريمة المقترحة لم تحز رضاء كل دول الحلفاء، إذ اعترضت الولايات المتحدة الأمريكية واليابان عليها. هنا يتعين إدراك أن حقيقة الأمر تكمن فى أن الحلفاء تغاضوا عن محاكمة الأتراك رغبة فى احتواء الحكومة التركية الجديدة وقتئذ إلى جانب الدول الغربية فى مواجهة الاتحاد السوفيتى الذى تكون فى أعقاب الثورة البلشفية عام ١٩١٧.



مما تقدم يبين أنه لم تنشأ محاكم جنائية دولية بعد الحرب العالمية الأولى خلافا لما ورد فى نصوص اتفاقية Versailles، وبالتالى لم تطبق جريمة العدوان والجرائم ضد الإنسانية، أما عن جرائم الحرب، فلم تشكل لها أية محاكم جنائية دولية، وإنما محاكم وطنية لم تسهم فى تحقيق العدالة شكلا أو موضوعا.

من جماع ما تقدم، يبين بجلاء أن خبرات مرحلة فيما بعد الحرب العالمية الأولى أبرزت التصادم بين العدالة الجنائية الدولية والمصالح السياسية الدولية التى تتمثل فى مصالح الدول العظمى، بيد أن ذلك الصراع امتد فى أعقاب تلك الحرب وحتى يومنا هذا كما سيرد ذلك تفصيلا.

(ب) مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية: سارع الحلفاء الأربعة الكبار إلى توقيع اتفاقية لندن فى الثامن من أغسطس عام ١٩٤٥، والتى انضم إليها فيما بعد تسع عشرة دولة من الحلفاء والدول التى احتلتها ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية. وبموجب تلك الاتفاقية، أنشئت محكمة نورمبرج لمحاكمة كبار المسؤولين، وشكلت من أربعة قضاة وأربعة فرق ادعاء يمثلون الحلفاء الأربعة الكبار.

أما عن الجرائم التى اختصت محكمة نورمبرج بنظرها، فقد نص ميثاق نورمبرج على المعاقبة على ارتكاب الجرائم ضد السلام «العدوان»، جرائم الحرب، والجرائم ضد الإنسانية، وذلك على الرغم من عدم محاكمة أى من مرتكبى العدوان والجرائم ضد الإنسانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى.

أما عن قرار الاتهام، فقد تضمن أربعة وعشرين متهما فقط، حكم على اثنين وعشرين منهم، إذ انتحر أحدهم قبيل بدء المحاكمة وثبت أن آخر مختل عقليا،

محاكمة الطغاة

وتراوحت العقوبات فيما بين الإعدام والسجن خمسة عشر عاما.

أعقبت نورمبرج محاكمات أخرى في المناطق الأربعة التي كانت تحت سيطرة الحلفاء الأربعة الكبار الذين قسموا ألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فحاكمت الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة وفرنسا والاتحاد السوفيتي ما يزيد على عشرين ألفا من المتهمين بارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، بيد أنه من الجدير بالذكر أن الغالبية العظمى تمت محاكمتهم من قبل الاتحاد السوفيتي، فبلغ عدد من حكم عليهم بالإعدام قرابة العشرة آلاف. وفيما بعد، حاكمت الحكومة الفيدرالية الألمانية أكثر من مائة ألف متهم خلال السنوات الخمسين التالية على الحرب، ولم تزد عقوبات من أدينوا على السجن عشرين عاما.



أما على صعيد الميدان العسكرى الآسيوى، فقد أنشأ الجنرال Mac Arthur القائد العام لقوات الحلفاء في ذلك الميدان محكمة طوكيو الدولية على غرار محكمة نورمبرج لمعاقبة المتهمين بارتكاب ذات الجرائم المنصوص عليها بميثاق نورمبرج، فضمت المحكمة تسع عشرة دولة من حلفاء الميدان العسكرى الآسيوى، وبلغ عدد قضاتها تسعة عشر قاضيا، بينما تولت هيئة اتهام واحدة مهمة الادعاء أمام هذه المحكمة ضمت في عضويتها ممثلى الحلفاء جميعا تمكنت من إصدار قرار اتهام ضد ثمانية وعشرين متهما حوكموا جميعا.

أما عن الفارق في الأسلوب القانونى لإنشاء محكمتى نورمبرج وطوكيو، فيكمن في أن الجنرال Mac Arthur أراد التحكم في إنشاء محكمة طوكيو وإجراءاتها لعدم إعطاء الاتحاد السوفيتى فرصة أن يكون له دور فعال فيها، سيما أن الاتحاد السوفيتى لم ينضم للحلفاء في الميدان العسكرى الآسيوى إلا قبيل نهاية الحرب في الميدان الآسيوى بثلاثة أسابيع.

وفيما بعد، وعلى غرار ما حدث في أعقاب محاكمات نورمبرج، قامت دول الحلفاء، مثل الصين واستراليا ونيوزيلندا وفرنسا وهولندا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى بمحاكمة من ألقى القبض عليهم من اليابانيين في المناطق الواقعة تحت سيطرتها في آسيا فبلغ عدد الذين تمت محاكمتهم أكثر من خمسة عشر ألف متهم.

هنا، من الجدير بالذكر أن اليابان لم تحاكم أيًا من مواطنيها على ارتكاب جرائم حرب مثلما فعلت ألمانيا طوال الخمسين عاما التالية على انتهاء الحرب، إذ رفضت اليابان تحمل أية مسئولية في الوقت الذى مازالت فيه ألمانيا تدفع ملايين الدولارات لضحايا الهولوكوست، فبلغ حجم التعويضات الألمانية في الخمسينيات ثمانمائة مليون دولار، وأخيرا، ونتيجة لضغوط من الولايات المتحدة الأمريكية والمنظمة الصهيونية العالمية، وافقت الصناعات الألمانية في عام ١٩٩٩ على دفع أكبر تعويض في تاريخ البشرية، إذ بلغ خمسة مليارات وأربعمائة مليون دولار نتيجة استخدام الرقيق في الصناعة الألمانية إبان الحرب العالمية الثانية، علما بأن جزءا كبيرا من هذه التعويضات تتحصل عليه إسرائيل بزعم أنها وريثة المجنى عليهم عديمى الورثة.

أما عن اليابان، فعلاوة على عدم قيَامها بمحاكمة أى من مواطنيها المتهمين بارتكاب جرائم حرب، فقد أصرت لدى توقيع اتفاقية السلام مع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٣ بسان فرانسيسكو على عودة أسرى الحرب اليابانيين كافة، وجميع من حوكموا من الأسرى بتهمة ارتكاب جرائم حرب لاستكمال تنفيذ المتبقى من مدة العقوبة في سجن بمدينة

اليابان لم تحاكم أيًا من مواطنيها على ارتكاب جرائم حرب مثلما فعلت ألمانيا طوال الخمسين عاما التالية على انتهاء الحرب؛ إذ رفضت تحمل أية مسئولية في الوقت الذى مازالت فيه ألمانيا تدفع ملايين الدولارات لضحايا الهولوكوست، فبلغ حجم التعويضات الألمانية في الخمسينيات ثمانمائة مليون دولار

طوكيو، ومن ثم عاد جميع من صدرت ضدهم أحكام جنائية إلى اليابان في عام ١٩٥٣، فما كان من الحكومة اليابانية إلا أن أطلقت سراحهم في العام التالى مباشرة، بل الأدهى من ذلك أن عينت الحكومة اليابانية أحد من أدانتهم محكمة طوكيو الدولية وزيرا للخارجية وآخر رئيسا للوزراء في عام ١٩٥٤. علاوة على ما تقدم، مازالت الحكومة اليابانية ترفض تعويض الباقين على قيد الحياة من ثلاثمائة ألف من النساء من كوريا الجنوبية أجبرتهن القوات اليابانية إبان الحرب العالمية الثانية على العمل في الدعارة لصالح القوات اليابانية.

من الضرورى إدراك أن من أهم الانتقادات التي وجهت إلى محاكمات نورمبرج وطوكيو أنها كانت محاكمات المنتصرين للمهزومين، إذ لم يحاكم أى من الحلفاء المنتصرين الذين ارتكبوا جرائم حرب، فعلى سبيل المثال، دمر الطيران الأمريكى والبريطانى مدينة دريزدين الألمانية متسببا في مقتل أكثر من خمسة وثلاثين ألفا من سكانها المدنيين في ليلة واحدة من جراء قصفها بالقنابل الحارقة. كما أن التاريخ مازال، وسيظل، يذكر مقتل أكثر من مائتى ألف من المدنيين اليابانيين من جراء إلقاء الطيران الأمريكى للقنابل النووية على مدينتى هيروشيما ونجازاكى، إلا أن ذلك لا ينفى أن محاكمات جميع من أدانتهم محكمتا نورمبرج وطوكيو قد اتسمت بنوع من العدالة، إذ إنهم جميعا ارتكبوا ما نسب إليهم من جرائم، ومن ثم فلا ينتقص من شرعية محاكمتهم عدم محاكمة الآخرين ممن ارتكبوا ذات الأفعال، وإن كان ذلك نقصا في تطبيق مبدأ المساواة أمام العدالة يكمن علاجه في وجود محكمة جنائية دولية دائمة تتسم بالاستقلال السياسى والمساواة أمام القانون.

(ج) فترة الحرب الباردة وإنشاء محكمتى يوغوسلافيا ورواندا:

بنهاية الحرب العالمية الثانية بدأت هيئة الأمم المتحدة في محاولة تقنين القانون الجنائى الدولى وتبنى مقترح الجمعية الدولية للقانون الجنائى في عام ١٩٢٤ بإنشاء محكمة جنائية دولية، إذ طرحت هذه المشروعات أمام لجان خاصة بهيئة الأمم في السنوات ما بين ١٩٤٦ و١٩٥٤، إلا أن هذه الفترة شهدت بداية الحرب الباردة فتوقفت كل الجهود المعنية بتقنين القانون الجنائى الدولى وإنشاء محكمة جنائية دولية إلى أن انتهت الحرب الباردة بسقوط الاتحاد السوفيتى وحائط برلين عام ١٩٨٩.



تلاحقت الأحداث وشهد المجتمع الدولى ما يزيد على ٢٥١ نزاعا، إما دوليا أو داخليا، ارتكبت خلال الفترة من ١٩٤٥ وحتى عام ٢٠٠٠ فاسفر عن مقتل أكثر من سبعين مليون نسمة، وهو ضعف العدد الذى قتل في الحربين العالميتين، ومع ذلك فإن معظم من ارتكبوا تلك الفظائع فروا من العدالة دون عقاب. ويرجع السبب في ذلك إلى أسباب سياسية، ففى بعض الحالات كان من الضرورى لإيقاف الحرب التفاوض مع الزعماء الذين ارتكبوا جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية وإبادة الجنس البشرى، وبالتالى كان من الضرورى إعطاؤهم حصانة ـ إما قانونية أو فعلية ـ من المحاكمة فيما بعد. وفي حالات أخرى، كانت العلة وراء ذلك هى ضرورة التوفيق بين الأطراف المتصارعة لإعادة السلام. ونتيجة لتلك الاعتبارات، وعلى الرغم من تأثيم تلك الجرائم في القانون الجنائى الدولى والقوانين الداخلية للدول التى ارتكبت فيها، فقد تمكن من تسببوا في تلك الفظائع من تفادى أية مسؤولية جنائية، دولية كانت أم وطنية، إذ حالت تلك الاعتبارات السياسية بين تحمل هؤلاء للمسئولية الجنائية والعقاب. فعلى سبيل المثال، قامت فئة سياسية في كمبوديا تتبنى نظرية شيوعية متطرفة بقتل مليون نسمة في الفترة ما بين عامى ١٩٧٥ و١٩٨٥، وفى باكستان، قتلت القوات الباكستانية ما يربو على المليون نسمة من مواطنى بنجلاديش حينما طالبوا بالاستقلال عام ١٩٧٣، وفى الخمسينيات، قتل الاتحاد السوفيتى أكثر من عشرين مليون نسمة كجزء من حملة التطهير السياسى الذى أمر به ستالين، فضلا عن العديد من النزاعات الأخرى التى أسفرت عن وقوع عدد أقل من الضحايا مثل النزاعات التى حدثت في كل من السلفادور وجواتيمالا ولبنان، والأمثلة كثيرة، بيد أن الضحايا وعائلاتهم يتساءلون عن سبب عدم محاكمة مرتكبى تلك الفظائع؟

ومن هنا عادت فكرة إنشاء محكمة جنائية دولية إلى الظهور مرة ثانية، لاسيما في ظل الانتهاكات الجسيمة والتطور الخطير للأحداث التى شهدتها يوغوسلافيا السابقة بدءا منذ عام ١٩٩١، ونتيجة لما حدث في هذا النزاع، أصدر مجلس الأمن في ٦ أكتوبر عام ١٩٩٢ القرار رقم ٧٨٠ بإنشاء لجنة خبراء خاصة كان لى شرف رئاستها ـ بصفتى مصريا ـ عنيت بالتحقيق وجمع الأدلة حول المخالفات الجسيمة لمعاهدات جنيف والانتهاكات الأخرى للقانون الدولى الإنسانى في الصراع الدائر آنذاك بيوغوسلافيا السابقة. وبمطالعة تاريخ اللجنة وأعمالها يتبين بوضوح أنها كانت مفعمة بتأثير إنسانى وقانونى، فقد عرف القرار ٧٨٠ ما كلفت به لجنة الخبراء بما يلى:

«طلب مجلس الأمن من الأمين العام وبصفة عاجلة تشكيل لجنة محايدة من الخبراء تكون مهمتها تقييم وتحليل المعلومات المقدمة على أثر القرار ٧٧١ لسنة ١٩٩٢ والقرار الماثل، وللجنة الخبراء تنفيذاً للقرار ٧٧١ لسنة ١٩٩٢ جمع معلومات أخرى من خلال تحرياتها أو غيرها من الأشخاص أو الكيانات من أجل تقديم تقرير نهائى للسكرتير العام حول المخالفات الجسيمة لمعاهدات جنيف والانتهاكات الأخرى للقانون الدولى الإنسانى والتى ارتكبت في أراضى يوغوسلافيا السابقة».

وعلى الرغم من ذلك القرار الشامل، فقد واجهت اللجنة صعوبات شديدة نتيجة لعدم تلقيها دعمًا ماليًا من هيئة الأمم المتحدة للقيام بمهامها، إذ كانت المحاولات السياسية المستمرة لإيجاد حل سياسى لإنهاء النزاع تتعارض مع مهمة اللجنة في الكشف عن حقيقة النزاع والانتهاكات الجسيمة التى شهدتها. ونتيجة لذلك، وضعت المصاعب الإدارية والمالية في طريق اللجنة بهدف إعاقة أعمالها، وعدم إتاحة الفرصة لى ـ كرئيس للجنة ـ للقيام بما أسند إلى من مجلس الأمن، إلا أن يد العدالة كانت الأقوى إذ استطعت التغلب على تلك المصاعب، وتحصلت على الموارد المالية اللازمة لعمل اللجنة، وجمعت ما يزيد على ٣٠٠ متطوع ومنتدب من بعض الحكومات من ضباط القضاء العسكرى والقضاة المدنيين والأطباء وأخصائيى الطب الشرعى والمحامين وغيرهم. ونتيجة لذلك، قامت اللجنة بخمس وثلاثين حملة ميدانية تضمنت الكشف عن مائة وإحدى وخمسين مقبرة جماعية تراوح عدد الجثث في كل منها ما بين الخمس جثث والثلاثة آلاف، فبلغ إجمالى عدد القتلى ما يقرب من المائتى ألف، كما قامت اللجنة بإجراء أكبر تحقيق دولى حول جريمة الاغتصاب أسفر عن الكشف عما يقرب من العشرين ألف حالة اغتصاب لامرأة وفتاة أغلبهن من مسلمى البوسنة.

وبنهاية عمل اللجنة، توافرت أدلة دامغة على أن الجرائم التى ارتكبت ما كان يتسنى لها أن تتم بدون ضلوع بعض القيادات السياسية والعسكرية فيها، وعلى رأسهم ميلوسوفيتش وكاراديتش رئيس جمهورية بوسنا الصربية، وملاديتش قائد القوات الصربية في البوسنة، الأمر الذى بدت من خلاله أعمال اللجنة وكأنها تهديد للمفاوضات السياسية حيث إنه من الممكن تجاهل الاتهامات الواردة بالتقارير الإعلامية حيال مسئولية مرتكبى جرائم «التطهير العرقى» و«الاغتصاب المنظم»

محاكمة الطغاة

من أهم الانتقادات التي وجهت إلى محاكمات نورمبرج وطوكيو أنها كانت محاكمات المنتصرين للمهزومين، إذ لم يحاكم أي من الحلفاء المنتصرين الذين ارتكبوا جرائم حرب

وغيرهما من الانتهاكات المنظمة للقانون الإنساني الدولي، إلا أن إقامة الدليل على تلك الاتهامات كان هو الخطر السياسي الحقيقي، مما أدى إلى ضرورة إنهاء أعمال تلك اللجنة مع محاولة تفادي تلك النتائج.

وبعد عامين كاملين من التحقيقات وجمع الأدلة، أعدت اللجنة تقريرا ختاميا بلغ عدد صفحاته ثلاثة آلاف وخمسمائة ورقة، أرفق بها خمسة وستون ألف مستند، بالإضافة إلى ثلاثمائة ساعة تصوير فيديو، وثلاثة آلاف صورة فوتوغرافية، مما جعله الأطول في تاريخ مجلس الأمن.



كان من أهم ما انتهت إليه اللجنة في تقريرها هو التأكيد على استخدام القوات الصربية لسياسة التطهير العرقي والاغتصاب المنظم في جميع أنحاء البوسنة وكرواتيا خلال فترة زمنية تجاوزت العام ونصف العام في كرواتيا بينما قاربت على العامين ونصف العام في البوسنة، وذلك باتباع خطة وضعت سلفا طبقت من خلال سياسة واسعة النطاق وعلى أسس منهجية في أكثر من ثلاثة آلاف مدينة وقرية ونجع. وقد تم تسليم كل هذه المعلومات والأدلة إلى المدعي العام للمحكمة في أغسطس ١٩٩٤.

وبناء على ذلك التقرير، وعملا بتوصية لجنة الخبراء، أصدر مجلس الأمن في ٢٢ فبراير ١٩٩٣ قراره رقم ٨٠٨ بإنشاء محكمة جنائية دولية لمحاكمة الأشخاص المسئولين عن الانتهاكات الجسيمة للقانون الإنساني الدولي التي ارتكبت في أراضي يوغوسلافيا السابقة منذ عام ١٩٩١، وقد تطلب القرار ٨٠٨ أن يعد الأمين العام تقريراً حول إنشاء المحكمة الجنائية الدولية الخاصة خلال ستين يوماً. وتنفيذاً لذلك القرار قدم الأمين العام تقريراً تضمن مشروع النظام الأساسي للمحكمة وتعليقات على مواد النظام الأساسي.

وعلى اثر ذلك، وإعمالا لسلطات مجلس الأمن المخولة له بموجب الباب السابع من ميثاق هيئة الأمم المتحدة، والتي لم يسبق تفسيرها سلفا وفقا لذلك المفهوم، أصدر المجلس القرار رقم ٨٢٧ بإنشاء المحكمة مقرا لمشروع الأمين العام بدون تعديل، ومن ثم دخلت المحكمة حيز التنفيذ في ٢٥ مايو ١٩٩٣ بمقرها في لاهاي بهولندا.

وقد نصت المادة الأولى من النظام الأساسي للمحكمة على أن من سلطاتها محاكمة الأشخاص المسئولين عن الانتهاكات الجسيمة للقانون الإنساني الدولي والتي ارتكبت في يوغوسلافيا السابقة منذ عام ١٩٩١، بما يتلاءم مع نصوص النظام الأساسي الحالي، ومن ثم اختصت المحكمة بنظر الجرائم ضد الإنسانية وجرائم إبادة الجنس البشري وجرائم الحرب، كما نص النظام الأساسي أيضاً على المسئولية الجنائية الفردية بما في ذلك مسؤولية رئيس الدولة بالنسبة لبعض الانتهاكات المحددة والتي ارتكبت خلال الاختصاص المؤقت للمحكمة وتلك الجرائم هي الانتهاكات الجسيمة لمعاهدات جنيف عام ١٩٤٩، وانتهاك قوانين أو أعراف الحرب، الإبادة الجماعية، والجرائم ضد الإنسانية.

أما من حيث اختصاص المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة، فقد جاء على خلاف اختصاص محكمتي نورمبرج وطوكيو، واللتين اقتصر اختصاصهما على بعض مجرمي الحرب، إذ امتد اختصاص محكمة يوغوسلافيا لمعاقبة كل من ينتهك القانون الإنساني الدولي بغض النظر عن انتمائه لأي من أطراف النزاع.

هنا يتعين الإشارة إلى أن تبعية محكمة يوغوسلافيا لمجلس الأمن لاينال في حد ذاته من استقلال المحكمة، إذ نصت المادة ١٦ من النظام الأساسي على استقلالية الادعاء في هذه المحكمة على الرغم من كونه معيناً من قبل مجلس الأمن، وفي الواقع فقد ابتعدت المحكمة عن مجلس الأمن من خلال إدارتها التابعة لمكتب الشئون القانونية لسكرتارية الأمم المتحدة، بينما خضعت أعمالها الداخلية لقواعد العمل الإداري والمالي بالأمم المتحدة، ومن ثم، لم يقم مجلس الأمن بتمويل المحكمة وإنما تقوم الجمعية العامة بذلك من خلال ميزانيتها العادية.

كان التراخي في تعيين المدعي العام للمحكمة مؤشرا سياسيا آخر، إذ كان الأمين العام للأمم المتحدة قد رشحني في عام ١٩٩٣ لشغل منصب المدعي العام نظرا لإلمامي بكافة جوانب النزاع، إلا أن بريطانيا اعترضت على ذلك، وصدر مقال افتتاحي بصحيفة New York Times الأمريكية نسبت فيه إلى مصدر عال ببعثة المملكة المتحدة لدى هيئة الأمم أن سبب الاعتراض على ترشيحي هو أنني مسلم. وبالطبع، لا يمكن التصور أن يقال ذلك عن أي مرشح من ديانة أخرى دون أن تترتب على ذلك احتجاجات صارخة، بيد أن الأمر اقتصر في هذه الحالة على احتجاج قدمه السيد عمرو موسى وزير خارجية مصر آنذاك في اجتماع دول المؤتمر الإسلامي، وانضم إليه فيه العديد من ممثلي الدول الإسلامية. وبعرض الترشيح على مجلس الأمن، أسفر التصويت على ذلك القرار عن موافقة سبع دول واعتراض سبع أخرى وامتناع دولة واحدة فلم تتم الموافقة على الترشيح واستمرت المفاوضات أربعة عشر شهراً إلى أن رشحت الولايات المتحدة الأمريكية ريتشارد جولدستون، فوافقت الدول الأعضاء بمجلس الأمن عليه. من ناحية أخرى، فعلى الرغم من أن القرار رقم ٨٢٧ كان قد نص على أن تقوم لجنة الخبراء بمواصلة عملها حتى يتم تعيين مدع عام، إلا أنه تم إنهاء أعمال لجنة الخبراء مبكراً بموجب قرار إداري صدر في ٣٠ أبريل ١٩٩٤، بينما لم يتم تعيين المدعي العام إلا في ١٥ يوليو ١٩٩٤ على الرغم مما قد يسببه التباطؤ البيروقراطي من قطع الصلات بين لجنة الخبراء والمدعي العام الذي كان مطالباً بالبدء فوراً في تحقيقاته مع تأجيل أي قرارات اتهام، إلا أنه نتيجة لما قدمته من تعاون -بصفتي رئيسا للجنة- للمدعي العام، استطاع الأخير في خلال أشهر قليلة من توليه منصبه أن يباشر مهامه عمله.

هنا، من الجدير بالذكر أن ميلوسوفيتش لم يقدم إلى محكمة يوغوسلافيا إلا مؤخرا، إذ كان من الضروري الإبقاء عليه لتوقيع اتفاق السلام الذي وقع في Dayton، واستمر الحال على ما هو عليه حتى أعاد ميلوسوفيتش الكرة مرة أخرى بأن كرر ما فعله في البوسنة في كوسوفو، بيد أنه اتهم هذه المرة بارتكاب جرائم التطهير العرقي في كوسوفو فقط، واستمر في الحكم ضاربا بهذا الاتهام عرض الحائط حتى تم تغيير نظام الحكم في صربيا، فتم تسليمه إلى المحكمة، وحتى الآن لم تصدر المحكمة قرار الاتهام ضده. وهنا يتساءل البعض عما إذا كان عدم معاقبته على ما ارتكبه في كرواتيا والبوسنة هو مقابل توقيعه على اتفاق السلام في Dayton؟



أما عن الأحداث في رواندا، فقد اتبع مجلس الأمن ذات الأسلوب الذي اتبعه في معالجة الأحداث التي ارتكبت في يوغوسلافيا السابقة، إذ إن صراع التوتسي والهوتو أسفر عن مصرع مئات الآلاف في غضون أشهر قلائل مما دفع مجلس الأمن إلى تبني القرار رقم ٩٣٥ في يوليو ١٩٩٤، والمعني بإنشاء لجنة الخبراء للتحقيق في الانتهاكات الخطيرة للقانون الدولي الإنساني إبان الحرب الأهلية في رواندا، بما في ذلك جرائم الإبادة الجماعية والإبلاغ عنها للسكرتير العام للأمم المتحدة، بيد أن هذه اللجنة باشرت أعمالها لمدة ثلاثة أشهر فقط، فكانت تلك المدة غير كافية لكي تقوم اللجنة بالمهام المسندة إليها على الوجه الأكمل.

وقد عمل مجلس الأمن جاهداً على ألا تتبع لجنة رواندا ذات النهج الذي سارت عليه لجنة خبراء يوغوسلافيا، فتم تكليف لجنة رواندا بمهام محددة عليها أن تنتهي منها خلال ثلاثة أشهر فقط، وبدون التحقيق في أية ادعاءات محددة، ومن ثم أمضت لجنة الثلاثة أشهر أسبوعا واحدا في موقع الأحداث دونما تحقيقات، وفي النهاية جاء تقريرها النهائي، والذي قدم في ٩ ديسمبر ١٩٩٤، مكونا من سبع وثلاثين ورقة فقط حرر على غرار التقرير النهائي للجنة خبراء يوغوسلافيا، إلا أنه افتقد دقة وعمق الأخير، إذ جاء مبنياً على تقارير أصدرتها آليات أخرى وتقارير الصحف ووسائل الإعلام.

وبناء على ذلك التقرير، أصدر مجلس الأمن قراره رقم ٩٥٥ متضمنا النظام الأساسي لمحكمة رواندا، والذي جاء على غرار النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة، فنص على أن تكون مدينة أروشا بتنزانيا مقرا للمحكمة نظرا لصعوبة إقامتها برواندا، كما نص على اختصاصها بنظر المخالفات التي وقعت خلال الفترة من ١ يناير ١٩٩٤ وحتى ٣١ ديسمبر ١٩٩٤.

هنا، من الجدير بالذكر أن محكمتي رواندا ويوغوسلافيا تقاسمتا ذات المدعي العام وذات الدائرة الاستئنافية، وهو ما يعتبر تركيبة غريبة لمحكمتين منفصلتين تم إنشاؤهما كل على حدة بمعرفة مجلس الأمن من خلال قرارين منفصلين، إذ إن الولايات المتحدة -والتي كانت وراء تلك التركيبة- أرادت أن تتفادى التأخر في اختيار المدعي العام كما كان عليه الحال في المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة، كما كان السبب الوحيد وراء اشتراك المحكمتين في دائرة استئناف واحدة هو توفير النفقات، بيد أن اختيار مدع عام واحد لكلتا المحكمتين كان اختياراً غير موفق، نظراً لأنه من غير الممكن لأي شخص -بغض النظر عن مدى كفاءته- مراقبة عمل مكتبي ادعاء رئيسيين يفصل بينهما ١٠,٠٠٠ ميل، حيث إن مجرد فكرة انتقاله فيما بين لاهاي في هولندا وأروشا في تنزانيا لأداء عمله المعتاد يعتبر أمرا غير منطقي.

أما من حيث مكان انعقاد المحكمة، فلقد كان قرار إنشاء المحكمة في دولة أخرى حدثاً غير مسبوق تطلب عقد اتفاق بين الأمم المتحدة وتنزانيا، تستضيف الأخيرة بموجبه المحكمة، وهو الأمر الذي استغرق وقتاً للوصول إلى قرار بات فيه، إذ إن أغلب المدعى عليهم والشهود كان يتعين عليهم الحضور من رواندا، علاوة على أن مدينة أروشا Arusha لم تكن بالمكان المثالي لإقامة المحكمة، ومن ثم اضطرت الأمم المتحدة إلى إنشاء البنية اللازمة للمحكمة بدءاً من لا شيء في ظل ظروف قاسية.

هنا، يتعين إدراك أن محكمة يوغوسلافيا كانت أسعد حظا وحالا بصفة عامة من محكمة رواندا، إذ حازت الأولى درجة كبيرة من الاهتمام والعناية، كما خصص لها ضعف الموارد المالية التي خصصت لمحكمة رواندا. وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن بسياسة تتبعها هيئة الأمم المتحدة، إلا أن ازدواجية المعايير لعبت دورا هاما بالنسبة لهاتين المحكمتين حيث إن إحداهما أوروبية والأخرى أفريقية، وهو الأمر الذي يبين بجلاء لمن يتتبع ما يحدث في المحكمتين، وما ينتج من عملهما، وما تراقبه وسائل الإعلام الدولية.

٤- النزاعات الأخرى

هناك العديد من النزاعات التي أسفرت عن وقوع الكثير من الضحايا على أيدي مرتكبي جرائم دولية، إلا أنه لم يشكل لأي منها لجان تقصى للحقائق أو محاكم دولية خاصة. ففي نزاع ليبيريا خلال العقد الماضي لقي أكثر من ثلاثمائة ألف نسمة حتفهم، كما لقي ثلاثمائة ألف آخرين حتفهم في نزاع سيراليون، واستخدمت سياسة

الاغتصاب وقطع أيدي وأرجل الأطفال بهدف منعهم من المشاركة في أعمال القتال في المستقبل. أما في كمبوديا، فقد قتل فيها مليون نسمة خلال الأعوام ما بين ١٩٧٥ و ١٩٨٥، فانشئت محكمة وطنية في الشهر الماضي من المقرر أن يشارك فيها بعض القضاة الأجانب، وسيقتصر اختصاصها على بعض الحالات معظمها ممن عارضوا الحكومة الحالية. أما في الأرجنتين، ففي محاولة لإظهار الاهتمام بالعدالة عقب مقتل ثلاثين ألف نسمة، حوكم سبعة ضباط في أعقاب تغيير النظام العسكري فيها، بيد أن قانونا بالعفو على غيرهم صدر عقب ذلك. أما في شيلي، فقد أصر الجنرال أوجستو بينوشيه قبل قبوله التنحي عن الحكم العسكري على إصدار قانون بالعفو، فما كان من أسبانيا إلا أن طلبت من بريطانيا تسليمه لها في عام ١٩٩٩ عملا بمبدأ الاختصاص العالمي، بيد أن الأخيرة رفضت وأعادته إلى شيلي حيث وجد نفسه أمام قرار اتهام لم يؤخذ فيه بقانون العفو.

هنا، لابد من إدراك أن تلك القوانين الخاصة بالعفو لا شرعية لها، إذ أنها مخالفة للقانون الجنائي الدولي الذي لا يعترف بالعفو والتقادم بالنسبة لجرائم الحرب وإبادة الجنس البشري والجرائم ضد الإنسانية والتعذيب، كما أنها تخالف مفهوم العدالة في الأنظمة القانونية الوطنية كافة.



وهكذا تسير العدالة الجنائية الدولية، انتقائية وخاضعة للاعتبارات والمواءمات السياسية، إذ لم يحاكم أحد في إسرائيل عن الانتهاكات اليومية ضد الشعب الفلسطيني منذ عام ١٩٤٨، ولم يحاكم شارون عما ارتكبه من جرائم في صابرا وشاتيلا، أو قتل المصريين أسرى الحرب في حرب ١٩٥٦ وغيرها، بيد أن ذلك الصراع بين العدالة الجنائية الدولية والاعتبارات السياسية مازال قائما، وسيستمر سنوات طوالا إلى أن تتحقق العدالة وتصل إلى مسارها الطبيعي.

الحاجة إلى محكمة جنائية دولية

أبرزت الخبرات السابقة لمحاكم أو لجان دولية خاصة حاجة المجتمع الدولي إلى نظام دائم للعدالة الجنائية الدولية. إذ إن تلك المحاكم كانت مخصصة لمتهمين محددين في نزاعات محددة، ومن ثم أثارت تلك المحاكم وقوانينها وعقوباتها تساؤلات جوهرية حول مدى اتفاقها مع مبادئ الشرعية والاعتبارات العامة الأخرى للعدالة، إذ شعر البعض عقب الحرب العالمية الثانية بان الحلفاء يطبقون قانوناً خاصاً لأنفسهم وقانوناً آخر للمهزومين، فاطلق على محاكمات أوروبا والشرق الأقصى «انتقام المنتصرين». علاوة على ذلك، فإن إنشاء مجلس الأمن لمحكمتي يوغوسلافيا ورواندا قد أثار بعض علامات الاستفهام حول الدوافع السياسية لإنشاء مثل تلك المحاكم لتلك النزاعات في الوقت الذي كان العالم يشهد فيه نزاعات عديدة أخرى في مختلف أنحاء العالم لم تنشأ لها لجان تحقيق أو محاكم، وهو ما وصف عقب ذلك بالانتقائية في إنشاء محاكم خاصة لنزاعات دون نزاعات أخرى.

أما عن أهمية وجود آلية جنائية دولية، فمثل هذه الآلية الدائمة من شأنها أن تغني عن إنشاء محاكم خاصة كلما اقتضت الحاجة إلى ذلك، إذ إن قرار إنشاء تلك المحاكم يستغرق وقتاً طويلاً لإقراره، مما يؤدي إلى صعوبة

محاكمة الطغاة

أصدر مجلس الأمن في ٦ أكتوبر عام ١٩٩٢ القرار رقم ٧٨٠ بإنشاء لجنة خبراء خاصة كان لي شرف رئاستها - بصفتي مصريا - عنيت بالتحقيق وجمع الأدلة حول المخالفات الجسيمة لمعاهدات جنيف والانتهاكات الأخرى للقانون الدولي الإنساني في الصراع الدائر آنذاك بيوغوسلافيا السابقة

الحصول على أدلة الجرائم وتبدد الرغبة السياسية لإجراء تلك المحاكمات، فضلا عما يكتنف قرار إنشاء المحكمة واختيار المدعي العام والقضاة من اعتبارات سياسية قد لا تخدم العدالة.

ومن هنا، بدأ الرأي العام العالمي ينادي بضرورة إنشاء نظام عدالة جنائية دولية عادلة وناجزة إذ إنه لم يعد من المقبول بعد ذلك أن تكون الحصانة هي المكافأة التي ينالها أولئك الذين يرتكبون أفظع الجرائم الدولية وانتهاكات حقوق الإنسان، فبالإضافة إلى العديد من أولئك الذين أفلتوا من المحاكم الخاصة والتي أنشئت عقب بعض النزاعات الدولية فإن هناك مجرمين آخرين لم يمثلوا أمام العدالة لما ارتكبوه من جرائم في منازعات داخلية عديدة.

وإدراكا لما تقدم، قامت لجنة القانون الدولي بتطوير تفويض الجمعية العامة لها في عام ١٩٨٩ بالنظر في تشكيل محكمة جنائية دولية خاصة بالتجارة غير المشروعة في المخدرات إلى ما أطلق عليه «مشروع النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية»، والذي تضمن جرائم أخرى، إذ كان مقتبسا من مشروع نظام أساسي للمحكمة الجنائية الدولية لمحاكمة مرتكبي جريمة التمييز العنصري في جنوب أفريقيا قمت بوضعه في عام ١٩٨٠ بتكليف من لجنة حقوق الإنسان بهيئة الأمم. وبناء على ذلك المشروع، وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على أن تقوم اللجنة الخاصة بالنظر في إنشاء المحكمة الجنائية الدولية عام ١٩٩٥، ثم تلتها اللجنة التحضيرية لإنشاء المحكمة الجنائية الدولية، وقد انتخبت نائبا للرئيس فيهما بصفتي ممثلا لمصر.

وفي أبريل ١٩٩٨ انتهت بالفعل اللجنة التحضيرية من أعمالها، وتم إقرار مشروع إنشاء المحكمة الجنائية الدولية تمهيداً لمناقشته في المؤتمر الدبلوماسي بروما الذي تقرر انعقاده بروما في الفترة ما بين ١٥ يونيو إلى ١٧ يوليو ١٩٩٨.

في ١٥ يونيو ١٩٩٨ قام الأمين العام للأمم المتحدة ورئيس جمهورية إيطاليا بافتتاح أعمال المؤتمر بمقر منظمة الزراعة العالمية بروما، والذي حضره ممثلو ١٦٠ دولة و١٧ منظمة حكومية و٢٣٨ منظمة غير حكومية، وفي تلك الجلسة تم انتخاب وزير العدل الإيطالي السابق جوفاني كونسو رئيساً للمؤتمر، والسفير فيليب كيرش مدير الإدارة القانونية بوزارة الخارجية الكندية رئيساً للجنة الجامعة، كما تم انتخابي رئيساً للجنة الصياغة.

ضمت لجنة الصياغة في عضويتها خمسا وعشرين دولة كان من بينهما سوريا ولبنان والسودان بالإضافة إلى الدول الخمسة الأعضاء الدائمين بمجلس الأمن، وقد استطاعت اللجنة من خلال عمل متواصل لمدة خمسة أسابيع كاملة استمر حتى اللحظات الأخيرة من عمر المؤتمر أن تتوصل إلى مائة وعشر مواد تتضمن تلك التي تنص على إنشاء المحكمة والجزء العام والأجزاء الإجرائية وضوابط التعاون الدولي والنظامين الداخلي والقضائي للمحكمة، فضلاً عن علاقة المحكمة بهيئة الأمم المتحدة والنصوص النهائية التي تتضمنها تقليديا المعاهدات الدولية متعددة الأطراف، بيد أن أروع لحظات المؤتمر، وما سبقه من إعداد وتحضير، تلك التي أعلن فيها في ١٧ يوليو آخر أيام المؤتمر نتيجة التصويت لصالح إنشاء المحكمة إذ أيدت ١٢٠ دولة إنشاء المحكمة بينما امتنعت ٢١ دولة عن التصويت، واعترضت سبع دول فقط على إنشائها من بينها الولايات المتحدة الأمريكية.

استمر ذلك التأييد الدولي للمحكمة حتى اليوم التالي ١٨ يوليو إذ سارعت ٢٦ دولة (من بينهما فرنسا وكندا وألمانيا وهولندا وإسبانيا) في اليوم الأول لافتتاح الاتفاقية للتوقيع عليها من قبل الحكومات بالتوقيع عليها معلنين تأييدهم المباشر وانضمامهم لها، وحتى كتابة هذه السطور، أصبح عدد الدول التي صدقت على نظام روما الأساسي سبعا وثلاثين دولة بعد أن قامت هولندا بالتصديق في السابع عشر من يوليو ٢٠٠١، فضلا عن أن هناك أكثر من ثلاثين دولة بصدد اتخاذ إجراءات التصديق.

من الضروري إدراك أن هذه المحكمة قائمة على خمسة مبادئ أساسية، أولها: أنها نظام قضائي دولي نشأ بعزيمة الدول الأطراف المنضمة إلى الاتفاقية المنشئة للمحكمة، ثانيا : أن اختصاص المحكمة سيكون اختصاصا مستقبليا فقط، وليس من الوارد إعماله بأثر رجعي. ثالثا : أن اختصاص المحكمة مكمل للاختصاص القضائي الوطني. رابعا: أن ذلك الاختصاص يقتصر على ثلاث جرائم فقط هي إبادة الجنس البشري، الجرائم ضد الإنسانية، وجرائم الحرب. خامسا: أن المسئولية المعاقب عليها هي المسئولية الفردية فقط.

ولقد كانت مسالة علاقة المحكمة بهيئة الأمم المتحدة من النقاط الحيوية التي أثارت بعض الخلافات. إلا أنه قد بات جلياً أن هذه المحكمة منشأة بموجب تلك الاتفاقية الدولية وليست جزءا من هيئة الأمم ولكنها سوف ترتبط بها باتفاقية خاصة ستبرم بعد أن تدخل الاتفاقية المنشئة للمحكمة حيز التنفيذ، وسيكون ذلك بعد التصديق على الاتفاقية من قبل ٦٠ دولة، وهو الأمر المتوقع حدوثه قبل حلول عام ٢٠٠٣.

كان من ضمن المقترحات المصرية التي انضمت إليها دول عدم الانحياز ودول المجموعة العربية ألا يكون لمجلس الأمن سيطرة على المحكمة، وقد أحرز ذلك الموقف نجاحاً حينما استقر الرأي على أن يكون لمجلس الأمن مجرد صلاحيتين، الأولى : أن يكون له حق تقديم حالة إلى المحكمة مثله مثل أية دولة أخرى منضمة للاتفاقية، على ألا تكون هذه الإحالة ضد أشخاص معينين أو مقصورة على ظروف خاصة، ولكن يكتفي بالإشارة إلى حالة ما أو ما قد يحدث في أية منطقة. والصلاحية الثانية : أنه لمجلس الأمن أن يطلب إرجاء نظر دعوى ما لمدة اثنى عشر شهرًا إذا كان المجلس ينظر في موضوع يعتبر مخلاً بالسلام والأمن الدولي بموجب البند السابع من ميثاق هيئة الأمم الذي يعطي للمجلس هذه الصلاحية.

أما من حيث الطبيعة القانونية للمحكمة، فهي نظام قضائي مكمل للاختصاص الجنائي الوطني، إذ إن الأولوية دائما تكون للنظم القضائية الوطنية، ولا ينتقل الاختصاص للمحكمة الجنائية الدولية إلا في حالتين فقط وردتا على سبيل الحصر، أولاهما: إذا ما تسبب النزاع في انهيار النظام القضائي الداخلي كما كان الوضع في يوغوسلافيا ورواندا، وثانيتهما: حينما يرفض أي نظام وطني القيام بدوره القضائي، أو يعجز عن القيام به نتيجة لظروف غير عادية، مثل عدم وجود استقلال قضائي أو وجود تدخل من السلطة التنفيذية قد يمنع القضاء من القيام بدوره. ومع ذلك يتحتم بموجب الاتفاقية أن يقدم المدعي العام طلب التحويل إلى غرفة الشؤون الإدارية ويعلن الدولة المعنية به حتى يتسنى لها الاعتراض على ذلك، ثم تنظر الغرفة الطلب وتصدر قرارها. وللدولة المعنية أن تستأنف ذلك القرار أمام غرفة الاستئناف التي تنظره ثم تصدر قرارها.

كان من بين النقاط أيضا التي أثارت خلافا تلك المتعلقة بصلاحيات المدعي العام، فهل له أن يبدأ التحقيق من تلقاء نفسه كما هو الأمر في النظم القانونية الداخلية؟ اعترض العديد من الدول على ذلك خوفاً من سوء استغلال تلك الصلاحية، أو استخدامها من قبل المنظمات غير الحكومية التي ترغب في إحراج بعض الدول. إلا أن الرأي استقر في النهاية على إعطاء هذه الصلاحية للمدعي العام مع وجود رقابة قضائية على سلطته في ذلك تتمثل في نوعين الأول : أنه على المدعي العام الحصول على إذن من غرفة الشئون الابتدائية التي تتكون من

محاكمة الطغاة

ثلاثة قضاة قبل البدء في التحقيق، وتحدد الغرفة مهلة زمنية لذلك الإذن، أما الثاني: فهو أنه لا يستطيع أن يصدر قرار الاتهام، وإنما تصدره غرفة الشئون الابتدائية التي تعمل في هذا الصدد بمثابة غرفة الاتهام، وذلك بناء على طلب يقدمه المدعى العام مصحوبا بالأدلة المتوافرة لديه. ومن ثم يتضح أن هذين النوعين من الرقابة القضائية يضمنان عدم تعسف المدعى العام في سلطاته بما يؤكد نزاهة الادعاء الجنائي في المحكمة. وفي كل الأحوال، للشخص استئناف قرار الاتهام أمام غرفة مكونة من خمسة قضاة.

أما عن الجرائم التي دخلت في اختصاص المحكمة حتى الآن فهي ثلاث جرائم: جريمة إبادة الجنس البشرى، الجرائم ضد الإنسانية، وجرائم الحرب. هنا، من الجدير بالذكر أن عددا من الدول بينها ألمانيا، إيطاليا، ومصر قد طالبوا بإدراج جريمة العدوان ضمن الجرائم الواردة في اختصاص المحكمة، وأيدهم في ذلك العديد من الدول الأخرى، بيد أنه نظراً لمطالبة غالبية الدول بأن لا يكون لمجلس الأمن دور في تقرير وجود حالة عدوان من عدمه ـ على خلاف ما ورد بالبند السابع من ميثاق هيئة الأمم من حق المجلس في تقرير وجود حالة عدوان ـ فلم يكن من الممكن التوفيق بين الدول الراغبة في عدم إيجاد دور لمجلس الأمن في تقرير حدوث حالة عدوان والدول التي كانت تؤكد دور مجلس الأمن في هذا التقدير. وفي النهاية أدرج بالنظام الأساسي نص خاص جاء به أن تعريف جريمة العدوان سيتم الاتفاق عليه لاحقاً في مؤتمر لمراجعة هذا الموضوع تنص عليه الاتفاقية بعد ٧ سنوات من دخولها حيز التنفيذ، وبالتالي سيعلق تطبيق جريمة العدوان إلى حين تعريفها. وبهذا الحل التوفيقي أنصفت الدول التي كانت ترغب في إدراجها ضمن الجرائم المعاقب عليها بموجب اختصاص المحكمة ولكن علق التعريف والتطبيق إلى فترة زمنية مقبلة.

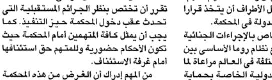
أما عن جرائم الحرب فتندرج في اختصاص المحكمة سواء ارتكبت في نزاعات دولية أم غير إقليمية وفقا لما أوردته اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩ والملحقان الإضافيان لعام ١٩٧٧، والتي صدقت عليها جميعا معظم الدول ومن بينها مصر.

أما عن الجرائم ضد الإنسانية، فهي تتكون من ثلاثة عناصر، الأول: أنها ترتكب من قبل الدولة كسياسة تتبعها، الثاني : أن تمارس الدولة أفعالاً تكون مبنية على اضطهاد فئة معينة من المجتمع، والثالث : أن تكون تلك الممارسات تتم بصفة مستمرة ومنظمة وعلى نطاق واسع من قبل الدولة.

أما جريمة إبادة الجنس البشرى فقد تبنى نظام روما الأساسي التعريف الخاص بها في اتفاقية الأمم المتحدة لمنع الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها لعام ١٩٤٨، والتي صدقت مصر عليها عام ١٩٥٢، ومن ثم لم يثر بشأنها أي خلاف.

أما عن التعاون القضائي فيما بين المحكمة والدول الأطراف، فقد كانت المحكمة الجنائية الدولية مكملة للنظم الجنائية الوطنية إذ إنها أنشئت بموجب اتفاقية دولية تصدق عليها الدول الأطراف، ومن ثم يصبح النظام الأساسي للمحكمة جزءا من القانون الوطني، وتنفذ أحكامها في الإقليم الداخلي من خلاله، كما أن لكل دولة الحرية في إبرام اتفاقية ثنائية خاصة مع المحكمة لقبول المحكوم عليهم في سجونها. العلاقة بين المحكمة والدول ليست علاقة دولة أجنبية ذات سيادة وإنما علاقة منظمة دولية نشأت بعزيمة الدول الأطراف في المعاهدة. أما في حالة إذا ما رفضت دولة ما التعاون مع المحكمة بأن رفضت تسليم متهم، فمن حق مجلس الدول الأطراف أن يتخذ قرارا بتجميد عضوية تلك الدولة في المحكمة.

كان الأمين العام للأمم المتحدة قد رشحني عام ١٩٩٣ لشغل المنصب، إلا أن بريطانيا اعترضت، وذكر مصدر عال بيعثتها لدى هيئة الأمم أن سبب الاعتراض هو أنني مسلم. ولا يمكن تصور أن يقال ذلك عن أي مرشح من ديانة أخرى دون أن تترتب على ذلك احتجاجات صارخة



أما عن الجزء الخاص بالإجراءات الجنائية أمام المحكمة، فقد جمع نظام روما الأساسي بين الأنظمة القانونية المختلفة في العالم مراعاة لما ورد في الاتفاقيات الدولية الخاصة بحماية حقوق المتهم وحقوق الضحايا. ومن الجدير بالذكر أن مصر كانت من بين الدول التي اقترحت منح المجنى عليهم الحق في التعويض، وتم إدراج ذلك في النظام الأساسي. أما فيما يختص بالعقوبات فإن أقصى عقوبة هي السجن مدى الحياة، وتترك الاتفاقية لكل دولة حق تطبيق عقوبة الإعدام بموجب أنظمتها القانونية الداخلية في حالة ما إذا حاكمت أي شخص متهم بارتكاب جريمة من الجرائم التي تدخل في اختصاص المحكمة.

أما عن ميزانية المحكمة فقد تقرر أن يتم تمويلها لمدة خمس سنوات من ميزانية الجمعية العامة ثم تتحمل الدول الأطراف عقب ذلك عبء تمويل المحكمة التي سوف تتخذ من لاهاى بهولندا مقراً لها.

أما عن التشكيل القضائي للمحكمة فتتكون من سبعة عشر قاضيا يتم انتخابهم بواسطة مجلس الدول الأطراف من بين من ترشحهم الدول الأطراف في المحكمة، ويشترط أن يكون المرشح من أعلى الدرجات القضائية ولا تقل خبرته في ذلك المجال عن خمسة عشر عاماً، أو أن يكون أستاذا جامعيا ذا خبرة عالية في مجال القانون الجنائي الدولي.

تتكون المحكمة من غرفتين للشئون الابتدائية لكل منهما ثلاثة قضاة، وغرفتي محاكمة لكل منهما ثلاثة قضاة وغرفة استئناف مكونة من خمسة قضاة، ويقوم مجلس الدول الأطراف بإجراء قرعة بين القضاة لتحديد مدة خدمة كل منهم حيث تستمر خدمة ثلثهم تسع سنوات والثلث الآخر ست سنوات والثلث الأخير ثلاث سنوات.

أما عن المدعى العام والمسئول عن إدارة المحكمة «المسجل»، فيتم انتخابهم بواسطة مجلس الدول الأطراف لدى اجتماعها أول مرة عقب دخول المحكمة حيز التنفيذ.

أما عن الاختصاص الزمني للمحكمة، فقد تقرر أن تختص بنظر الجرائم المستقبلية التي تحدث عقب دخول المحكمة حيز التنفيذ. كما يجب أن يمثل كافة المتهمين أمام المحكمة حيث تكون الأحكام حضورية وللمتهم حق استئنافها أمام غرفة الاستئناف.

من المهم إدراك أن الغرض من هذه المحكمة ليس سوى ترسيخ الشرعية الدولية إذ عليها أن تقوم بدور الردع تجاه من يرتكبون هذه الجرائم البشعة درءاً للأضرار الجسيمة التي تصيب البشرية، ولابد لهذه المحكمة أن تكون إحدى دعائم العدالة الجنائية الدولية لكي لا يفر مرتكبو الجرائم والانتهاكات الجسيمة ضد البشرية من العقاب.

خاتمة

نحن نعيش في عصر العالمية (العولمة)، فقد أصبح العالم مثل القرية الصغيرة تقاربت أطرافه، كما ساعدت ثورة الاتصالات التكنولوجية على سهولة الاتصالات بين الأفراد وسرعة نقل المعلومات بين مشارق الأرض ومغاربها في ثوان معدودة، وباتت الأسواق الاقتصادية العالمية وأسواق المال متصلة ببعضها البعض فإن هبط مؤشر إحداها تأثرت اقتصاديات باقي دول العالم. كيف إذن نستطيع أمام كل ذلك وغيره أن نقول أن العالمية قد شملت كل شيء عدا العدالة؟

من الضروري أن ننظر إلى الماضي كي نتعلم من الحضارات البشرية القديمة، فلقد شهدت البشرية على مر العصور أكثر من أربعين حضارة، مثل الحضارة الفرعونية والبابلية واليونانية والرومانية وحضارتي الصين والهند، وكان لكل منها، على اختلاف نظم حكمها، نظام قانونياً خاصاً يضمن العدالة الجنائية. علاوة على ذلك، كان هناك نظام قانوني وعدالة جنائية لدى القبائل والشعوب التي عاشت خارج تلك الحضارات آنفة البيان، ومن ثم، نرى أن كل مجتمع بشرى يحتاج إلى نظام قانوني وعدالة جنائية، وربما خير دليل على ذلك أن الأديان السماوية الثلاثة تنادى بالعدالة بين الناس، فنجد أن المولى عز وجل قد وصف نفسه في القرآن الحكيم بالعادل، ونادى فيه مرارا بالعدالة بين الناس أجمعين، كما أتت الشريعة الإسلامية الغراء بنظام قانوني متكامل اشتمل على نظام للعدالة الجنائية نص فيه على جرائم الحدود والقصاص والتعزير، ووضع ضوابط للمحاكمة تكفل حقوق المتهم والمجنى عليه وما أوردته نظم العدالة الجنائية كافة. كيف نستطيع إذاً أن نحول بين ما أوصى به المولى عز وجل وهذه الخبرة البشرية على طوال سبعة آلاف سنة من خبرات مختلفة وبين تطبيقها على الصعيد الدولي؟

كيف يكون قتل فرد واحد جريمة تعاقب عليها التشريعات الوطنية كافة، بينما ليس هناك عقاب على قتل الآلاف، بل والملايين؟ ولاسيما أن الجرائم الدولية لم تأت بجديد لما تضمنته الأنظمة القانونية الجنائية في العالم، بل أضافت إليها مفهوما لا تحده نظرية الإقليم الوطني ولا تبيحه القوانين الخاصة التي يصدرها الدكتاتوريون.

من الضروري إدراك أن القانون الجنائي الدولي يطبق عن طريق التعاون بين الأنظمة الجنائية الوطنية وفقا لمبدأ وجوب المحاكمة أو التسليم، أو عن طريق محكمة جنائية دولية دائمة، وبهذه الطريقة يمكن تفادي سياسة الانتقائية وتسييس العدالة، ولكن حتى نصل إلى هذه المرحلة، هناك مراحل عديدة يتعين تجاوزها. أولاها: أن تصدق ستون دولة على النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية حتى تدخل المحكمة حيز التنفيذ في أقرب وقت، وللأسف، فلم تصدق حتى الآن أية دولة عربية على النظام الأساسي، في ذات الوقت الذي كان متوقعا فيه أن تتبنى الدول العربية موقفا موحدا تجاه التصديق على النظام الأساسي كي لا تفوت عليها فرصة الانضمام إلى جمعية الدول الأطراف، ومن ثم المشاركة في اختيار القضاة والمدعى العام والمسجل في أول اجتماع تعقده الجمعية.

العدالة الجنائية هي مؤشر لسمو القيم الدينية والإنسانية والاجتماعية، وربما نستطيع القول بأنها معيار لقياس المستوى الحضاري للأمم، فما من حضارة أهدرت هذه القيم إلا وصارت هي نفسها حضارة مهدرة، ومن ثم أتساءل ختاما كيف سيحكم التاريخ على الحضارة العربية الحديثة إذا كان أحد المعايير هو العدالة الجنائية التي تتطلب أن يحاكم كل من ارتكب جريمة بالعدل والقسطاس، وخصوصا تلك الجرائم التي تخالف القيم الدينية والإنسانية والاجتماعية مثل جرائم الحرب. وهنا، لا يسعني إلا أن أذكر ـ كأحد من ذادوا عن الوطن في حرب ١٩٥٦ ـ أنه يجب محاكمة الذين قتلوا الأسرى المصريين في حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ إذ إن ذلك واجب قومي وإنساني وقانوني. كيف لا يحاكم شارون عن إصدار الأمر بقتل ثلاثة وأربعين جنديا وضابطا مصريا على أرض سيناء، فضلا عن مسئوليته الجنائية عن مجزرتي صابرا وشاتيلا في لبنان عام ١٩٨٢ وغيرهما من الانتهاكات الجسيمة لاتفاقيات جنيف الأربعة لعام ١٩٤٩.

ان العدالة الجنائية مازالت تتقدم في مسيرتها الجنائية خطوة بعد خطوة، ومازال الأمل قائما طالما استمر العمل الدءوب المتواصل، وفي النهاية، سوف تسود العدالة الجنائية الدولية لما تتضمنه من قيم دينية وإنسانية واجتماعية، ولما تحققه من مصلحة دولية فلا يوجد سلام بدون عدالة، وهذه هي سنة حياة المجتمع الدولي، ومن يتجاهلها يتجاهل ما يشهد به التاريخ. ■

و .. محاكمة شارون ليست قضية خاسرة!

دياب أبو جهجه(*)



لم يكن بإمكان أحد من العرب أن يتصور أنه يوما ما قد تؤدى تداعيات الاستعمار الغربى لأفريقيا إلى تزويدهم بسلاح فتاك للنيل من مجرمى الحرب الإسرائيليين.

ولكن هذا ما حصل فعلا عندما أقدمت بلجيكا عام ١٩٩٩ على تعديل قانون ملاحقة مجرمى الحرب ومرتكبى الجرائم ضد الإنسانية الذى صدر عام ١٩٩٣ وذلك بشكل يتيح للمحاكم الداخلية البلجيكية إمكانية ملاحقة أى فرد كان بتهمة جرائم الحرب أو جرائم ضد الإنسانية بغض النظر عن جنسية المدعى أو المدعَى عليه ومكان وقوع الجرم ومن دون إعطاء أية حصانة لأىٍ كان.

هذا القانون بالتعديل الذى طرأ عليه وإن كان من الممكن تماما وضعهما فى إطار الالتزام بتعهدات بلجيكا الدولية المنصوص عليها باتفاقية منع جرائم الإبادة الجماعية الموقعة عام ١٩٤٨ واتفاقية عدم تقادم جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية الموقعة عام ١٩٧٠ إلا أن السؤال الذى يطرح نفسه هو: لماذا كانت بلجيكا هى الدولة الوحيدة فى العالم التى أدخلت بقانونها الداخلى التزاماتها الدولية المذكورة أعلاه وذلك بشكل قد يكون كاملا.

الجواب عن هذا السؤال نجده فى ملفات جرائم الإبادة الجماعية التى وقعت فى رواندا وذهب ضحيتها مئات الألوف من الروانديين. فبلجيكا وبصفتها القوة الاستعمارية السابقة فى وسط أفريقيا (كونغو، رواندا، بوروندى) لعبت دورا أساسيا فى خلق الشرخ التاريخى بين قبائل الهوتو وقبائل التوتسى، هذا الشرخ الذى عبر عن نفسه بصورة بالغة الدموية عبر إبادة الهوتو للتوتسى فى رواندا.

إن عقدة الذنب الرواندية هذه كانت هى العامل الرئيسى الذى دفع ببلجيكا إلى توسيع قانونها بشكل يتيح لها ملاحقة بعض مجرمى الحرب الروانديين. وفعلا تمت ملاحقة أربعة من هؤلاء المجرمين وأدينوا فى بلجيكا وحكم عليهم بالسجن لفترات متفاوتة.

ولكن القانون لم ينته مع انتهاء محاكمة رواندا ولا مع إدانة المتهمين فيها. إن تعديل القانون عام ١٩٩٩ فتح أعيننا فى الرابطة العربية الأوروبية على الإمكانية المتاحة لملاحقة مجرمى الحرب الإسرائيليين فى بلجيكا، وعندما بدأنا فى دراسة الإمكانية الموضوعية لرفع دعوى ما أمام القضاء البلجيكى وقع اختيارنا على ملف صبرا وشاتيلا، الاختيار لم يكن سهلا فالمجازر التى ارتكبتها إسرائيل بحق الشعب العربى أكثر من أن تعد وتحصى، وكلها قد تشكل مادة جنائية خصبة لإدانة الكيان الصهيونى المغتصب إلا أن مجزرة صبرا وشاتيلا تتمتع بخصائص عدة تجعلها أكثر نموذجية من غيرها للتعبير عن الأسلوب الإجرامى الدموى للعمل الصهيونى.

فهى إضافة إلى أنها تعتبر إحدى أفظع المجازر فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فقد صنفتها الأمم المتحدة بقرارها الصادر بالجمعية العمومية يوم ١٦ سبتمبر ١٩٨٢ الذى يحمل رقم ٣٧/١٢٣د، استنادا إلى معاهدة ١٩٤٨ لمنع الإبادة الجماعية ومعاهدة ١٩٤٩ لحماية المدنيين فى وقت الحرب كعمل إبادة جماعية (act of genocide).

هذا القرار اتخذ بعد أن صوتت لصالحه ١٢٤ دولة ولم تصوت ضده أية دولة، وامتنعت ٢٢ دولة عن التصويت.

إن وجود هذا القرار يسهل مهمة إقناع القاضى البلجيكى بطبيعة المجزرة كجريمة ضد الإنسانية، أما وجود تقرير لجنة كاهان الإسرائيلية وبرغم طبيعته المجتزأة والانتقائية فإنه يضع أمام القاضى البلجيكى وثيقة إدانة لأرييل شارون وللمؤسسة العسكرية الإسرائيلية فتقرير كاهان يشكل حداً أدنى لا يمكن لأى محقق فى وقائع المجزرة أن ينخفض دونه بل ومن المؤكد أن ما سيكشفه التحقيق فى بلجيكا سيتخطاه على مستويات عدة.

ولكن حتى لو افترضنا جدلا بأن القاضى البلجيكى وصل إلى نفس النتيجة التى وصل إليها المحقق الإسرائيلى واعتبر أن أرييل شارون يتحمل (مسئولية شخصية غير مباشرة) بالمجزرة، فإن ذلك سيكون كفيلا بإدانة شارون وسجنه.

ففى جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية لا يلعب الطابع المباشر أوغير المباشر للمسئولية دورا مهما طالما أن المسئولية بحد ذاتها مثبتة. لكل هذه الأسباب أصبح من الواضح لدينا بأن ملف صبرا وشاتيلا هو الملف الأقوى بين جملة الملفات التى درسناها واتخذ القرار فى أواخر عام ١٩٩٩ ببدء الخطوات العملية لرفع الدعوى.

المسألة الأكثر صعوبة كانت إقناع الأطراف التى لابد من أن نتعاون معها أن القضية جدية، فمجرد التفكير بمقاضاة مسئول إسرائيلى ولو سابق كان يستدعى الابتسامات الساخرة من وجوه عديدة، لأن ذهنية المؤامرة التى تسيطر على العقل العربى والتى تصور له عدوه وكأنه الطرف الذى يسيطر على العالم ويتحكم بمسار كل الأمور على الساحة العالمية والذى لا يمكن قهره. هذه الذهنية هى من أهم وأنجح الأسلحة التى يستعملها الصهاينة ضدنا.

فإذا كنا لا نؤمن بفرص نجاح ولو ضئيلة فى معركة، النتيجة ستكون أننا لن نباشر بأى تحرك و سوف نكتفى بالنواح وتكرار أسطوانة جبروت اللوبى الصهيونى وغياب أى لوبى عربى.

إن كسر هذه الحلقة المفرغة لا يكون إلا عبر قناعة بأن النجاح و الفشل بأى تحرك مردهما إلى الظروف الموضوعية التى تتحكم بالواقع وأنه إذا ما تمت دراسة هذه الظروف بشكل دقيق وتبين توافر الإمكانية الموضوعية لنجاح تحرك ما و تم العمل فى إطار علمى بعيد عن الاندفاع العاطفى فإن فرص النجاح لعمل كهذا متوافرة.

انطلاقا من هذه القناعة لم نكترث للسخرية بل اعتبرنا أنه من صالحنا ألا يأخذنا الناس على محمل الجد فلو أخذنا اللوبى الصهيونى على محمل الجد فى فترة بدء تحركنا فلربما كانوا استطاعوا إفشاله بطريقة أو بأخرى إلا أن الاستخفاف بنا سواء من قبل الطرف العربى أو الإسرائيلى أتاح لنا إمكانية التحرك والعمل بسلام.

ما بين نهاية عام ١٩٩٩ ومنتصف عام ٢٠٠١ انصب عملنا على جبهتين الجبهة الأولى تركز على تحضير الرأى العام الأوروبى عامة والبلجيكى خاصة لتقبل فكرة مقاضاة مجرمى حرب إسرائيليين و الجبهة الثانية تتمثل بالعمل التحضيرى للملف وما يتطلبه من توثيق ودراسة.

قبيل رفع الدعوى فى يونيو ٢٠٠١ كنا قد وصلنا إلى تمرير الرسالة إلى الشعب البلجيكى وعندما أعلن شارون عن نيته بزيارة بلجيكا أطلقنا مسيرة فى قلب بروكسل لاقت نجاحا جماهيريا وإعلاميا وعكست وجها حضاريًا للجالية العربية موجهة رسالة واضحة (إن مجرمى حرب كأرييل شارون لا يجب استقبالهم فى زيارات رسمية بل اعتقالهم ووضعهم وراء القضبان).



الحملات التى خضناها أوصلت الشارع البلجيكى إلى حالة إدراك لواقع الصراع وأدت إلى جملة مواقف لسياسيين بلجيكيين ولعدة تحركات شعبية اعتبرها الصهاينة (حملة معادية للسامية فى بلجيكا) وعندما وصلت الأخبار أن هنالك دعوة قضائية جدية قيد التحضير فقد اللوبى الإسرائيلى اتزانه، والأهم من ذلك أن عميد الدبلوماسية الإسرائيلية بيريز ارتكب خطأ فادحاً بأن وجه كلاماً مهيناً إلى بلجيكا مدافعاً عن دور شارون فى مجزرة صبرا وشاتيلا وداعيا إلى لجم القضاء البلجيكى وذلك فى تصريح للتليفزيون البلجيكى عاطفى الطابع وانفعالى النبرة من النوع الذى اعتدنا عليه من الدبلوماسيين العرب.

إلا أن بكائيات بيريز وتخبط اللوبى الصهيونى لم تحل دون قيام الدعوة يوم ١٨ يونيو ٢٠٠١ ودون قبولها شكلا ومباشرة التحقيق فيها.

وعندما رضخت الحكومة البلجيكية للضغوط الإسرائيلية، محاولة تعديل القانون وإعطاء حصانة لرؤوس الدول، أفشل الرأى العام المتعاطف مع القضية ومع سعاد سرور المدعية الرئيسية فيها هذه المحاولة.

الضربة التى تلقتها إسرائيل كانت قاصمة فالحياد المؤلم للرأى العام الأوروبى بدأ يتحول إلى تعاطف مع الحق العربى وإن كان مدخله يحمل طابعا إنسانيا عاطفياً (صورة سعاد الضحية وشارون السفاح) وهذه الحالة كانت لها تداعيات سواء داخل الكيان الصهيونى الذى أصبح أقل غرورا وثقة بمكانته بأوروبا وبات يطلب من ضباطه وجنوده توخى الحذر فى سفرهم الى أوروبا خوفا من إلقاء القبض عليهم. أو خارج هذا الكيان بدءا ببلجيكا وليس انتهاء بما جرى فى الدنمارك من جدل حول السفير الإسرائيلى الجديد.

لأول مرة فى تاريخ صراعنا مع العدو وصلنا إلى الإمساك بالصدارة الأخلاقية (moral high ground) وهذا قد يمكننا من تحويل مسار الصراع بأسره.

إلا أن المازوشية العربية تأبى الانتصار وتصر على تحويله إلى هزيمة، كلما لاحت بوادره كما فعلت بأكثر من حالة تاريخية خلنا أنفسنا فيها منتصرين فإذ بهم يكبلون أقدامنا وهم ساجدون فلا يطول بنا الأمر حتى نقع تحت رحمتهم من جديد.

إن زلة القدم التى ارتكبناها فى الرابطة العربية الأوروبية هى إدخال أطراف لبنانية إلى ملف الدعوى وإن كانت قانونية، حيث إنه لم نكن نتصور فى لحظة من اللحظات أن هذا كفيل بإدخال كل الحساسيات اللبنانية إلى هذا الملف، وها نحن الآن نحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه وحماية الملف من التسييس والتجيير وكلها كفيلة بإنقاذ الإسرائيليين من ورطتهم.



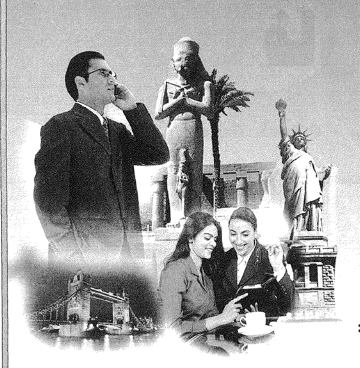
لو أن العرب يفهمون أن هذه القضية خاسرة إذا ما تابعوا هذا الكرنفال السوداوى من التناحر على حسابها ومن التسابق إلى خلق نسخ هجينة منها فى كل دارة عربية تؤدى إلى ابتذالها وتشتيت زخم الرأى العام المؤيد لها وقد تؤدى حتى إلى خلق مخارج شكلية للمجرمين الإسرائيليين.

هذه القضية امتداد لتجربة المقاومة فى لبنان والانتفاضة فى فلسطين ومثلهما أثبتت أنه بالإمكان إلحاق هزيمة بالعدو على أرض الواقع إذا ما تم التعامل مع هذا الواقع بعلمية وأثبتت أيضاً أن العدو ليس ذلك الكامل المعصوم من الخطأ، بل بشر يترنح إذا ما وجهت إليه ضربة مركزة ويكشف عن نقاط ضعفه.

الرابطة العربية الأوروبية تحاول أن تحمى هذا الجهد من الضياع عسانا ننجح لأننا لا ننتمى إلى جيل ولد مع النكبة و شب مع النكسة وأعطى قمة ما عنده فى أوسلو بل إلى جيل رضع من ثدى المقاومة فى لبنان واشتدت عزيمته مع الانتفاضة ولا يخاف من الانتصار.

(*) كاتب هذا المقال رئيس لجنة صبرا وشاتيلا، غير الحكومية ـ التى تتولى تحريك الدعوى القضائية أمام المحاكم البلجيكية ضد رئيس الوزراء الإسرائيلى آرييل شارون.





بطاقة ماستر كارد مصر للطيران
البـــنك الأهلى المصرى الذهبـــية

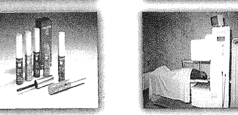
أكبر خصومات على تذاكر السفر بهذه الدرجات :

* خصم يصل إلى ٥٠% للدرجة الأولى .
* خصم يصل إلى ٤٠% لدرجة رجال الأعمال .
* خصم يصل إلى ٣٠% للدرجة السياحية .



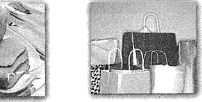
أكبر خصومات على المشتريات و الخدمات :

* خصم يبدأ من ٥% على مشترياتك بهذه البطاقة من السوق الحرة أوعلى متن الطائرة .
* خصم يبدأ من ١٠% على بعض الخدمات العلاجية بمستشفى مصر للطيران .



هدايا شهرية .. تذاكر دولية :

فرصة للفوز بتذكرتين دوليتين فى سحب شهرى .













فاروق

من بداية حكمه .. إلى نهاية عصره
كمـا رآه سـكرتيره الخاص

طـارق البشـرى

تعددت المذكرات والكتب والوثائق التى تعرضت لحقبة الملك فاروق ورجال القصر الملكى الذين صنعوا ملامح النظام الملكى، بكل ما له وما عليه، والذين بقوا معه وحوله حتى سقوط النظام على يد ثورة يوليو ١٩٥٢.. وترددت الوقائع والروايات عن الأدوار التى لعبها رجال القصر الملكى فى التأثير على الملك وإفساده أو توجيهه، ابتداء من أحمد حسنين إلى كريم ثابت وعدلى اندراوس وغيرهم من شماشرجية القصر وحاشيته.. ولكن اسم الدكتور حسين حسنى الذى عمل سكرتيراً خاصاً للملك طوال فترة ولايته لا يكاد يذكر أو يتردد فيما تناولته الوثائق المنشورة.

ومن هنا تأتى أهمية المذكرات التى حررها الدكتور حسين حسنى بعنوان «شهادة للحقيقة والتاريخ» والتى تنشر لأول مرة، لتلقى الضوء على كثير من جوانب هذه الحقبة الحافلة. وتزداد هذه الأهمية من خلال المقدمة التى قدم بها للكتاب المؤرخ الرصين والكاتب الكبير المستشار طارق البشرى، الذى سبق وقدم دراسات جادة وعميقة عن تاريخ مصر فى هذه الفترة وما قبلها وما بعدها. فأبان فى هذه المقدمة الموجزة موضع صاحب المذكرات بين رجالات القصر، ومدى ما تميز به من تمسك بالمبادئ والقيم، ألزمته بقدر من الموضوعية يصل إلى درجة الورع والترفع وخلعت عليه من الأمانة الفعلية والنزاهة الخلقية ما يعلى قدره بين المؤرخين، وينزل أحكامه على الأحداث والشخصيات منزلة الاحترام والتقدير.

(المحرر)

سنوات مع الملك فاروق.. شهادة للحقيقة والتاريخ
حسـين حسـنى
يصدر قريبا عن دار الشروق



الملك فاروق وخلفه حسين حسنى وأحد الضباط

[١]

أكاد أقول إن ثمة رابطا يربطنى بالدكتور حسين حسنى، ويتعلق بالتنشئة الفكرية الأولى، وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى عندما كنت فى الثانوية العامة، أو ما كنا نسميه وقتها «الشهادة التوجيهية» أو شهادة إتمام الدراسة الثانوية، القسم الخاص، وذلك فى السنة الدراسية ١٩٤٨ - ١٩٤٩.

كنا فى شعبة الآداب، ومادة التاريخ عندنا ندرس لها كتاب «تاريخ القرن التاسع عشر: وما يليه من الحوادث حتى نهاية الحرب العظمى». وكان من تأليف «محمد قاسم وحسين حسنى» وهما أخوان شقيقان، فكان درس التاريخ هو أكثر الدروس تشويقا، وكانت ساعات الاستذكار فى كتاب التاريخ هى أسعد أوقات المذاكرة، لا بالنسبة لى وحدى، ولكن بالنسبة لكل الأصدقاء الذين كان لهم تفتح للاهتمام الثقافى.

إن الكتب المدرسية وقتها كانت على مستوى عال من حيث التأليف ومن حيث المؤلفين. فمواد المطالعة العربية والأدب العربى، يكتبها ويختارها طه حسين، وأحمد أمين وعبد العزيز البشرى، وعلى الجارم، وأحمد السكندرى. وكتاب تاريخ مصر الحديثة المقرر على السنة الرابعة الثانوية (ما قبل التوجيهية بسنة) كتبه المؤرخ الدكتور محمد رفعت، والفلسفة يكتبها د. إبراهيم بيومى مدكور وأبو العلا عفيفى... إلخ وهكذا. ويأتى كتاب محمد قاسم وحسين حسنى فى هذا السياق.

وهذا الكتاب الأخير كان أعجوبة فى وقته. يبدأ بالثورة الفرنسية وعن نابليون والدول الأوروبية حتى عام ١٨٣٠، ثم يتكلم من عهد النهوض القومى من عام ١٨٣٠ إلى عام ١٨٤٨ فى فرنسا وإيطاليا وألمانيا والنمسا ومصر، ثم عهد انتصار الحريات من عام ١٨٤٨ إلى عام ١٨٧٨، والوحدة الإيطالية والاتحاد الألمانى، ثم روسيا والقرم ونشأة دول البلقان والمسألة الشرقية، ثم إنجلترا والولايات المتحدة وحركة استقلال الولايات المتحدة .. وهكذا حتى الحرب العالمية الأولى من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٨ وانتهائها والصلح بعدها.

أول ما عرفنا عن الثورات كان من هذا الكتاب، وأول ما عرفنا عن حركات التحرر الأوروبية كان منه أيضًا، وأول ما عرفنا عن حركات النهوض القومى وحركات الوحدة فى أوروبا كان منه، وكذلك الكفاح من أجل الحرية. والكتاب غزير فى مادته، دقيق فى تحاليله عميق فى تتبع الروابط بين الأحداث.

وهو شيق فى عرض مادته، رغم الصعوبة الآتية من اتساع المدة المؤرخة وهى تزيد على قرن، واتساع المجال المدروس وهو يشمل أوروبا والمسألة الشرقية والأمريكية، ورغم التنوع الكبير بين مراحل تاريخية متعددة وبين حركات شعوب وقوميات متعددة أيضًا. ويزيد الصعوبة ويضاعفها أنه يتوجه لشباب هم حديثو عهد بالتاريخ وأحداث الأمم وبالفكر السياسى والاجتماعى. فكان من أعاجيب هذا الكتاب أن يكون شيقا لدى هؤلاء الطلبة.

وصيغ العرض التاريخى بلغة عربية، لا أقول فقط إنها صحيحة، ولا أقول فقط إنها دقيقة، إنما هى أيضًا لغة أدبية فيها جمال وفيها اتساق، والأسلوب ناصع البيان والعبارة جزلة، إلى حد أننا كنا نحفظ عبارات منه كما نحفظ الشعر والنثر الفنى. ولازلت بعد أكثر من نصف قرن أجد جملا منه عالقة بذاكرتى إلى الآن. ونحن نجد عبارات منقولة منه فى برامج جمعية مصر الفتاة عام ١٩٣٠، فجاءت مصر الفتاة مثيلا لإيطاليا الفتاة فى عبارات الإنشاء، مع استبدال مصر بإيطاليا والأزهر بالفاتيكان. وقد عرضت لهذه النقطة فى بعض كتاباتى عن مصر الفتاة وأكثر من ذلك. فإن الكتاب كان، من حيث الدراسة ومن حيث الصياغة محررًا من عقل مقتنع وبقلب محب، الثورة من أجل العدالة والديمقراطية وضد الظلم،

والتشكل القومي للأمم والشعوب وأن تحكم نفسها بنفسها، والوحدات السياسية وحركات التوحد، والزعامات التاريخية التي قادت شعوبها لتحقيق الآمال والنظام. كل ذلك يعرض بروح وَوَجْد وعاطفة مشبوبة، ترتوي بمائها براعم القلوب الغضة.

لذلك لم أنس هذا الكتاب قط، وكنت فقدت نسخته المدرسية وظللت أبحث عن نسخة منه حتى وجدتها «بسور الأزبكية» طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في عام ١٩٢٢. وإن كتابًا يدرس لكل طلبة الثانوية العامة لأكثر من ربع قرن من العشرينيات حتى بدايات الخمسينيات، علينا أن ندرك مدى الأثر الكبير الذي تأسست به عقول شباب المصريين وقلوبهم عبر هذه الأجيال.



[٢]

عرفت من هذه المذكرات التي بين أيدينا شيئًا أظنه مهما بالنسبة للدكتور حسين حسني. وسيلحظ القارئ من مطالعة الفصل الثاني أن التنشئة السياسية الأولى له كانت في الحزب الوطني على عهده الأول، عهد زعامتيه التأسيسيتين، مصطفى كامل ومحمد فريد، وأنه عرف وقتها بصلابة التمسك بمبادئ الحزب، وأنه كان بين من اعتقل من شباب الحزب شهورا وأفرج عنه في يناير عام ١٩١٧.

ولا أستطرد في ذكر تفاصيل ما أثبت المؤلف عن هذه النشأة، ولكنني ألتقط هذا الخيط لأضع أمام القارئ ما يعنيه أن تكون التربية السياسية للشاب في الحزب الوطني، وخاصة هؤلاء الذين حضروا العهد التأسيسي الأول قبل بداية الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤. فإن الحزب الوطني هو مدرسة في السياسة المصرية تدرب أبناءها على أن قضية القضايا (أو أم القضايا) هي القضية الوطنية، وإجلاء المستعمر البريطاني عن مصر. يكفي أن نتابع زعامات هذا الحزب من مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨) إلى فتحي رضوان (١٩١١ - ١٩٨٨)، ويكفي أن ننظر فيمن اقترنت بهم التنشئة الأولى للمؤلف من شباب هذا الحزب، مثل أمين الرافعي، وعبد الرحمن الرافعي، وعبد المقصود متولي وغيرهم، يكفي ذلك لنعرف من أي مذهب ومدرسة وطنية صيغت توجهات المؤلف.

ومدرسة الفتاة كانت تقرن بين الوطنية وأهدافها السياسية المتعلقة في الأساس بهدف جلاء قوات الاحتلال العسكري الأجنبية، وبين الثقافة الإسلامية أو الثقافة الموروثة بعامة، كانت متفتحة على الثقافات الغربية ونظمها، مثل نظم الدولة ونظم الجمعيات والتعاونيات وغير ذلك، ولكنها كانت متمسكة بالجوانب العقيدية ومعايير الآداب والسلوك. وكانت ذات توجه للجامعة الإسلامية وذات قابلية للاندراج في الخلافة الإسلامية، فلما ألغيت الخلافة الإسلامية بعد الحرب العالمية الثانية، ظلت هذه المدرسة ذات توجه للشعوب الإسلامية.

والحزب الوطني، فقد شعبيته مع ثورة عام ١٩١٩، لأسباب تاريخية وسياسية وقيادية لا أجد مجالا للاستطراد في شرحها الآن، وورث حزب الوفد شعبية الحزب الوطني، ولكن التيار السياسي الثقافي الذي خرج الحزب الوطني من أحشائه، ولّد من بعده شجرة أحزاب، منها الإخوان المسلمون ومصر الفتاة والضباط الأحرار في اتجاههم الغالب، ثم مجموعة الحزب الوطني الجديد التي جمعها فتحي رضوان. وذلك رغم قدر من التباين في الخصائص السياسية والتنظيمية ورغم قدر من التنوع في الصبغة الثقافية والحضارية. من حيث المحافظة والتجديد ومن حيث الديمقراطية والشمولية، ومن حيث اتساع الشعبية وضيقها. وبقي الوعاء الأساسي يرتبط بأن الوطن أولا .. وثانيا .. وثالثًا، وأن الوطنية ليست استقلالا سياسيا فقط، ولكنها تميز ثقافي أيضًا.

إن ضعف شعبية الحزب الوطني من بعد، وأيلولة النشاط السياسي العملي إلى غير أبنائه المنتمين إليه تنظيما، قد ميز هذا الشباب من أبنائه إلى الاندفاع بطاقاتهم وذكائهم إلى الاهتمام بالعلوم النظرية والفنون التطبيقية والمهن العملية. فعرفنا منهم مؤرخين مثل عبد الرحمن الرافعي، والمؤلف كاتب هذه المذكرات. وصحافيين سياسيين شبه مستقلين مثل أمين الرافعي، ومحامين مثل مصطفى الشوربجي. أتقنوا علومهم ومهنهم، وأعطتهم تربيتهم في الحزب الوطني «الجانب الرسالي» لعملهم والهدف الأعلى الذي يهدفون إلى تحقيقه بممارساتهم العلمية والمهنية.

ونحن نعرف مثلا أن مصطفى مرعي، المحامي والقاضي والوزير من بعد، كان من شباب الحزب الوطني واشتغل بالمحاماة ثم اندرج في سلك القضاء. كما نعرف من شباب الحزب ذاته سليمان حافظ الذي آل إلى الاندراج في القضاء بعد المحاماة وكان في نهاية حياته وكيلا لمجلس الدولة ثم نائبا لرئيس الوزراء في أول عهد ثورة ٢٣ يوليو. كما نعرف أن وزارة الخارجية التي بعث نشاطها من جديد بعد إعلان استقلال مصر في عهد دستور ١٩٢٣ جذبت إليها عددا من الشباب النابه الذين سبق أن تنشئوا في الحزب الوطني، مثل عوض البحراوي، وعبد المقصود متولي ومؤلف هذه المذكرات. وكان ممن فطن إلى وجوه النفع للوزارات من هذا الشباب، ساسة مثل علي ماهر عندما تولى وزارة العدل مدة محدودة، وحافظ عفيفي عندما تولى الخارجية مدة محدودة أيضا. وكان حافظ عفيفي في شبابه من شباب الحزب الوطني، والحاصل أنني عندما قرأت الفصل الثاني من المذكرات، استقام لي فهم هذه المذكرات، وعرفت من أين جاء هذا العنصر الذي تأثرت به سياسة القصر الملكي في بعض سني عهد الملك فاروق من حيث المظهر الإسلامي ووضع الاعتبار بمكانة مصر الإسلامية، وعرفت أن الدكتور حسين حسني كان يسعى لبذل الجهد والمحاولة ليؤثر في سياسات الملك بما يراه منسجما مع آرائه وتوجهاته السياسية الأصلية، ويرى فيه عملا وطنيًا طبقا لمفاهيمه، وهو العمل الإسلامي والعمل المتعلق بالسودان وأحزابه وزعاماته وطلبته، وليته - رحمه الله - أفاض في ذكر تفاصيل ما كان يعمل ومن كان يتصل بهم وما كانت المسائل المثارة والمشكلات التي تطرأ وكيف كانت تعالج.

وفهمت أيضا أن كراهة المؤلف لحزب الوفد وازورارة عنه، لم تكن أمرًا ترتب فقط عن وجوده بالقصر الملكي وقربه من الملك فاروق، ولكنه أمر نتج عما تحمله الغالبية ممن تربوا في الحزب الوطني تجاه الوفد، سواء أكانوا من شباب جيل ما قبل الحرب العالمية الأولى مثل المؤرخ عبد الرحمن الرافعي، أم من شباب

يندر أن نجد من بين رجال السياسة بالقصر الملكى من استطاع أن يحتفظ فى تصرفاته وسلوكياته ونصائحه بالقدر الذى ينسجم ولا يتعارض مع ما يتمسك به من مبادئ وقيم سياسية

جيل الثلاثينيات مثل فتحى رضوان، أم من شباب جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية.

كانوا جميعا يعتبرون أنفسهم هم الوطنيون الأصول، ذوو الوطنية غير القابلة للمساومة، بعكس ما يتصورونه فى الوفد من قابلية للمساومة والمفاوضة وقبول أنصاف الحلول. كما يرون أحيانا ما عبر عنه فتحى رضوان من أنه لا فرق فى النوع بين الوفد والأحرار الدستوريين وهم ينتمون أصلا إلى حزب الأمة الذى كان مواجها للحزب الوطنى. وأساغ هذا النظر لدى البعض بالحزب الوطنى أن يتحالف مع أحزاب الأقلية الموالية للملك ضد الوفد، وأن يتحالف مع الملك ضد الوفد، ولم يكن موضوع الديمقراطية ذا أولوية وغلبة لدى الحزب الوطنى، ونحن نلحظ أن الحزب الوحيد الذى تعاون وتشارك مع حكومات ثورة ٢٣ يولية من بدايتها كان هو الحزب الوطنى.

ونحن يندر أن نجد من بين رجال السياسة بالقصر الملكى من استطاع أن يحتفظ فى تصرفاته وسلوكياته ونصائحه بالقدر الذى ينسجم ولا يتعارض مع ما يتمسك به من مبادئ وقيم سياسية، ويكون ذلك على حساب نفسه وأن تضيع منه فرص ظهور وتألق ومزيد من الاشتهار، لا نجد من ذلك مثل ما نجد لدى الدكتور حسين حسنى، حسبما تعى الذاكرة من الوثائق المعيشة لتلك الفترة البعيدة، وحسبما تسفر المتابعة الدراسية لوقائع تلك المرحلة أيضا، وحسبما ورد بهذه المذكرات.

ولا شك أنه من هنا، جاء هذا الاحترام والتوقير لرجل كان هو السكرتير الخاص للملك فاروق، وجاء من الثورة التى خلعت هذا الملك وأجبرته على التنازل عن عرشه بعد قيام الثورة بأربعة أيام فقط، ثم ألغت النظام الملكى كله. هؤلاء أنفسهم تعاملوا مع المؤلف حسبما يصف هنا فى نهاية مذكراته بما لم يتعاملوا به قط مع غيره من رجال القصر الملكى.

ولعل عاملا من عوامل هذا التعامل هذه الوشيجة الخفية المندسة فى أعماق التاريخ الحديث لمصر، وشيجة القربى والصلة بين الحزب الوطنى وبين العديد من الأحزاب والتنظيمات التى عرفتها مصر فى الثلاثينيات والأربعينيات ومنها «تنظيم الضباط الأحرار».



[٢]

عاد المؤلف إلى مصر فى عام ١٩٢٣ حاملا درجة الدكتوراه فى التاريخ عن قناة السويس من جامعة مونبلييه بفرنسا. وعمل بالمدارس ثم بدار المحفوظات بالقصر الملكى، ثم عين بوزارة الخارجية فى عام ١٩٢٥، ثم نقل إلى القصر الملكى ليعمل مع كبير الأمناء منذ يونية عام ١٩٣٠، فى عهد الملك فؤاد. وبقى بالقصر الملكى حتى تنازل الملك فاروق عن العرش فى عام ١٩٥٢. ومن ثم فهو شاهد عيان على ما يجرى فى القصر الملكى مدة اثنتين وعشرين سنة، منها مدة تولى الملك فاروق كلها من عام ١٩٣٧ حتى عام ١٩٥٢، وكان فى كل هذه المدة الأخيرة هو السكرتير الخاص للملك، وأنعم عليه أثناءها بالبكوية ثم الباشوية. وكتب هذه المذكرات أو أتمها فى عام ١٩٨٥.

هذه المدة الطويلة من وجوده بالقصر الملكى متصلا بالملك، تجعله ينطوى على كنز من كنوز التاريخ، من حيث الوقائع والأحداث وتصوير الملك. وهو ألزم نفسه كما ذكر فى صدر كتابه ألا يحكى إلا بوصفه شاهدا لما وقع تحت حسه من أحداث، رآها بعينيه أو سمعها بأذنيه.. وهنا نلمح فيه دقة المؤرخ الذى يعرف مسبقا أنه فيما يكتب هنا لا يؤرخ ولا يقيم الأحداث ويحللها للبلد كله أو للمجتمع، ولكنه يشهد فقط ويروى، فهو يضع كتابا هو من المصادر التاريخية وليس التاريخ ذاته. وكان فى هذا ورعًا وأمينا، وقد التزم بما ألزم به نفسه على طول الكتاب.

إلا أن عفته أضاعت علينا فيضا من الأحداث فيما أظن، فهو لا يحكى وقائع تشين المحكى عنه، وهو يؤثر رواية الحادثة باللفظ العفيف، ينقد ولا يجرح ويضرب ولا يسيل دما، وهو يستخدم المعايير الموضوعية فى النقد والعبارات العامة المجملة دون الأوصاف التفصيلية.

مع قراءتى لهذه المذكرات، أعدت قراءة مذكرات كريم ثابت المستشار الصحفى للملك فاروق بين عامى ١٩٤٢ و١٩٥٢، لأتبين الفروق بين أسلوبين وبين رجلين. وزادنى شوقا لهذا الأمر أن كريم ثابت أفرد عددا من الصفحات يهاجم فيها د. حسين حسنى بغير أن يذكر واقعة تدينه أو حدثا يشينه، وانحصر الهجوم جله عما صنع السكرتير الخاص للملك ليصلح شانه، وكانت شهادة حسين حسنى عن كريم ثابت أمام محكمة الغدر مما لا يريح كريم ثابت، كما أنه زودنا فى هذه المذكرات بأن اعترض أمام الملك على تعيين كريم ثابت مستشارا صحفيًا.

وكريم ثابت كان من رجال الإنجليز فى مصر، وهو من أبناء مؤسسى صحيفة المقطم التى قامت لتدعم الاحتلال الإنجليزى منذ قام. وهو كان من أسباب فساد الملك وهوان النظام الملكى، وكان حسبما يحكى فى كتابيه يقابل الملك فى الكباريهات وعلى موائد القمار ومع الغانيات. وهو يحكى كل ذلك ويصور الملك فاروق بعد عزله بأقبح أوصاف وأسوأ مظهر، ويحكى ما يشين من الخبايا.

د. حسين حسنى على العكس فى كل شيء، هو من أبناء الحزب الوطنى الذى كان معاديا للإنجليز منذ نشوء هذا الحزب حتى ألغيت الأحزاب. فهو نقيض كريم ثابت، وهو فى روايته للأحداث بالمذكرات يصرح بانه كان لا يرى الملك شهورا وراء شهور، والقارئ يشعر أنه كلما كان حبل الملك فاروق ينفلت على غاربه، كان يبتعد عن سكرتيره الخاص ويقترب من مستشاره الصحفى. ومع ذلك نجد د. حسين حسنى مع ذكر عيوب فاروق لا يذكرها إلا بالمجمل من العبارات، بينما كريم ثابت يصف سوءات هو من أسبابها بغير ورع ولا مراعاة لحرمة ملك قربه ووثق به.

وأنا هنا لا أدافع عن الملك بطبيعة الحال، وقد تحدثت عنه فى سياق البحوث التاريخية التى حررتها عن فترات من حكمه، ولكنى أقارن بين رجلين لا على المستوى السياسى فقط، ولكن على المستوى الذاتى والإنسانى أيضا. ليعرف القارئ من منهما الذى يطمئن أكثر إلى صحة روايته وإلى صدق شهادته.

ورغم أن ذكر تفاصيل الأحداث من شهودها، أمر يفيد المؤرخين كثيرا، عندما يجمعون مادتهم التاريخية ويحققونها ويصوغون منها روابط العلة والمعلول التى تكون عملية التاريخ، رغم ذلك، فإننى أحيانا أجد لدى هذا الوازع الذى يحاول أن يجنب العملية التاريخية ذكر تفاصيل السلوكيات الشخصية وخاصة المشين منها، وبوجه أخص ما لا يفيد فى ترتيب روابط العلل والمعلولات التاريخية. وأرى أنه إن كانت غزارة المادة مما قد ينفع المؤرخ - حتى الشخصى والذاتى منها - وذلك لتبين الحقائق وللاجتهاد فى تحليل الأحداث، إلا أن ثمة أصلا هاما آخر، إن الإنسان الفرد بموجب إنسانيته وفرديته ينبغى أن تستر عوراته، أو بالأقل يستر الحد الأدنى منها وما لا يفيد تكراره فى فهم الأحداث العامة.

ومن هنا أجدنى منجذبا إلى طريقة صاحب هذه المذكرات فى الإجمال غير المخل بالموضوعية، وغير المعوق فى تكشف الأسباب والمسببات. وهذا ما نصنعه فى تحريرنا للأحكام القضائية فى عملنا القضائى، لانكاد نذكر من تفاصيل أحداث الأشخاص التى أمامنا إلا ما يلزم منها للفصل فى الحقوق وفض الأنزعة دون كشف ما لا يلزم كشفه من السوءات والعورات.



[٤]

تكشف المذكرات فيما تكشف عن دور أحمد حسنين بالنسبة للملك فاروق. وكان دورا سيئا ومفسدا. إننا عندما ننظر فى أمر الملك فاروق فى صباه وشبابه الأول، نلحظ أن أحدا لم يهتم بتعليمه وتربيته مما يلزم لمن يؤهل سريعا لحكم بلد ما. لقد ولد فى عام ١٩٢٠ لأبيه السلطان فؤاد وهو فى الحادية والخمسين، فكان من المتوقع طبعا أن احتمال تولى فاروق الحكم صغيرا احتمال ينبغى أن يعمل حسابه، وهو ذكر وحيد لأخوات من الإناث. ومع ذلك لا نجد دلائل لاهتمام كبير بتعليمه اهتماما يتناسب مع إلحاح العجلة المتوقعة. وذهب إلى إنجلترا ليعلمه الإنجليز ويصوغوه. فلم يلبث شهورا حتى توفى والده الملك، فعاد ولم يكمل تعليمه، وتولى الحكم وهو فى نحو السابعة عشرة من عمره. وكان أحمد حسنين أمينا بالقصر الملكى وسمى رائد الملك، منذ كانوا فى إنجلترا وبعد عودتهم، وهو الذى أغوى فاروق بإنجلترا بارتياد النوادى الليلية وحسّن

إفطار الأمة ورجال الطرق والطلبة الشرقيون (رمضان ١٣٦٦هـ)



له حياة الليل، وفعل معه ذلك بمصر، وتهتم هذه المذكرات ببيان هذه الأمور مما يشير إليه المؤلف لئلا تغيب دلالتها على فطنة القارئ.

ويبين من متابعة وقائع أحمد حسنين أنه كان شخصا عابثا لاهياً، وأنه كان مسرفا مقترضا، ينشغل بحسيّاته، ولا يعبأ بمُثل ولا بأصول مما ينبغي أن يعبأ بها من يحيون في مناخ قيادة الأمم أو الحكومات، صوابا كانت مُثلهم أو خطأ، وأن قصته مع الملكة نازلى أم فاروق وزوجة الملك السابق فؤاد، تثير الازدراء على المستوى الخلقى والإنسانى والسياسى، لرائد مؤتمن على صبى صار ملكا بغير أن يكمل تعليمه.

إن أحمد حسنين (١٨٨٩-١٩٤٦) ولد بالقاهرة لعالم أزهرى وأكمل دراسته فى أكسفورد، وتكشف المذكرات أنه كان على صلة باللورد ملنر وزير المستعمرات البريطانى فى ذلك الوقت وهو من ألحقه بالجامعة هناك. وأنه كان يدعى أحيانا لقضاء نهاية الأسبوع فى القصر الريفى للورد ملنر. كما تكشف أنه أثناء الحرب تطوع فى الجيش البريطانى، ثم لما عاد إلى مصر عين سكرتيرا خاصا للجنرال مكسويل قائد جيش الاحتلال، وكان يرتدى ملابس الجيش البريطانى، وأنه اختير مفتشا بوزارة الداخلية المصرية ليعمل تحت إمرة «هورنبلور» كبير المفتشين الإنجليز بالوزارة. وأنه نيط به مفاوضة الثوار الليبيين السنوسيين باسم الإنجليز.

كما أننا نعرف مما لم يرد بالمذكرات أنه عمل سكرتيرا سياسيا للقوات البريطانية التى سافرت إلى صعيد مصر لقمع الحركة الشعبية هناك أثناء ثورة ١٩١٩. وأنه عين فى ١٩٢٤ سكرتيرا بالمفوضية المصرية بواشنطن ثم نقل إلى لندن، ثم عين أمينا بالقصر الملكى فى ١٩٢٥، وأن سفره مع فاروق فى رحلته التعليمية سبب ترك عزيز المصرى لفاروق، وكان موكولا إليه إعداده ومراقبته ليتربى تربية سياسية عسكرية مناسبة.

أحمد حسنين بهذا التاريخ، هو عنصر مرتبط بالسياسة الإنجليزية بمصر، وعلاقته بالإنجليز علاقة سافرة. وهو من أفسد الملك فاروق فى سنى التنشئة الأولى، وساهم فى صرف الصبى عن التعليم وزين له المفاسد.

ويبقى - بعد ذلك - السؤال قائما: لماذا أراد الإنجليز أن يفسدوا فاروقا؟ ولماذا لم يهتموا أن يُنشِّئوه التنشئة الذكية التى تمكنه من السيطرة على البلاد وضمان حكمها لصالحهم؟ ولماذا لم ينشغلوا بتربيته تربية تمكنهم من ضمان استبقاء نفوذهم فى مصر؟ مثلما فعلوا وفعل الفرنسيون فى عدد من ملوك العرب والعجم وأمرائهم، فكانوا مع موالاتهم للمستعمرين على قدر من المعارف والثقافات والإحاطة بفنون الحكم وأساليب الساسة والدهاء بما لا تخفى أمثلته فى بلادنا وبلاد آسيا وأفريقيا.

إن هذا السؤال لا يزال عالقا بذهنى لم يجد جوابا وافيا بعد.

[٥]

فى خضم ما نشر وما ينشر عن الملك فاروق وسياسات القصر الملكى، وعن حياته من مساوئ وسلبيات، تجىء هذه المذكرات لتكشف للقارئ أن القصر الملكى فى ذلك العهد، لم يكن كل رجاله من أمثال أحمد حسنين، ولا من أمثال كريم ثابت وعدلى أندراوس، ولا من أمثال الشماشرجية وأنطون بوللى وغيرهم، ولكن كان فيه رجال وطنيون وشرفاء وعلماء، كانوا قلة ولم يتح لهم التأثير الفعال، ولكن كانوا موجودين وحافظوا على نقائهم حتى النهاية.

ونحن لا نجد فى هذه المذكرات صورة مخالفة لما نعرفه عن الملك فاروق وعن القصر فى عهده، ولكن يتبين لنا من هذه المذكرات - بوضوح - الدور المدمر الذى قام به أحمد حسنين، على المستوى السياسى وعلى المستوى الشخصى الذاتى بالنسبة للملك فاروق. ومنافذ الإنجليز إلى السراى عن طريق أحمد حسنين ثم كريم ثابت وأندراوس. كما نعرف أن حادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢، وتدخل الإنجليز لفرض وزارة معينة على الملك، وقد حدثت له «بروفات» فى تعيين وزارة حسن صبرى ثم وزارة حسين سرى فى ١٩٤٠. فعرف ذلك من خلال الوقائع المرواة بهدوء وبسرد شبه محايد.

لا أريد أن أستطرد ولا أن أحول بين القارئ وبين كتابه أكثر من ذلك. ولكننى لا أستطيع أن أترك هذه المقدمة دون أن أشير إلى ملاحظة أجدها مما ينبئ عن سجية فى صاحب المذكرات، فإن كتابة المذكرات تميل بكاتبها عادة إلى أن يتحدث عن نفسه كثيرا، وقد يغلو البعض فى ذلك فيسلط الضوء على نفسه دون غيره، ويضع صورته فى بؤرة ما يكتب عنه، ويصوغ الأحداث منبئا بمآثره، ومدافعا عن مواقفه ومهاجمًا منتقمًا ممن خاصمه أو أضره.

ولكن د. حسين حسنى لا نجد شيئا من ذلك فى مذكراته، ينبئ أسلوبه فى الحديث إن كان لديه من الورع ما جعله يضن بذاته أن تكون محورا أو مركزا، أو أن يكون طرفًا فى وقائع. ونحن لا نعرفه فى هذه المذكرات من خلال حديث جهير له عن نفسه أو عما فعل، ولكننا من خلال التمعن فى وجهته فى سرد الحدث ورؤيته للأفعال، ونحن لا نرى مشاعره ولكننا نتحسسها من نظراته إلى الأمور، وما صنعه إنما يذكره بغير أن يؤكد على جهوده فى صناعته. ولم يذكر عن نفسه إلا بأقل قدر يكون لازمًا للتعرف على شهادته، وكأنه يقف أمام محكمة يقدم شهادته.

كنت وأنا أقرأه أقول لنفسى (أحيانا): ليته استطرد وليته توسع فى ذكر التفاصيل. ولكنه كان ورعًا فيما ألزم نفسه به، على خلاف ما يشد الإنسان من هوى النفوس. فصار شاهدًا عدلاً، لا يطمأن إلى صدق روايته فقط، ولكن يطمأن أيضا إلى سلامة تقريره الموضوعى.

والحمد لله. ■

كتاب الزاوية

الأغانى الشعبية فى صعيد مصر

تكاد مصر أن تكون أحد البلاد القليلة التى لم يجد تراثها الشعبى ما هو جدير به من اهتمام ورعاية فمازالت حركة الجمع والتسجيل تسير على غير هدى وفى استحياء شديد. ويصبح الأمر شاقا على النفس عندما نجد باحثين أوروبيين وأمريكيين يقومون بمثل هذه المهمة التى كان من الضرورى أن يقوم بها الباحثون المصريون.

ومن أوائل الجهود التى بذلها الأجانب فى هذا الصدد ما جمعه الفرنسى «جاستون ماسبيرو» من تراث الصعيد الشعبى فيما بين عامى ١٩١٠ - ١٩١٤ وضمنه كتابه الذى نشره المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة وذلك إبان عمله فى مصلحة الآثار المصرية والكتاب عنوانه «أغانى شعبية مصرية جمعت من مصر العليا بين عامى ١٩١٠ - ١٩١٤» ويتألف من مقدمة بالفرنسية وعدة فصول جمع فيها الأغانى التى سمعها كما قدم لبعضها بمقدمات صغيرة بالفرنسية أيضًا طبعًا.

ويشير ماسبيرو فى مقدمته إلى أنه حاول أن يجمع بعض أغانى المصريين الخاصة وفى الحقول وعلى ضفاف نهر النيل والاحتفالات العامة خلال فترة إقامته الأولى فى مصر ما بين ١٨٨١ و١٨٨٦ إلا أنه أخفق لعدم فهم كلمات الأغانى، وعانى ماسبيرو كثيرًا فى الحصول على مساعد يتحدث اللغة العربية يمكنه أن يدوّن كل ما يسمعه من أغان إلا أنه تعرف على مواطن سورى أظهر استعدادًا للقيام بهذه المهمة، وساعده اثنان من المفتشين المصريين فى جمع الأغانى من المناطق المختلفة.

وجاستون ماسبيرو (١٨٤٦ - ١٩١٦) عالم أثرى درس علم المصريات فى معاهد فرنسا وعمل مديرًا لمتحف بولاق ١٨٨٠ ثم مديراً للمتحف المصرى ١٨٩٩ ومديراً لمصلحة الآثار المصرية وله مؤلفات عديدة عن الآثار والتاريخ المصرى القديم.

ويتألف الكتاب من قسمين يضمان عدة فصول عن أغانى الزواج والختان وأغانى الموت والمآتم وأغانى الحقل والحياة بشكل عام. وقد بذل الدكتور أحمد مرسى والأستاذ محمود الهندى مجهودًا هائلاً للوصول إلى الكتاب وترجمته ثم تقديمه للقراء.



«روشتة» البنك الدولى لتنمية حوض

تحت ستار العولمة

رشدى سعيد

هذه المبادرة التى كثر الحديث عنها لعدد من السنوات دون أن يعلن عن تفاصيلها التى أخفيت تمامًا عن الناس، بل وعن المختصين من غير ثقاة البنك الدولى ومستشاريه، على الرغم من أن هذه المبادرة ستؤدى، كما سنبين فى هذا المقال، إلى تغيير شامل فى النظام القائم لدول الحوض وستضع الأساس لنظام نيلى جديد يدخل هذه الدول فى النظام العالمى الذى يتم بناؤه اليوم تحت ستار العولمة

صدر فى شهر مايو سنة ٢٠٠١ كتاب صغير بعنوان «مبادرة حوض النيل»، احتوى على بعض تفصيلات هذه المبادرة التى تناقلت الأخبار أن دول حوض النيل قد وافقت على القيام بها بغرض الاستفادة الكاملة لهذا النهر الغنى بثرواته الطبيعية. وصدر الكتاب قبل شهر واحد من اجتماع «الكونزوريتوم الدولى للتعاون من أجل النيل» الذى عقد بمدينة جنيف بسويسرة تحت رعاية البنك الدولى وحضور وزراء الموارد المائية لدول حوض النيل وممثلين عن الكثير من المؤسسات الدولية المانحة بغرض الإعلان عن موافقة دول الحوض للدخول فيها والتعاون من أجل تنفيذ برامجها ومشروعاتها وعن استعداد المؤسسات الدولية المانحة لتمويلها. وتقع أهمية الكتاب فى أنه يعد أول وثيقة منشورة بها بعض التفاصيل عن هذه المبادرة التى كثر الحديث عنها لعدد من السنوات دون أن يعلن عن تفاصيلها التى أخفيت تمامًا عن الناس، بل وعن المختصين من غير ثقاة البنك الدولى ومستشاريه، على الرغم من أن هذه المبادرة ستؤدى، كما سنبين فى هذا المقال، إلى تغيير شامل فى النظام القائم لدول الحوض وستضع الأساس لنظام نيلى جديد يدخل هذه الدول فى النظام العالمى الذى يتم بناؤه اليوم تحت ستار العولمة.

ويقع الكتاب فى أربع وخمسين صفحة فهو صغير بكافة المقاييس، ومع ذلك فقد كانت قراءته وفهم محتواه واستخلاص الجزء المفيد وذى الدلالة منه صعبة تحتاج إلى العودة إلى سطوره لمرات عديدة وذلك بسبب الأسلوب الذى استخدم فى صياغته واللغة المعتمدة التى كتب بها والتى امتلأت بالكلمات الجاذبة قليلة المعنى وإن بدت على غير ذلك. وفى الحقيقة فإن هذا الأسلوب الجديد قد أصبح إحدى سمات الكتابة «الأممية» والتى أعتقد أن المؤسسات الدولية قصدت إدخاله واستخدامه بعد أن وجدت أن أفكارها وبرامجها غير مقبولة وتلقى المعارضة على مستوى الشارع مما دفعها إلى التفكير فى أن تجعل هذه الأفكار مبهمة وغير واضحة وصعبة الفهم على عامة الناس حتى يبتعدوا عن الكلام عنها أو حتى الاهتمام بها. وقد بلغ إبهام هذا الأسلوب بل هذه اللغة الجديدة لدرجة أنى وجدت أكبر الصعوبة فى ترجمة صفحة من صفحات هذا الكتاب إلى اللغة العربية بسبب جدة الكثير من الكلمات ووعورة وتعقيد تركيب الجمل. وقد فهمت فى أثر هذه التجربة السبب فى ركاكة ترجمات الوثائق الدولية إلى اللغة العربية وهى التى كلما قرأتها اضطررت للعودة لأصلها الإنجليزى.

المبادرة

يصف الكتاب الذى صدر باللغتين الإنجليزية والفرنسية وأعدته سكرتارية مبادرة حوض النيل أغراض هذه المبادرة بأنها «لمكافحة الفقر ولدفع عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية لحوض النيل من خلال الاستخدام المنصف للمياه المشاعة بين دوله». ويبرز الكتاب ومن أول سطر فيه ضخامة حجم الثروات الطبيعية التى يتمتع بها هذا الحوض الشاسع وأهمية تنميتها لصالح سكانه الذين يزيدون على ٣٠٠ مليون نسمة يعيشون اليوم فى فقر مدقع ومن بين دول حوضه أربع هى فى ذيل قائمة الأمم من حيث الدخل سواء على مستوى الفرد أوالدولة.

ويحتوى الكتاب على تفصيلات برنامج العمل الذى وضع لتنمية هذه الثروات والذى كان نتاج عمل طويل امتد لأكثر من ثمانى سنوات شارك فيه فنيون من دول الحوض وخبراء من البنك الدولى وعدد من المؤسسات الدولية المانحة تبادلوا الآراء حتى وصلوا إلى «رؤية مشتركة» (Shared Vision) وبرنامج استراتيجى للعمل اندرجت تحته سبعة برامج أربعة: منها أساسية تتعلق بالعمل البيئى عبر الحدود والتجارة الإقليمية للكهرباء، وتخطيط وإدارة مصادر المياه، والاستخدام الكفء للمياه فى الزراعة، وثلاثة أخرى مساعدة تتعلق ببناء الثقة وتوطيد الاتصال بين دول الحوض وبالتدريب العملى وطرق توصيل فوائد برامج التنمية الاقتصادية الاجتماعية للناس.

وستتكلف هذه البرامج السبعة خلال مرحلة إعداد مشروعاتها الأولى مبلغ ١٢٢ مليون دولار وستدوم بين ثلاث سنوات وست تبعًا لطبيعة كل برنامج وفيما يلى نبذة عن كل من هذه البرامج:

* العمل البيئى عبر الحدود: يهدف إلى وضع إطار للتنمية المستدامة لحوض النيل ومساندة العمل البيئى الجماعى عبر الحدود. وقدرت تكاليف هذا البرنامج بمبلغ ٣٩ مليون دولار تنفق على مدى ثلاث سنوات سيقوم بتمويل الجزء الأكبر منها صندوق البيئة العالمى GLObal Environmental Fund (GEF).

* التجارة الإقليمية للكهرباء: بهدف بناء نظام مؤسسى كفيل بالتنسيق بين دول الحوض لنشوء سوق متكامل للكهرباء على مستوى الحوض وقدرت تكاليف هذا البرنامج بمبلغ ١٢ مليون دولار تنفق على مدى ثلاث سنوات.

* تخطيط وإدارة مصادر المياه: بهدف تقوية قدرة دول الحوض على القيام بمهمة تنمية وإدارة مصادر المياه من منظور إقليمى حتى يأتى استخدامها منصفًا وحديًا ومستدامًا قدرت تكاليف هذا البرنامج بمبلغ ٢٨,٢ مليون دولار منها ٢١ مليون دولار لبناء ما يسمى «بنظام مساندة اتخاذ القرار» Decision Support System (DSS) بغرض تسهيل التفاهم وإيصال المعلومات بين متخذى القرار فى دول الحوض، وكذلك لتحسين قدرتهم على تحليل بيانات هذه المعلومات واستخراج النماذج منها.

* الاستخدام الكفء للمياه فى الزراعة: بهدف وضع القواعد السليمة والعملية لتيسير وصول الماء واستخدامه الكفء فى عمليات الزراعة. ولهذا البرنامج أهمية خاصة بالنسبة لمعظم دول الحوض التى لازالت تعتبر الزراعة من أهم مصادر دخلها القومى التى تعطيها ميزة نسبية فى التصدير وتتيح لها إيجاد فرص أكثر للعمل، وقدرت تكاليف هذا البرنامج بمبلغ ٥ ملايين دولار تنفق على مدى ثلاث سنوات.

* بناء الثقة وتوطيد الاتصال بين دول الحوض: بهدف تشجيع التعاون بينها لتنفيذ برامج ومشروعات المبادرة والقيام بحملة دعائية لتبين فوائدها فى وسائل الإعلام المتاحة أو التى يقترح إنشاؤها أو يرى دعمها ماديًا أو بتدريب العاملين فيها. وقدرت تكاليف هذا البرنامج بمبلغ ٢٠ مليون دولار تنفق على مدى ٥ سنوات.

* التدريب العملى: بهدف بناء الكوادر القادرة على إدارة وتخطيط مصادر المياه وذلك بدعم المعاهد القائمة الخاصة والعامة والمختصة بشئون المياه. وتشجيع الاتصال بين المشتغلين بعلوم المياه فى مختلف دول الحوض وقدرت تكاليف هذا البرنامج بمبلغ ٢٠ مليون دولار تنفق على مدى أربع سنوات.

* توصيل فوائد برامج التنمية الاقتصادية الاجتماعية للناس وذلك بدعم التعاون بين دول الحوض والتخفيف من أثر التوترات التى يمكن أن تأتى مع شبح المياه أو النزاع عليها. وقدرت تكاليف هذا البرنامج بمبلغ ١١ مليون دولار تنفق على مدى ست سنوات.



وتحتوى المبادرة أيضًا وفى نفس الوقت على برنامجين فرعيين أولهما يخص دول شرق النيل (مصر والسودان وإثيوبيا) وثانيهما يخص الدول البحيرية الاستوائية (بوروندى والكونجو وكينيا ورواندا وتنزانيا وأوغندة) بالإضافة إلى مصر والسودان. وهددت دول شرق النيل خمس مشروعات تحت برنامجها الفرعى من أجل «التنمية الإقليمية المتكاملة ومتعددة الأغراض لدولها». وحتى يتبين للناس فائدة هذا العمل المشترك فقد تضمنت المشروعات عددًا منها ذات عائد ملموس وسريع يكسب فيه كل طرف مشارك للبدء مباشرة وعلى الفور. أما مشروعات البرنامج الخمس فهى بناء نموذج لتخطيط مشروعات شرق النيل - مشروع تنمية حوض نهرى بارو وأكدبو متعدد الأغراض - مجابهة أخطار الفيضان - ربط السودان وإثيوبيا بخطوط الكهرباء - الاستثمار فى تجارة كهرباء شرق النيل - الرى والصرف - إدارة المياه فى بعض أحواض التصريف.

بناء نموذج لتخطيط مشروعات شرق النيل: وهو على خطوتين، الأولى: سريعة تهدف إلى التعرف على مشروعات مصر والسودان وإثيوبيا لتنمية مصادر مياهها والثانية لتقوية إمكانيات هذه الدول لبناء نموذج يدخل أنسب هذه المشروعات من أجل التخطيط للاستخدام الأمثل لمصادر المياه فيها للصالح المشترك، وقدرت تكاليف الخطوة الأولى بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ دولار والثانية بين ٥ - ٦ ملايين دولار.

مشروع تنمية حوض نهرى بارو وأكدبو متعدد الأغراض: وهو مشروع يمكن البدء فيه مباشرة لحفز التنمية الاجتماعية الاقتصادية للإقليم بتكلفة قدرت بمبلغ ٣ ملايين دولار والانطلاق بعد ذلك للقيام بمشروع للتنمية الشاملة لمصادر المياه والثروات الطبيعية وخطوط الملاحة فى إطار من التعاون الإقليمى وفى بيئة مستدامة ومخطوطة وقدرت تكاليف هذا المشروع بأكثر من ٤٠٠ مليون دولار.

مجابهة أخطار الفيضان: وذلك بتقوية التعاون بين دول الحوض وتحسين قدراتها لمجابهة أخطار الفيضان عن طريق إنشاء شبكات الرصد والإنذار المبكر فيها - وكذلك رسم الخطط للإقلال أوالتعويض من الخسائر فى

Nile Basin Initiative, Strategic Action Program: An Overview
Prepared by the Nile Basin Initiative Secretareat in Cooperation with the World Bank May 2001.

الأرواح أو الممتلكات التى يمكن أن تأتى مع الفيضانات العالية - والاستفادة من المياه الزائدة فى دول شرق النيل وقدرت تكاليف الخطوات الأولى والخاصة بتقوية التعاون بين دول الحوض بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ دولار أما بناء أجهزة الإنذار المبكر ومشروعات الاستفادة من المياه الزائدة، فقد قدرت تكاليفها بمبلغ يتراوح بين ٧ - ١٤ مليون دولار.

ربط السودان وإثيوبيا بخطوط الكهرباء: كخطوة أولى فى إطار خطة لتشجيع التجارة الإقليمية للكهرباء بين البلدين وتتضمن مشروعات توليد الكهرباء فى مشروعات تنمية مصادر المياه متعددة الأغراض - وقدرت التكاليف الأولية لربط السودان وإثيوبيا بمبلغ ١٠ ملايين دولار أما المشروعات بعيدة المدى فقد قدرت تكاليفها بمبلغ ١٥٠ مليون دولار.

الاستثمار فى تجارة الكهرباء بشرق النيل: وذلك بالبدء فى تنفيذ برنامج لتشجيع تجارة الكهرباء وجذب القطاع الخاص للاستثمار فى بناء محطات توليد الكهرباء كجزء متمم لمشروعات ضبط المياه.. وقدرت تكاليف وضع وتوحيد مواصفات هذه التجارة وتحريك الاستثمار فيها بمبلغ ٢٫٦ مليون دولار كما قدرت تكاليف عمل الرسوم الهندسية لبعض المشروعات التى ستعرض على المستثمرين بمبلغ ١٠ ملايين دولار قابلة للزيادة - أما التكاليف النهائية لبناء هذه المشروعات فقد تركت دون تحديد أية مبالغ لها بسبب أن بناءها سيتم بواسطة رأس المال الخاص.

الرى والصرف: بهدف تحسينهما لزيادة



إنتاجية الأرض وتوسيع رقعة الزراعة لإيجاد فرص جديدة للعمل وتقوية الجمعيات الزراعية وتحسين البنى التحتية وقدرت تكاليف هذه العمليات بمبلغ ٢ مليون دولار كما قدرت تكاليف إعداد رسوم بعض المشروعات الزراعية التى يخطط لعرضها للاستثمار الخاص بمبلغ ١٠ ملايين دولار قابلة للزيادة.

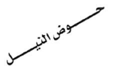
إدارة المياه فى بعض أحواض التصريف: بغرض تحسين مستوى العيش لسكان بعض المناطق المختارة وتعظيم عائد القطاع الزراعى فيها ودراسة عوامل التعرية والترسيب التى تؤثر على خصوبة أراضيها والبحث فى تخفيف الضغط السكانى عليها وإيجاد طرق بديلة تمد السكان بعيش أفضل.. وقدرت تكاليف هذه الدراسات بمبلغ ٢ مليون دولار أما المشروعات التى يمكن أن تتفرع عن هذه الدراسات فقدرت تكاليفها بمبلغ ٤٠٠ مليون دولار.

وبذلك تكون التكاليف المقدرة للإعداد لمشروعات برنامج دول شرق النيل ٤٩ مليون دولار فى الوقت الذى قدرت فيه التكاليف النهائية لبناء هذه المشروعات بحوالى ٥٦٥ مليون دولار بخلاف الاستثمار الذى يؤمل أن يأتى به القطاع الخاص لتنفيذ مشروعات تجارة الكهرباء والزراعة.



أما الدول البحيرية فقد حددت ستة مشروعات مشتركة بعضها جاهز للتنفيذ على الفور هى:

زيادة إنتاجية أراضى الزراعة المطرية وأراضى الزراعة المروية الصغيرة وتحسين تربية المواشى، مشروع التنمية السمكية لبحيرة



إدمارد وألبرت، إدارة أحواض تصريف أنهار مارا والكاجيرا والمالاكيزى مالابا، مكافحة ورد النيل، تنمية القوى الكهرومائية وتشجيع التجارة فيها بين الدول.

وقدرت تكاليف الدراسات الأولية لهذه المشروعات التسعة بمبلغ ٣٠ مليون دولار قابلة للزيادة فى الوقت الذى قدرت فيه تكاليف تنفيذ ما يتفرع عن المشروعات بحوالى المليار دولار قابلة للزيادة هذا غير المشروعات التى ينتظر أن يقوم بتمويلها القطاع الخاص.

وبذا تكون جملة ما ينتظر إنفاقه لتنفيذ جميع برامج الرؤية المشتركة لدول حوض النيل فى مرحلتها الأولى والتى قد يمتد بعضها إلى ست سنوات بمبلغ ٢١١ مليون دولار، أما مراحل بناء المشروعات اللاحقة والناجمة عن هذه المرحلة فسيكون للقطاع الخاص دور فى تمويلها وإن كان الأمر سيحتاج إلى إيجاد تمويل بمبلغ يقارب من ١,٦ مليار دولار لاستكمال دراساتها والقيام بتنفيذ بعضها.

وتتولى شئون هذه المبادرة أجهزة متعددة يقف على قمتها مجلس وزراء الموارد المائية لدول حوض النيل وسكرتارية دائمة اتخذت من مدينة عنتيبى بأوغندة مقرًا لها وهيئة فنية لإعداد ودراسة مشروعاتها كما يقف وراء المبادرة «الكونزورتيوم الدولى للتعاون من أجل النيل ICCON» والمكون أساساً من البنك الدولى وبعض المؤسسات الدولية المانحة مثل الولايات الكندية للتنمية الدولية والبرنامج الإنمائى للأمم المتحدة وغيرها من المؤسسات الراغبة فى المساهمة فى تمويل مشروعات المبادرة والتى يؤمل جذبها للانضمام إليه.. وللكونزورتيوم مجموعة من الخبراء مهمتهم متابعة تنفيذ خطط ومشروعات المبادرة وتقييمها لإبلاغها للمانحين والمموِّلين فى صورة تقارير دورية وكذلك المشاركة فى وضع المشروعات وعرضها على المستثمرين العالميين.

البنك الدولى والمبادرة

أول ما يلفت النظر فى هذه المبادرة الدور الكبير الذى لعبه البنك الدولى فيها واهتمامه فوق العادى بها حتى ليمكن القول وبحق أنها من صناعته، فقد جاءت بإيحاء منه وتوطدت أركانها بفضل مساعدته الفعالة ودفعه لكل دول الحوض للانضمام إليها وقبوله تمويل مشروعاتها والدعوة لها. ويعتبر جمع جميع دول الحوض على طاولة واحدة للعمل المشترك إنجازاً كبيرًا كما يعتبر قبول مصر بالذات دخول البنك الدولى كطرف ثالث فى قضية تنمية حوض النيل أمرًا جديداً وتغيراً فى سياستها التى درجت على إبعاد هذه القضية عن تدخل أى طرف خارجى فيها ويعتبر هذا القبول مؤشرًا واضحًا مع المناخ الجديد الذى تعيشه مصر منذ نهاية الحرب الباردة وظهور النظام العالمى الجديد الذى أقبلت مصر على الدخول فيه وقبول شروطه والتزاماته.. ويمكن القول إن مبادرة حوض النيل هى وليدة هذا النظام وأنها ما كان لها أن توجد إلا فى ظله عندما انفتحت أسواق العالم على اتساعه أمام الشركات عابرة القارات ومؤسسات التمويل الدولية للاستثمار مما فتح الباب للتفكير الجاد فى تنمية حوض النيل وسبر إمكاناته وفرص بناء المناخ المناسب للاستثمار فيه.

ويؤكد تاريخ بدء التفكير فى المبادرة على ارتباطها بنهاية الحرب الباردة فقد وضعت أولى لبناتها فى سنة ١٩٩٢ بعد أقل من سنتين من هذه النهاية.. ففى هذه السنة اجتمع وزراء الموارد المائية لست من دول الحوض (مصر والسودان والكونجو ورواندا وتنزانيا وأوغندة) وبحضور مراقبين من دول الحوض الأخرى تحت رعاية البنك الدولى وقرروا إنشاء لجنة للتعاون الفنى (تكونيل) تكون مهمتها التقدم بمقترحات لإدارة مياه النيل لصالح كل دولة.. وتقدمت اللجنة بمشروع متكامل موّلته الوكالة الكندية والبرنامج الإنمائى للأمم المتحدة وحوّله مجلس وزراء الموارد المائية لدول الحوض إلى البنك الدولى للنظر فى تمويله والذى وافق على ذلك بعد أن فحص المشروع بلجنة من خبرائه قامت بتعديله تعديلاً وافقت عليه دول الحوض فى شهر مارس سنة ١٩٩٨.. ويعتبر هذا المشروع بمثابة الأساس الذى انبنت عليه «الرؤية المشتركة» لمبادرة حوض النيل التى أعلن مجلس وزراء الموارد المائية لدول حوض النيل عن قيامها فى شهر فبراير سنة ١٩٩٩ فى اجتماع عقد بمدينة أروشا بتنزانيا.. وقد تواصلت منذ ذلك التاريخ اجتماعات مجلس وزراء الموارد المائية لدول الحوض واللجنة الفنية المنبثقة عنه على فترات متقاربة حتى أصبحت المبادرة حقيقة واقعة فى فترة قياسية لا تزيد على السنتين إلا قليلاً.

وليس لدىَّ شك فى أن اهتمام البنك الدولى بقيام المبادرة وفتح جبهة جديدة للاستثمار العالمى فى أفريقيا إنما يعود إلى قناعته بأنها جبهة واعدة وأن فى تنميتها ما يمكن أن يرفع من مستوى عيش شعوبها فيصبح لها من القدرة الشرائية ما يمكن أن يفتحها أمام سوق التجارة العالمية.. وإنى أخشى أن تكون هذه القناعة مبنية على غير أساس فالمتمعن فى المبادرة سيجد هذه الجبهة على عكس ما تبدو ولأول وهلة كبيرة وبلا نهاية.

إلا أنها فى الحقيقة صغيرة وقليلة الفرص ولا تتناسب مع ما يمكن أن يستنتجه الناظر إلى مساحتها الشاسعة والبكر والحاملة للكثير من المصادر الطبيعية.. فالاستثمار الذى تتيحه المبادرة فى دول الحوض هو فى مجال الزراعة والكهرباء وهما مجالان يصعب تصور أن تأتى تنميتهما فى بلاد الحوض بعائد مجز يمكن أن يجذب كبار المستثمرين.. فالزراعة على وجه العموم والمروية منها على وجه الخصوص أصبحت من الأنشطة الاقتصادية التى يستحيل تصور أن تكون لها قدرة تنافسية فى الأسواق أمام الزراعة المطرية السائدة فى معظم بلاد العالم والتى لا يحتاج إيصال المياه إلى أراضيها لنفقات بناء السدود وشق القنوات ورفع المياه.. أما فى مجال الكهرباء فعلى الرغم من أن فرص تنميتها كبيرة جداً وعلى الأخص فى دول المنبع إلا أن تسويقها سيكون صعباً بسبب أن سوقها المحلية صغيرة جداً لا يمكنه استيعابها وبسبب صعوبة تصديرها لارتفاع تكلفة نقلها للمراكز الصناعية المستهلكة للطاقة والتى توجد على بُعد آلاف الكيلو مترات من مصادر توليدها.

وإذا كان الإنفاق على المبادرة لن يؤدى إلى فتح أبواب كثيرة لرأس المال العالمى للدخول فى أفريقيا فلعله يفتح الباب أمام رأس المال المحلى والذى قد يجد فيما تم بناؤه من بنى تحتية حافزاً للاستثمار ورفع مستوى عيش أهل الحوض. وهذا أمر لو تم تحقيقه فسيكون بالإضافة إلى نبله وفائدته لأهل الحوض مفيدًا أيضًا لرأس المال العالمى الذى اكتتب فى بناء هذه البنى التحتية والذى سيجد فى القدرة الشرائية الجديدة للمصريين من سكان الحوض مجالاً لفتح أسواق جديدة لتصريف بضائعه.. مع أن تحقيق هذا الأمل لن يكون ممكناً إلا فى إطار فلسفة جديدة للتنمية تأخذ فى اعتبارها الظروف المحلية للمنطقة وحجم سوقها ومستوى تدريب أهلها وهى فلسفة لا يبدو أن وضعها ينال اهتمام أحد.. فكل عمليات التنمية التى تتم فى بلاد العالم النامى مبنية فى الأساس على نقل التقنيات العالية وتطبيقها فيها على نفس مقاييس العالم الصناعى وهى عمليات أثبتت التجربة فشلها وأنها كثيرا ما أدت إلى تشريد وإفقار السكان المحليين.. ولا يستطيع القارئ لما نشر حتى اليوم عن المبادرة أن يعرف بالضبط نوع التنمية التى ستأتى بها إلى بلاد الحوض، فإذا كانت حسب ما تشير كل الدلائل وما يستشفه المتمعن فيها، ستقوم حول بناء السدود وتوليد الكهرباء على مقاييس واسعة وبناء المزارع الشاسعة والمميكنة فإنها لن تحل مشكلة أحد ولن تفتح سوقا جديدة وأغلب الظن أنها ستؤدى إلى المزيد من الفقر.



وإذا صح استنتاجنا من أن هذه المبادرة لن تتيح فرصًا كثيرة أمام رأس المال العالمى للاستثمار أو لفتح أسواق جديدة فكيف يمكن تبرير هذا الإنفاق الكبير الذى أجزلته مؤسساته عليها وهذا الجهد الفائق الذى أعطاه البنك الدولى لتمريرها؟ وللرد على هذا السؤال فى نظرى هو أن هذه المبادرة حسنة فى ذاتها وبغض النظر عن نتائجها ففى القيام بدراساتها خير وفير للمكاتب الاستشارية العالمية. وفى استمرارها خلق لوظائف دولية جديدة تزيد من أهمية وقوة المؤسسات عابرة الدول. وينبغى أن نبين هنا أن هذه المؤسسات الدولية التى أنشأت لخدمة رأس المال العالمى قد أصبحت اليوم قوة فى ذاتها لها جدول أعمالها الخاص والمستقل وموظفوها الكثيرون والمنتشرون فى كل أرجاء الأرض. وتقع مصالح المكاتب الاستشارية وشركات المقاولات فى إبداء المشورة وتصميم وبناء المشروعات العملاقة من حيث هى ودون اعتبار لجدواها أو لفائدتها أو لما سوف تأتى به من آثار فأرباحها تجنى وقت بنائها.. وأفضل المشروعات فى هذا الميدان ما تتبناه الدول أو ترعاه المؤسسات الدولية فالحساب فيها قليل والأرباح فيها وفيرة والأمثلة فى هذا المجال كثيرة إذ لا يكاد المرء أن يتلفت فى أى مكان دون أن يجد مثالاً عليها.. أما المؤسسات الدولية فقد أصبحت ذات قوة ومصالح ذاتية بعد أن زاد عدد موظفيها الذين ينالون المهايا العالية ويحظون بامتيازات كثيرة زيادة ضخمة. ومع الأخص خلال العقدين الأخيرين بنشوء أو تعظيم دور مئات المؤسسات والصناديق والبرامج والمنظمات والهيئات والوكالات الدولية وبظهور خدمات ومهام عابرة للدول كعمليات حفظ السلام ومراقبة خطوط الهدنة وإدارة العقوبات الدولية ورعاية اللاجئين ومكافحة الإيدز وغير ذلك من العديد من المهام الجديدة.. ولاشك أن مبادرة حوض النيل ستزيد من أهمية هذه المؤسسات وستضيف موظفين جددًا لدعم البيروقراطية الأممية بكل ما تأتى به من عقد الاجتماعات والندوات والمؤتمرات وورش العمل والسفر الدائم والتنقل بين البلاد وتشغيل الخبراء.

أثر المبادرة على دول الحوض وعلى مصر

ثانى ما يلفت النظر فى هذه المبادرة هو شمولها واحتواؤها على برامج متعددة تتعدى حدود الدول ذات أهداف بعيدة المدى ولو تم تنفيذها وبناء مشروعاتها فإنها ستؤدى إلى بناء نظام نيلى جديد يعيد تشكيل دول الحوض ودور كل منها فى الاقتصاد الإقليمى والعالمى.. وإذا نحينا جانبا ذلك الجزء المتعلق بتسويق هذه المبادرة والقيام بحملات الدعاية عنها والتى ترد تحت شعارات «بناء الثقة» و«مد جسور التعاون» بين دول الحوض أو «توطيد وسائل الاتصال» بينها أو تحت بندى «التدريب» أو

يقف وراء المبادرة «الكونزورتيوم الدولى للتعاون من أجل النيل ICCON» والمكون أساساً من البنك الدولى وبعض المؤسسات الدولية المانحة مثل الولايات الكندية للتنمية الدولية والبرنامج الإنمائى للأمم المتحدة وغيرها من المؤسسات الراغبة فى المساهمة فى تمويل مشروعات المبادرة والتى يؤمل جذبها للانضمام إليه



«تقوية الأجهزة للعمل المشترك» وذلك الجزء الآخر والخاص بالمشروعات الصغيرة ذات الطابع الإنسانى والتى تهدف إلى تخفيف المعاناة عن العاملين فى مجال الزراعة وتربية الحيوان فى بعض أحواض تصريف النهر المزدحمة بالسكان والفقيرة فى الموارد فإننا نجد أن عصب المبادرة يقع فى مجالين أساسيين هما التجارة فى الكهرباء وتنمية مصادر المياه للاستخدام المشترك بين دول الحوض.. وهما مجالان لا يمكن تصور قيام مشروعاتهما دون ضبط مياه النهر وإقامة السدود الكبيرة عليه.. ومع ذلك فإنك لا تجد هاتين الكلمتين (السدود والضبط) تردان فى أى سطر من سطور الكتاب فقد تفادى كاتبوه الكلام عنهما أو إبداء أى ذكر لهما بسبب الحساسية الشديدة الخاصة بموضوعهما، وتعود هذه الحساسية فى الأساس إلى أن عمليتى ضبط المياه وبناء السدود لابد أن تتناولا موضوع إعادة توزيع حصص المياه بين الدول وموضوعها بمس المصالح الأساسية لكل دول الحوض وعلى الأخص دولتى المصب ومصر بالذات والتى تتعلق حياتها بل ووجودها ذاته به. وفى رأيى أن من أهم أسباب تطويل مدة المرحلة الأولى من المبادرة إلى ما بين ثلاث وست سنوات والتركيز على حملات الدعاية فيها هو لإعداد الرأى العام بل والحكومات ذاتها لقبول القيام بهذه المشروعات وما يستتبع ذلك من العيش فى نظام نهرى جديد تكون فيه المياه منضبطة والحصول عليها مقننًا وبسعر يحكمه السوق.

وكما سبق القول فإن تفصيلات مشروعات المبادرة التى ينوى القيام بها لتحقيق أهدافية برامجها لم تنشر بعد، لذا فمن الصعب التنبؤ بأى نوع من الدقة مع ما يمكن أن يطول دول الحوض أو سكانها من هذه المبادرة ـ ومع ذلك ودون الدخول فى التفصيلات وبغض النظر عن فوائد أو آثار ما يمكن أن يأتى منها فإن من الممكن للمرء أن يستشف من روح المبادرة وأهدافها ومحاسبتها من دراسات قام بها خبراء البنك الدولى أن مشروعات هذه المبادرة لابد أنها ستكون كبيرة ومؤثرة فليس هناك من طريق آخر لتوليد الكهرباء على مقاييس تسمح بالإتجار فيها عبر الحدود أو بناء المزارع الشاسعة التى يمكن أن تجذب المستثمرين إلا ببناء السدود الكبيرة ـ وإذا تم بناء هذه السدود على منابع النهر وأصبح التخزين يتم فيها فسينال مصر أكبر الضرر وستروح منها مفاتيح النهر وتفقد مركزها المتميز ويتهدد أمنها المائى وكلها هواجس تثير أشد الإزعاج للمسئولين فى مصر والذين يحاولون إبعاد شبحها عنهم بالإيهام بأن لديهم مشروعات بديلة تحمى مركز مصر ومصالحها وصفها أحد خبراء المياه ممن يكثرون التردد على البنك الدولى وورش عمله ومكررًا ما جاء على لسان وزير الموارد المائية المصرى بأنها «جذابة توفر الاستهلاك وتقلل خسارة المياه بالتبخر والنتح». وحتى تستبين لنا طبيعة هذه المشروعات «الجذابة» فإننا لن ننزلق فى طريق الأوهام وسنبنى استنتاجنا على ما تمليه ظواهر الأمور وتاريخ العلاقات الدولية واستقراؤنا لواقع الحال.

وهناك مشروع سبق أن قدمه إلى البنك الدولى أحد الخبراء الدوليين ممن يستعين بهم البنك الدولى ويعمل اليوم ضمن مجموعة خبراء الكونزورتيوم الدولى للتعاون من أجل النيل أعتقد أنه سيكون محل نظر منفذى المبادرة لتوافق أهدافه معها.. ويتلخص المشروع فى بناء سد لحجز المياه فى إثيوبيا وتنظيم خروجها من الخزان الذى سيتكون أمامه بانتظام وعلى مدار السنة بدلاً من النمط الحالى الذى يأتى بمعظمها فى موسم واحد.. ويتارجح تصرف النهر فى الوقت الحاضر حول المليار متر مكعب شهريا فى الشهور بين يناير ويونية ثم يرتفع فجأة حتى يصل إلى ١٦ مليار متر مكعب فى شهر أغسطس ثم يعود إلى أقل من ٢ مليار متر مكعب فى شهر ديسمبر. ويأتى لذلك أكثر من ٨٥٪ من الماء فى الأشهر الأربعة يولية إلى أكتوبر. ولو أن إثيوبيا بنت السد المقترح على النيل الأزرق وحجزت لنفسها ٦,٥ مليار متر مكعب فى السنة فإنها ستطلق الباقى بمعدل ٣,٦ مليار متر مكعب فى الشهر (بعد حجز ٣٪ من الماء سيضيع فى البخر فى هذا الخزان) لاستخدامات مصر والسودان.. وإطلاق الماء بانتظام من إثيوبيا سينهى ظاهرة الفيضان والذبذبات التى تأتى معها مما سيحمى السودان من غوائل الفيضانات العالية ومما سيقلل من ارتفاع الماء ببحيرة ناصر إلى الحد الذى سيقلل البخر منها إلى أقل قليلاً مما ستأخذه إثيوبيا من مياه، وبالإضافة إلى ذلك فإنه سيمنع وصول الطمى إلى كل من مصر والسودان مما سيرفع من كفاءة سدود السودان على النيل الأزرق والتى يتجمع فيها الطمى فى الوقت الحاضر ويقلل من سعتها كما سيساعد مصر على الحفاظ على بحيرة ناصر من الإطماء. ومن المعروف أن الطمى الذى يحمله الفيضان فى الوقت الحاضر يتجمع عند الشلال الثانى على حدود مصر والسودان بكميات قد تعيق سريان النهر.

وعلى الرغم من كل هذه الفوائد التى ذكرت فإن بناء السد لن يكون مجدياً بسبب صعوبة بنائه على النيل الأزرق العميق وذى الانحدار الكبير مما سيجعل تكلفة بنائه كبيرة لا تبرر الفوائد التى يمكن أن تجنيها إثيوبيا منه فلم يعد عائد الزراعة المروية كافياً لتبرير مثل هذه التكلفة كما أن توليد الكهرباء بكميات تفوق بكثير القدرة الاستيعابية للدولة سيؤدى إلى تصديرها لخارج الحدود وهو أمر قليل الفائدة بل لعله أمر ضار لما يتركه تصدير الطاقة من أثر سيئ على مستقبل الأمة لأنه سيحرمها ولأجيال قادمة من استخدام أحد أهم مصادرها الطبيعية فى عملية التنمية. وبالإضافة إلى ذلك فإن مثل هذه السدود التى تقام عند منابع النهر عادة ما تكون لها آثار جانبية ضارة فمنع وصول الطمى إلى مصر والسودان سيتسبب فى تعرضهما لأخطاء كبرى ستفوق بكثير ما يمكن أن يجنياه من فوائد لأن حجز الطمى سيغير من نظام النهر وسيطلق جزءا من طاقته التى كان يصرفها فى حمله فتزيد قدرته على النحر سواء على جانبيه أو لتعميق مجراه مما سيجعله نهرا صعب المراس ستحتاج حماية جسوره والأراضى التى تحفه والمنشآت المقامة عليه إلى أكبر الجهد وأعظم التكلفة.

أما أكبر البلاء الذى يمكن أن يحمله بناء مثل هذا السد فسيحل بمصر التى ستروح بعد بنائه أهمية السد العالى فى تخزين المياه وتوليد الكهرباء وستخسر بذلك أحد أهم رموز إرادتها الوطنية التى دخلت الحرب ووقفت شامخة أمام عتاة المستعمرين من أجل بنائه وأحد أهم أدواتها لتثبيت أمنها القومى. فبناء سد بإثيوبيا سينقل عملية التخزين للمياه إليها وسيجعل مصر رهينة لهذه الدولة، وهو المصير الذى كانت مصر وعلى طول تاريخها الحديث وحتى ظهور المبادرة تسعى جاهدة لكى تتفاداه بالحفاظ على الوضع القائم، ومنع تدخل أى طرف ثالث فى أمور النهر إن أمكنها ذلك أو احتواء آثار هذا التدخل إن لم تستطع منعه. وللحق فإن دول أعلى الحوض لم تكن راضية عن الوضع القائم الذى كانت تنظر إليه على أنه فى صالح مصر، وأنه يعطيها نصيباً أكبر من مياه النهر ـ وكانت إثيوبيا أكثر دول المنبع شكوى بسبب أن هذا الوضع كان يحرمها من أن تكون لها حصة من المياه التى تنبع منها والتى كانت مصر والسودان قد اقتسمتاها دون استشارتها فى اتفاقية سنة ١٩٥٩ ـ وكانت مصر وحتى ظهور المبادرة تواجه هذه الشكوى فى اتجاهين:

الاتجاه الأول هو فى تبرير حصولها على حصتها الكبيرة من المياه بسبب أن النيل هو مصدرها الوحيد منها وأنه إذا أريد فتح ملف إعادة توزيع مياه النيل فينبغى اعتبار جميع مصادر المياه المتاحة لكل دولة.. ومن المعروف أن للسودان وإثيوبيا مصادر كثيرة للمياه بل وأنهارا أخرى غير النيل بعضها يصب فى البحر الأحمر وبعضها يصب فى المحيط الهندى والكثير من هذه الأنهار غير مُستغَل وربما كان النظر فى تنمية أحواضها أعظم فائدة وأقل كُلفة فسهول الكثير منها خاصة تلك التى تصب فى المحيط الهندى أكثر انبساطاً مما يجعل ضبط مياهها سهلاً بالمقارنة بروافد النيل التى تنبع من المرتفعات الإثيوبية وتمر فى حدائق عميقة ذات انحدار كبير وحاملة للكثير من الرواسب.

أما الاتجاه الثانى الذى كانت مصر تسلكه من أجل الاحتفاظ بالوضع القائم فقد كان فى احتواء أى تجمع لدول الحوض وتبنيه وإبعاده عن تدخل أى طرف ثالث إن أمكن ذلك وأخذ زمام المبادرة فيه على أمل أن تجعله متوائماً مع الوضع القائم.. وكانت مصر تأخذ زمام المبادرة للاشتراك فى كل لجنة أو نشاط مشترك لدول الحوض ولعبت دوراً هاماً فى إقامة عدد من التجمعات لدول الحوض حول مشروعات بعينها وأفلحت فى عزل إثيوبيا التى كانت ترفض من حيث المبدأ الدخول فيها.

على أن هذا التوجه قد تغير كما سبق أن بينت مع نهاية الحرب الباردة عندما قررت مصر الدخول فى النظام العالمى الجديد الذى جاء مع هذه النهاية وقررت مصر فى إطار هذه السياسة الجديدة أن تترك زمام المبادرة فى شئون النهر إلى المؤسسات الدولية لكى تعيد تنظيمها يتواءم وأحوال هذا النظام الجديد.. والمبادرة التى لخصت أهم عناصرها ومشروعاتها فى هذا المقال هى تجسيد لهذه المواءمة والتى لابد أن القارئ قد لاحظ أنه ليس فيها ما يمكن لمصر أن تكون سعيدة به.. فكلها موجهة لإنهاء الوضع القائم للنهر والذى كان فيه لمصر وضع متميز والذى كانت مصر تعمل جاهدة للحفاظ عليه. أما الوضع الجديد الذى سيحل محله، لو قدر أن يقام، فليس فيه لمصر دور يذكر بما فى ذلك سلطتها على تخزين مياهها لأعوام قادمة فقد سحب منها هذا الحق وأعطى لإثيوبيا وبذا تحقق للنظام العالمى الجديد أن يمحو كل أثر يمكن أن يذكر المصريين بفترة المد الوطنى التى أمكن فيها للدول النامية الوقوف شامخة أمام الاستعمار وأمكن لمصر أن تبنى سدها العالى وصناعاتها الوطنية. كما أنه لايبدو أن الوضع الجديد الذى ستجيئ به المبادرة سيأتى لمصر بأى من الفوائد فليس فيها ما يمكن أن تضيفه إلى اقتصادها فالطريق يكاد أن يكون مسدوداً بالكامل أمام الاستفادة منها فى مجاليها الأساسيين ففرصها فى زيادة مياهها معدومة بل وعلى العكس من ذلك فكل الدلائل تشير إلى أنها ستقل كما أن إمكانيات توليد الكهرباء



الأغانى الشعبية فى صعيد مصر

للعريس

علبة جواهر للعريس هديه
جبْنَا الجهاز لعروسك يا عينىّ
نِينْه العريس إدْرجى (تعالى) تتفرجى
تلقى العروسه فى المدينه جايه

* * *

عريسنا من دَلَعُه دخل الحمّام
العبد شايل له البَدْلَه واسمه مرجان
افرشوله الأوده . . دا العريس موده
يلقى العروسه حاجه حلوه بعيون غزلان
يلقى العروسه حاجه حلوه بنهود رمان

* * *

وقابلنى العريس العايق
لبَاس الفروز (من الأحجار الكريمة) الرايق
وخطبنا العروسه الحلوه
أفرَّحه وأنا قلبى رَايق
يا رب تحفظ شبابه
وتْفرَجها ع المتضايقْ
يا من مشيته تعجبنى
وكلامه يلدَّ عليّه
وجهاز عروسه جابهله
متْمن يا رب تتم عليّه
دا كله شرَايةْ ماله
ولا جبَا (ضريبة) وهديه





حوض النيل



بداخل حدودها تكاد أن تكون معدومة. وإنى أخشى أن يكون غاية ما سيصيبها من هذا الوضع الجديد هو بعض الوظائف الأممية عالية المرتبات والامتيازات والتى غالباً ما ستكون من نصيب بعض كبار المشاركين فيها بعد أن يحالوا إلى المعاش أو يتركوا مناصبهم فى مصر.

دول الحوض والنظام العالمى الجديد

ثالث ما يلفت النظر فى هذه المبادرة هو الدور السلبى الذى لعبته دول الحوض فيها والتى يبدو وكأنها تركت أمور تنظيم النهر الذى تشاطئه لخبراء البنك الدولى دون اكتئاب يذكر منها. فالمتأمل لبرامج المبادرة يجد أنها تكاد أن تكون خلواً حتى ولو من شبهة بصمة خبراء دول الحوض عليها فهى تكاد أن تكون منقولة من صورة نموذجية وضعها خبراء البنك الدولى للأنهار الدولية دون تصرف كبير فجاءت خلواً من البرامج التى تعالج المشاكل الخاصة بالنهر أو بدوله كتلك التى تتعلق بمستقبل الزراعة المروية والملايين من الأنفس التى تتعايش منها أو تلك التى تعالج طرق الاستخدام المحلى للطاقة بدلاً من الإتجار فيها أو تصديرها.. كما جاءت ببرامج ليس لها موضع بالنسبة لظروف النهر كبرنامج دراسة البيئة عبر الحدود والذى أعطيه على سبيل المثال لا الحصر كبرنامج منقول قد تكون له أهميته فى أحواض الأنهار الدولية التى تشق بلاداً صناعية أو كثيفة الزراعة مما قد يتسبب فى الإضرار بها ومما يجعل من مشاكل التلوث عبر الحدود أمراً ملحاً ومحتاجاً إلى الدراسة والرصد والعلاج. أما فى حوض النيل حيث لا توجد فى أى من دول المنبع صناعة تذكر أو نشاط يمكن أن يسبب التلوث عبر الحدود فإن دراسة هذا الموضوع تكون سابقة لأوانها ولن تكون لتوصياتها أو نتائجها أية فائدة حتى فى المستقبل البعيد.

وفى الحقيقة فإنه ليس هناك من سبب مقنع يبرر هذا الموقف السلبى لدول الحوض لأن المبادرة كانت ستكون أكثر فائدة لجميع المشاركين فيها بما فى ذلك البنك الدولى والمؤسسات الدولية نفسها لو أن حواراً بين أنداد قد حدث بين أطرافها. وإذا كان مفهوماً ألا يكون لأمر المشاركة الفعالة فى صياغة المبادرة أسبقية أو إلحاح عند دول المنبع بسبب أن أى تنمية فيها ومهما كان شكلها ستكون ذات فائدة أو على الأقل غير ضارة فإن الأمر يصبح عسير الفهم فى حالة دول المصب وعلى الأخص فى حالة مصر لأن مثل هذه التنمية سيكون لها أكبر الأثر عليها - ولمصر من التاريخ والخبرات فى مجال العلاقات الخارجية ودراسات النيل ما كان حرياً أن يعطيها الثقة فى النفس لكى تشارك بندية كاملة فى صياغة المبادرة بل وأن تكون رائدة فى المساهمة فى تكييف مسار البنك الدولى وسياساته لصالحها - فهذه السياسات هى فى النهاية من وضع قلة من الخبراء وهى ليست بأى حال من الأحوال نهائية وقدرية كما يظن الكثيرون.



لقد دخلت مصر النظام العالمى الجديد واشتبكت مصالحها مع العالم على اتساعه وقبلت قواعد هذا النظام والتزاماته ودخلت مع أوروبا فى شراكة ومع الولايات المتحدة فى تحالف استراتيجى ومع دول الحوض فى مبادرة وهذا الاشتباك لو أُدير إدارة حسنة وشاركت فيه بدلاً من أن تكون متلقية له وقامت بنفسها بتنفيذ برامجه لجَنَت منه أكبر الفوائد.. وإذا كان لنا أن نأخذ العبرة من تجارب الأمم التى نجحت فى الاستفادة من انفتاحها على العالم لوجدناها تلك التى تفاعلت مع ما أتى به هذا الانفتاح والتى قامت بنفسها بتنفيذ برامجها المشتركة كما حدث فى حالتى أوروبا واليابان اللتين استطاعتا تعمير بلادهما والانطلاق باقتصادهما فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بفضل اتخاذهما زمام المبادرة فى تشكيل وتنفيذ برنامج المعونة الكبير الذى قدمته الولايات المتحدة لهما.. وبنفس التوجه استطاعت بعض بلاد الشرق الأقصى أن تدخل عالم الانفتاح الفسيح الذى أتاحته لها استثمارات الدول الغربية التى أسستها فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين.. أما الدول التى تلقت المعونات وتركت زمام المبادرة فيها لمن منحوها فقد بددت فرحها وراحت أموالها دون أن يظهر لها أثر.

قدر مصر أنها واحدة من دول حوض نهر تشاركها فيه دول كثيرة ليس لأى منها نفس حاجة مصر إلى مياهه وليس لأى منها نفس محورية الدور الذى يلعبه فى حياتها وليس لدى أى منها أزمة فى المياه يمكن أن تدفعها لإثارة أية مشكلة مع مصر.. ومع ذلك فقد كانت قضية مياه النيل مثارة وعلى الدوام فهى إحدى أدوات الضغط على مصر التى كانت تحركها اعتبارات سياسية خلال فترة الحرب الباردة واعتبارات اقتصادية فى الفترة التى تلت نهاية هذه الحرب والتى تميزت بعولمة الاقتصاد والرغبة فى فتح جبهات جديدة للاستثمار.. وقد استطاعت مصر خلال فترة الحرب الباردة أن تجابه هذه الضغوط باقتدار وأن تحافظ على أمنها المائى بفضل تبنيها لسياسة مائية رشيدة بنتها على أسس فنية راسخة ودعمتها بسياسة خارجية ديناميكية.. أما فى فترة ما بعد الحرب الباردة فإن مصر لا يبدو أنها قد وجدت طريقها بعد مجابهة ما جاءت به هذه الفترة من تحديات أو التزامات. ■

من الرصاصة إلى صندوق الانتخابات

محمد الرميحي



تبدأ الدورة الثانية للرئيس الإيرانى حجة الإسلام محمد خاتمى فيما سمى بالجمهورية الثالثة فى إيران، فى جو أهدأ من سابقتها التى بدأت قبل أربع سنوات، فى السابق كان هناك حماس للتغيير، أما اليوم فإن هناك حماسًا لإبقاء الحال على ما هو عليه تحت تأثير الوضع القائم بين إقدام على التغيير و إحجام عنه فى جمهورية إيران الإسلامية التى يمتد عمرها اليوم لتدخل فى بداية عقدها الثالث.

إلا أن الثورة الإيرانية لقربنا منها لا نستبين أهميتها وصيرورتها التاريخية رغم قصر المدة التى مضت على اندلاعها، و قد لا نتبين قدرتها على الفعل التاريخى فى منطقتنا، فهى تكاد تكون قد غدت حدثا يوميا عاديا للبعض بينما تأثيرها على المدى الطويل ليس كذلك، فهى ربما تكون تاريخيا آخر ثورة كبرى فى عصرنا، ولم يسبقها فى تاريخ الشرق الأوسط الحديث من أحداث كبار غير سقوط الدولة العثمانية، وقيام إسرائيل، وقد تكون فى صيرورتها واجتهادها السياسى والاقتصادى قدوة للكثير من حركات التغيير القادمة.

وتعتقد السيدة روبن رايت، وهى صحفية أمريكية، زارت إيران قبل وبعد الثورة وعرفت البلد والناس عن قرب، وراقبت عن كثب التغيرات التى مرت بها، والعنف الذى صاحبها، وقدرتها على التواؤم مع الظروف السياسية، تعتقد أن الثورة الإيرانية هى كما قالت فى عنوان كتابها (آخر الثورات الكبرى: الاضطراب والتغيير فى إيران)، والذى صدر فى العام الماضى، بعد أن أصدرت فى السابق كتابها الأول حول إيران وكان بعنوان(باسم الله: عشرية الخمينى فى إيران). والسيدة رايت صحفية غطت أحداث الشرق الأوسط لثلاثين عاما لصحف كبرى أمريكية وبريطانية، وحازت مجموعة من الجوائز الصحفية، بسبب عملها ذاك عاشت فى بيروت وطهران ومرت على القاهرة و عمان وعواصم عربية وشرق أوسطية أخرى، وهى قريبة إلى التعاطف مع الثورة الإيرانية، ولكنها ناقدة لها مبينة أماكن ضعفها وأيضا قوتها.

ترى رايت أن إيران فى العشرين سنة الماضية منذ الثورة قد حدث لها تغيير جذرى، وثورى بالمعنى الفنى للكلمة، وليس المجازى الذى تعود عليه العقل العربى فى تسمية الانقلابات العسكرية المختلفة بـ(ثورة)، كما أن تأثير ما حدث لإيران لم يبق حبيس حدودها، إلا أننا حتى الآن لم نستبين تأثيرها العميق فى مسيرة التحولات فى الشرق العربى و الإسلامى، فهى فى صيرورتها تقدم نفسها على أنها ثورة حقيقية كما عرفنا التاريخ لمسيرة الثورات، أى أنها تقدم أيديولوجيا وطريقة حكم يعتمد فى شكل ما على التجربة و الخطأ، وتبحث فى الأصول عن مواءمة مع الحديث والمعاصر.

فهى كثورة ربما تضاهى ثورتين قدمتا أيديولوجية ما وأثرتا فى محيط كبير من البشرية، الأولى هى الثورة الفرنسية التى أطاحت بحكم البوربون، والثانية هى الروسية (البلشفية) التى أطاحت بحكم آل رومانوف.

اليعاقبة الذين أتوا إلى الحكم فى أعقاب الثورة الفرنسية، قدموا إلى العالم فكرتى المساواة والحرية اللتين أصبحتا منطلقا لقاعدة الديمقراطية الحديثة، أما البلاشفة الذين أطاحوا بحكم آل رومانوف فى روسيا القيصرية، فقد قدموا للعالم فكرتى المجتمع اللاطبقى العلمانى والعدالة الاقتصادية، هذه الأفكار سرت فى مناطق كثيرة من العالم سير النار فى الهشيم، وتبنتها شعوب ودول من أقصى الأرض إلى أقصاها، وكذلك تأتى الثورة الإيرانية، لتقدم تجربة فى محيطها العربى والإسلامى، تتجه إلى النضج والتأثير الذى يفوق العاطفة كى يتمكن من العقل، ويتجاوز الحدث ليصل إلى الأمثولة.

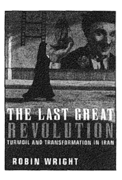
الأفكار التى جاءت بها الثورتان الفرنسية و الروسية ساعدت فى وقت لاحق للإطاحة بديكتاتوريات صغيرة وكبيرة فى كثير من مناطق العالم، كما مثلت هذه الأفكار للأنظمة التى جاءت على غرارها الأمثولة الطوباوية التى تسعى إلى تحقيقها، بعضها القليل نجح، والكثير منها فشل، وتسارعت الأمور بنمو الطلب على المشاركة فى الحكم من الشعوب المختلفة، خاصة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وعلى الرغم من الفشل فى التطبيق لبعض التجارب (الثورية) التى انطلقت فى طلب الديمقراطية والاشتراكية على الشكل الليبرالى أو الاشتراكى فى بعض مناطق العالم، ولكن على الرغم من ذلك انغمست شعوب العالم فى ممارسة الثورات الشعبية، من الصين إلى كوبا فى الأربعينيات والخمسينيات، ومن الجزائر إلى زامبيا فى الستينيات و السبعينيات، وأخيرا تخللت الديمقراطية الليبرالية نسيج دول وشعوب الاتحاد السوفيتى السابق، فتحولت من نظام شمولى إلى تعددى أو هى تحاول ذلك، ووصلت الديمقراطية إلى جنوب أفريقيا التى حكمتها أقلية بيضاء بالحديد والنار لفترة طويلة.كل ذلك هو نتيجة أن التجربة الإنسانية تقود إلى ترجيح انتشار تأثير شحنات الأفكار التى أطلقت فى الفضاء السياسى العالمى وأمثولة الممارسات التى نضجت، على طلقات الرصاص و العنف والقمع و الشمولية، وبالمثل فإن التطور الذى قد يقود إلى نظام يقدم للشعب الحرية و الخبز تحت مظلة إسلامية، هو مثال يمكن أن يحتذى، لذا فإن الاجتهادات الموائمة هى التحدى الأكبر لمسيرة الثورة الإيرانية.

إيران كمثال

تقدم إيران اليوم أمثولة أخرى، فلقد أطاحت الثورة الإيرانية بحكم ملكى استمر حوالى ألفين وخمسمائة سنة (كما يعتقد المؤرخون) وألّفت بين مفهومين لم يكن متصورا أن ينصهرا فى السابق، هما (الجمهورية) و (الإسلامية) فى بوتقة واحدة، وفى مسيرتها السابقة بادرت وعملت، مثل غيرها من الثورات الكبيرة، برغبة عارمة فى أن تقوم بـ (تصدير) هذه الثورة، نجحت قليلا وفشلت كثيرا، فى الوقت الذى خاضت فيه فى الداخل صراعًا طويلاً للاستقرار ولكن التجربة تفرز أيضا بعض الاجتهادات الجديدة فى الممارسة و فى التفكير فى السنوات العشر السابقة، منها الالتفات إلى تطوير الخطاب الإسلامى فى الداخل وعلى وجه الخصوص الممارسة والتعامل مع الخارج بروح إيجابية.

إيران فى السنوات التى سبقت الثورة، كانت محط تأثير غربى بالغ وعميق، أمريكى خاصة، ففى الوقت الذى كان يخوض جيرانها العرب صراعا مع إسرائيل، كانت هى تحتضن تحت قيادة الشاه السابق محمد رضا بهلوى، كل مظاهر العصر الغربى المشوَّه، من مشاركة ملكة جمال إيران فى مسابقة ملكة جمال العالم(سنة ١٩٧٣) إلى تصور بسط امبراطورية شاهنشاهية على الجيران الأقرب، لقد كانت أكبر شوارع إيران تسمى بشارع روزفلت أو تشرشل، وتحاك السجاجيد الإيرانية الجميلة وعليها صورة الشاه أو صورة زعيم غربى، كما أن حكومة الشاه تحكم عن طرق العنف و الأجهزة السرية، على قاعدة أنها تعرف أكثر من الجمهور العام مصالح الشعب الإيرانى.







لم نستبين حتى الآن تأثير الثورة الإيرانية العميق فى مسيرة التحولات فى الشرق العربى والإسلامى، فهى فى صيرورتها تقدم نفسها على أنها ثورة حقيقية كما عرفنا التاريخ لمسيرة الثورات، أى أنها تقدم أيديولوجيا وطريقة حكم يعتمد فى شكل ما على التجربة والخطأ، وتبحث فى الأصول عن مواءمة مع الحديث والمعاصر

الأمر تغير إلى العكس تماما، فبعد الثورة وكردة فعل طبيعية، تغيرت أسماء الشوارع إلى القدس وحتى الاسلامبولى بل وشارع بوبى ساند القائد الأيرلندى الذى صام حتى الموت فى سجون بلفاست فى أيرلندا الشمالية احتجاجا على الحكم البريطانى المباشر لذلك الإقليم، وفى تواصل قد لا يكون صحيا وقتها مع الجيران العرب المسلمين أو مع العالم، وفى المرحلة الأولى من الثورة، وقبل الجمهورية الأولى(العشر سنوات الأولى)، دخلت الثورة الإيرانية فى صراع عسكرى قاس ومرير، سمى لاحقا فى تاريخنا الحديث بحرب الخليج الأولى، والبعض يرى أنه صراع خارجى فرض عليها، وفى الوقت نفسه نظرت إيران إلى جيرانها على أنهم مصدر للعداء، فقابلتهم بالمثل، واستفادت ما استطاعت أن تستفيد منه من تأجيج القوى المحلية داخل هذه الدول، و التى كان بعض قواها الاجتماعية و السياسية رافضا للوضع القائم أو بعض السياسات المتبعة، ولكن ذلك كان لفترة قصيرة، سرعان ما تبين لأهل الرأى فى الثورة الإيرانية أن ذاك الطريق (تصدير الثورة) قد لا يؤدى إلى نتيجة تخدم الثورة الإيرانية، بل قد يشوِّه مسيرة الثورة تاريخيا. وكان يمكن أن تأخذ الثورة الإيرانية هذا المنحى لفترة طويلة، فتخرج عن كونها ثورة بالمعنى الفنى و التاريخى، لتصبح قوة مشاغبة فى المنطقة على أكبر تقدير، ولكنها بسبب ريادتها لم تفعل، بل سرعان ما تمت المراجعة، وهى مراجعة لم تكن خالية من (مزايدات).

إيران الثورة فيما بعد تبينت الفرق بين الثورة و المشاغبة، فالثورة تقدم الأفكار وتصنع النموذج، فكان أن قدمت على الأقل منذ انتهاء حرب الخليج الأولى، وبداية ربما الدورة الثانية لرئاسة السيد هاشمى رافسنجانى، طريقا آخر تعمق وتعبد بوصول محمد خاتمى إلى

The Last Great Revolution

(آخر الثورات العظيمة)

Robin Wright

knoph N.Y, 2001

سدة الرئاسة في سنة ١٩٩٧، ثم تأكد من جديد بعد أن قرر الشعب الإيراني الإتيان به مجددا رئيسا للمرة الثانية قبل أسابيع خلت.

إيران منذ الثورة تضاعف عدد سكانها تقريبا، فقد كانوا حوالي أربعة وثلاثين مليونا من البشر عند اندلاعها، أصبحوا اليوم حوالي خمسة وستين مليونا، وهي الدولة الثالثة في العالم المصدِّرة للنفط، وتملك ثاني احتياطي للغاز بعد روسيا، ويسكنها بشر قدموا مساهمة مشهودة في الحضارة الإنسانية والإسلامية، وبها تعددية عرقية ولُغوية، وهي في مكان الوسط بين الشرق البعيد و الشرق القريب وأوروبا.

الثورة الإيرانية والعالم الإسلامي:

وفي الوقت الذي ضربت رياح التغيير أنحاء العالم الأربعة إبان سنوات القرن العشرين، كانت هناك منطقة واسعة لم تشهد التغيير الموازي و المجاري لما حدث في العالم، هذه المنطقة هي المنطقة الإسلامية، و التي تشكل دولها حوالي ربع دول العالم، وتمتد من إندونيسيا على المحيط الهادئ إلى المغرب على الأطلنطي، ومن كازاخستان الباردة في أواسط آسيا إلى الخليج الدافئ، من مناطق الجفاف في الصومال إلى نيجيريا في الهلال الأفريقي الخصيب، كما أن العالم يحتوي على مسلم واحد من بين كل خمسة من البشر على هذه الأرض، عدد ضخم من هؤلاء مهمَّشون خارج المشاركة السياسية التي تجرى حثيثة لدى شعوب وفي مناطق كثيرة في العصر الحديث، و يعيش هؤلاء في بلاد موبوءة بالدكتاتوريات و التسلط الفج.



بهذا المعنى فإن الثورة الإيرانية بما حققته حتى الآن تعتبر آخر الثورات الكبرى في هذا العصر، فهي في النتيجة تحقق عمليا ما أطلقته أيديولوجيات سابقة في الغرب التي تبنتها أو قبلتها شعوب كثيرة.

مثل غيرها من الثورات الكبرى، الثورة الإيرانية قدمت أيديولوجية جديدة للساحة السياسية العالمية، في منطقة من تراثها أن يسجن المعارض أو يطرد من بلاده أو يقتل بالسر، لقد قدمت الإسلام الذي تؤمن به وتمارسه شعوب المنطقة كوسيلة سياسية من أجل الدفع للمشاركة الأوسع في تسيير الدولة، لقد قدمت تصورًا ممكنًا، إن لم يكن طريقة محددة وواضحة، وهي تقدم هذه الأمثولة إلى آخر مجموعة من البشر لم تدخل عصر المشاركة الواسعة هم المسلمون، أن تفعل ذلك فهو إنجاز، وعلى الرغم مما أطلق في الغرب من ادعاءات مفادها أن إيران ترجع بمجتمعها إلى قرون عديدة سابقة، وكان لهذا الرأي مريدوه في مناطق مختلفة من العالم من بينها بعض بلدان العالم الإسلامي، إلا أنه أصبح هناك من يعترف وعلى نطاق أوسع، بعد كل هذه الدورات الانتخابية و التغيرات السلمية و المؤسسية، أن هناك إمكانية تنظيم معارضة من الناحية التكتيكية ومن ناحية الأهداف المحققة في بلاد إسلامية، دون أن يراق على جوانبها الدم، أو يزج نشطاؤها في السجون ويطاردوا حتى الموت، وكلما نضج قبول المعارضة في إيران وتقننت الدولة، كلما أصبحت الأمثولة أقرب أن تحتذى وتحترم.

الثـــورة الإسلامية



على الرغم مما أطلق في الغرب من ادعاءات مفادها أن إيران ترجع بمجتمعها إلى قرون عديدة سابقة، إلا أنه أصبح هناك من يعترف وعلى نطاق أوسع، أن هناك إمكانية تنظيم معارضة من الناحية التكتيكية ومن ناحية الأهداف المحققة في بلاد إسلامية، دون أن يراق على جوانبها الدم



لقد أصبحت إيران اليوم توليفة مبتكرة من القواعد الإسلامية و القانون الغربي الحديث، كما أصبحت هناك انتخابات لكل أو لمعظم القيادات في الأعمال العامة على المستوى القومي و المحلي، وأصبح من حق كل الإيرانيين التصويت نساء و رجالا وكل من هم فوق الخامسة عشرة من عمرهم، لقد حدد زمن معروف للرئاسة لا يتعدى ثماني سنوات، لا يحق للرئيس بعدها أن يعاود ترشيح نفسه، وفرغت مقاعد في برلمانها للمسيحيين واليهود و الزرادشت، في اعتراف لحقوق الأقليات، بل أصبح للمرأة الإيرانية مكان مرموق في العمل السياسي، بعد أن تمت (ثورة صامتة في تعليمها).

لقد أعطت الثورة الإيرانية المثال، بعض من تبعها كان ناجحاً وبعضها فشل في استيعاب الفكرة الرئيسة في الثورة الإيرانية، وهي المزج المبتكر والشجاع بين الفكر الإنساني و القواعد الإسلامية، الاهتمام بالكليات وتجاوز التفاصيل، لقد أثرت في منطقة كبرى في العالم الإسلامي، من السودان إلى أفغانستان، ومن حزب الله في لبنان إلى حماس و الجهاد في فلسطين، بعض التأثير كان ناجحًا وأدى غرضاً وطنيّاً، وبعضه لا زال يراوح في تخبط دون أن يعي الأفكار الرئيسة و الممارسة المبتكرة التي أتت بها الثورة الإيرانية.

التغيير طويل الأمد:

أهم ما يجعل الثورة الإيرانية ثورة كبرى هو التغيير الذي تحدثه بتؤدة وبعيدًا عن الأنظار، أي تقديم خيار إسلامي فشلت فيه كثير من مؤسسات الدولة التقليدية الحديثة في الشرق الأوسط. فمن المدارس إلى المستشفيات إلى التعاونيات إلى ما يعرف اليوم بمؤسسات المجتمع المدني، كلها تخضع للتسيير الشعبي المنتخب، إنها جهود لخلق مجتمع مدني جديد، شبكة الاتحادات والنوادي، واتحادات المعلمين والمهندسين والأطباء، والطلاب والقطاعات الأخرى المختلفة، هي التي أصبحت تدرس وتعالج المشكلات الحياتية التي تواجه المجتمع الإيراني، لقد تحولت الثورة الإيرانية في تكتيكاتها من الرصاصة إلى صندوق الانتخاب، من رفض الآخر إلى القبول به والحوار معه، وعلى نجاح سياسة خاتمي التصالحية و العقلانية مع الجيران وأيضا مع الغرب، سيكون الطريق في القرن الواحد والعشرين الذي تتبناه الثورة الإيرانية في تعاملها مع النفس والآخر هو الطريق المقبول والمحتذى في منطقة كبرى هي المنطقة الإسلامية، أو كما قال لي أحد الثقاة من الإيرانيين: نحن نبتكر و الآخرون تقليديون.

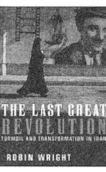
قد لا تتكرر التجربة الإيرانية في أي من البلاد الإسلامية الأخرى، لعدد من الأسباب؛ أولها: خصوصية التجربة الشيعية معجونة بالتراث الإيراني، وثانيها: النقص الخطير في التنظير الإسلامي الآخر و السني بوجه الخصوص في شئون الدولة و الحكم الحديث، الذي ما فتئ يجتر من الماضي دون محاولة جادة، إلا فيما ندر، أن يزاوج بين المبادئ التراثية من جهة، والفكر الحديث من جهة أخرى.

التركيبية السياسية التي توصلت إليها إيران الإسلامية تركيبية لم تكن مقصودة منذ البداية، فقد نُقل عن الإمام الخميني أنه لا يريد أن يرى رجال الدين يتسلمون السلطة السياسية ويديرون البلاد، بل يراهم مرشدين ومراقبين، وهكذا كان أول من انتُخب كرئيس للجمهورية الإسلامية رجلا مدنيا هو أبوالحسن بني صدر، ولكن الصراع حوله ومعه، جعله يفر من إيران في ثياب امرأة، أما من أتى بعده محمد رجائي وهو مدني أيضا ومعلم مدرسة، فقد قتل في تفجير أودى بحياته ومن معه، كان بعض رجال الدين وعلى رأسهم رجل قوى هو محمد حسين بهشتي وراء تصفية (الخط الليبرالي) المتمثل في الرجال المدنيين من حول الخميني، وهو الرجل الذي كان قد عرف الغرب وألمانيا بالذات، فقد كان رئيس جامع هامبورج وهو في المنفى، وقتها كان دافعه الرئيس هو الحفاظ على الثورة من الانحراف أو الاختطاف، وكان يرى أن أفضل وسيلة للحفاظ على الثورة هي أن يكون رجال الدين في سدة الحكم.. نتيجة هذا الصراع الذي أفرز عدم الاستقرار تقلبت عصبية (الملالي) فكان أن انتُخب رئيسا وأكمل دورتين في الجمهورية الأولى، رجل دين، وهو غير مرشد الثورة الآن آية الله على خامنئي ذي العلاقة الواسعة مع رجال الدين وتلميذ الإمام الخميني المخلص، والذي خرج من الرئاسة ليتولى أعلى منصب بعد ذلك في الدولة وهو المرشد الفقيه(ولاية الفقيه) التي كانت للخميني نفسه، حقيقة الأمر لم يكن رجال الدين ليمكنوا حتى الإمام الخميني نفسه من أن يحقق رغبته بأن يكون رئيس الجمهورية الإسلامية شخصًا من خارج هذه العصبية، ولكن ليس بالضرورة أن جميعهم من المتشددين، فقد كان بهشتي رجلا ليبراليا، بدليل أنه خلف بعده في جامع هامبورج رجلاً دمثًا ورجل دين، أصبح فيما بعد رئيس جمهورية هو حجة الإسلام محمد خاتمي.

في التركيب السياسي الإيراني بجانب المرشد، هناك رئيس الجمهورية، وهناك أيضا مجلس الشورى المنتخب، ثم هناك أيضا مجلس صيانة الدستور، ثم أخيرا وبعد خلاف بين المجلسين الأخيرين، أصبح هناك مجلس تشخيص مصلحة النظام للحكم في خلافات المجلسين، كما أن الدستور الإيراني عُدِّل أكثر من مرة، دليل على فكرة التجربة و الخطأ، والتنقيب عن أفضل الطرق للوصول إلى حلول مرضية هي السائدة، وليست أحكاما قطعية ومنتهية.

يعتقد البعض أن فكرة الإمام الخميني الأساسية في ولاية الفقيه مأخوذة من الفيلسوف اليوناني أفلاطون الذي تحدث عن الجمهورية الفاضلة التي يحكمها الفلاسفة، كما أن إصرار مشروع الثورة الإيرانية على سقف زمني لخدمة رئيس الفرع التنفيذي (رئيس الجمهورية) كي لا يتكرر ما فعلته أسرة بهلوي، بأن تحول رضا شاه - والد محمد الذي خُلع - من ثائر وضابط في الجيش

إلى ملك بعد أن سقطت السلالة القاجارية، التى كانت تحكم فارس فى العشرية الثانية من القرن العشرين، وقام رضا شاه بجملة من عمليات التحديث التى نظر إليها كثير من المؤرخين على أنها قسرية وقاومتها قطاعات كثيرة من الشعب الإيرانى، بل غير اسم فارس إلى إيران الذى تعرف به اليوم، لقد أبعدت أسرة آل بهلوى محمد ومن قبله والده إيران عن تاريخها الإسلامى وتراثها الشعبى على أساس تطوير وتحديث الدولة، فكان أن مرت بأزمات متكررة، منها الأزمة مع الوطنيين القوميين (محمد مصدق فى بداية الخمسينيات) ومنها الأزمة مع الملالى (نفى الخمينى نفسه فى بداية الستينيات) وبداية رحلته إلى المنفى وإلى المعارضة.



تحولت الثورة الإيرانية فى تكتيكاتها من الرصاصة إلى صندوق الانتخاب، من رفض الآخر إلى القبول به وحواره، بنجاح سياسة خاتمى مع الجيران وأيضا مع الغرب، سيكون الطريق الذى تتبناه الثورة الإيرانية فى تعاملها مع النفس والآخر، هو الطريق المقبول و المحتذى فى منطقة كبرى هى المنطقة الإسلامية



بين الأيديولوجيا والاقتصاد

تعتقد المؤلفة أن الخاصرة الضعيفة فى الثورة الإيرانية هى عدم قدرتها على النهوض بالاقتصاد، والذى تدهورت أوضاعه بشكل لافت، ورغم أن رافسنجانى الذى أصبح رئيسا للجمهورية بين ١٩٨٩ و ١٩٩٦، قد قام بتغيير الكثير من الكوادر الثورية وغير الخبيرة بتكنوقراط من حملة الدكتوراه المتخرجين من الغرب، إلا أن جزءًا كبيرًا من هذه الفترة الأولى التى شهدت الحرب مع العراق قد استنزفت طاقة إيران الاقتصادية، كما شهدت الفترة ذاتها مقاطعة اقتصادية غربية بسبب موقف إيران الخارجى المعادى، وفى أغسطس ١٩٨٨ وافقت إيران على شروط الأمم المتحدة لوقف إطلاق النار، وقال الخمينى قوله المشهور (قبول وقف إطلاق النار كشربى زجاجة من السم)، بعد الحرب وبوفاة الخمينى ووصول رافسنجانى إلى الرئاسة أعاد الكثير من الممارسات الاقتصادية التى كانت قد هجرت فى السنوات الأولى من الثورة، فأعاد تشغيل سوق الأوراق المالية، وسمح باليانصيب، وبدأت فكرة المناطق الحرة تأخذ لها مكانا فى الممارسة، مثل هذه الخطوات الاقتصادية تبعتها خطوات سياسية، مثل تحسين العلاقات مع الخارج خاصة بعض دول أوروبا، وبدا للبعض أن مجمل هذه الإصلاحات تصادر حق (المستضعفين) التى بدأت الثورة نظريا باسمهم إلى (الإسلام الرأسمالى) كما كان يصفه المعارضون، ولم تكن هذه الفترة دون مقاومة من رجال اليمين الذين اضطروا رافسنجانى للتخلى عن وزير ماليته الذى كان يفكر حسب رأيهم بالتفكير الاقتصادى الغربى، و أيضا وزير الإرشاد الإسلامى المنفتح، وكان وقتها رجلا دمثا ومفكرا من رجال الدين هو محمد خاتمى الذى ذهب لعشر سنوات قادمة إلى المكتبة العامة كأمين لها يقرأ ويفكر وينظر إلى أمور الثورة وتقلباتها.

فى نهاية فترة رافسنجانى كانت كل الدلائل تقود إلى إنهاك الفكرة الثورية، فلا الاقتصاد قد استطاع أن ينهض، و لا الفساد قد خف، بل زاد، وفى انتخابات الفترة الثانية لرفسنجانى فى سنة بدا واضحا انصراف الشعب الإيرانى عن الثورة، فقد ذهب إلى صناديق الانتخاب فقط ٧٥٪ ممن يحق لهم التصويت، متوسط الدخل القومى سقط إلى النصف أثناء فترة الجمهورية الأولى، وغرق أكثر بنهاية الجمهورية الثانية وقد قدر أن ٤٠٪ من الإيرانيين يرزحون تحت خط الفقر، وضعفت الطبقة الوسطى والتى هى لكل ثورة العامود الفقرى، فبدأ البعض من هذه الطبقة يبحث عن وظيفة ثانية يؤمن بها عيشه، وراجت خلافات سياسية شرذمت القوى الحية فى المجتمع الإيرانى، وراجت نكتة تنقلها المؤلفة عن الوضع مفادها أن أحد الشهداء قابل الخمينى فى الحياة الثانية، فسأله عن الجنة، قال الخمينى إنها جميلة وارفة الظلال، ثم ماذا؟ سأل الشهيد قال إن بها من الأكل و الشرب الكثير، ثم ماذا؟ سأل الشهيد قال الخمينى إن من بها من الناس لا يعملون إلا بوظيفة واحدة، قال الشهيد: أوجز لى مزاياها، فقال الخمينى: إنها باختصار مثل إيران أيام الشاه!

بالتأكيد مثل هذه النكت وغيرها مما يمكن أن تسمعه فى طهران، لا تتعدى أن تكون نكتا فقط، لأن الجمهور الإيرانى العام يعرف أن الأمر أصبح بيده، لا بيد القوى الأجنبية التى كانت تسيطر عبر الشاه على مقدرات إيران فى الزمن السابق، وسعد أباد شاهد على ذلك فهناك فى تلك الضاحية الشمالية والجميلة من طهران، يقف أحد قصور الشاه، قصر سعد أباد، وهو قصر ليس له علاقة بالتراث الإيرانى فى المعمار، فقد بنى وأثث على الطريقة الأوروبية، حتى اللوحات هى نسخة طبق الأصل من لوحات لفنانين غربيين، أما سرير الشاه فهو نسخة من سرير نابليون، وسرير الشهبانو فرح ديبا نسخة طبق الأصل من سرير جوز فين!

إلا أن ما يجعل مثل هذه النكت سائدة هو الوضع الاقتصادى الذى يعانى منه المواطن الإيرانى والذى لم تجد الثورة له حلولا ناجحة، تستطيع أن تخلق ثروة للوطن، والاقتصاد هو عامود أية ثورة، تنجح أو يصيبها الفشل نتيجة السياسة الاقتصادية.

احتكار الحقيقة:

عشية انتهاء حكم رافسنجانى فى نهاية الجمهورية الثانية، كانت كل الدلائل متوجهة إلى التشدد أكثر، فقد وقف اليمين المتشدد إمام إصلاحات رافسنجانى المتواضعة، وزاد فى موقفهم فشله النسبى فى إنقاذ الاقتصاد الإيرانى من جهة، وازدياد رائحة الفساد من جهة أخرى، وكان الحصان الرابح هو ناطق نورى المتشدد و القريب من المدرسة المحافظة، إلا أن الشعب الإيرانى قرر وبصورة غير مسبوقة أن ينتخب ذلك الرجل الطيب والإصلاحى المستنير الذى لم يكن أحد يتوقع له الفوز، ولكنه فاز وبأغلبية ساحقة، وثبت للعالم و للشعب الإيرانى أيضا أنه سيد قراره، تنقل الكاتبة عن ناصر هاديان أستاذ العلوم السياسية فى جامعة طهران قوله (إن التصويت لخاتمى مثل الوقوع فى الحب، لا تعرف كيف حدث ولا لماذا؟).

وبدأ رئيس الجمهورية الجديد فى تقديم إصلاحات هى من وحى الشعب الإيرانى، صحف جديدة وحرة نسبيا، إصلاح العلاقات مع الجيران و العالم، إطلاق فكرة الحوار الثقافى مع الولايات المتحدة، بل وتبادل فريق للمصارعة (على طريقة فريق البنج بونج مع الصين عشية الانفتاح الأمريكى عليها) وفى لقاء مع شبكة السى. إن. إن الأمريكية، وكرستيانا منبور، ذات الأب الإيرانى، والمذيعة الشهيرة، طالب محمد خاتمى رئيس الجمهورية الإيرانية بحوار ثقافى مع الولايات المتحدة!

ليس للرئيس محمد خاتمى الفضل الأكبر للانفتاح ولكنه استجاب بشكل مباشر لرأى عام شعبى، وهو دليل على أن القيادة قد جاءت من الشارع، وليس من المكاتب السياسية، دخول الجمهورية الثالثة رفعت حماس الناس بأن هناك تحسنًا وتطورًا ممكنًا، ولم يعد (الدين) خاضعا للعمائم وتفسيرها، وظهرت أصوات تقول إن الدين الإسلامى دين رفيع جرح بسبب ممارسة الملالى الضيقة الأفق تجاه الشئون العامة للناس، ولا يجب تحميل الإسلام فشل الملالى، وحمل خاتمى و مدرسته الدعوة إلى الانفتاح والتسامح وإشاعة الحريات العامة والشخصية والحوار مع الآخر، ليس دون مقاومة من قوى محافظة لها مصلحة فى إبقاء الأمر كما كان، ولكن هذه المدرسة الإصلاحية والتطويرية هى التى أعطت الثورة الإيرانية نكهة جديدة وأيضا قدرة جديدة، وهى القدرة على التطور، والنظر إلى الكل بدلا من الجزء، والقضايا الكبرى بدلا من الصغائر، وهو ما يشكل قدرة الثورات على التطور.



وظهرت أصوات تقول إنه لا أحد يحتكر الحقيقة، ولا أحد يملك التفسير القطعى والنهائى للنصوص، فهى نصوص يمكن أن تحمل فى طياتها ما تعارفت عليه الإنسانية اليوم، فالحرية، والديمقراطية لا يعاديها الإسلام الحقيقى، وهى تتطلب الشفافية، وفلسفتها أن لا أحد منزّه عن الخطأ، ولا يوجد شخص فوق مُساءَلة القانون.

لقد بدأت تحول قرارات الحكومة الإيرانية فى السنوات الأخيرة نحو (البرجماتية) فى تنظيم النسل و الطلاق (أو ما يعرف بإعادة التفسير الخلاق أو المبدع للنصوص)، وضد التطرف للفئات المحافظة، كما بدأت بتبنى برنامج تقشف مالى لإطفاء الديون الخارجية المتراكمة منذ منتصف الثمانينيات فى محاولة موازنة بين الأيديولوجى و الواقعى.

وتسرى اليوم فى إيران وبين نخبتها الكثير من المناقشات نحو إيجاد توازن بين ما للسماء و ما للأرض، بين ما لله و ما للناس.

وسوف تبقى إيران الأكثر سكنا على ضفاف الخليج، والمسيطرة على أكثر من نصف سواحله، وهى إلى جانب ذلك تملك مداخل على ثلاثة بحار، ولها ثقافتها ولغتها المتميزتان، والتى تلعب دورا مميزا فى التاريخ منذ سيروس الأكبر، والنقطة البارزة فى المثلث الصلب الذى يحدد الخطوط الثقافية و التاريخية الدائمة فى الشرق الحديث، مثلها مثل مصر وتركيا لاعبا مهمًا فى تطور منطقة الشرق الأوسط، وبالتالى فإن ما يجرى فيها يهم شعوب هذه المنطقة ويعنيهم.

ثورة ١٩١٩ واحتفال سيدات مصر فى مراكب على النيل والشعب المصرى (الأفندية) بالطرابيش يلوحون بأعلام مصر وصورة سعد باشا زغلول وصاحب العزة سينوت بك حنا عضو الوفد المصرى رمز الوحدة الوطنية

لوحات فنية بقروش قليلة

المناسبات الوطنية والدينية فى الرسوم الشعبية

عصمت داوستاشى

انتشرت الرسوم الشعبية المنفذة بالطباعة الملونة الحجرية على كرتون أو ورق فى مقاسات لا تتعدى ٤٠×٥٠سم فى النصف الأول من القرن العشرين ونجدها منتشرة فى الموالد الشعبية، وبجوار الأضرحة الدينية حتى نهاية الستينيات، ثم تلاشت واختفت، وكانت هذه الرسوم الشعبية تعبر عن موضوعين أساسيين..

الموضوع الأول: دينى يصور قصص القرآن الكريم، وبعض الأحداث المهمة والشخصية الدينية الشعبية، وكانت تعبر عن أحداث الدين الإسلامى، وكانت هناك فنون قبطية ثرية بالرسوم المختلفة للقديسين، والأحداث الدينية.

أما الموضوع الثانى: والذى عثرت على بعض رسوماته حديثاً لدى صديق وكانت مفاجأة لى، فهو الموضوع الوطنى أو السياسى، وكان عميد الباحثين فى الفنون الشعبية الراحل سعد الخادم، قد ذكرها فى مؤلفه «تصويرنا الشعبى خلال العصور» صفحة ١٢٧ على أنها «تصوير بعض أحداث ثورة سنة ١٩١٩، ومناظر أخرى من الحرب العالمية الأولى والدور الذى قامت به بعض الشعوب الشرقية فى سبيل تحررها».

كانت هذه الرسوم الشعبية على مختلف موضوعاتها واتجاهاتها تطبع وتوزع على نطاق واسع وتباع بقروش زهيدة للطبقات الشعبية الفقيرة ومتوسطة الحال، كنا نراها معلقة فى البيوت، أو الدكاكين داخل الإطارات، والمجموعة التى لدىَّ اشتريتها فى منتصف الستينيات من مولد السيد أحمد البدوى بطنطا بقروش قليلة وأعتقد أنها آخر ما طبع من هذه الرسوم.



ويوضح سعد الخادم فى مؤلفه السابق ذكره بأن هذه الرسوم الشعبية المطبوعة قد استبدلت ببعض الرسوم التى كانت تصور باليد على المخطوطات وغيرها ويوضح ذلك: «بأن هذه الطائفة من الرسوم تركزت فى تصوير الأساطير الشعبية مثل قصص «عنترة» وسيف بن ذى يزن وسيرة الظاهر بيبرس، تلك القصص والنوادر التى كان يرددها الرواة فى المقاهى الشعبية وتحوم حولها مناقشات حادة بين مناصرى كل بطل من أبطال القصة الشعبية، فمن بين النماذج القديمة التى صورت تطاحن فرسان العرب فى منازعاتهم القديمة مجموعة من الصور المطبوعة كانت ضمن شريط قديم للعبة صندوق الدنيا، يرجع تاريخها إلى حوالى ١٩١٧ أو سنة ١٩١٩ أو لعلها أقدم من ذلك، ولعل هذه الصناعة قد نشأت عند بداية دخول

من أشهر الرسوم الشعبية فى العالم كله.. التى تجمع رأس إنسان وجسد حيوان والبراق النبوى الشريف مرسوم وهو طائر منطلق من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى

فنون الطباعة فى مصر، ولاسيما طبع الصور الملونة على الحجر، ومن المرجح أن يكون جماعة من الصناع الأجانب كالأرمن مثلا قد قاموا بطبع تلك الصور القديمة إذ تتضح بين الموضوعات التى رسموها موضوعات مثل مارى جرجس وغيرها من قصص الإنجيل والتوراة كمشهد آدم وحواء وسليمان الحكيم وسفينة نوح ويمكن أن تستشف من تلك الرسوم جملة أساليب يرجع بعضها إلى رسوم الأيقونات الدينية وتستشف من بعضها الآخر طابعاً أكثر شعبية ربما ارتبط ببعض أساليب التصوير الإسلامى فى المخطوطات العربية التى نسخت وصورت بمصر.

ويواصل سعد الخادم بحثه فى أصول هذه الرسوم فيؤكد بأنه: «كان هناك أسلوب نراه فى تلك الصور الشعبية لا يمت بأى صلة لتقاليدنا العربية القديمة ولا للطرز البيزنطية والمسيحية، وإنما نراه يشبه بعض الرسوم الإيضاحية التى ترد فى الصحف لتوضيح بعض موضوعات وأحداث تاريخية معينة فكانت تلك الصور الشعبية التى تميزت بهذا الطابع الأخير تصور بعض أحداث ثورة ١٩١٩».

ويؤكد سعد الخادم بأن الفن الشعبى فى مجال الطباعة كان موقوفاً على جماعة من الأجانب لهم بعض الدراية بأصول الرسم والحذق فى تصوير بعض الآدميين والمناظر الطبيعية: «فكانوا يتجهون فى إنتاجهم هذا إلى نزعة فنية تناسب موضوعاتهم، إما عن طريق المخطوطات المحلية، وإما نقلاً عن بعض المراجع التركية والفارسية.

- وبالنسبة لأساليب رسم هذه اللوحات الشعبية فيقسِّمها سعد الخادم إلى قسمين:

فمنذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى اليوم والرسوم الشعبية تنتهج فى أساليبها النهج الشعبى القديم ولكن مع فقدانها بعض النواحى من أصالتها، فالنماذج التى تباع فى الأحياء الشعبية تنقسم إلى قسمين:

* قسم تظهر فى أسلوبه الفطرة، فيصور معارك الفرسان فى شىء من السذاجة الممزوجة بشىء من الطرافة، وعلى الرغم من التطاحن الشديد الذى توضحه فهى لا تلبث أن تثير فى الناظر الضحك كأنها تمس فى تعبيراتها الجانب الهزلى برغم جدية الموضوعات التى تعبر عنها.

* أما القسم الثانى من الرسوم الشعبية الملونة فهو أحدث من تلك الرسوم التى تحدثت عنها الآن، ويبدو أن الذين قاموا برسمها هم جماعة ممن درسوا الفنون وفقاً للمدارس الأوروبية، فنجد فيها محاولات للإيحاء بتجسيم الأشكال مما يجعل تلك الرسوم أو المطبوعات مفتقرة إلى الطابع الشعبى فهى أقرب إلى الرسوم الإيضاحية التى تنتشر فى بعض المجلات والتى لولا شعبية موضوعاتها لما تبقى من طابعها الفنى ما يذكر من حيث الأصالة والجدة.



وهنا ينتهى كلام سعد الخادم الذى كان لابد من سرده لأهميته ولأنه من القلائل الذين تعرضوا لهذه الرسوم بالدراسة والبحث، ورغم إطلاعى على أرشيف ومقتنيات سعد الخادم بعد وفاته عام ١٩٨٧ فلم أعثر على لوحات أو رسوم أصلية مطبوعة من تلك الرسوم الشعبية، رغم أنه كان من أكبر جامعى التحف الشعبية القديمة، وإنما عثرت على بعض الصور الفوتوغرافية وأصولها السالبة وهى غالباً من تصويره لبعض من هذه الرسوم والمنشورة فى كتابه «تصويرنا الشعبى خلال العصور»، ولا أدرى هل هناك جهة ما معنية بالبحث عن هذه الرسوم وحفظها وتوثيقها كتراث شعبى من ناحية وكتقنية فى مجال الطباعة الفنية انتشرت فى أوائل القرن العشرين من ناحية أخرى وهى الطباعة الحجرية، التى انتشرت بعد ذلك فى طباعة الإعلانات الكبيرة للأفلام السينمائية وغيرها من الإعلانات؟ وهل يمكن العثور على كل أو معظم هذه الرسوم الشعبية بتنوعاتها المختلفة فى متحف ما كالمتحف الشعبى الذى ذكره سعد الخادم والذى تلاشى واختفى الآن مثل كل ما تلاشى واختفى من حياتنا متعلق بالتراث والتقاليد والشعبيات؟

وأستخلص الآن مجموعة ملاحظات عامة حول مجموعة الرسوم الشعبية المنشورة مع هذا النصِ متفقاً مع كل ما ذكره سعد الخادم فى بحثه القيِّم عن الرسوم الشعبية المطبوعة.

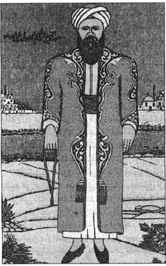
١ - هذا النمط من الرسوم الشعبية عرف فى أوروبا خاصة بعد معرفتهم بالطباعة.. والرسوم الشعبية المطبوعة عرفت أيضاً فى آسيا فى بلاد كالصين واليابان اشتهرت بالطباعة الخشبية، فالرسوم الشعبية موروث حضارى يمثل امتداداً لرسوم المخطوطات والرسوم الجدارية المختلفة وقد دخلت الرسوم المطبوعة فى مصر مع دخول الطباعة على يد الأجانب (إيطاليين - فرنسيين - أرمن وغيرهم) وكان الأرمن الأكثر شهرة فى مجال الطباعة الحجرية وعمل الأكلشيهات المختلفة وكانت لهم دكاكين وورش كثيرة خاصة فى الإسكندرية بعضها مازال قائما حتى الآن.

٢ - كانت أصول بعض هذه الرسوم ترسم باليد فى مشاهد صندوق الدنيا كما سبق أن أشار إلى ذلك سعد الخادم وكان بعضها الآخر يرسم على جدران المنازل مقترناً بالمناسبات المختلفة دينية أو اجتماعية أو وطنية وكان الرسامون من المصريين يرسمون بفطرتهم ومهارتهم الشخصية،

رسم «للحادثة الفظيعة»: إطلاق الرصاص على صاحب العزة محمد بك بدر الدين مراقب الأمن العام
وكعادة الرسام الشعبى لا يوقع على رسومه

الرســـــــــــوم الشــــــــــعبية

رسم لسـيدنا الشـيخ إبراهيم الدسـوقى رضى الله عنه والملامح والملابس اجتـهادية من الفنان الشـعبى وهذا النمط من الرسـوم متشـابه فى عناصـره وفى أسلوب تشكيل الرسم



شيخ العرب سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ممسكا بعصاه وبقنديل يتأمله عصفور.. الرسم يعبر عن شخصية كثيرة التجوال حتى استقر فى طنطا حيث ضريحه المشهور.. القلادة التى يرتديها تخص إحدى طوائف الدراويش وكذلك العمامة





من لوحات المشاهير من رجال الدين تمثل الشيخ عبدالقادر الكيلانى (قدس سره) ممسكا بكتب الدين المسبحة والأسد استكان بين قدميه وخلفه النهر والمسجد والجبل وهو ما يتكرر فى هذه الرسوم التى تصور شخصيات دينية شعبية



وعندما بدأ صناع الطباعة فى تنفيذ مشروعهم هذا استعانوا بهذه الرسوم، إلا أنهم فى الغالب قاموا هم أنفسهم برسمها وإضافة بعض الملامح والمشاهد من ذاكرتهم وبيئتهم بعيداً عن الجو المصرى الخالص، والرسوم على كل الأحوال غير موقعة وليس لدينا ما يكشف عن راسمها غير أسلوبه وحلوله للأشخاص وللملابس وبقية عناصر الرسم كالمنازل والعمارة والنباتات وطريقة تكوين الصورة ولكنها ذات طابع عربى متوارث والملابس العربية ذات طابع نمطى معروف.

٣ ـ تضم الرسوم الشعبية عناصر الموضوع الأساسية التى تحتل معظم اللوحة وتحيط بها عناصر مساعدة لإبراز الموضوع مع الطبيعة والبيئة المكانية بالإضافة إلى بعض الكلمات التى تشير إلى شخصية الناس المرسومة أو طبيعة الحدث المرسوم، ويحاط كل هذا بإطار بسيط أو إطار مزخرف حسب طبيعة الموضوع.

٤ ـ الرسوم الشعبية تعتمد على التحديد الأساسى باللون الأسود لكل تفاصيل الموضوع ثم تملأ المساحات بألوان أساسية واضحة بدون أى درجات لونية أو مزج لونى فالأحمر أحمر والأصفر أصفر وهكذا.

٥ ـ للموضع الواحد أكثر من رسم وتتميز الرسوم التى طبعت فى أوائل القرن العشرين بالسذاجة، أما الرسوم التى نفذت بعد ذلك

رسم يعود إلى عام ١٩٢٧ محاط بالآية الكريمة وفى إطار الرسم اسم الناشر عبدالحميد زكى وأحمد الشبكى بالدرب الجديد بالموسكى بمصر ـ وسجل صندوق البريد أو البوسته نمرة ١١٤٦ مع توضيح للرسم بالإنجليزية

فكانت بريشة رسامين أكثر براعة ودقة وإن التزموا بالرسم الأول مع إضافات زخرفية وخطية لإكساب الرسم ثراء أكثر ولكى يظل الرسم الأول بفطرته البسيطة وعناصره المباشرة أكثر قوة وتأثيراً فى المشاهد من الرسم الثانى الذى حشد بالزخارف والخطوط ففقد الموضوع وضوحه ومباشرته وقوة تعبيره.

فنماذج الرسوم فى الغالب واحدة وتستخدم مع بعض التحوير فى موضوعات متعددة ويختلف الرسم حسب براعة كل رسام عن الآخر وتدخل نوعية الطباعة كعامل تميز لهذه الرسوم.

٦ ـ فى الرسوم التى ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى وبعد ثورة ١٩١٩ على وجه التحديد.. بدأ ناشرو هذه الرسوم فى وضع أسمائهم وعناوينهم. ولم يهمهم بطبيعة الحال وضع أى تاريخ يوثق لطبع هذه الرسوم أو اسم الرسام الذى قام بها.



وقد ظهرت هذه البيانات بالأخص فى الرسوم الوطنية التى واكبت ثورة ١٩١٩ فكان يطبع أسفل الرسم موضوع اللوحة واسم الناشر وعنوانه ومن أمثلة ذلك:

* رسم يمثل إطلاق الرصاص على صاحب العزة محمد بك بدرالدين وكان مراقب الأمن العام وأطلق على الموضوع «الحادثة الفظيعة» وهو حادث شهير فيه تعاطف كبير مع صاحب العزة محمد بك الذى توسط الرسم فى حين لم نروجه القاتل والرسم كله ساذج أشبه برسوم الأولاد فى المدارس. أو أشبه بالرسوم التوضيحية المرافقة للموضوعات الصحفية.

* رسم فخم احتشد بالعناصر المختلفة يمثل احتفال الأمة بتشييع جنازة الشهداء فى مصر (القاهرة) والإسكندرية وطنطا والمنصورة وواضح أن الراسم أجنبى وقد اهتم برسم وجوه الشهداء مع أسمائهم فى صفين أعلى الرسم وهم بالترتيب التالى:

* المرحوم/ فريد فتحى رزق الله، المرحوم/ على حسن البكرى، المرحوم/ عبدالوهاب أحمد، المرحوم/ شفيق سعيد، المرحوم/ حسين أحمد، المرحوم/ رزق يعقوب، المرحوم/ عبدالرحمن سالم، المرحوم/ محمد إبراهيم زويل، المرحوم/ إبراهيم السيد العبد، المرحوم/ عبدالحليم حلمى، المرحوم/ أحمد طلعت السعد والمرحوم/ رمضان محمود هداية.

* ومن المؤكد أن هؤلاء بعض شهداء ثورة ١٩١٩ وإن كان الرسم لا يشير إلى ذلك ويقود هذه الاحتفالية كشافة الحزب الوطنى وخلفهم رجال وشيوخ «الأظهر الشريف» كما كتب على اليافطة المحمولة وليس «الأزهر الشريف» وهو خطأ لا يقع فيه إلا أجنبى يجتهد فى نسخ الخط العربى.

ونرى فى الرسم جمهور المشاهدين يضم أفندية بالطرابيش وشيوخا بالعمائم وأجانب بالبرانيط وقد امتلأت النوافذ بالمشاهدين أغلبهم من النساء ويحدد الرسم مكان هذا الموكب المهيب بميدان الأوبرا حيث يمر بجوار تمثال إبراهيم باشا.

* وفى رسم لتحية عموم فرق الكشافة كتب الناشر عنوانه على النحو التالى: «شركة الصور الوطنية لصاحبها إبراهيم وحافظ وأحمد بالعتبة الخضراء» وهذه أسماء لشخصيات مصرية عربية تمتلك شركة لطبع مثل هذه الصور الوطنية أو الدينية الملونة وهى شركة ضمن مجموعة شركات توزعت بين القاهرة والإسكندرية، كانت تملك مطابع أو تطبع على نفقتها فى مطابع الأرمن أو الإيطاليين مثل رسم لزعماء مصر يتوسطه تمثال نهضة مصر لمحمود مختار «طبع على نفقة إبراهيم عكريشة وشركاه بمصر بالعتبة الخضرة» وإبراهيم عكريشة هذا شارك بعد ذلك أحمد زعزوع فى شركة جديدة لطبع الصور الوطنية ومكانها درب الجنية بغيط النوبى بجوار الشاومة بمصر أى (بالقاهرة) وهذا واضح فى الرسم الذى يسجل عودة سعد زغلول للوطن، فقد كان أحمد زعزوع هذا يطبع الرسوم على نفقته الخاصة بالإسكندرية عند مطبعة محمد السباعى بالمنشية ويقوم بتوزيعها من مقره بالعتبة الخضرة التى كانت مقر توزيع هذه الرسوم.

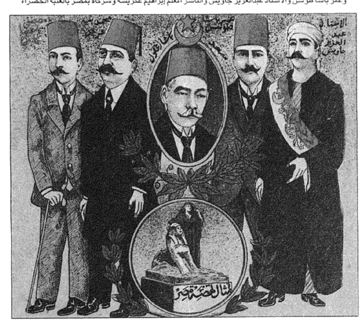
* قامت بعض الصحف التى كانت تصدر فى ذلك الوقت مع ثورة ١٩١٩ وبعدها بنشر بعض الرسوم الوطنية الشعبية وتوزيعها مع أعدادها أو عرضها للبيع مع موزعى الصحف كالرسم الذى يؤكد وحدة وادى النيل «مصر والسودان ليحيى الاستقلال التام لوادى النيل» وهو رسم فخم نلاحظ فيه (السيمترية) أى التماثل بين نصفى اللوحة وهى سمة مشتركة فى معظم هذه الرسوم ويتوسط اللوحة وجه سعد باشا زغلول زعيم الأمة وكتب الناشرون (كافة الحقوق محفوظة لجريدة السياسة المصورة العدد ٢١٩).

وذكر عنوان الإدارة: «رقم ٢ بميدان البيدق بشارع عبدالعزيز بمصر» أى بجوار العتبة الخضرة التى كانت تمثل وسط البلد وتتجمع فيها شركات طباعة هذه الرسوم ودور الصحف والمطابع ويؤكد هذا الرسم على أن احتمال سرقته وتنفيذه فى مطبعة أخرى قائم وأنه أمر شائع الحدوث لذلك أكد على أن حقوق النشر محفوظة لصاحبها.

لم أجد أجانب أو شركات أجنبية تقوم بإصدار ونشر هذه الرسوم التى اقتصرت على الوطنيين كأصحاب رأس المال والموزعين وأغلب الذين اشتغلوا

احتفال الجمهور بسعد باشا و لسترسوان حين خروجهما من محطة مصر بعد عودة سعد من المفاوضات فى عربة حنطور تطوف شوارع القاهرة المحروسة، فى الرسم مصريون وأجانب يحيون الموكب بالاعلام والزهور والناشر شركة الصور الوطنية لاصحابها أحمد زعزوع وإبراهيم عكريشة بدرب الجنيه بغيط النوبى بمصر

تمثال نهضة مصر وصورة سعد باشا زغلول تتوسط زعماء الأمة مصطفى باشا كامل ومحمد بك فريد وعمر باشا طوسن والأستاذ عبدالعزيز جاويش والناشر المعلم إبراهيم عكريشة وشركاه بمصر بالعتبة الخضراء



فى هذا المجال هم من أصحاب مكاتب توزيع الصحف والمجلات لارتباط هذا المجال بالترويج لهذه الرسوم الوطنية بالذات التى دخلت حياتنا مع ثورة ١٩١٩ واستمرت مواكبة لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى نهاية الستينيات وعبرت عنها وعن زعمائها.

هذه الدراسة السريعة تسلط الضوء على مجال إبداعى فى فن الرسوم الشعبية الذى كان سائداً طوال النصف الأول من القرن العشرين واختفى ليحل محله نمط آخر من المطبوعات والرسوم والصورة (البوستر) التى تمثل عصراً آخر وهموماً أخرى وأبطالا آخرين يختلفون تماماً عن أبوزيد الهلالى وسعد باشا زغلول ورسوم هذه الفترة المبكرة والتى تحتاج إلى مزيد من الدراسات والبحوث الأكاديمية والتوثيق والجمع والحفظ.

وفى نفس الوقت تقديم هذه الرسوم بما تمثله من طرافة لموروث شعبى كان له مكانته الحميمة فى حياة أهلنا فى النصف الأول من القرن العشرين، وكثير منا مازال يتذكر هذه الرسوم معلقة فى أماكن عديدة خاصة فى ريف مصر والأحياء الشعبية بالمدن الكبيرة والصغيرة فى ربوع مصر وبعضها كان معلقاً فى منزل جدى وأحتفظ به، وقبل أن أنهى هذه السطور أتعجب من أن كثيراً من المطبوعات والرسوم واللوحات التى تعلق الآن فى بيوتنا ويقبل عليها الشباب لمناظر وموضوعات غريبة تماماً والقليل منها يمثل الحرم المكى والحرم النبوى والقدس الشريف وحتى الآيات القرآنية قد صدرتها لنا الصين فى إطارات فاخرة وبأسعار زهيدة وكانه لم يعد لدينا خطاطون ومطابع قادرة على ابتكار رسوم ولوحات مستمدة من البيئة والتراث المصرى.. وقد كان «الأجنبى» قاسماً مشتركاً فى الرسوم الشعبية القديمة التى قام بطباعتها ورسمها وبين المطبوعات الحديثة التى تمثل البيئة والتقاليد الغربية.. وأتمنى أن أرى لوحات الفنانين المصريين المستمدة من حياتنا وتعبر عن الشخصية المصرية وجماليات البيئة عندنا تطبع فى لوحات كثيرة (بوستر) لتحل محل صور المناظر الطبيعية للغابات والثلوج أو صور مطربى وممثلى الغرب التى

رسم شعبى يمثل اتحاد مصر والسودان وتحية للاستقلال التام لوادى النيل وصورة سعد زغلول تتوسط الرسم وأسد وفهد فى لمحة رمزية للوحدة
وكافة الحقوق محفوظة لجريدة السياسة المصورة العدد ١٩، وكان الرسم يوزع معها هدية

تنتشر الآن خاصة أن عدداً من كبار فنانينا استلهموا أعمالهم من الرسوم الشعبية.



* وأخيراً أنقل لكم ما كتبه الفنان القدير محيى الدين اللباد فى كتابه «نظر» صفحة ١٠٠ عن معاناته فى البحث عن إحدى الرسوم الشعبية المنشورة مع هذا الموضوع يمثل أبوزيد الهلالى. واللباد يعتبر من القلائل فى العالم الذين يملكون أرشيفاً بصرياً نادراً قدمه فى سلسلة كتبه «نظر» ورغم ذلك لم تتوفر لديه أى رسوم شعبية مطبوعة يستعين بها فى عمله كما يقول:

«أثناء إعداد كتاب للأطفال يقدم لهم - بطريقة وثائقية - تراث القصص والأساطير والسير والحكايات الشعبية والكلاسيكية، العربية والعالمية كان لابد من العثور على صورة لرسم شعبى لأبى زيد الهلالى بطل سيرة بنى هلال.

كانت السمة التى أُختيرت للكتاب أن تكون صورة كلها وثائقية تنقل روح وأجواء القصص والحكايات القديمة، لذلك نزلت أبحث عن صورة ملونة لرسم شعبى قديم لأبى زيد الهلالى سلامة لتنشر مع التعريف بسيرته، فمع صور من مخطوطات عربية قديمة مصورة، ومع رسوم شعبية على الزجاج لعنتر وعبلة، ومع محفورات فرنسية وإنجليزية وروسية من القرن الماضى، كان لابد - أيضاً - أن تكون صورة أبى زيد قديمة، من تلك الصور التى استقرت فى ذاكرة ووجدان الأجداد والآباء، والتى علينا - الآن تسليمها بدورنا إلى الأبناء.

فكرتُ فى مركز الفنون الشعبية، وذهبت إلى هناك حيث قوبلت بالاندهاش لأنه لا يوجد عندهم مكتبة للصور، ولا توجد خدمة للأفراد من هذا النوع!

وذهبت إلى دار الكتب، متوهماً أنى سأجد المساعدة من أمنائها، بأن يبحثوا لى فى المحفوظ لديهم عن صورة لرسوم من رسوم أبى زيد.

- «عارف عنوان كتاب معين»؟

- «.. لا..».

- «يبقى مش ممكن طبعاً»! ثم إننا ما عندناش تصوير ملون للجمهور ولا لغير الجمهور».

- «شكراً».

وذهبت إلى مؤسستين صحفيتين من أكبر المؤسسات ولكنى لم أجد فى أرشيفهما - بعد التعب - أى صور من هذا النوع!

* أخيراً تذكرت أن ناشراً من دمشق سبق له أن نشر بطاقات بريد عليها بعض الرسوم الشعبية العربية سعيت حتى حصلت على عنوانه من صديق رسام لبنانى، وكتبت إليه سائلاً صورة، بعد عدة أسابيع وصلنى منه رد باللغة الإنجليزية، فهمت منه أنه قد أصبح من رجال الانفتاح السورى وأنه لم يعد يلعب فى هذه المسائل الصغيرة، لكنه تكرم - مشكوراً - وأرسل لى اسم وعنوان المطبعة التى كانت قد طبعت له تلك البطاقات منذ سنين، وأخبرنى أن من بينها كانت هناك صورة لأبى زيد، وكان عنوان تلك المطبعة فى اليابان!

كتبت رسالة أخرى إلى المطبعة اليابانية أطلب منها صورة ملونة لأبى زيد من الصور التى اغتصبتها من الناشر السورى وضمتها إلى أرشيفها، وبعد مراسلات، «وعاوزين تطبعوا عندنا كام ألف نسخة من الصور؟» وخلافه.. رضيت المطبعة أن ترسل لى - مقابل ثمن معلوم - صورة لرسم شعبى عربى لأبى زيد الهلالى.

* ويختتم اللباد كلامه وأنا معه بالسطور التالية:

«يا ترى كم «أرشيفجى» سيقوم بقص الصورة المنشورة هنا ليحتفظ بها.. فلربما سأل عنها أحد المحتاجين لها فى يوم من الأيام»؟!

المراجـــع

(*) «تصويرنا الشعبى خلال العصور» للأستاذ/ سعد الخادم من المكتبة الثقافية. رقم ٩٥ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣.

(*) «نظر» للفنان/ محيى الدين اللباد. الناشر العربى للنشر والتوزيع.

(*) مجموعة رسوم شعبية مطبوعة ذات طابع دينى أصلية طرف الكاتب ومجموعة رسوم شعبية مطبوعة ذات طابع وطنى أصلية طرف الفنان/ رضا خليل.



مراكز البيع:

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى . نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٣

مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠

الزيتون: ١٣ ش عين شمس . ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧

عين شمس : ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول ت: ٢٩٦٦٥٦٤

الشرابية: شارع الألايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦

المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين

الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠

شبرا: ٦٤ ش روض الفرج . دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠

ناهيا: ٦٢ ش ناهيا بولاق الدكرور ت: ٣٢٧٢١٨٧

الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة أمام مصنع العلف

العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢

إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦

الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٥٧٢١١١٨

مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧

المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥

حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان . محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧

القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٠٦٥

القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٢٤٥٢٥٦٩٩

شبين القناطر: ٩ ش الدلتا

دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى

العاشر من رمضان: دوار العاشر . طريق الإسماعيلية

الفيوم: ش ٢٦ يولية عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢

دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦

ميت غمر: ١ ش بورسعيد

سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠

حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧

المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى

فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل . محطة التعاون . الهرم ت: ٣٨٣٢٠٢٦

بلقاس: ش طريق الحرية . خلف المحكمة

العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤

العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨

مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى . مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١

الأقصر: ش مدرسة الصنايع . السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣

العباسية: ١٥ ش العباسية . ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠

بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت:٢٢٠٨٥٥٥

بنها: ش الكوبرى ت: ٢٢٣٩٧٠

السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٢٢٨٧٨٠

المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش

طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤

المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤

كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥

الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية . فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧

رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٤٨٢٩٣٩

صفط اللبن: سنتر الصاوى . شارع التحرير

بنى سويف: ٥ ، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦

قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨

قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة.

الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩

أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى

الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٥٧٦٥ ٢٢

شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى

أسيوط: ١٣ ش المدينة المنورة الزهراء

دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣

كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧

أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى ٠٥٥٣٤٠٩٥٤٤

السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧

كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة

المنيا: ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦

كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ت: ٠١٠١٩٢٢٤٢٨

العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٢١١٠٩ ٠٦٨٣٦٥٦٥٦

فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم . خلف المحكمة ٠١٠١٩٧٧٥٣٣

دسوق: ش الجيش . أمام عمر أفندى

بورسعيد : ميدان المسلة - برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤

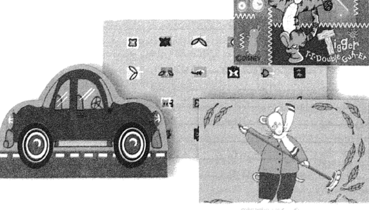
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة . طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٢

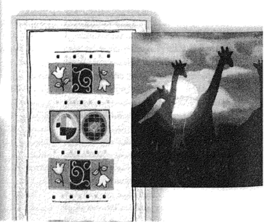
بنى سويف الجديدة: ٣٦ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨

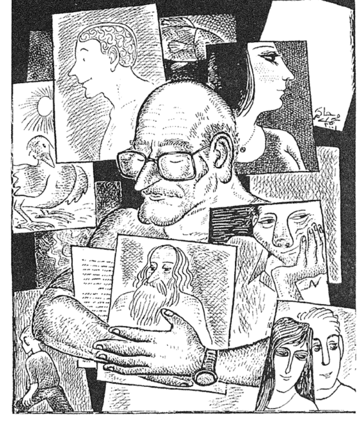
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس

الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى - سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com







علم اسمه الشيخوخة

أحمد مستجير

الزمن! يا له من بُعْد غامض عجيب. شَغَل الفلاسفة وأرَّق الشعراءَ والكتَّاب، وأجهد المفكرين والعلماء.. ولايزال! صامت هو. يغيِّر في طريقه كلَّ شيء. بلا تغيُّر. يموتُ الزمنُ ويحلُّ العدم. كالعاصفة هو، لايُرى ويُخلِّف حطاماً يُرى. عندما تجلس في الشيخوخة تَذْكُرُ من بعيد عهد الشباب وتَذْكر قولَ المتنبي:

آلةُ العيش صحةٌ وشبابٌ
فإذا وَلَّيَا عن المرء وَلَّى

فإنك إنما تعود تنبش في خلايا مخك حيث تبلَّر الزمانُ القديم وَرَقَد. ما الذي يفعله هذا الزمان بنا وبأجسادنا ؟ يخاطب وليام شكسبير رجلاً عجوزاً ويسأله: «ألم تَعُد عينُك مُخْضَلَّةً بالدموع، وكفُّك يابسةٌ، ووجنتك صفراء، ولحيتك بيضاء، وساقك واهية، وبطنك مترهلاً ؟ ألَمْ يصبح صوتُك موهَناً، وأنفاسُك قصيرة، وذقنك مزدوجة (ذات لُغْد)، وعقلك شارداً، وكلُّ ما فيك يفوح بالقدَم ؟». يأخذ الزمان بيدنا - في البَدء - في رفق بهيج نحو الشباب، ويُنْضِجُنا، ثم في صمت يجول بداخلنا يعملُ، وفي صمت يأخذ منا مَا أعطاه، ويصنع بنا هذا الذي وَصَفَه شكسبير. آه لو كان الأمر مثل ما تمناه مارك توين، فنولد في الثمانين، ثم نقترب رويداً رويداً من سن الثامنة عشرة!

لماذا يفزع المرءُ - كما يقول ويندل هولمز - عندما يَسمع، أولَ مرة، مَنْ يصفُه بأنه عجوز ؟ لماذا يحس الفرد منا إذا ما أُحيل إلى التقاعد، حتى وهو في كامل صحته، بأن عليه أن ينزوي، وهو يَعْلَم أن سنَّ التقاعد أمرٌ يقرره غيرُه ؟ لماذا يقول علي محمود طه عندما يُلحُّ عليه الشعرُ في كهولته:

عُدْتَ يا شعرُ، فيمَ عدتَ، ربيعُ الـ
عُمْرِ وَلَّى، فهل تعيدُ الربيعا ؟

لو بقيَ الشباب! لو أمكننا أن نخدعَ الزمن! أن يتقدم بنا العُمر وبنا حيوية الشباب! أن نبلغ المائة دون أن نتعرَّض «لأمراض الشيخوخة»! إن هذا هو ما يتحدث عنه الكتاب الذي نعرضه. الكتاب يعلمنا كيف نسرق الزمن، كيف نحيا شيخوخة سعيدة. يؤكد لنا أن الشيخوخة ليست عورةً، ليست مرضاً. ينقل لنا الجديد في العلم الجديد: علم الشيخوخة - هذا العلم الذي تجري فيه البحوث الآن بسرعة مذهلة.

إننا نشهد مولدَ علمٍ ثوري جديد - علم الشيخوخة - علم يتحدى الثوابت، يبحث في حلم الشباب الدائم، وقد يفرضُ علينا مواجهات مع التقاليد لم يشهدها البشر على طولَ تاريخهم. قد يمنحنا هذا العلم قوةً لا قِبَلَ لنا بها: مضاعفةَ طول فترة الحياة، وإمكانية تحوير الخريطة الوراثية للأفراد، والتخلص من الكثير من أمراض الشيخوخة التي ابتُلي بها الإنسان منذ فجر التاريخ. ستتغير بالضرورة نوعيةُ الحياة، للكبار وللصغار، في الألفية الجديدة، وستتحدى فترةُ الحياة المضاعفةُ خيالاتنا وتتحدى كلَّ تراثنا عن الحياة الاجتماعية للبشر. كيف سنستجيب يا تُرَى لما ستثيره هذه الثورةُ من تحديات اجتماعية وأخلاقية ؟

الثورة الديموغرافية

من المتوقع أن يصبح متوسطُ عمر الإنسان ضعفَ المتوسط الحالي خلال خمسين عاماً، وتضمينات مثل هذا التوقع تثير الرهبة والذعر حتى بين الباحثين أنفسهم. إن فكرة إطالة عمر الإنسان إلى ١٥٠ عاماً تخلق فجوةً واسعة بيننا وبين تاريخنا كله - لن تعود صالحةً كلُّ حكمتنا عن طريقة الحياة. والفكرةُ المُضَمَّنة هنا هي بالطبع أن الشيخوخة لا يلزم بالضرورة أن تصطحب الأمراض، ستكون الشيخوخة أفضل، سنشيخ ببطء ونتجنب الأمراض المرتبطة بالشيخوخة، حتى نهاية العمر.

من المتوقع أن يصل عدد من بلغ الستين أو أكثر، بليونَ فردٍ عام ٢٠٢٠، أكثر من ثلثيهم في العالم الثالث. سيغزو الشَّعر الأشيبُ العالم. ستتغير الخريطة الديموغرافية في كل البلاد. في بداية القرن الحادي والعشرين كانت أمريكا تحمل ٥٢ ألف شخص بلغوا من السن مائة عام أو أكثر. ويقدِّر العلماءُ أن عددَ أمثال هؤلاء سيتضاعف حتى يصل إلى أربعة ملايين بعد أربعين عاماً. إن أكبر المسنين سناً - أي مَنْ بلغوا عمر الخامسة والثمانين أو أكثر - هم أكثر قطاعات العشيرة البشرية نمواً. ففيما بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٩٠ ازداد تعداد الأمريكيين بنسبة ٣٩٪. أما أكبر المسنين سناً فقد انفجر عددهم وتزايد بنسبة ٢٣٢ ٪! وهذه ظاهرة تشترك فيها كلُّ الدول الصناعية المتقدمة. لم يعد بلوغ المائة مجرد احتمال للجيل الذي يقترب عمره الآن من الخمسين! وتضميناتُ هذا مذهلة، ليس فقط بالنسبة لهؤلاء، وإنما بالنسبة للمجتمع ككل.

يقول العلماء إن معظم نساء ما قبل التاريخ لم يكنَّ يبلغن سن الثلاثين، ولم يكن يبلغ منهن الخمسين سوى نسبة جد ضئيلة، وأن هذه النسبة الضئيلة قد لعِبت دوراً رئيسياً في ازدهار الجنس البشري. يورد جاريد دياموند ما يعضد هذه الفكرة في حياة القبائل البدائية في غينيا الجديدة. فمعظم الناس في هذه القبائل يموتون قبل سن الخمسين. لكن البعض قد يحيا حتى سن الثمانين، بل وحتى أوائل تسعينيات العمر. يصبح هؤلاء مكفوفي النظر غيرَ قادرين على الحركة، لكن المجتمع يعتبرهم دُرَرًا، حتى ليبذل أقاربُهم والأصدقاءُ كلَّ ما في وسعهم لإبقائهم أحياء. من بين الصور التي تتكرر هناك كثيراً، أن تجد عجوزاً من هؤلاء، وقد فَقَدَ كلَّ أسنانه، ليقوم أقاربه بمضغ الطعام له - قطعة لحم مثلاً، أو زر بطاطا - ثم يبصقون ما مضغوه في كوب، ليزدرده العجوز دون مضغ! يقارن دياموند بين معاملة كبار السن في غينيا الجديدة وبين معاملتهم في الولايات المتحدة أو أوروبا فيقول: «المشكلة الأساسية هي أن كبار السن قد فقدوا كلَّ وظيفتهم في المجتمع، ومن ثم فلم يعد هناك من يقدرهم. نعم، قد يحبهم البعض، لكنهم وقد بلغوا ثمانينيات العمر أو تسعينياته، لم



إننا نشهد مولد علم ثوري جديد - علم الشيخوخة - علم يتحدى الثوابت، يبحث في حلم الشباب الدائم، وقد يفرضُ علينا مواجهات مع التقاليد لم يشهدها البشر على طول تاريخهم



Stealing Time : The New Science of Aging
(سرقة الزمن: علم جديد اسمه الشيخوخة)
Fred Warshofsky
T.V. Books, New York
Sept. 1999, 246 pp., $ 26.00

ما نتوقعه ليس فقط إطالة الحياة، وإنما أيضاً إطالة فترة الشباب. بدأ الناس يدركون أن الحياة لا تتوقف عند عمر الخامسة والسبعين، وأن لهم أن يتوقعوا عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً من حياة طيبة نشطة تنتظرهم

يعودوا هم دعامات المجتمع». والأمر ليس كذلك في غينيا الجديدة، لم يكن الأهالي هناك يعرفون الكتابة حتى وصل الأوروبيون. وبدون الكتابة كانت ذاكرة الناس ـ لاسيما كبار السن منهم ـ هي مستودعات المعلومات، فيها ترقد خبرةُ الشعب وحكمته. كان المسنُّون هم موسوعةَ مجتمعات ما قبل الكتابة.

إن ما يثير القَلق في أذهان الكثيرين هو المستقبل القريب: حشود كبار السن الضعفاء المرتعشين المرضى العاجزين يملئون المصحات والمستشفيات وبيوت الرعاية الصحية، ويصبحون عبئاً اقتصادياً ثقيلاً على أبنائهم وأحفادهم بل وربما أيضاً على أبناء أحفادهم. أمر كهذا لم يسبق للبشر أن واجهوه. كان متوسط عمر الإنسان في القرن السابع عشر نحو ٢٥ عاماً. من بين كل مائة طفل يولد كان يموت ٢٥ قبل مرور عام، ثم ٢٥ قبل عمر ٥ سنوات، ثم ٢٥ ما بين عمر ٢٠ و ٤٠ سنة، ولم يكن ليصل من المائة مولود إلى عمر الستين إلا عشرة. وفي القرن الثامن عشر بدأ معدل موت الأطفال ينخفض، وتزايدت نسبة الشباب في العشيرة البشرية، وانخفضت نسبةُ المسنين، ومعها أيضاً أهميتُهم في المجتمع. وعلى بداية القرن التاسع عشر أصبح الشباب هم بؤرة المجتمع، اعتُبروا هُم الأكثر حيوية وهُم الأنصح مقارنةً بكبار السن المحافظين.

ونحن نواجه الآن نقلةً ثقافية جديدة، فما نتوقعه ليس فقط إطالة الحياة، وإنما أيضاً إطالةَ فترة الشباب. بدأ الناس يدركون أن الحياة لا تتوقف عند عمر الخامسة والسبعين، وأن لهم أن يتوقعوا عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً من حياة طيبة نشطة تنتظرهم، وهذا تغير غير مسبوق، مذهل وعجيب بالنسبة للمجتمع.

سنُّ التقاعد

إذا كان الأمر هكذا، فلماذا تظل سن التقاعد هي الستون، أو الخامسة والستون ؟ لتحديد هذه السن حكايةٌ تستحق أن تُروى، فما الذي يا ترى قد اكتُشف أنه يَحْدُثُ فجأة للإنسان فيستحيل معه أن يُنْتِجَ مثلما كان يُنتِجُ عبر الثلاثين أو الأربعين عاماً التي تسبق التقاعد ؟ يقولون إن من ابتكر هذه الخرافة هو أوتُّو بسمارك في ألمانيا القرن التاسع عشر. لاحظ بسمارك عندما كان يطمح إلى منصب مستشار بروسيا أنَّ كلَّ منافسيه في الحكومة كانوا في سن الخامسة والستين أو أكثر. تمضي الرواية لتقول إن بسمارك نجح في تمرير تشريع ينص على إحالة موظفي الحكومة إلى التقاعد في سن الخامسة والستين، بدلاً من السبعين. كان متوسط العمر المتوقع للإنسان آنذاك هو ٥٦ عاماً، فإذا استخدمنا العمرَ المتوقَّعَ في عصرنا هذا لوجب أن يكون سنُّ التقاعد الآن تسعين عاما!!

المكتوب الوراثي

الطفل الذي يولد اليوم، أو حتى من وُلِدَ نحو عام ١٩٦٠ سيجد عالماً أقلَّ تهديداً وأكثر ترحيباً، ومن ثم فسيمكنه أن يحقق« المكتوب» الوراثيَّ المُدَوَّنَ في أضابير مادته الوراثية: إذا كان لديه الاستعداد الوراثي لبلوغ المائة، فسيبلغها! وهناك مثل هذا الاستعداد الوراثي. قام بيرليز، أحد كبار علماء الشيخوخة، بدراسة شجرة العائلة لمائة واثنين من المئويين، فوجد أن لهم جميعاً أشقةً وشقيقات من المعمرين. ولقد أصبح من المهم أن نحاول تحديد الجينات المرتبطة بعملية الشيخوخة بحثاً عن وسيلة لإطالة فترة حياة الإنسان.

لماذا الأمراض في نهاية العمر ؟

نتصور الشيخوخة دائماً على أنها رحلة هبوط نحو السفح، تتزايد سرعتها مع مرور كل يوم. لكن العلماء الآن يَتَحَدُّون هذا الاعتقاد. إذا كان لابد لنا أن نموت، فهل يلزم أيضاً أن نتدهور ونضعف ونذبل بهذه الصورة الحزينة المثيرة للشفقة ؟ نعم، لقد كان الأمر هكذا دائماً. هكذا كان آباؤنا، هكذا كان أجدادنا. الشيخوخة ومعها المرض والذبول هي الخبرة الحتمية للبشر.

لكن الشيخوخة لا يلزم أن ترتبط بالمرض. من الممكن أن نشيخ ببطء، وأن نتجنب الأمراض التي ارتبطت بالشيخوخة، حتى نهاية العمر. من الممكن أن« يُخْتَزَلَ» المرضُ فَتَحْيَا معظمَ حياتك في صحة وعافية ولا يهاجمك المرض إلا في الذيل الأخير جداً من الحياة.

تضاعف متوسط العمر المتوقع للإنسان في القرن العشرين بسبب التقدم في علوم الصحة والطب والصيدلة. لكن الطريق لا يزال مفتوحاً بلوغ عمر المائة وخمسة عشر عاماً التي يُظَن أن جيناتنا تَعدُ به. « كنا نظن أن هناك حداً أقصى للحياة لا يَستطيع أحد أن يتعدَّاه، لكنَّ هذه ليست سوى أسطورة. نعم، لا يمكن أن نحيا إلى الأبد، لكنا لم نعثر بعد على حد يتعذر أن يتخطاه الإنسان». فمع كل بحث جديد يتضح أكثر وأكثر أن الله قد هَنْدَس جسم الإنسان ليحيا فترة أطول كثيراً مما يحياه الآن.

لكن، لماذا الأمراض في نهاية العمر ؟ تنتخب الطبيعةُ لبقاء النوع، لا الفرد. تهيَّأ الأمرُ كي يعيشَ من الأفراد عَدَدٌ كاف حتى العمر الذي يمكِّنهم من تمرير جيناتهم إلى الجيل التالي. الحياة الطويلة للفرد إذن لا تعني الكثير من وجهة النظر هذه. يجري الانتخاب أساساً للجينات التي تشجع تكاثراً سريعاً خصباً، قَبْل الجينات التي تزكّي طول الحياة. التكاثر هو المهم. ومن هنا فإن الطبيعة ستحابي الأنثى. والنساء في الواقع يشكِّلْن ٩٠٪ ممَّن بلغوا المائة من البشر. هنَّ يشخن ببطء حتى تطول الفترة التي يمكنهن فيها الولادة.

للتكاثر ثمن، لذا نلحظ أن طول الحياة يصطحب ظواهر لا تسر. ارفع قدرة التكاثر مبكراً في الحياة وستدفع الثمن من طول فترة الحياة. تطورت الجيناتُ التي تضفي مزايا واضحةً على الكائن في مراحل مبكرة من الحياة، ليُدفع الثمن في مراحل تالية. يرى البعض أن هناك تعارضاً وراثياً ما بين الخصب وطول العمر: مَنْ بُرْمجتْ وراثياً للحياة الأطول تكون أقل خصباً.

تطول الحياة بقدرة الجسم على إصلاح نفسه. نتصور أنفسنا عادةً آلات لابد أن يصيبها البلى مع طول «الاستعمال». لكنا لسنا آلات، إننا نصلح أنفسنا بأنفسنا: الجروحُ تلتئم، العظام تلتحم، المرض مثلما يجئ يروح، فلماذا إذن «نبلى» مع الزمن. إن مدى قدرة الجسم على إصلاح نفسه يحدد المعدلَ الذي به نشيخ. الشيخوخة تحدث عندما يعجز الجسم عن إصلاح نفسه.

لكنا نشيخ بمعدل أبطأ من الشمبانزي الذي يفوقنا قوة وسرعة وله نفس حجمنا تقريباً. غير أن الشمبانزي لا يَبْري سهماً ولا يصنع قوساً. ومن ثم يقع فريسةً سهلة للنمر والأسد. وليس هكذا الإنسان الذي يستطيع أن يهرب من أعدائه حتى عمر الثمانين. الإنسان قد طوَّر أدوات معقدةً، ومهارات اجتماعية تساعده على حمايةِ نفسه. ولكي يكتَسب الطفل هذه المهارات فإنه يحتاج فترةَ رعاية أطول، الأمر الذي يقدم سبباً وجيهاً لإطالة عمر الوالدين: يلزم أن يعيش الأبوان زمناً أطول لينقلا فيه ما جمعاه من خبرة وحكمة إلى نسلهما. يلزم أن تطول حياتهما لأبعد من سن الإنجاب. لكن الحياة الإنجابية للمرأة تنتهي ببلوغها سن اليأس. وليس الأمر هكذا مع الرجال. فلماذا تكون سن اليأس من نصيب المرأة وحدها ؟ من بين الأسباب أن الولادة أمر خطر، وتوقُّفُ الإنجاب بعد سنٍ معينة يرفع كثيراً من فرصة النساء على تربية أطفالهن حتى سن البلوغ؛ حتى بدايات القرن العشرين، كانت الوفاة عند الولادة تشكل خطورة حقيقية على حياة الأم ، وبالتالي على حياة وليدها.

إلا قلب الإنسان!

جُرَذُ المعمل، إذا ما تمتع بالغذاء الطيب والرعاية المثلى، ولم تهاجمه المفترسات، أصبح عجوزاً خَرِفاً إذا بلغ عمره سنتين: يصاب بإعتام عدسة العين (الكاتاراكت) والمشاكل التناسلية وفقدان الذاكرة، ثم يموت. يحدث هذا مع معظم الكائنات الحية إنما بمعدلات مختلفة. الكلب يعيش خمسة عشر عاماً، والشمبانزي أربعين عاماً، والفيل الأفريقي سبعين عاماً. يبدو في الثدييات أن الأكبر حجماً هو الأطول عمراً.

حاول العالم الألماني ماكس روبنر أن يبحث في العلاقة بين معدل الأيض، أي السرعة التي يحرق بها الجسمُ الطاقةَ، وحجم الجسم وطول العمر، باستخدام خمسة أنواع من الثدييات: خنازير غينيا، والقطط، والكلاب، والأبقار، والخيل ـ وهذه أنواع تتباين كثيراً في الحجم: أصغرها خنزير غينيا (رطل واحد) وأثقلها الخيل (ألف رطل)، كما تتباين في طول العمر: أقصرها خنزير غينيا (٦ سنوات) وأطولها الخيل (٥٠ سنة). اكتشف روبنر أنه كلما انخفضت سرعة استهلاك الطاقة طالت الحياة. «الكسالى يعيشون أطول» كما قال رايموند بيرل عام ١٩٢٧. ذاعت نظرية روبنر حتى ليقاس العمر المتوقع لأنواع الحيوانات بقدر ما تستهلكه من الأكسجين، وبعدد الأنفاس، وعدد ضربات القلب! ينبض قلب الفأر بليون نبضة في السنين الثلاث أو الأربع التي يحياها، ويحتاج الفيل ٧٠ عاماً لتحقيق هذا العدد من النبضات. لكن النظرية لم تصمد أمام قلب الإنسان: قلب الإنسان ينبض ثلاثة بلايين نبضة عبر الخمسة وسبعين عاماً التي يحياها، أي ثلاثة أضعاف ما تقول به النظرية!

الوراثة والشيخوخة

منذ ٣٠ مليون سنة طارت نحلة وحطت على شجرة. سالت مادة الراتينج اللزجة من قلف الشجرة وغمرت النحلة فقتلتها. تصلب الراتينج ليتحول مع الزمن إلى كهرمان. عثر العالِم رول كانو على الكهرمانة. عَقَّمَ سطحها، ثم كَسرها وأخرج النحلة. وتحت تدابير تجريبية صارمة للتعقيم فتح بطنها فوجد أبواغَ بكتريا باسيلَص سفيركَصْ. أخرج البكتريا من أبواغها وقارن دَنَاها (مادتها الوراثية) DNA بدنا بكتريا معاصرة من نفس النوع فوجد من الاختلافات ما أقنعه بأن بكتريا الأبواغ قديمة حقاً. بقيت هذه البكتريا على قيد الحياة ثلاثين مليون عام، دون هواء، دون غذاء. الكثير من البكتريا يغلف نفسَه في الظروف البيئية المعاكسة بغلاف متين من البروتين (يُسمى بوغ) ويخفض من عملياته الحيوية إلى أدنى حد يبقيه حياً، فإذا تحسنت الظروف عاد إلى الحياة من جديد. أعلن كانو أنه قد بعث إلى الحياة من بطن هذه النحلة أكثر من ألفي نوع هاجع من البكتريا.

لو كان عمر هذه البكتريا بالفعل هو ٣٠ مليون سنة، فإن هذا يعني أن الخلود أمر ممكن، على الأقل بالنسبة للبكتريا. والعمر الطويل أمر معروف في الكائنات وحيدة الخلية ـ وطريقة التكاثر لابد أن تكون هي الآلية المسئولة. هناك في الكائنات الحية وسيلتان للتكاثر. الكائنات العليا كالإنسان أو القمح تتكاثر بلقاء الدنا المنقول في الخلايا الجرثومية (أي البويضات والحيوانات المنوية أو حبوب اللقاح). أما البكتريا والخميرة وغيرهما من وحيدات الخلية فتتكاثر بالانشطار. تحمل الخليتان الناجمتان عن الانشطار إذن نفس الجينات: سيكون لهما نفسُ العمر، لن تكون واحدةٌ عجوزاً والأخرى طفلة. الكائنات التي تتكاثر بالانشطار لا تشيخ!

حاول بعض العلماء أن يقارن بين دورة حياة دودة دقيقة من ديدان المياه العذبة تتكاثر بالانشطار، وبين دورة حياة برغوث المياه العذبة الذي يتكاثر جنسياً ولا يختلف عن الدودة حجماً، فوجد أن براغيث المياه تشيخ وتموت حتى تحت الظروف البيئية المثلى. أما ديدان المياه فكانت تموت ما بين الحين والحين، لكن معدل الموت لم يكن يتزايد مع العمر: «يبدو أن هناك كائنات تشيخ ببطء بالغ، بل وحتى لا تشيخ». التكاثر بالانشطار هو الوسيلة لبلوغ ما يشبه الخلود ـ حيث يختفي التمييز بين الآباء والأبناء.

لكن مثل هذه النتائج لا تشير إلى وجود جينات معينة تسبب

علم الشيخوخة

الشيخوخة. ولقد عُثر على مثل هذه الجينات في كائن بسيط للغاية هو الخميرة. تنقسم خلايا الخميرة طبيعياً نحو ٢١ انقساماً، أو جيلاً. وقد اتضح أن هناك جينات تَنْشَط أو ينخفض نشاطها مع تقدم الخلايا في العمر، عُثِر منها على ١٤ جيناً، من بينها جين (اسمه لاج-١) (lag-1) إذا استمر نشاطه انقسمت الخلايا ٢٧ أو ٢٨ مرة. ولقد عُثر على جين نظير في دنا خلايا الإنسان أطلق عليه اسم بي ٢١ p 21.

عند استزراع الخلايا البشرية في المعمل فإنها تنقسم عدداً من المرات، ثم «تشيخ» وتموت. نُزِع الجين «بي ٢١» من بعض الخلايا فاستمرت في الانقسام ٣٠ مرة إضافية قبل أن تموت. هناك برنامج وراثي داخل خلايا كل فرد يحدد فترة الحياة. الشيخوخة حتمية. علينا أن ندرس ونفهم الآلية الجزيئية التي تحدد الشيخوخة.

وفي ديسمبر ٢٠٠٠ أُعلن عن اكتشاف الجين إندي Indy (I am not dead yet) على أحد كروموزومات ذبابة الدروسوفيلا (وبين هذه الذبابة وبين البشر تماثل جيني يبلغ نحو ٨٠٪). ظهر أن تحوير هذا الجين يمد حياة الحشرة إلى ٧٠ يوماً بدلاً من ٣٧ - بل ولقد وصل عُمْرُ بعض هذه الحشرات المحورة الجين إلى ١١٠ أيام. تعيش الحشرة ضعف عمرها الطبيعي. يبدو أن الجين يعمل بأن يحدّ من امتصاص الطاقة على المستوى الخلوي، هو «ريجيم» قسري يقوم به الجهاز الوراثي. لكن المهم أن هذا الجين لا يطيل العمر فقط وإنما يحفظ الحيوية والشباب للحشرة، ويعطل حلول الشيخوخة، إذ تستمر الحشرات في التكاثر طيلة العمر، وتبيض خلال حياتها ما يصل إلى ألفي بيضة بدلاً من ١٣٠٠ بيضة تضعها الحشرة الطبيعية. يقول فرانس كافكا: «أنْ تكون ذبابة، هذا أمر سيئ. أما الأسوأ فهو أن تكون ذبابة تعيش ضعف العمر الطبيعي!». وها قد توصل العلماء إلى الذبابة «الأسوأ». لكن هناك في الإنسان جيناً شبيهًا بالجين إندي، وقد تؤدي دراسته إلى التمكن من إطالة فترة حياة الإنسان إلى ١٥٠ عاماً. فقد نستطيع به يوما تطويرَ «حبة» تطيل الحياة وتحكم الجسم فلا يترهل مع العمر - حبة تقلل الأيض في جسم الإنسان!

تخيل نفسك وأنت تُنجب وسنك ٧٠ عاماً، وجسمُك لا يزال عفياً وعقلُك، حتى نهاية عمرك في سن المائة وخمسين! لقد أصبح هذا التغير البيولوجي الهائل هدفاً محتملاً. نقترب الآن خطوة نحو عُمْر مَتُوشَالَح (جَدُّ نوح) الذي عاش ٩٦٩ عاماً (كما يقول سِفْر التكوين) يسعى العلماء يبحثون عن جينات مَتُوشَالَح التي تتحكم في شيخوختنا، وهي بعض ما سيكشف عنه مشروع الجينوم البشري الذي أوشك على الانتهاء.

مع زيادة تفهمنا للجينوم البشري سنتمكن من منع أو إصلاح العطب الذي يصيب المادة الوراثية على المستوى الخلوي - العطب الذي يُعْتَقَد أنه السبب الرئيسي للشيخوخة. وقد يمكّننا العلاج بالجينات من التحكم في بعض الأمراض التي تبدو عنيدة، وقد يكشف عن آليات الأمراض التي يسببها التفاعل بين الجينات والبيئة. وتحديد هوية هذه الجينات والبروتينات التي تأتي عنها قد يمهد الطريق إلى علاجات أو طرق للوقاية أكثر فعالية، كما سيمكّننا من فهم التغيرات التي تحدثُ مع تقدم العمر.

الطفل العجوز

ربما كان هناك مئات من الجينات تؤثر في شيخوخة البشر، هناك من بين هذه جين مسئول عن «متلازمة فيرنر»، وهذا مرض يُسرع من عملية الشيخوخة في الأطفال، إذ يحبس ضحاياه الصغار في أجساد هَرِمَة للغاية. توجد من هذه المتلازمة صورتان: صورة تسمى بروجيريا progeria تصيب الأطفال: يصبح الطفلُ صغيرَ الحجم، أصلعَ، ذابلاً، ومدركاً - يا للقسوة - لمأساته، تتصلب شرايينه بسرعة ويموت عادة في عمر الثالثة عشرة. أما الصورة الأخرى فتظهر بعد البلوغ وفيها تبدأ الشيخوخة في الضحية بصورة مأساوية، وعلى عمر العشرين يكون وقد طَوَّرَ الكثير من أمراض كبر السن: الشَّعر الأبيض، الكاتاراكت، الجلد المجعد، تخلخل العظام، ليموت على عُمْر الأربعين بأزمة قلبية أو بالسرطان.

اكتشف الطبيب الألماني أوتو فيرنر هذه الظاهرة ونشَر عنها عام ١٩٠٤، واقترح أنها ظاهرة وراثية. وفي عام ١٩٩٦ عُثر على الجين المسبب على الذراع القصيرة للكروموزوم رقم ٨ وهذا الجين مسئول عن إنزيم أساسي لعمل الدنا اسمه هيليكيز وظيفته فَرْدُ جدائل الدنا المُحَلْزَنَة لتصبح مستقيمة - الخَطوة الحرجة الأولى لكي يقوم الدنا بوظائفه في إصلاح نفسه أو نَسْخ ذاته أو ترجمة شفرته إلى بروتين لتخليق خلايا جديدة. فإذا كان الجين معطوباً تزايدت سرعة عمليات الشيخوخة. إذا استزرعنا خليةً طفل طبيعي في مستنبت فإنها تنقسم نحو ٦٠ مرة قبل أن تتوقف، فإذا كانت الخلية لعجوز انقسمت ١٠ - ٢٠ مرة فقط، وإذا ما كانت لمريض بمتلازمة فيرنر عمره ٣٠ سنة فإنها تنقسم وكأنها لعجوز في الثمانين. هذا جين مسئول عن الشيخوخة، وكشفه ومعرفة طريقة عمله تعتبر خطوة هائلة إلى الأمام.

السيدة الأعجوبة

هيلين بولي سيدة فوق الستين تتميز بصفة هي العجب العجاب! في كل يوم يسحب الأطباء من دمها عينةً تُرْسَل إلى معهد طبي في ماريلاند. في كل ستة أشهر تذهب بشخصها إلى المعهد ليَفحصَ دَمَها سبعةٌ من الباحثين. والسبب: مستوى الكولسترول «الطيب» في دمها يخرج تماماً عن المستوى الطبيعي، هو أعلى مستوى سَجَّلَهُ إنسان: ٢٣٠ - أكثر من أربعة أضعاف ونصف المستوى الطبيعي. هي تحمل - بمعنى ما - جيناً مضاداً للشيخوخة، إذا تمكن العلماء من كشف سر الطريقة التي يعمل بها هذا الجين، فإنهم يفتحون بذلك لاشك طريقاً جديدة تماماً لحماية الناس من تصلب الشرايين وغيره من أمراض القلب المرتبطة بالكولسترول.

حكاية الكولسترول

والكولسترول مادة شمعية طرية لا رائحة لها يحتاجها الجسم لأداء وظائفه: فهو أحد مكونات أغشية الخلايا، وهو ضروري لإنتاج عدد من الهرمونات، وفيتامين د، وأحماض الصفراء. يوجد الكولسترول في كل أجزاء الجسم بما فيها المخ والجهاز العصبي والعضلات والجلد والكبد والأمعاء والقلب. يتأثر مستوى الكولسترول في الجسم ليس فقط بما يتعاطاه الفرد منه في الغذاء، وإنما أيضاً بما يصنعه الجسم بنفسه. فإذا كان الجسم ينتج كلَّ حاجته من الكولسترول، فإن ما يصله في الغذاء سيرفع مستواه في الدم.

يتحرك الكولسترول في الدم في عبوات تسمى ليبوبروتينات، تُصْنَع كلُّها في الكبد لتَنْقُلَ الكولسترول عبر الجسم كله. ومن هذه الليبوبروتينات نوعان: نوع منخفض الكثافة (ل.م.ك LDL) وينقل الكولسترول من الكبد، في الدم، إلى أعضاء الجسم حيث يُستخدم. يحمل ل م ك هذا معظم الكولسترول الموجود بالدم، فإذا لم تتم إزالته فإنه يتراكم مع الدهون في الشرايين مما يؤدي إلى تصلبها - وبذا فهو نوع «خبيث». أما النوع الثاني من العبوات فهو الليبوبروتين عالي الكثافة (ل.ع.ك HDL) الذي يحمل الكولسترول مرة أخرى من الدم ويعيده إلى الكبد لمعالجته أو إزالته من الجسم - هو يمنع تراكم الكولسترول على جدران الشرايين، هو إذن النوع «الطيب». المستوى المرتفع من ل م ك والمنخفض من ل ع ك يرفع احتمال الإصابة بأمراض القلب. ومرض القلب في عالمنا اليوم هو القاتل الأول للرجال والنساء.

يختلف الناس في السرعة التي يتخلص بها الجسم من كولسترول الدم، وفي مقدار ما يصنعه الكبد منه. لكن شيئاً واحداً يحدث في الناس جميعاً: يتزايد الكولسترول مع تقدم العمر. والهبة الوراثية التي وهبها الله لهيلين بولي هي أنها تنتج كميات مذهلة من ل ع ك تُمَكِّنها من حماية جسمها، فشرايينُها تبدو نظيفة للغاية. لكن احتمال أن يرث أيٌّ منا برنامجاً وراثياً رائعاً كهذا يضمن له طول العمر، هو احتمال بالفعل جد ضئيل. غير أن مراقبة الغذاء قد تقلل من خطر مرض القلب والسكتة الدماغية والسرطان. والحقيقة أن الغذاء عند بعض علماء الشيخوخة هو السبيل الأول لإطالة الحياة.

كلْ قليلا تعش طويلا

يرى بعض العلماء أننا نستطيع إطالة عمر الحيوان بتقليل مقدار ما يأكله من الطعام، أي من السعرات الحرارية. في عام ١٩٣٥ وجد كلايف ماكّكاي أن حياة فئران المعمل تطول بنحو ٥٠٪ إذا خفَّضنا ما تتعاطاه من سعرات إلى مستوى يصل بها إلى ما يقرب من الموت جوعاً. وعندما كَرَّرَ روي وولفورد التجربة في أوائل السبعينيات، واختبر آلاف الفئران عبر خمسة وعشرين عاماً، ظهر بالفعل أن الفئران التي تعيش على ٦٠٪ فقط من السعرات، تحيا فترة أطول بمقدار الثُّلُث مقارنة بفئران تأكل كل ما تشاء. وقد اتضح أن هذا يسري على كل الأنواع التي دُرِست عبر المملكة الحيوانية. غير أن الآلية التي تسبب هذا الأثر لا زالت غير مفهومة: هل هي ترفع كفاءة إصلاح الدنا ؟ هل هي تمنع تكوين الشوارد الحرة، وتُحَسِّن الأجهزة المضادة للأكسدة ؟ هل تمنع تدهورَ الجهاز المناعي المصاحب للشيخوخة ؟ هل تقلل سكر الدم ؟ أم أنها - كما يظن الكثيرون - تفعل كل هذا؟

الكثيرون من أهالي أوكيناوا باليابان يتعاطون غذاءً منخفضَ السعرات، وإنْ كان يحمل كل المغذيات المطلوبة. وهم يتميزون أيضاً بارتفاع نسبة المئويين فيهم: نسبتهم تعادل أربعين ضعف نسبتهم في أية جزيرة يابانية أخرى! الأبحاث تقول إن سرطانات الثدي والقولون والمعدة تحدث بنسبة أقل فيمن يتعاطون غذاءً منخفض السعرات. التجارب على قِرَدَة الريزوس تقول إن معدلات أيضها تنخفَض مع الغذاء قليل السعرات - الأمر الذي يعني كفاءةً أعلى في استخدام الطاقة، ومعدلاً أقل كثيراً من سكر الدم. تصاب هذه القِرَدَةُ كالإنسان بمرض السكر، فالجسم مع تقدم السن ينتج إنسوليناً أقل، ومن ثَم تصل إلى الخلايا كميةٌ من الجلوكوز أقل، فتقل كفاءتها، مما قد يُسرع من عملية الشيخوخة. وقلة الغذاء تسبب أيضاً تغيرات مرغوبة في دهون الدم والكولسترول وتقلل ضغط الدم، وكلٌّ هذه من دلالات الصحة الحسنة.

الزمن - في هدوءٍ - يَطْبُخنا

مع تقدم العمر يتزايد السكر في الدم، وتتزايد التفاعلات بينه وبين الهيموجلوبين. وتزايد سكر الجلوكوز المشتبك بالهيموجلوبين يقلل قدرتَه على حمل الأكسجين. وتفاعل الجلوكوز مع بروتينات الطعام وبروتينات الجسم يحيل لون العظام إلى الأصفر البني (لون جِلْد دجاجة أُنضجت بالفرن). يحدث هذا في أجسادنا طوَل الوقت: عظام المسنين صفراء. أنت تُطْبَخ في هدوء ما دمت حياً!

مع تقدم العمر تتراكم في الأنسجة هذه الصبغاتُ الصفراء البُنِّيَّة. أُخذت عينات من عدسة العين مِمَّن يُقتلون في حوادث الطرق، وفُحصت ميكروسكوبياً. كانت عدسة الأطفال في سن الثانية رائقةً كالزجاج، أما من هم في العشرين فكانت مصبوغةً بعض الشيء، وتصبح العدسةُ أكثرَ وأكثر دكنةً مع تقدم العمر، فإذا ما بلغ الفرد الثمانين كانت العدسة بالفعل بُنِّية! أنت ترى نفس الشيء في الأسنان. الشاب أسنانه بيضاء وتتحول بالتدريج إلى الأصفر مع العمر بسبب هذا التفاعل: السكر يتفاعل مع البروتين. تتشابك البروتينات بعضها ببعض وتصبح أكثر خشونة. تَتَيَبَّسُ مفاصلنا وتفقد مرونتها. المشكلة مع الجلوكوز ليست في أنه يجعل البروتينات بُنِّية، وإنما في أن ذلك يتسبب في أن يصبح كلُّ شيء مُتَيَبِّساً.

ينتج عن تشابك البروتينات مع الجلوكوز مادة غروية تقلل كثيراً من مرونة البروتين. وقد اتضح أن هذا التشابك واحد من الأسباب الرئيسية للشيخوخة - في الجلد، في الرئة، في العظام. تجري البحوث الآن على مركب اكتُشف مؤخراً يمكنه أن يكسر تشابكات الجلوكوز المسئولة عن مضاعفات الشيخوخة. تصور الباحثون أنه من المستحيل أن تُفْسَخَ هذه التشابكات، إنها دائمة. ثم اتضح الآن أنه من

خلايا المخ تعمل كثيراً، تقوم بأعمال تفوق بكثير ما نطلبه من أية خلية أخرى بالجسم. خلية الكبد مثلاً لا يمكنها أن تحل مسائل فى الحساب أو الجبر، ولا أن تؤلف موسيقى أو تكتب قصيدة أو ترسم لوحة

المكن فسخها: مادة تيماجيدين timagedine تفك الاشتباك: إذا ما تشابك بروتينان بجزىء سكر جلوكوز، فمن الممكن بهذه المادة تحطيم الرابطة وفصل البروتينين عن بعضهما البعض. المتيبس يصبح مرناً. جُرِّب هذا العقار بنجاح على حيوانات المعمل، وبدأ تجريبه على البشر. إذا نُجِحَ فسيخفف من تيبس المفاصل ويعيد الشباب إلى القلب والأوعية الدموية. هناك الآن أكثر من ١٢٠٠ أمريكى بالولايات المتحدة وكندا يشتركون فى تجارب إكلينيكية على التيماجيدين، والنتائج حتى الآن مشجعة.

الجلوكوز، الوقود الذى نحتاجه للبقاء، يقتلنا ببطء. هو شفرة ذات حدين. يمنح الحياةَ ويسلبها.

الرياضة البدنية والشيخوخة

أكل الفاكهة والخضروات واحد من أبسط الحلول التكنولوجية لإطالة العمر والبقاء فى صحة جيدة. والرياضة البدنية حل بسيط آخر. هى ليست مجرد مفتاح للصحة الجيدة، إنها تستطيع أن تعكس مَسَارَ جُزْءٍ هام مما يحدث بالجسم من عمليات الشيخوخة.

مع تقدم العمر يتزايد تَرَسُّب الدهن فى الجسم، وتَضْمَحِل العضلات. بدءاً من سن الأربعين يفقد الإنسان من عضلاته كل عام ١٥٠ جراماً، فتضعف، ويضيف فى نفس الوقت قدراً مساوياً من الدهن - كما يفقد الجسم أيضاً من وزن عظامه. بأجسام النساء دهنٌ أكثر من أجسام الرجال، وعضلاتٌ أقل. وهن يفقدن من العضلات بنفس معدل الرجال، ومن ثَمَّ تصبح أجسادهن مع تقدم العمر أضعف من الرجال. والكثير من أنشطتنا اليومية تتطلب قوة العضلات. فهل من الممكن أن نستعيد ما نفقده مع السن من العضلات ؟

فى تجربة رائدة حاولتْ ماريان نيلسون أن تعرف ما إذا كان ذلك ممكناً، فبدأت برنامجاً رياضياً لكبيرات السن لترى ما إذا كانت التدريبات الرياضية ستدمر العضلات العجوز المترهلة وتفسد العظام الرهيفة. ولقد تمكنت هؤلاء النسوة من بناء ما فقدْنه من عضلات، فبعد نحو شهرين لا أكثر من التدريبات اكتسبت النسوة ما يصل إلى ٣ - ٤ أرطال من العضلات، وفقَدْن نفس القدر تقريباً من الدهن. اكتشفت نيلسون أنك تستطيع إعادة بناء العضلات فى أى عمر! بل ويبدو أن التدريبات تخدم أيضاً فى بناء عظام أقوى. تقول البحوث إنك إذا مشيت ولو ساعة واحدة كلَّ يوم، زاد عمرك سنتين. الرياضة البدنية تؤثر فى العضلات وفى العظام وفى حِدَّة الذهن!

الهرمونات والشيخوخة

الهرمونات رسائل كيماوية صغيرة تفرزها الغدد الصَّمَّاء فى مجرى الدم طول الوقت بغرض تنظيم أنشطة الأعضاء الحيوية. لكن مستويات معظم الهرمونات تتناقص طبيعياً مع تقدم العمر. من بين هذه الهرمونات هرمونُ النمو الآدمى الذى تفرزه الغدة النخامية، والذى يُعْتَقَد أن انخفاضَ إفرازه هو واحد من بين أسباب الشيخوخة. يُفْرَزُ هذا الهرمون بوفرة فى فترة المراهقة ليُسْهِمَ فى نمو الجسم وترميم الأنسجة واستبدال الخلايا وتقوية العظام وعمل المخ وسلامة الشَّعر والأظافر والجلد، لكنه يتناقص بعد سن العشرين بمعدل يبلغ ١٤٪ كل عشر سنوات. يرتبط التدهور الجسدى فى أداء كل الأعضاء الحيوية بالجسم، ارتباطاً مباشراً بمعدل انخفاض هذا الهرمون. يعتمد التعلم والذاكرة والذكاء على وجود القدر الكافى من هرمون النمو هذا.

تمكنت شركات البيوتكنولوجيا بالهندسة الوراثية من تصنيع جزىء الهرمون فى أواخر الثمانينيات، وفتحت بذلك الطريق أمام دراسة آثاره على الشيخوخة، وكان قبلاً مغلقاً لأن الهرمون كان يستخرج من الغدد النخامية للموتى، وبكميات ضئيلة للغاية. فى عام ١٩٩٠ نشرت نتائج دراسة أجريت على رجال، فى أعمار تتراوح ما بين ٦١ عاماً و ٨٠ عاماً، كان مستوى هرمون النمو فى أجسادهم منخفضا جداً. حُقنت مجموعة منهم بالهرمون ثلاث مرات أسبوعياً لمدة ستة أشهر. كانت النتيجة مذهلة: ازدادت كتلة الجسم (الخالى من الدهن) بنسبة ٨,٨٠٪ وانخفضت كتلة الأنسجة الدهنية بنسبة ١٤,٤٪ وازدادت كثافة العظام ١,٦٠٪. استعاد الكثيرون نشاطَهم الجنسى، رجعوا إلى ما كانوا عليه «من شباب» قبل عشرين عاماً. انخفاض نشاط هرمون النمو يعلل بعض مظاهر الشيخوخة. ومثله أيضاً هرمون آخر يشجع على إفراز هرمون النمو، وهرمون ثالث اسمه (DHEA) تفرزه غدة فوق الكلية.

متى وأين تبدأ الشيخوخة ؟

إذا استُزرعتْ، فى مستنبت، خلايا أجِنَّة، فإنها تنقسم وتنقسم ثم تتوقف بعد نحو ٥٠ انقساماً، بعد أن يتغير سلوكها، فتستهلك غذاءً أقل ولا تُصلح ما فسد منها إلا قليلاً - تظهر عليها علامات الشيخوخة. فإذا استزرعنا خلايا عجوز فى سن السبعين، فإنها هى الأخرى تنقسم وتنقسم، ولكنها تتوقف بعد ٢٠ أو ٣٠ انقساماً. تبدأ شيخوخة الخلايا فى المستنبت مبكراً. الخلايا إذن تشيخ، تضعف، تتداعى. والناس لا يشيخون لأن خلاياهم تتوقف عن الانقسام، غير أن ما يحدث من تغيرات فى الخلايا، قبل أن تفقد قدرتها على الانقسام والعمل، يؤثر فى الجسم كله بطريقة تجعله أكثر عرضة لأمراض الشيخوخة.

الخلايا العجوز لا تتوقف عن الانقسام ثم تموت، وإنما يبقى الكثيرُ منها حَيًّا تعتريه الشيخوخة. شيخوخة الخلايا تعنى توقفها عن الانقسام. بالخلايا برنامج وراثى أساسى يخبرها بموعد موتها، برنامج وراثى للانتحار يسمح لها بالموت فى هدوء. لكن الخلايا الشائخة تفقد هذه القدرة وتصبح أكثر مقاومة للإشارات التى تبلغها بضرورة الموت. وما يحدث مع طول العمر هو أن تتكاثر نسبة الخلايا الشائخة التى ترفض أن تموت والتى لا تعمل كما يجب، فتنهار أنسجة



الجسم وأعضاؤه - تلتئم الجروح ببطء، يتجعد الجلد، تنخفض القدرة على مقاومة الأمراض.

يبدو من المنطقى إذن أن نفترض أن الخلايا تشيخ داخل الجسم، وأنها تُقَرِّبُ الجسم رويداً رويداً نحو نهايته، هناك ساعة تدق بداخلنا تنبئ بالرحيل.

قلنسوة إطالة الحياة

يبدو أن الساعة الدقَّاقة بداخلنا ليست سوى خيط من الدنا يشكل قلنسوةً على كلِّ نهايات أطراف الكروموزومات - تسمى التيلومير. تَفْقِدُ هذه القلنسوة على كل طرف كروموزومى جُزءاً من طولها مع كل انقسام للخلية، حتى أن يصل طولها إلى حد لا تتمكن الخلية معه من الانقسام، فتشيخ وتموت.

ثم اتضح أن التيلوميرات فى بعض الخلايا تبقى، لا تبلى، وظهر أن السببَ جينٌ يشفر لإنزيم اسمه التيلوميريز يعيد التيلومير بعد الانقسام إلى ما كان عليه. كل خلايا الإنسان تحمل هذا الجين، لكنه يكون مغلقاً بصفة دائمة، اللهم إلا فى خلايا البويضات والحيوانات المنوية، وكذا فى الخلايا السرطانية. عندما اكتُشف الإنزيم فى أوائل التسعينيات اعتبره البعض وسيلةً يمكن بها التحايل على الشيخوخة والموت. طُعِّم هذا الجين فى خلايا بشرية، من كهول، جينها الأصلى صامت، واستزرعت فى مَسْتَنْبَت لتُقارَن بأخرى لم تُطَعَّم. وكانت النتيجةُ مذهلة. استمرت الخلايا غير المطعومة فى الانقسام لفترة ثم توقفت وماتت جميعها، أما الخلايا المطعومة فقد ظلت تنقسم وتنقسم دون أية دلائل على توقف! وبعد عام من التطعيم كانت هذه الخلايا قد انقسمت مائتى مرة. ثمة تجربة أخرى انقسمت فيها الخلايا المطعومة ٢٨٠ مرة!

علينا أن نتذكر أن الخلايا قد تشيخ فى المستنبت بصورةٍ تختلف عنها فى أجسام الناس. لا تنقسم كلُّ خلايا جسم الإنسان عبر حياته، فما أن يكتمل النمو الجينى حتى تتوقف معظم الخلايا عن الانقسام، ولا يستمر إلا خلايا الأنسجة والسوائل التى تتعرض للبلى أثناء الحياة، كالجلد والدم وبطانة المعدة والأمعاء. ثم إن أحداً لا يعرف بالتأكيد ما إذا كانت خلايا هذه الأنسجة الأخيرة تشيخ وتتوقف عن الانقسام عندما تنتهى تيلوميراتها. إذا كان هذا هو ما يحدث، ففى مقدور التيلوميريز أن يمكّنها من البقاء شابة. وهنا علينا أن نتذكر أن تقصير التيلوميرات هو الوسيلة التى يمنع بها الجسمُ تحولَ الخلايا إلى السرطانية، اللهم إلا إذا أمكننا التحكم فى الجين فنفتحه ليُنتج ما يكفى من التيلوميرات لإعادة الشباب إلى الخلية، ثم نغلقه قبل أن تتحول وتصبح سرطانية. تفكر الشركات فى تطوير عقاقير تفتح الجين فى الخلايا لفترة محدودة تسمح ببناء التيلوميرات وتعيدها إلى وضعها الشاب، ثم تقفله. هل يؤدى هذا إلى إطالة العمر؟ من يدرى!

فى صبَاىَ البعيد

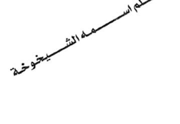
فى صباى البعيد، أيام كنتُ طالباً بالمدرسة الثانوية، تَملَّكتنى فكرة غريبة أرهقتنى كثيراً كثيراً: إذا كانت كلُّ خلايا جسمى قد انقسمتْ واستُبدل بالقديم منها جديدٌ، فكيف أكون أنا نَفْسَ الشخص الذى وُلد منذ عشرة أعوام ونيِّف وقد تَغَيَّرتْ خلاياىَ جميعاً ؟ دوَّختنى هذه الفكرة الساذجة فى الحقيقة طويلاً أحاول أن أجِدَ لها حلاً. كنت أخجل أن أناقشها مع الأصدقاء، فقد كان لدىَّ شعورٌ داخلىٌّ بأن شيئاً فى القضية فاسد، ولم أكن أعرف ماهيَّته. إلى أن اكتشفتُ أن خلايا المخ لا تُستبدل ولا تنقسم. هى الخلايا «الثابتة» طول العمر. هى إذن «أنا» الذى يرتدى كلَّ يوم خلايا جديدة. الإنسان هو مخُّه. قد يستبدل قلبَهُ أو كُلْيَتَه، قد يفقد ساقَه أو يَدَه، لكنه يظل «هو». فإذا كنا نتحدث عن الشيخوخة، فإن ما يهم حقاً هو شيخوخة المخ!

وخلايا المخ تعمل كثيراً، تقوم بأعمال تفوق بكثير ما نطلبه من أية خلية أخرى بالجسم. خلية الكبد مثلاً لا يمكنها أن تحل مسائل فى الحساب أو الجبر، ولا أن تحاول تنظيم التوافق بين عضلات الجسم جميعاً، ولا أن تؤلف موسيقى أو تكتب قصيدة أو ترسم لوحة. خلية الكبد لا تحاول أن تكتب مقالاً كهذا، ولا هى تسعفك بذكريات وتجارب تواجه بها مشاكلَك. إنها لا تؤدى كل هذه الأعمال دون أن تدفع ثمناً. والثمن أخطاء تتراكم بداخلها مع الزمن. الثمن هو شيخوخة المخ.

شيخوخة المخ

نولد ونحن نحمل بالمخ طاقم الخلايا العصبية (النيورونات) الذى سيخدمنا طول العمر. والخلايا العصبية لا تتجدد، وإلا فقدنا ذكرياتنا. تنضج هذه الخلايا بتنمية تفرعات شجرية فى المنطقة من حولها. وعلى هذه التفرعات تتم «اقترانات عصبية»، عن طريقها يجرى «الحديث» بين خلايا المخ. يمكن للخلية الواحدة أن تتصل بمئات الآلاف من الخلايا العصبية الأخرى لتشكِّلَ شبكةَ تفرعات معقدةً لتخزين الأفكار ومعالجتها. وكلما ازدادتْ كثافةُ الاقترانات ازدادت القدرةُ على التعلم. تتوافق أفضلُ مراحل التعلم مع وجود أكبر كثافة من الاقترانات فى وحدة الحجمِ من المخ - فى الفترة ما بين عُمُر ثلاث سَنوات وأربع سنوات، وربما ست أو حتى عشر سنوات. يمكن للطفل أن يتعلم لغةً جديدةً فى شهور قلائل. ثم يبدأ عدد الاقترانات بعد العاشرة فى التناقص التدريجى.

كانت الفكرة السائدة تقول إن القدرات الذهنية تتدهور باطراد مع تقدم السن باستثناءات بالطبع: آينشتين، بيكاسو، فيردى، برتراند راسل). وكانت الوسيلةُ الوحيدةُ للتأكد من هذا هى تَعَقُّب عدد من الأفراد عبر حياتهم. تَمَّت مثلُ هذه التجربة على مجموعة كبيرة من المتطوعين دُرِسَ فيها عددٌ من الاختبارات المعرفية: بدءاً من المهارات الحسابية العتيقة التى يكتسبها الفرد فى المدرسة الابتدائية والثانوية، مروراً بالقدرات المستخدمة عبر الحياة كمثل إدراك معانى الألفاظ والتعبيرات، وحتى مهارة التوجيه الفراغى والقدرة على



اكتشاف القواعد والاطراد. اتضح أن القدرات الذهنية لا تتدهور بعد العشرين كما كان يُظَن. وُجِد أن معظم الناس يُسَجِّلُون فى عمر الستين نفسَ الدرجات تقريباً التى سجلوها فى سن العشرين. لم يحدث أىُّ تغيرٍ ذى معنى فى معظم القدرات حتى ستينيات العمر، بل وحتى السبعينيات فى بعض المهارات (مثل إدراك معانى الألفاظ).

بعد عمر الستين تصبح الفروقُ بين الأفراد فى القدرات ملحوظةً بوضوح. الفترة من الستينيات وحتى الثمانينيات من العمر هى الفترة التى يظهر بها أكبر قدر من التباينِ بين الناس. فإذا بلغنا الثمانينيات فسيكون كلُّ فرد وقد أصابه بعضُ التدهور وفَقْد - بصورةٍ صريحةٍ - واحدةً أو أكثر من قدراته - معَ تباينات واسعة بين الأفراد. ولقد اتضح أن الاحتفاظَ بالمهارات الذهنية يكون أفضلَ ما يكون بين المتعلمين، والطبقة الوسطى، ومَنْ تمتعوا بالصحة الجيدة عبر حياتهم، ومَنْ كان تناولهُم للحياة مرناً. والمرونة أمر هام لأن الحياةَ مليئةٌ بالتغيرات، وقبولك التغير، أو رفضُه ومحاربتُه، سيؤثر فى حياتك الذهنية. عليك أن تقبل حقيقة أن العالم يتغير وأن عليك أن تعالج الأمور بشكل مختلف. فإذا رفَضْتَ هذه الحقيقة وأصبحت أكثرَ تزمتاً مع العمر، فستفقد مهارتَك العقلية.

عليك أن تستخدم مخك وإلا ضاع! يتغير المخ تغيراً إيجابياً مع تجارب الحياة - وهذا التغير الإيجابى ضرورى إذا كان لك أن تشيخ بنجاح. لا يجب أن تفقد اهتمامك بالعالم من حولك، لا يجوز أن تهمل رغبتَكَ فى التعلم. الإثارة ضرورية: أن تظل تسأل الأسئلة وتتطلع إلى التعلم طول عمرك. وإدراكك - ذاتُه - بأن مخَّك يتغير بذلك تغيراً إيجابياً سيساعدك كثيراً.

لكن، ما الذى يحدث فى مخ المسنين ويسبب تدهوره ؟

التغيرات فى المخ المسنّ

أمكن كشفُ تغيرات فى المخ المُسنِّ قد تفسر فقدان التوقد الذهنى: تغيرات تسمى «الضمور». كان من المظنون أن المخَّ ينكمش. لكنا نعرف الآن أن معظم الضمور يَحْدُثُ فيما يُسَمَّى «المادة البيضاء»، لا فى «المادة الرمادية» - يحدث فى غابة التفرعات الشجرية والألياف العصبية التى تتفرع عن الخلايا العصبية، لا فى الخلايا العصبية ذاتها.

كان من المظنون أن المخ يبدأ فى فقد خلاياه العصبية من لحظة الولادة - وفَقْدُ الخلية العصبية، كما نعرف، لا يُعَوَّض. أُجريتْ فى خمسينيات القرن العشرين بحوث على مخاخ موتى فى سن التسعين وأكثر، فاتضح أن قشرةَ المخ - المختصةَ بالتفكير العميق - قد فَقَدَتْ خُمْسَىْ خلاياها العصبية! يصبح العجوزُ - بتفكير الصَّبِىّ - ثلاثة أخماس الشاب الذى كانَهُ!

أعيدت التجربة ثانيةً فى التسعينيات بعد أن اتضح أن العينات التى فُحصت كانت تضم مخاخ أناس ماتوا بمرض الزهايمر الذى يسبب نقصاً خطيراً فى الخلايا العصبية. استُبْعدت مخاخ موتى الزهايمر وغيره مما يؤثر فى المخ من أمراض، فاتضح أن معدل الفقد من الخلايا العصبية بمخ الأصحاء قليل للغاية، لا يتعدى ١٪ فى العام. تَتَبَّع العلماء جماعة من المسنين من ذوى الذكاء الحاد والصحة الجيدة، وظهر أن طويلى العمر الذين ظلوا يحافظون على حالتهم الذهنية والجسدية كانوا يتميزون بصفات أربع: كان مستواهم التعليمى مرتفعاً، كانوا نَشيطين جسدياً، كانت رئاتهم تعمل بصورة أفضل، أما الصفة الرابعة فهى ما يمكن أن تُسَمَّى بالرِّضا عن الذات. ثمة بحثٌ نُشِر مؤخراً (مايو ٢٠٠١) يقول إن مَنْ يحصل مَنَ الممثلين على جائزة الأوسكار يعيش فى المتوسط أربعة أعوام أكثر ممن لم يحصل عليها. يعيش حاملو الأوسكار فى المتوسط ٧٩,٧عام بينما يعيش زملاؤهم الآخرون ٧٥,٨عام. بل إن مَنْ يحصل على هذه الجائزة أكثر من مرة يعيش فى المتوسط ست سنين أكثر. مِنْ بين مَنْ فازوا بالأوسكار: عاشت جرير جارسون ٩٢ عاماً، وعُمْر كاترين هيبورن الآن ٩٤ عاماً (وقد حصلت على ٤ جوائز أوسكار)، أما أنتونى كوين (وحصل على الأوسكار مرتين) فقد كان يأمل فى أن يعيش حتى يبلغ الرابعة والتسعين، لكنه مات مؤخراً على عمر ٨٦ عاماً. يقول واحد من مؤلفىْ البحث «إذا ما حصلتَ على الأوسكار سرى فيك إحساسٌ بالسلام الداخلى والرضا، إحساس، يمكن أن يستمر العمر كله، يغير الطريقة التى يواجه بها جسمُك كلَّ الكروب الحياتية اليومية».

التعليمُ يطيلُ العمر

ثمة بحث بدأ فى السنين الأولى من القرن العشرين، وشمل ٣٥٠٠ راهبة كنَّ يشكِّلْن عينة نموذجية للدراسة: هُنَّ من خلفيات اجتماعية متقاربة، عِشْنَ تقريباً نفس النمط من الحياة من سن العشرين، يأكلْن من نفس المطبخ، يشتركْن فى نفس المسكن، يخضعن لنفس الرعاية الصحية. وعندما نُشِر البحث عام ١٩٩٣ كان ثُلثُهن لا يزال على قيد الحياة فى أعمار تتراوح ما بين ٧٥ و ١٠٣ أعوام. اتضح بجلاء من نتائج البحث أن مستوى التعليم يرتبط بطول العمر والصحة الذهنية والبدنية. وفى بحث آخر وُجِّه لدراسة أثر الحياة المبكرة للراهبة على عمل المخ مع تقدم السن، ظهر أن الراهبات الأكثر تعليماً يَعِشْنَ فى المتوسط أربع سنوات أكثر، فى صحة جسدية وذهنية أفضل مِمَّن لم يحصلْنَ على الشهادة الجامعية الأولى. فى كل عمر، من سن العشرين وحتى الخامسة والتسعين كانت نسبة الوفاة بين الأقل تعليماً تعادل ضعف نسبتها فى الراهبات الأعلى تعليماً.



عليك أن تستخدم مخك وإلا ضاع!
يتغير المخ تغيراً إيجابياً مع تجارب الحياة.
وهذا التغير الإيجابى ضرورى إذا كان لك أن تشيخ بنجاح. لا يجب أن تفقد اهتمامك بالعالم من حولك، لا يجوز أن تهمل رغبتكَ فى التعلم. الإثارة ضرورية



مرض الزهايمر

قسوة الحياة تولّد قدراً هائلاً من هُرمونات تؤثر فى مراكز الذاكرة بالمخ - هُرمونات مثل الجلوكوكورتيكويدات التى تُفْرَزُ عند التعرض للضغوط اليومية فتسمح للشخص بان «يضرب أو يهرب»، تَرْفَع من استعداد العضلات، وتُغْلِقُ الأجهزة غير الأساسية فى الجسم استعداداً للمواجهة، ثم تنسحب بعد زوال الخطر، لكنها إذا استمرت طويلاً أفسدت الخلايا العصبية فى أجزاءٍ وثيقةِ الارتباط بالتعلم والذاكرة.

وإذا كانت بعض الهُرمونات تؤذى الخلايا العصبية، فإن البعضَ منها يحميها وينعشها. من بين هذه الهرمونات الأخيرة هُرمونُ الإستروجين: الهرمونُ الأنثوى الذى يفرزه المبيضُ. تقول الشواهدُ العلمية إن هذا الهرمونَ يلعب بالفعل دوراً مهماً فى الذاكرة، فهو يُنَظِّم الموادَّ الكيماوية التى تستخدمها الخلايا العصبية فى الاتصال، إذ تزداد كثافة تفرعاتها الشجرية زيادةً هائلة إذا تَعَرَّضَتْ لقدر كبير من الإستروجين. هذا الهرمون يشجع «الحديث» بين الخلايا العصبية، وهذا أمر ضرورىٌّ للعمل الأمثل للمخ.

يتعرض مخُّ الإنسان للإستروجين بعد البلوغ، ثم يستمر بناءُ هذا الهرمون الحيوى فى الرجال (بتمثيله من الهرمون الذكرى) طيلةَ حياتهم، بينما ينقطع إنتاجُه فى النساء إذا بَلَغْن سنَّ اليأس. وقد ثَبَتَ بالتجربة أن النساءَ يعانين من تدهور الذاكرة ونقص المهارة الذهنية إذا أُزيل المبيض جراحياً، لكن هذه المهارةَ تعود إذا حُقِنَّ بالهرمون. فهل يمكن أن يحمى هذا الهرمونُ النساءَ من مرض الزهايمر أيضاً؟

تبلغ نسبةُ النساء اللوائى يُصَبْن بمرض الزهايمر ضِعْفَ نسبة الرجال، وقد يكون الانخفاض الحاد فى الإستروجين بعد سن اليأس واحداً من الأسباب. ومرضُ الزهايمر هو أفظعُ أمراض الخَرَف التى تصيب المخَّ فى كبار السن. والخَرَف مصطلح عريض يُطلَق على مجموعة من الأعراض تتميز بتدهور الوظيفة الذهنية بدرجة حادة بحيث تؤثر فى أنشطة الشخص الطبيعية وعلاقاته الاجتماعية. يصيب مرض الزهايمر أربعة ملايين شخص على الأقل بالولايات المتحدة، ويموت بسببه هناك سنوياً نحو مائة ألف شخص. وهو مرض قد يستمر عشرين عاماً، لكنه يقتل عادة بعد ٤ - ٨ سنوات من بداية ظهور أعراضه. ولقد قَدَّرَ البعضُ أن النسبةَ ممَّن بلغوا الخامسة والثمانين أو أكثر، المصابين بأمراض الخَرَف (ومن بينها الزهايمر) تبلغ ٢٥ - ٣٥٪، بل وهناك دراسةٌ أُجريت فى بوسطون نُشرت عام ١٩٩٥ تقول إن نسبة المصابين بمرض الزهايمر وحده تبلغ نحو ٤٧٪ بين مَنْ بلغوا أو تَعَدُّوا الثمانين.

كان من المعتقد أن الإستروجينات لا تؤثر إلا فى السلوك الجنسى، لكننا أصبحنا نعرف الآن أنها تؤثر فى التعلم والذاكرة. ولقد ظهر من تجربة اشتركت فيها ٤٧٢ امرأة مسنة، لمدة ستة عشر عاماً، أن استخدام الإستروجين كجرعات تعويضية للوقاية يقلل بنسبة ٥٠٪ من خطر ظهور مرض الزهايمر. للإستروجين أثره المباشر على تركيب المخ ووظيفته، لاسيما فى النساء. ويجرى الآن ببعض شركات الأدوية العملُ لإنتاج إستروجين «مُحَوَّر» يُقَلِّلُ فيه الأثرُ المؤنث، بحيث يوصف للرجال وللنساء، لتاخير أو تقليل نسبة الموت بمرض الزهايمر فى قطاع عريض من عشيرة كبار السن.



إن طريقَك إلى الشيخوخة السليمة يمر خلال حياة ذهنية نشطة، وعيشة صحية، والكثير من التريُّض، وتجنب الضُغوط الحياتية الطويلة الأمد. كن متفائلاً دائماً فأنت سيد مصيرك. تنتصر على الشيخوخة إذا أنت أبقيتَ قلبَك بلا تجاعيد، وظللتَ مفعماً بالأمل، عطوفاً، مبتهجاً - كما يقول توماس ألدريتش.

الختام

ماتت العجوز فيليس ماكورماك فى عنبر المسنِّين بأحد مستشفيات إنجلترا، وعندما دخلت الممرضة تجمع القليلَ الذى خَلَّفته، وَجَدَتْ قصيدةً كتبتْها المريضةُ قبل أن تموت. كانت قصيدةً حزينة، أثَّرت فى الممرضة كثيراً، فقامت بنسْخها وتوزيعها على كل الممرضات، ثم وجدتْ طريقها لتُنْشر بإحدى المجلات. القصيدةُ طويلة، من ٨٨ سطراً، تبدأ هكذا:

ماذا ترين أيتها الممرضة؟ ماذا ترين؟
فيم تفكرين عندما تنظرين إلىّ؟
عجوز عبوس حمقاء، طَبْعها الشك، عيناها شاردتان؟

ثم تحكى تاريخ حياتها فى بساطة وسذاجة تملك قلبك، قصة طفولتها، شبابها، زواجها وموت زوجها، ولكن:

فى داخل هذا الجسد العجوز
تسكن لا تزال تلك الفتاة الشابة
.. وما بين الآونة والأخرى... ينبض قلبى بعنف
أتذكر الأفراح، أتذكر الأتراح، فأعشق الحياة
وأحياها مرة أخرى
أتذكر سنى العمر، آه.. كم كانت قصيرة،
مضت سريعةً سريعةً
وأَقْبَلُ الحقيقةَ القاسية
أنْ لاشىء يدوم
فلتفتحوا إذنْ أعينكم جميعاً
افتحوها لترونى
أنا لستُ عجوزاً سيئة الطبع..
دققوا النظر... اعرفونى!
هكذا تنتهى القصيدة.

تعيد هذه القصيدةُ الحزينة إلى الذاكرة قول أنتونى بُوويل: إن الشيخوخةَ عقابٌ على جريمةٍ لم نرتكبها!



الأغانى الشعبية فى صعيد مصر

الحصيد

طيب يا قمح خلِّينا نحْصُد
طَيب يا قمح حنلِّم اْلكرَاوَه (الأجر)
طيب يا قمح خلِّى الكَراوه تاجى (تأتى)
حتى الكراوه بقيوا قلعانينى
وفيه الكراوه بيشْبَعُوا عيشى
شوف الكراوهَ يتْقَلُوا كيفى
شوف الكراوه يلموُّها لَمْ
وفى الحصيد يهموُّا هم
شوف الكراوه ما كترينى
عند الحصيد هايلينى
لم القمح واحصد زينى
سبل قمحك يسدّ الدينى
جينا احنا نلمّ القمح
احنا والْكرَاويّه (المأجورون عن العمل) نرمحوا رمح
يا ربَّاط هَاتْلى حبَال
لَحسْن الطَّيَاب (الريح) أهو قام
الزرع اللى فَاتتُو اصْحَابُو
تبْقَى المناجل بَس وارقابه
يَاما دبدب (صوت الطبل) ياما هاش (فرح)
ياما كتف الأوحاش (الوحوش)
لم القمح يا خلو مساعد
لم القمح وانت قاعد
لم القمح الجرناوى
خللى يجيب التقاوى
أنا قمحى زَرْعه ارمنتى
ديما تلقى الغلاَ (الغلة) عندى
شدّ حيلك يا حصّادى
دى الغله غلَّه بيَاضى

«ديوان ابن قزمان» والتواصل الحضاري بين العرب وأوروبا عبر الأندلس

مخطوطة عربية واثنا

الطاهر أحمد مكي

في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، عرفت شوارع قرطبة شاعرًا من نوع فريد، لم يكن مجال شهرته قصور الأغنياء، ولا بلاطات ملوك الطوائف الذين تقاسموا الخلافة، وإنما الشعب العامل البسيط، عامة الناس في الأسواق والحوانيت وحيث يتجمعون، في قرطبة وإشبيلية وغيرها من المدن الأندلسية.

كانت لغته العربية، وفيها نظم الشعر أحيانًا، ولكنه حزم أمره، واستجمع رأيه، واختار أن يكتب في عامية وطنه، فجاءت أزجاله من أرق وأدق ما كتب في بابها. لقد جاء بعد أن استقر أمر الموشحات في الأندلس، وكانت هذه ثورة على القصيدة العربية التقليدية، ومخالفة لها في بنائها، قافية على الدوام، وفي عروضها أحيانًا. ولما كانت التقاليد الأدبية مراعاة، والمصطلح محترمًا، فإن أصحابها لم يطلقوا عليها اسم الشعر الحر، أو شعر التفعيلة، أو الشعر الحديث، أو الجديد، أو ما شئت من أسماء تتمسح في كلمة شعر، وإنما اختاروا لها اسمًا مستقلاً يميزها عن غيرها، وينصرف إليها دون سواها: الموشحات!

جاءت الموشحات وليدة أسباب دافعة أهمها الموسيقا، في مجتمع يعشق الغناء ويطرب للنغم، وكلاهما يتطلب تنوعا في إيقاع الكلمة، فارتبطت بهما منذ البدء، وصيغت في العربية الفصحى، لأنها كانت تغني لعلية القوم ومن يلوذ بهم من المثقفين.

ولكن العامة ومن في قاع المجتمع يطربون أيضًا، فجاء من يكتب لهم باللغة التي يفهمونها: عامية أهل الأندلس، وهي تختلف عن العاميات العربية الأخرى، لأنها مزيج من العربية والرومانثية التي تخلفت في الأندلس عن اللاتينية، وهي المنطقة الوحيدة - إلى جانب صقلية - التي التقت فيها العربية باللاتينية لغة وثقافة وحضارة، وانتشرت بين سكان ينحدرون في جملتهم من أصول لاتينية، وأخذ هذا اللون الجديد من الموشحات المكتوبة بالعامية اسم الزجل وكان أبرز رجاله ابن قزمان.

أبوبكر محمد بن قزمان الأصغر. توفي في قرطبة باتفاق المؤرخين في رمضان ٥٥٥هـ/ أكتوبر ١١٦٠م، وولد على التأكيد بعد عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م.

وأخباره نادرة، لأن كتب التراجم أعرضت عن ذكره، كما أعرضت عن ذكر الزجالين قبله ومن بعد، وثمة إشارات قليلة عنه في المصادر الأندلسية المتأخرة، عندما بدأ الأندلس يتهاوى، وعراه تنفك، وولاء أهله له يبهت، ولم تعد المحافظة على الفصحى أو التعصب لها يعني عامة المثقفين. فقد أشار إليه ابن الأبار (ت٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م) في كتابه «تحفة القادم»، وأورد له أبياتًا من الشعر، ورغم إشارته إليه بأنه «المتفرد بالإبداع في طريقة الأزجال»، لم يورد من أزجاله شيئًا.

وأورد له ابن سعيد (ت ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م) في كتابه «المغرب في حلى المغرب»، نصًا مقتضبًا ومهمًا نقله عن الحجاري (ت ٥٤٩هـ/ ١١٥٥م) في كتابه «المسهب»، يذكر فيه: «كان ابن قزمان في أول شأنه مشتغلاً بالنظم المعرب (يعني الشعر) فرأى نفسه يقصر عن أفراد عصره كابن خفاجة وغيره، فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم، فصار «إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس»، ثم أورد له بيتين من الشعر قالهما:

يا أهل ذا المجلس السامي سرارته
ما ملتُ لكنني مالتْ بي الراحْ
فإن أكن مطفئًا مصباح بيتكم
فكل من قد حواه البيت مصباح

وثلاثة أبيات أخرى في مدح يحيى بن غانية عامل المرابطين على الأندلس.

غير أن ابن سعيد عاد في الكتاب نفسه، في فصل «الأهداب»، وهو القسم الذي يورده في آخر كل باب من كتابه، ويخصصه لفني الموشحات والزجل، فتحدث مرة أخرى عن ابن قزمان، وقال عنه في إيجاز: إنه «إمام الزجالين بالأندلس، وشهرته تغني عن الإطناب في ذكره. وقد جمع أزجاله، وديوانه مشهور بالمشرق والمغرب. وذكر في خطبته أن الإعراب في الزجل لحن». ثم أورد بعض مختارات من أزجاله.

وعرض لابن قزمان في كتابه «المقتطف من أزاهر الطرف»، في «الخميلة الثانية عشرة» التي أوقفها على «ملح الموشحات والأزجال»، وذكر أن الأزجال قيلت بالأندلس قبل أبي بكر بن قزمان، ولكن لم تظهر حلاها، ولا انسكبت معانيها، ولا اشتهرت رشاقتها إلا في زمانه، وهو« إمام الزجالين على الإطلاق وأزجاله المدوّنة رأيتها ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب». وأنه «كثيراً ما يتردد على إشبيلية وينتاب نهرها». وهو نص نقله عنه ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، ثم المقَّري (١٠٤١هـ/ ١٦٣٢م) من بعده في كتابه «نفح الطيب».

وكان ابن الخطيب (ت ٧٧٥هـ/ ١٣٧٤م) آخر من ترجم له من الأندلسيين في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة»، ولكنه خلط بينه وبين ابن عمه أبو بكر محمد الأكبر، وهو خلط وقع فيه صاحب النفح أيضًا.

ولا تقدم المصادر المشرقية شيئاً جديدًا عن حياة ابن قزمان، ولكن صفي الدين الحلِّي (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٨٨م) في كتابه «العاطل الحالي»، وخصصه للشعر الملحون من الزجل والمواليا وغيرهما، أورد بعض أزجاله، ومنها ما لا يوجد في الديوان الذي بين أيدينا، وألقى بعض الضوء على الديوان نفسه، وحركته في العواصم العربية المشرقية.



أهمل المؤرخون الكتابة عن ابن قزمان، ولم يوردوا عنه غير القليل، ولكن الديوان، عن طريق أزجاله، يمدنا بمعلومات لا بأس بها، وتلقي على حياته ضوءًا كاشفًا.

أول ما نلتقي به في السطر الأول من الديوان قوله: «قال الشيخ الوزير الأجل...»، ولكن لقب الوزير هنا لا يعني شيئًا كثيرًا، ففي بعض عصور الأندلس كان الأمير، أو الخليفة، أو الحاكم، مهما كانت رتبته، يمنحه لمن يحب، وجاهة اجتماعية، كل ما تعنيه، في أحسن الأحوال، أنه يمكن أن يتردد على مجلسه دون أن تكون له مسئولية إدارية أو سياسية محددة، ويبدو أن اللقب نفسه تدهورت قيمته كثيراً خلال عصر الطوائف، وأيام الفتنة، وليس هناك ما يمنع أن يكون ابن قزمان منحه لنفسه وراثة، جريًا على تقليد سار بينهم، فقد أثنى عليه الحجاري (ت ٥٤٩هـ/ ١١٥٥م) وذكر عنهم «أنهم لم يزالوا ما بين وزير وعالم ورئيس»، وذلك دون أن يعترف له أحد بهذا اللقب وما يتطلبه، لأن ما يقدمه عن شخصه عبر أزجاله يتناقض مع هذه التسمية.

وصف ابن قزمان نفسه بأنه مديد القامة، أشقر اللون، أزرق العينين، وفي ضوء اسمه وصفاته هذه رأى المستشرق الإسباني سيمونيت (ت ١٨٩٧) أن ابن قزمان يرجع إلى أصول قوطية، أسلم أسلافه في سنوات الفتح الأولى، للشبه الشديد بين كلمة قزمان في العربية والإسبانية، فهي تجيء في الحروف



عشر عالمًا أوروبيًا

اللاتينية على صورة واحدة Guzaman، والكلمة الإسبانية ذات أصول قوطية، وما أسرع ما ناقض نفسه وردّه إلى أصول عبرية. ولسنا فى حاجة للرد عليه، فقد تكفل بذلك مواطنه ومعاصره المستشرق الكبير فرانسيسكو قديرة، واعتبر ذلك وهما من سيمونيت وغيره ممن هم على شاكلته واحتذوا طريقه، موضحا أن أصول الاسم عربية أصيلة،ضاربة فى القِدم، وأن أحد المسلمين الذين شاركوا فى غزوَة أُحد كان يحمل اسم قزمان.

ومع ذلك كان الرجل نفسه فقيرا، واشتغل فى شبابه بكتابة الوثائق، والعمل بها يتطلب معرفة الفقه والشروط الصحيحة والفاسدة، والدقة فى ضبط الصيغ، واستخدام الكلمات. وعمل إلى جانبها بالأدب، ينظم الشعر والموشحات والأزجال ليكسب قوته، ويجد ما ينفقه، إلى جانب أنه نديم مسامر، وجليس مؤنس، ينثر البهجة، ويشيع الرضا والبسمة، بين من يسهرون معه. ولكن هذه المهن كلها لم تغنه شيئًا، فظل فقيرًا ضائعًا.

وفيما يبدو هجر كتابة الوثائق، ولم يبرز فى نظم الشعر فأهمله ولم يبلغ فى الموشحات شأو معاصريه فتخلى عنها، ولكنه برع فى الزجل، وبذل فيه جهده، وتمكن منه، وجعله طريقة إلى جيوب الممدوحين، متخذًا فى ذلك أساليب شتى، فقد يستدر العطف متحدثًا عما وصل إليه حاله من فقر وبؤس وحرمان، وما يلقاه من جوع وعرى، وتصور النحس قردًا لازمه، واستقر فى بيته، وأدار معه فى أحد أزجاله حوارًا طويلاً. وهو يرضى بأيسر الأشياء وأهونها، فلا ينبغى أن يتأخر الممدوح أو يتعلل، لأن مطالبه متواضعة: كراء البيت، أو ثوبًا، أو قليل من دقيق وفحم وزيت، أو بضع دريهمات. وهو تواضع اختص به الزجالون، ولا نجده عند الشعراء، مما يشى بأن مرتبة الزجال أمام الممدوح كانت أدنى مرتبة من الشاعر.

ونعرف من أزجاله أنه سجن مرتين بتهمة الخلاف والنفاق، واحتج ابن قزمان على القاضى بأنه لا يفرق بين مستويات الناس فى المجتمع، ولم يعرف له قدره فنانًا فسجنه مع اللصوص والقتلة، وأن السجان وضع قيودًا ثقيلة فى يديه ورجليه، ومنع زيارته، وأنهم كانوا يبحثون له عن وثائق تدينه، وشهود زور مرتشين يشهدون عليه، لو أفلحوا فى مسعاهم لانتهى الأمر برجمه، وما يصح أن يعامل الشعراء هكذا.

غايات ثلاث كانت تحرك ابن قزمان فى حياته: المال. الشراب والعشق، ويرى الحياة بغير هذه لا معنى لها، وظلت هذه الفلسفة ملازمة له أيام شبابه، وفى شيخوخته وهرمه أيضًا.

فيما يتصل بالمال كان ابن قزمان مدّاحاً، طلب العطاء ممن يستحق، وممن لا يستحق، ونحن نعرف أن جانبًا من شعراء العرب عاشوا على العطاء ولكنه عطاء مذهب وخجول، يستثير فى مدائح فخيمة أمطار الفضائل، تهبط كسحابة من يد القوى القادر، «وعلى النقيض منهم فإن هذا الوزير الطيب(!) ابن قزمان طلب العطاء فى الشارع، وبلا حياء.. قليلة هى الأزجال التى لا يحدثنا فيها عن بضائع محدّدة، يبادلها الزجال بأبيات من مدائحه، فى بعضها يطلب مثاقيل شقراء

ومدورة نضيدة ورنانة وفى ثانية نبيذا، وفى أخرى أحقر الأشياء وأكثرها تفاهة: عباءات وقمصانا وصدارة، والملابس بعامة، والحطب والدقيق، وكراء البيت، ونقوداً يقص بها شعره، وعلفًا يطعم منه فرسه، وجواهر لصديقاته، وغيرها».

وهو مسرف لا يفكر فى غير يومه، مثقوب اليد، كما يقول مثلنا العامى، والكيس الذى: يحفظ فيه النقود يبدو كأنه منفاخ كير، ووجد نفسه مضطرًا لأن يضحى برأس من البصل، ويذبحه بدل كبش، وتركه الجوع كما لو كان نسيج عنكبوت، خبزه يابس، والشياطين تزوره فى الليل، وقطط السطوح أسعد منه حظًا، منطفئ الوجه، خائب الأمل، كشاطر فى البادية، يعيش أحيانًا فى فندق عام من خيرات الأوقاف، فإذا امتدت له يد سخية تساعده بالنبيذ والحب والمجد غنّى:

فلا مُلكًا إلا مُلكى، بعد ملكك يا سليمان
فبنى العباس بحالى كانوا، أو بنى أميّة

وديوان ابن قزمان حافل بالخمريات، وهى فن شائع فى الشعر العربى منذ الجاهلية حتى وقتنا هذا، ونحا فى وصفها منحى أندلسيًا خاصًا ومتميزًا، فهو يستخدم الكلمات الرومانثية، ويعبر عن النبيذ بكلمة «بينو Vino» وهى مستخدمة فى الإسبانية إلى يومنا، وحين يصف أنواعه يأتى بمصطلحات مما يطلق على ألوان النبيذ ودرجاته فى إسبانيا قديمًا وحديثًا، أمثال: رحيق وأصفر وخمرى وشمول وصهباء وإغريقى وعقار:

شراب اصفر هو، حبيبى، مولاى
سرورى، فرحى طبيبى، من داى
عقارى، خمرى، شمولى، صهباى
مدامى، راحى، خندريس، جريالى

وكان الشراب يستنفد كل ماله، ويراه يجعل الجبان شجاعًا، والبخيل كريمًا، ويزيل الهموم، ويجدد الحياة، ويجلب السرور.

وملأ ديوانه بالتغزل فى نساء وصبيان، محتشمًا تارة، وغير محتشم أخرى، وهو فى عشقه حسى لا يؤمن بالهوى العذرى، ويسخر من إيمان شعراء بغداد وقرطبة به، ويفضل الحب الماجن والداعر، متغنيًا بالوقاحة نفسها.

وكما تاب أبونواس فى المشرق وزهد، عندما تقدمت به السن، كذلك صنع ابن قزمان، فدعا الله أن يطيل فى عمره، وعبّر عن ندمه وتوبته فى زجل وحيد رقيق:

قد تاب ابن قزمانْ: طوبى له إنْ دامْ
قد كانت أيامُه أعياد فى الأيام
بعد الطّبل والدفّ وفتل الأكمام
من صمع الأذان يهبط ويطلع
إمامْ فى مسجدْ صارْ، يسجد ويركع

نعرف أن جل المخطوطات العربية فى الأندلس ذهبت بها الفتن والثورات أولاً، ثم أتى الإسبان على بقيتها حرقًا فى ميدان الرملة، فى غرناطة، بعد أن سقطت هذه فى يد الإسبان فى ٢ يناير ١٤٩٢ بأمر الكاردينال ثيسنيروس، وبلغ ما أحرق حوالى نصف مليون مخطوطة، لم يبق مما وُجد فى الأندلس من تراث فكرى، علمى أو أدبى، غير مجموعة محدودة من كتب الطب والفلسفة والفلك، ولكن ديوان أزجال ابن قزمان وصلنا كاملا، فهناك، فى مدينة صفد فى فلسطين قام شخص عربى بعد مائة سنة من موت ابن قزمان، وقبل ثلاثة قرون ونصف تقريبا من سقوط الأندلس بنسخ هذه الأزجال لنفسه، وربما كان ذلك تجارة منه ووراقة أيضا، فى دقة وعناية، ولأنه كان يجهل عامية الأندلس تماما، خاصة ألفاظها الرومانثية، فقد تسربت إلى نسخته أخطاء كثيرة، لاسيما فى الألفاظ الرومانثية، وهى مكتوبة بحروف عربية، نسخها بطريقة آلية على التأكيد، دون أن يعرف شيئا من معناها، وكانت هذه هى النسخة الوحيدة فى العالم التى نملكها من هذا الديوان، وقد استقرت فى المتحف الأسيوى فى مدينة بطرسبرج، بعد أن تعاورتها الأحداث والأيدى والمكتبات، فى رحلة مثيرة، من فلسطين إلى روسيا. وهى رحلة تستحق أن تروى:

فى نهاية القرن الحادى عشر الهجرى، نهاية السابع عشر الميلادى، هبط سوريا مغامر مجهول، يدعى روسو، ينتمى - ربما - إلى العائلة التى منها جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨ م) الأديب والفيلسوف الشهير، قادما من جنيف، تركها ليقيم فى سوريا بحثا عن الثراء، واستطاع أن يجمع مع الزمن ثروة لعلها ليست كبيرة، ولكنها يسرت له أن يعيش فى مهبطه الجديد حياة أفضل من تلك التى كان يحياها فى وطنه.

وعشية الثورة الفرنسية، ١٧٨٩ - ١٧٩٩ م، عمل ابنه قنصلا لحكومته فى حلب وبغداد، وابن هذا، حفيد روسو صاحبنا، استقر فى المشرق أيضا، وجمع إلى ثقافته الفرنسية الأم، عددًا من اللغات الشرقية: العربية والفارسية والتركية، وكانت إجادته لهذه اللغات كاملة، واقتفى الحفيد خطوات أبيه تاجرًا، وقنصلاً، ومكنته ثقافته أن يكون أفضل من أبيه فى الأمرين، وأقام فى حلب زمناً طويلا، وكانت - منذ أيام الحمدانيين - مركزًا ثقافيًا مهمًا وأصيلاً، فطورت ذوقه نحو الأدب، ونمت فيه الرغبة فى جمع المخطوطات، فاشترى منها قدرًا كبيرًا، اختاره بمهارة، ولم تكن مخطوطة ديوان ابن قزمان الوحيدة بين فرائدها، وحصل عليها ربما فى حلب أو بغداد.

غير أن جوائح الزمن لفت النصف الثانى من حياة الحفيد، فغادر سوريا واستقر به المطاف فى طرابلس الغرب، وفيها ساءت حالته المالية، ففكر فى بيع مخطوطاته عام ١٨١٥م، وعرض المجموعة على الحكومة الفرنسية أولاً، بالسعر الذى رأى أنها تستحقه، لكن حالتها المالية كانت سيئة بعد حروب نابليون، فرأت أن المبلغ الذى طلبه روسو بحق كبير نسبيًا، ومغالى فيه. ولكن الفرنسى سلفستر دى ساسى (١٧٥٨ - ١٨٣٨) أشهر مستشرق فى عصره، عرف أمر المجموعة، وأدرك قيمة ما تضمه من ذخائر، وكان على صلة بوزير المعارف الروسى أوفاروف UVAROV، ويعرف اهتمامه بمثل هذه المخطوطات، إذ كان يخطط لإنشاء الأكاديمية الأسيوية، فابلغه بالأمر عن طريق بعض تلاميذه الذين كانوا يعملون أساتذة زائرين فى بطرسبرج، ولم يكد هذا يعلم بخبرها حتى قرر شراءها على دفعتين، الأولى فى ١٨١٩، والثانية فى ١٨٢٥، وكوّنا بداية مكتبة المتحف الآسيوى فى المدينة، التى سرعان ما جذبت كثيرا من الطلاب الراغبين فى الاستشراق، وكان هذا «مودة» شائعة فى أوروبا على امتداد القرن التاسع عشر، وعندما عُيّن المستشرق الألمانى فرين Fraehn. C.M (١٧٨٢ - ١٨٥٥م) أول أمين لهذا المتحف، قدّر قيمة هذه المخطوطات، وأعد لها فهرسًا، وقدّم أول وصف لمادتها، وهكذا أنقذت، وإلى الأبد، أزجال بن قزمان من الضياع.

كان البارون فيكتور روزن، أول من التفت إلى مخطوطة ديوان ابن قزمان دارسًا، عندما انتخب عضوا مشاركا فى أكاديمية العلوم الروسية، عام ١٨٧٩، وله من العمر ثلاثون عاما، ومع أنه ألمانى الأب، روسى الأم، يعد مؤسس مدرسة الاستشراق الروسية الحديثة، ومنذ البدء جعل رأس اهتماماته كتابة فهرس علمى للمخطوطات العربية التى فى حوزة المتحف الأسيوى، يتضمن وصفها والتاريخ لها، وكتب ذلك باللغة الفرنسية فى أسلوب متميز جذاب، ونشره عام ١٨٨١ بعنوان:

Notices Soumaires des Manuscrit Arabes du Muss'ee Asiatique.

وهكذا وضع تحت أنظار علماء الاستشراق الأوروبى قرابة ثلاث مائة مخطوط عربى، بالغة الأهمية، تضم بصفة أساسية مجموعة روسو التى أشرنا إليها من قبل. ومن بينها كتب نادرة، وأندرها ديوان ابن قزمان. وقد توقف روزن عنده طويلا، وشعر بأهميته، فمنحه عناية خاصة، ولفت نظره الشكل الذى جاءت فيه الأزجال، ووزنها، ولغتها، فدرسه بإيجاز: كتب لابن قزمان ترجمة مختصرة، وأورد بعض هذه الأزجال، وطبعها باللغة العربية، وكان هذا يحدث لها لأول مرة. ولكنه وهو العالم الفذ المتمكن،أدرك صعوبة أن يتصدى لهذا العمل وحده، مع وفرة مشكلاته وتنوع قضاياه، وأن الضرورة تقتضى أن تعكف عليه جماعة من العلماء المتخصصين والباحثين، وحاول أن يجذب إليه بعضهم ليشاركه هذا العمل، أو ينفرد بجانب منه، إذا كان متخصصا فى هذا الجانب ومؤهلا للقيام به وحده، ورأى أن خير من يتجه إليه هو رينهارت دوزى، شيخ المستشرقين الهولنديين، وأعظم العلماء الأوروبيين معرفة بالأندلس، تاريخا وحضارة، فى ذلك الوقت، فكتب إليه يغريه أن ينهض بهذا المشروع الجليل، ويقترح عليه أن يقوم بتحقيق هذا الديوان ونشره، ولكن دوزى كان الكبر قد بلغ منه عتيا (توفى بعد ذلك بعامين، أى فى ١٨٨٣) اعتذر عن القيام بهذه المهمة، وأشار على روزن أن يتجه برغبته هذه إلى المستشرق الإسبانى فرانسيسكو خابيير سيمونيت، وهكذا قامت المخطوطة برحلة خاصة إلى غرناطة فى إسبانيا، ونزلت فى ضيافة المستشرق الإسبانى، ولهذا تاريخ فى عالم الاستشراق يستحق أن يروى.

كان سيمونيت (ت ١٨٩٧) أندلسيًا من مالقة ينتمى فى أسرة فقيرة، درس أبوه الرهبنة ثمانى سنوات دون أن ينتهى به الحال راهبا، فأرادها لابنه، ولكن الابن أيضا بعد أن درس اللاهوت ثلاث سنوات، والفلسفة ثلاث سنوات أخرى، واللغة اللاتينية معهما، ترك الرهبنة بدوره، وهكذا أضاع من عمره ست سنوات لم يحقق فيها غير أمرين: التمكن من اللغة اللاتينية، والكراهية الشديدة لكل ما هو غير كاثوليكى، ثم انتهى به المطاف فى مدريد مهاجرا، جاءها ماشيا يمتطى قدميه، دون شىء يعينه على الحياة، فلجأ إلى مواطنه سرافين إستبنيث Serafin Estabancz (ت ١٨٦٧)، وهو من مالقة أيضا، أكمل تعليمه فى جامعة غرناطة، فتركت بجوها وآثارها فى نفسه تاثيرا عميقا: أعجب بالأدب العربى والحضارة الإسلامية إعجابا رومانسيا، ويراهما فى أسمى مكان من الجلال والروعة، وكان فى أوج مجده الأدبى، وله نفوذ ملحوظ فى المحيط الاجتماعى، ومع ذلك لم يكن لديه ما يقدمه لسيمونيت فى مجال العمل، وبخاصة أن هذا محدود التجربة والخبرة العملية، ومراعاة لدراساته السابقة، وما بينهما من مواطنة



جل المخطوطات العربية
فى الأندلس ذهبت بها الفتن والثورات أولاً،
ثم أتى الإسبان على بقيتها حرقًا فى ميدان الرملة،
فى غرناطة، بعد أن سقطت هذه فى يد الإسبان
فى ٢ يناير ١٤٩٢ بأمر الكاردينال ثيسنيروس،
وبلغ ما أحرق حوالى
نصف مليون مخطوطة

قريبة، عهد إليه بتنظيم مكتبته، وكانت بالغة الثراء، تضم أقدم الطبعات وأندرها، وأفضل المخطوطات وأثمنهـا، من التـراث العـربي والشـرقي، في الأدب والتـاريخ واللغـة والفلسفة، ولكن الفتى لا يعرف شيئا من اللغة التي كتبت فيها معظم هذه الكتب فتولى صاحبها تعليمه اللغة العربية فأجادها على نحو فاق فيه أستاذه. وفي عام ١٨٨١ أرسله إلى الإسكوريال ليجمع له بعض النصوص الخاصة بكتاب يعده عن «المشاة في الجيش الإسباني»، وبذلك استطاع أن يحصل على إذن بالاطلاع على المخطوطات العربية.



عن طريق إستبنيث تعرف سيمونيت إلى المستشرق الهولندي دوزي، حول عام ١٨٥٠، وكان استبنيث على صلة وثيقة به ويتبادلان الرسائل حول قضايا علمية وأدبية تتصل بالأندلس، فلما فقد إستبنيث بصره في أواخر حياته، كان سيمونيت هو الذي يحرر له رسائله، وما لبثت عرى الصداقة أن قويت بين الاثنين، المرسل والمتلقي، لأنهما في هذا الوقت كانا ـ دوزي وسيمونيت ـ يعملان في مؤلفين متقاربين، دوزي يؤلف « ملحق المعاجم العربية»، وفيه جمع الكلمات العربية التي أخذت في الأندلس دلالات محلية خاصة، وسيمونيت في «معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية المستخدمة بين المستعربين» فبدآ يتراسلان،وفي مراسلاتهما يناقشان قضايا مشتركة، ذات طابع لغوي، وحتى كانا يتبادلان تجارب «المطبعة» ليشتركا في تصحيحها. وفي الأعوام الأخيرة من حياة دوزي كان يشغلهما قضايا جغرافية فقد كان هذه يعد الطبعة الثالثة لكتابه « أبحاث في تاريخ إسبانيا في العصر الوسيط»، وكان سيمونيت مهتما بجغرافية غرناطة،في ضوء ما أورده عنها المؤرخ الأندلسي لسان الدين بن الخطيب، في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة».

عندما تلقى سيمونيت مخطوطة ديوان ابن قزمان مرسلة إليه من بطرسبرج كان مشغولا بدراسة أحوال المستعربين في الأندلس،وهم المسيحيون الذين احتفظوا بدينهم، ولكنهم تعرّبوا فيما عدا ذلك، لغة وثقافة وعادات وتقاليد، عني بدراسة دورهم وحياتهم وتأثيرهم في الحياة الأندلسية، وقبل ذلك كله باللغة التي كانوا يتكلمونها، وبذل في ذلك جهدًا مضنيًا. ولكن التعصب الأعمى، والحقد الأسود، والكراهية البشعة، والأفكار المسبقة، وتأثير دراساته الأولى عليه أيام أن كان يطلب العلم راهبًا، ذهبت بجل ثمار هذه الدراسة، وانتهت بها إلى نتائج خاطئة، لا يقره عليها أحد، ولا حتى المتعصبون من مواطنيه.

وقد أبقى الديوان في حوزته عدة شهور، واستخدمه مصدرا أساسيا وموثوقا به في رسم اللغة الرومانثية، وهي اللغة التي كان يتكلمها طوائف من المستغربين وأهل الشمال المسيحيين، ويعرفها بعض المسلمين، ولأن أزجال ابن قزمان صيغت في عامية أهل الأندلس،وتضمنت عددا من الألفاظ الرومانثية، جاءت في حروف عربية، كما كان ينطقها الأندلسيون، وجد فيها سيمونيت بغيته، وشغل بالتقاط هذه الكلمات، ذات الأصول اللاتينية، عن تحقيق الديوان أو دراسته، وربما أيضا لأن هذا العمل جد لا هزل فيه، ويتطلب جهدا وصبرا ومثابرة، فانصرف عنه إلى كتابه «معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية المستخدمة بين المستغربين» ونشره في مدريد عام ١٨٨١م. وبعد أن نزلت المخطوطة ضيفا عليه عدة شهور عادت إلى مقرها الأول في بطرسبرج.



كان من بين الذين سمعوا بالمخطوطة واهتموا بأمرها البارون دافيد جينتسبورج Le Barom David Gunntz bourg، وهو يهودي واسع الثراء، يعمل في الصناعة، ويملك مصانع لتكرير السكر، وعددًا من التوكيلات التجارية، ولكنه قبل ذلك كله مغرم بالحضارات الشرقية، ومحب للمخطوطات، وجمَّاع شهير لها، ودارس لأشعار العرب واليهود، ومتخصص في علم العروض العربي، ومهتم بالتراث الأندلسي خاصة، وكان تلميذًا لروزن الروسي، وجويار Guyard الفرنسي، فاهتم في الحال بمخطوطة الديوان، وقام بتصويرها في برلين على نفقته الخاصة، لتكون في متناول الدارسين، وأراد أن يكتب بحثا عنها، ودارت بذهنه فكرة رومانسية طموح، أن يقوم بنشر نص الديوان والتعليق عليه، وإثراء أزجاله بالملاحظات التاريخية واللغوية والأدبية، وأن يدرس عروضه، ولغته، وهي التي كانت تتكلم في الأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي، السادس الهجري، وصلتها باللهجات العربية المعاصرة، وبلغات شبه جزيرة إيبيريا في ذلك الزمن، وتقديم صورة واضحة ومفصلة لحياة ابن قزمان نفسه، تساعد على فهم ما في الديوان وتفسيره.

ومن نافلة القول طبعا الإشارة إلى أن الخطة كانت خيالية، لمَا يتحقق منها شيء.



إحدى هذه المصوّرات انتهت إلى يدي المستشرق الإسباني الجليل خوليان ريبيرا Julian Ribera (١٨٥٨ - ١٩٣٤)، ولم يكن مجرد مستشرق عادي، وإنما كان أمة وحده، باحثا عظيما، ومؤرخا جليلا، ومفكرا موضوعيا، ومحبا عظيما للثقافة الأندلسية، وأستاذا بكل ما تحمله الكلمة من جلال، ورأس المدرسة الإسبانية التي تؤمن بإسبانية التراث الأندلسي، وأن الإسبان يجب أن يشاركوا العرب في الزهو به، فقد أبدعه أسلافهم، وولد على أرضهم،فهو إسباني بقدر ما هو عربي، تراث إسباني، وإن كان جدوده يتكلمون العربية ويدينون بالإسلام، ورغم قسوة الرقابة الكنسية على أيامه، والتي واصل في ظلها أبحاثه، استطاع أن يكون موضوعيا إلى حد كبير.

كان ريبيرا أول من أقدم على دراسة المخطوطة دراسة علمية مستوعبة، تقدم بها إلى الأكاديمية الملكية حين قبلته عضوا بها في ٢٠ مايو ١٩١٢، وهي دراسة بالغة الجدة والعمق،لمَا تفقد شيئا من بريقها رغم مرور قرابة قرن من الزمان على كتابتها. وقد اتخذ من محتواها متكا لقضايا كثيرة كانت مطروحة على بساط البحث الأدبي العالمي، قدّم لبعضها حلاً في ضوء أزجال ابن قزمان،ورأى الزمن كفيلاً بحل البقية، وأوضح هذه القضايا، وعنها تفرّع الكثير:

* تفسير نشأة الشعر الغنائي الأوروبي في مقاطعة بروفانس، جنوبي فرنسا في القرن الثاني عشر الميلادي، وقد اتخذ من بناء الموشحة أو الزجل (وهما شيء واحد في البناء) نهجا يحتذيه. هناك من يرفض هذا التأثير رفضا قاطعا، يقول المستشرق الفرنسي إرنست رينان E.Rena'n (١٨٢٣ـ ١٨٩٢) : لا يدين الشعر البروفنسال بأي شيء للمسلمين، فثمة فجوة عميقة تفصل بين شكله وروحه وبين الشعر العربي، وكان الشعراء المسيحيون عاجزين عن فهم الشعر العربي، لأنهم يجهلون اللغة العربية نفسها «ودوزي» العظيم (والعظيم صفة أضفاها ريبيرا على زميله الهولندي) انتهى إلى رأي حاسم فحواه: «القول بأن الشعر العربي مارس تأثيرا على القصيدة الإسبانية ضلال، والقضية برمتها باطلة».

> **إن الباحث المعاصر يرى الأزمان الماضية كأشياء غائمة، تتراءى متفرقة في الأفق البعيد، والبحث الصابر الدءوب هو الذي يستطيع، حين يقترب منها، أن يميز بينها، وأن يتعرف إلى حقيقتها، وفترة الحكم الإسلامي في شبه جزيرة إيبيريا، إحدى هذه المناطق الغائمة**



ويرى ريبيرا أن دوزي أخطأ لأنه لم يدرس ابن قزمان على نحو جاد عميق مثلما درس عصور الإمارة والخلافة والطوائف في تاريخ الأندلس، ولعله احتقر مخطوطة ديوانه. وكان يعرف مقرها. وفي ضوء هذه المخطوطة بدأ المستشرق الإسباني يخطط للقضية بمنهج جديد، وبطريقة تحليلية أكثر دقة. وقدم لنا براهين جديدة لم تقدم من قبل، يقول:

إن الباحث المعاصر يرى الأزمان الماضية كأشياء غائمة، تتراءى متفرقة في الأفق البعيد، والبحث الصابر الدءوب هو الذي يستطيع، حين يقترب منها، أن يميز بينها، وأن يتعرف إلى حقيقتها، وفترة الحكم الإسلامي في شبه جزيرة إيبيريا، إحدى هذه المناطق الغائمة، يلفها ضباب شديد الكثافة. كان وراء الغموض والأخطاء التي لفت تاريخها، ومارسا تأثيرا بالغا وضارا على كل من تصدى له، لصعوبة اللغة التي كُتبت فيها الوثائق والمدوّنات التاريخية، ونتيجة الأهواء التي شابت أعمال الباحثين.

وانتهى ريبيرا في دراسته لديوان قزمان إلى أنه كانت توجد في إسبانيا الإسلامية لغتان أدبيتان: العربية الفصحى واللاتينية الكلاسية، ولهجتان عاميتان، واحدة عربية وأخرى لاتينية حملت اسم الرومانثية، وأن اللاتينية الكلاسية ظلت لغة الدين، وفي بعض العصور، في بعض المقاطعات، لغة أدبية للمسيحيين الذين ظلوا في الأندلس خلال الحكم الإسلامي، بين رجال الدين منهم خاصة: إذ كان عليهم أن يقوموا بطقوسهم، وأن يلقوا عظاتهم ودروسهم باللغة اللاتينية.

ويقرر: لم تكن العربية الفصحى لغة أدبية وقفًا على المسلمين وحدهم، فقد استخدمها المسيحيون الأندلسيون أيضًا، ونبغوا فيها.

إن العامية العربية والعامية اللاتينية، أو الرومانثية، كانتا تستخدمان من الشخص الواحد بلا تمييز بينهما، سواء كان من المسلمين أم المسيحيين، وهو قول يبدو للوهلة الأولى غريبا، ويصعب فهمه على غير الإسباني، أما نحن في إسبانيا فنرى الحديث بلغتين واقعا عاديا للغاية. على نحو ما يحدث في أيامنا هذه في مقاطعات بلنسية وقطلونية وجيليقية والباسك وأشتورياس. فلا يدهشنا إذن أن المسلمين واليهود في الأندلس كانوا يتكلمون الرومانثية لغة عائلية. وبدون إدراك هذا الواقع، لا يمكن فهم ديوان ابن قزمان ولا تفسيره.

ومضى ريبيرا يؤكد مقالته هذه بشواهد من كتب التاريخ والرحالة والأنساب والواقع، ويجد ديوان ابن قزمان أوضحها دليلا، ففيه عدد غير قليل من اللهجتين العاميتين اللتين أشرت إليهما، تجيئان مختلطتين بلا فاصل، كأنهما لهجة واحدة، وبعض الجمل الرومانثية تجيء وحدها

أحيانا، مكونة أبياتا كاملة، وهو وحده كاف ليؤكد لنا أن الرومانثية كانت مستخدمة في قرطبة، من النساء بخاصة، ومن عامة الناس الذين يمارسون مهنا واطية.

ولم يقف ريبيرا عند هذا الحد، فمضى يحلل الديوان في أستاذية ماهرة: محتواه وأفكاره ولغته وعروضه وبناؤه، وانتهى إلى نتائج مقبولة في مجملها. أقول في مجملها لأن جانبا منها يحتاج إلى إعادة تحرير في ضوء ما جد على امتداد قرن من الزمان، فحديثه عن الدماء الإسبانية التي مازجت عروق الشخصيات العربية فيه من الرومانسية والخيال أكثر مما فيه من العلم والتحقيق.

وفي دراسته للغة ألقى ضوءا كاشفا ما في ذلك شك، وفتح الطريق أمام احتمالات لم تكن قائمة قبل بحثه، ولكنه نسي أن لحركة اللغات قوانينها المستقلة التي تحكم حركة تطورها، اندماجا واستقلالا وازدهارا وفناء، إلى جانب أن اللغة ليست المفردات مستقلة مهما كثرت عددا، ولكنها الجملة وبناؤها !



كان أ. ر. نيكل A. R. Nykl أول من التقط الخيط بعد ريبيرا، وهو عالم تشيكي الأصل، هاجر إلى الولايات المتحدة، وعمل في عدد من جامعاتها أستاذًا للغات الرومانية، وأدرك بثاقب نظره أن تعمقه في تخصصه، وتميزه في دراساته، يقتضيه أن يدرس اللغة العربية وآدابها بعامة، والأدب الأندلسي منها بخاصة، حتى يستطيع أن يلقي الضوء على المناطق المظلمة في تاريخ الآداب الأوروبية، وحركة سيرها، طول العصر الوسيط، ومطلع عصر النهضة.

فدرس اللغة العربية، وترجم منها إلى اللغة الإنجليزية كتاب «طوق الحمامة في الألفة والألآف» لابن حزم القرطبي، ونشره في باريس عام ١٩٣١، وقدم له بدراسة ضافية عن «الشعر على جانبي جبال البرانس حول عام ١١٠٠م»، درس فيه الشعر البروفنسالي شمالها، والشعر العربي جنوبها، ونقاط اللقاء بينهما. كما نشر القسم الأول من كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني بالاشتراك مع إبراهيم طوقان عام ١٩٣١. وحمله تخصصه واهتمامه إلى ديوان ابن قزمان، ولم يقنع بما وقف عنده ريبيرا من الدرس والتحليل، وأراد أن يتقدم بالأمر خطوات أوسع، وأصعب في الوقت نفسه، فيضع نص الديوان كاملاً بين يدي العلماء، لكي ينطلقوا في أبحاثهم واستنتاجاتهم من النص ذاته، إذ كان الوصول إلى المخطوطة نفسها، أو إلى مصورتها، دونه عقبات بالغة الصعوبة، فقرر أن يقوم بما لم يستطع أحد قبله أن يفكر فيه أو يقدم عليه: أن يضبط النص في حدود قدراته وإمكاناته، وأن ينشره كاملاً، في حروف لاتينية، لكي يتاح لعلماء الدراسات الرومانية، ممن لا يعرفون العربية أن يفيدوا منه في دراسة عروض الشعر الأوروبي الوسيط، وبناء قصائده، أما الموضوعات والأفكار التي تتضمنها الأزجال فقد تكلفت بها الترجمة إلى الإسبانية التي قام بها لعدد كبير منها، إلى جانب دراسته لغة هذه الأزجال.

وقامت مدرسة الدراسات العربية في مدريد وغرناطة بنشر الديوان عام ١٩٣٣.

كان هذا الجهد، في جوانبه المتعددة، الشديدة التعقيد والصعوبة، فوق طاقة نيكل فردا، فجاءت الترجمة غير دقيقة في بعضها، وفي بعضها الآخر ترجم ما فهمه فحسب، أو ما لخصه له الآخرون، وأحيانا كان: يحوم حول المعنى دون أن يقع عليه، وفي قليل منها وقع في أغلاط فاحشة، بالغة السوء، أدت إلى نتائج خاطئة. مثلا:

في الزجل رقم ٣٨، يتحدث ابن قزمان عن معركة الزلاّقة التي جرت بين الجيوش المسيحية بقيادة ألفونسو السادس ملك قشتالة والجيوش الإسلامية، المرابطية والأندلسية بقيادة يوسف بن تاشُفين، وجرت يوم الجمعة ١٠ رجب ٤٧٩ هـ = ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م، وفيها كان النصر ساحقاً للمسلمين، يقول في الدور التاسع منه:

أي نهار كان، حُشدْ إليه الورى
وجرى للنصارى فَيه ما جرى
في حُشَي ولِدي كنت أنا لم نرى
إنما أخبرني بالقصة خبير.

في البيت الثالث منه قرأ كلمة حُشَي خُصَ، وهو البيت من الشجر أو النبات، وترجمها Casa، أي بيت. حين نقرأ الكلمة حُشيٍ فذلك يعني أن ابن قزمان لم يكن قد جاء إلى الحياة حين وقعت المعركة، أما إذا قرئت خُصَ فتعني أنه كان في البيت في السادسة أو الثامنة من عمره، حين جرت أحداثها، وذلك يتناقض تماما مع ما نعرفه عن عمر ابن قزمان وأنه ولد بعد معركة الزلاّقة لا قبلها، والنص صريح في أن خبيرا قص عليه أحداثها.

وقد استدرك عليه هذا الخطأ المستشرق الفرنسي كولان G. S. Colin عند تعقيبه على عمل نيكل في مجلة هسبيرس Hespéris عام ١٩٣٣، ومثله صنع مواطنه ليفي بروفنسال في مجلة الأندلس عام ١٩٤٤.

مع كل ما يؤخذ على نيكل من أخطاء، نحمد له إقدامه على نشر النص، مع كل ما يحيط به من صعوبات، وترجمة الكثير من أزجاله، فقد دفع به خطوات واسعة إلى الأمام، ومهد الطريق لمن بعده، ممن أعادوا تحقيق النص، أو تناولوه بالدرس والتحليل، ومعها تتبعوا سقطاته وهفواته، وهي سقطات وأخطاء لها ما يبررها، فقد كان في عمله رائدا، ولا يدرك صعوبات الريادة إلا من مارسها، وقدر له يوما أن يسلك طريقا ما للمرة الأولى.

كان نشر ديوان ابن قزمان سببا آخر لرواجه في أوروبا وأمريكا، فما من عالم فيهما يتصدى لدراسة الشعر الأوروبي في العصر الوسيط إلاّ كان عليه أن يلقي نظرة فاحصة دارسة على ديوان ابن قزمان، وأن ينطلق منه إلى المقارنة بينه وبين لاحقيه، معللا التشابه والاختلاف، معترفا بالتأثير العربي أو منكرا له. وكان نيكل نفسه من أنصار التأثير العربي، من أنصار تأثير الموشحات والأزجال في الشعر البروفنسالي، وهو أصل كل شعر أوروبي غنائي، تأثير يبدو واضحا وشديدا في شكل القصائد وبنائها، وإلى حد كبير في توجيه محتواها وموضوعاتها وصورها، وكان البحث في هذه القضية، وتأكيد نظريته، وراء عنايته بديوان ابن قزمان.

جاءت الخطوة التالية لنيكل في أوج الحرب العالمية الثانية، ١٩٣٩-١٩٤٥، من مستشرق مغمور في بلد أوروبي صغير، من الفنلندي أو. ج توليو O. D. Tulio، وليس لفنلندا اهتمامات كبيرة بما يجري خارج حدودها، ولم يكن لها مطامع استعمارية ولا طموحات سياسية، ولا تملك مؤسسات غنية تمول معاهد غايتها البحث الخالص، أو تنفق على رحلات استكشافية في بلاد أخرى، بغية الاحتلال أو الاتجار أو الاستغلال أو التنصير، ومن ثم كان حظها من الاستشراق رغم ازدهاره ورواجه في القرون الثلاثة، السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر جد محدود، وكل ما نعرفه عن إسهاماتها في هذا المجال أن أحد علمائها ذهب إلى الجزيرة العربية بحثا عن النباتات، وآخر ذهب إلى المغرب يدرس طقوسه وأمثاله وعاداته، وكانت فنلندا يومها مستعمرة سويدية، وللسويد اهتمام لا بأس به بالدراسات العربية، وفي جامعة أوبسالا بخاصة كرسي للغة العربية حتى يومنا، فلما استقلت فنلندا لم تعد تذكر في هذا الجانب إلا نادرا، والفضل في هذا يعود إلى توليو، وكان متخصصا في الدراسات الرومانية، فقد قرأ ما نشره نيكل عن ابن قزمان، وأدرك واعيا أهمية ديوانه للمعنيين بالبحث في الآداب اللاتينية في العصر الوسيط، ورآه جسرًا قويًا يربط بين الشرق والغرب، بين أوروبا والعرب.

عكف توليو على دراسة ديوان ابن قزمان الذي نشره نيكل، وتعليقاته عليه، وقدم جهده في دراسة قال عنها إنها « دراسة نقدية جزئية مؤقتة»، نشرتها مجلة «دراسات المستشرقين Studia Orientalia، التي تصدرها جمعية المستشرقين الفنلنديين في هلسنكي أولاً، وفي كتاب مستقل ثانيا عام ١٩٤١، وفيها درس سبعة أزجال هي الأزجال رقم ١٠و١٩و٢٠ و٧٩و ٨٤ و٨٧ و٩٠، من مجموع أزجال الديوان التي تبلغ ١٤٩ زجلا، وقدم لها بتمهيد أوجز فيه حياة ابن قزمان مع إلماحات إلى مخطوطة الديوان، كما أوجز فيها الصعاب التي تواجه الباحث الأوروبي بعامة حين يحاول أن يفيد من الديوان في التأصيل للكلمات العامية اللاتينية المكتوبة في حروف عربية، إذ لا تحكمها قاعدة، ولأن الحروف العربية لا تفي بحاجتها، فهي تسقط الصوائت دائما، ولا تعني بالشكل وهو ضروري في اللاتينية وما تفرع عنها، لمعرفة معنى الكلمة.

وفي تواضع يحمد له أشار إلى ضعف إمكاناته في اللغة العربية، وأنه ما كان له أن يصل إلى شيء لولا جهود الذين سبقوه من جانب، ومعاونة المستشرقين المعاصرين له من جانب آخر، أماَ زملاؤه في الدراسات الرومانية فليس عندهم شيء يقدمونه لأنهم كانوا في بداية تعرّفهم إلى الديوان، وقد قام بضبط نص الأزجال السبعة التي أشرنا إليها، في حدود إمكاناته العلمية ومعرفته باللغة العربية، كتبها في حروف لاتينية، وحلّلها عروضيا ولغويا، ثم ترجمها إلى اللغة الفرنسية، وألحق بهامش الزجل العاشر ترجمة إسبانية له نقلها عن ريبيرا، وبهامش الزجل رقم ٢٠ ترجمة إسبانية له نقلها عن نيكل، وألحق بالدراسة معجما بالكلمات الرومانثية التي وردت خلال النصوص العربية التي نشرها. وانتهى من دراسته إلى تأييد نيكل فيما ذهب إليه، من أن الموشحات والأزجال كانت وراء نشأة الشعر البروفنسالي.

رغم تواضع دراسة توليو بالنسبة لما قام به نيكل، وجدت في أوروبا رواجا لم تحظ به دراسة هذا الأخير، ومردّ هذا فيما أرى، أن علماء أوروبا ليسوا ملائكة، وأنهم شأن الآخرين يعرفون أيضا التنافس والكراهية والأحقاد والوقيعة والضيق بالآراء التي لا تسير في الاتجاه الذي يسلكونه، ولو أنهم يغلّفون هذا بشيء من الدهاء ويقدمونه في صورة علمية، تأخذ شكلا موضوعيا. لقد نشر نيكل دراسته في إسبانيا حين كانت تحكمها دكتاتورية عسكرية، وتسيطر على مقاليدها رجعية دينية، وأوروبا ـ ما عدا ألمانيا ـ تكن لها البغضاء والازدراء، ثم تلت نشر الديوان الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩)، فالحرب العالمية الثانية، وحصار أوروبا لإسبانيا

كان نشر ديوان ابن قزمان سببا آخر لرواجه في أوروبا وأمريكا، فما من عالم فيهما يتصدى لدراسة الشعر الأوروبي في العصر الوسيط إلا كان عليه أن يلقي نظرة فاحصة دارسة على ديوان ابن قزمان، وأن ينطلق منه إلى المقارنة بينه وبين لاحقيه، معللا التشابه والاختلاف، معترفا بالتأثير العربي أو منكرا له

اقتصادياً وثقافياً وسياسياً حتى أواخر الستينيات، وكل هذا ذهب بدور نيكل وكتابه، وأفقده الرواج والأهمية، على حين أن دراسة توليو، وهي لا تبلغ أن تكون كتاباً، محتوى وشكلا، طبعت في هلسنكي، والعالم الثقافي الأوروبي مفتوح أمامها على مصراعيه، فطافت بكل أركانه، شرّقت وغرّبت دون أي عائق مادي أو معنوي. وكانت جهدا لا بأس به، وخطوة إلى الأمام على أية حال، ولو أن إميليو غرسية غومث شيخ المستشرقين الإسبان، وبعض دارسي ابن قزمان، يرى « أن دراسة توليو جمعت من الأخطاء والسيئات ما لا يتاتى لأي كتاب أن يضمها بين دفتيه»، وهذا التعبير لغرسية غومث نفسه، وأحسب أن وراء هذه القسوة في النقد معه، ومع نيكل قبله، وتتبع ما في عملهما من أخطاء دون أية إشادة بجهودهما أن غومث كان يتحامل بعنف يبلغ حد الكراهية على كل من يخالفه الرأي الذي انتهى إليه وآمن به، وهو: «إن الموشحات والأزجال وليدة أغاني المستعربين الرومانثية، وليست تطورا طبيعياً للشعر العربي الكلاسي» وهو رأي كان نيكل وتوليو، وآخرون يقفون منه في الجانب المقابل، ولا يرون ما يقول.

لم يكن بوسع الاستشراق الفرنسي أن يدير ظهره لظاهرة ابن قزمان، وأن يشغلهم باحثين وعلماء، ووراء ذلك دوافع ثلاثة:

* تأكيد مكانة فرنسا الثقافية في أوروبا والعالم أجمع، وهو أمر تحرص عليه فرنسا دائماً، وتجعله مناط اهتمامها واعتزازها، ولا أظن طالبا يدرس في غير وطنه، يجد من الرعاية والتسهيلات المادية والمعنوية في بلد أجنبي مثل ما يجده الطلاب الأجانب في فرنسا.

* إنها تستعمر إذ ذاك دول المغرب الثلاث، وغاياتها أبعد من مجرد الاحتلال العسكري المؤقت واقعا، والفوائد الاقتصادية العاجلة، وإنما تستهدف جعله، في الجانب الذي يطل على البحر الأبيض على الأقل، جزءا من فرنسا، وأدى هذا إلى أن تزدهر فيها الدراسات المتصلة بدول المغرب، تاريخا وحضارة ولغة وأعراقا، وكان إسهامها في هذا الجانب واسعا وباهرا.

* إثارة عوامل الفرقة، وإشاعة روح البغضاء بين طوائف شعوبه، في لغاتهم وأصولهم، والتاكيد إعلاميا بمناهج علمية على العنصر البربري، وإبراز دوره، وإثارة الفرقة والتعصب.

وهكذا وجد ابن قزمان في فرنسا قارئين ودارسين، يهمنا من بينهم اثنان، كانا من أبرز العلماء الذين عنوا به في تلك الأيام، تعاصرا وتزاملا، في مدرسة اللغات الحية في باريس، وفي معهد الدراسات العليا في الرباط فيما بعد، وهما: جورج كولان (١٨٩١ - ١٩٧٧) وليفي بروفنسال (توفي ١٩٥٦).

درس كولان اللغة العربية في مدرسة اللغات الحية في باريس، وبعدها جاء إلى القاهرة في أوائل العشرينيات لتعميق معرفته، كعادة معظم المستشرقين الأوروبيين وعمل خلال إقامته في المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القائم في حي المنيرة في القاهرة منذ الحملة الفرنسية، ولا يزال فيها حتى يومنا. ثم عاد إلى باريس ليشغل كرسي اللغة العربية في المدرسة التي تخرج فيها، ومنها انتقل إلى الرباط أستاذا في معهد الدراسات العليا، ومهمته الأولى التنسيق بين المستشرقين الفرنسيين المهتمين بالمغرب في المجالات المختلفة، وتوجيه أبحاثهم الوجهة التي تخدم مصالح فرنسا أولا، وبداهة لم يكن به باحثون ولا دارسون مغاربة، وإنما علماء فرنسيون فحسب، وعنه كانت تصدر مجلة Hes peris، وظلت تصدر قرابة نصف قرن، وتضم أعمق الأبحاث في كل ما يتصل بالمنطقة، حتى أن مكتبة الكونجرس الأمريكية، ولم تكن تضم نسخة منها، قامت في السبعينيات بتصويرها كاملة لحسابها.

تخصص كولان منذ البدء في اللهجات العامية، (وهو تخصص محبب إلى أجهزة المخابرات في العالم كله، وأعظم معجم في العامية المصرية قامت به الجامعة الأمريكية في القاهرة) واهتم حين كان في القاهرة بالمصطلحات البحرية التي يستخدمها ربابنة السفن الشراعية في وادي النيل، وحين انتقل إلى المغرب اهتم باللهجات المستخدمة بين الحرفيين والمهنيين، وأسماء ما يستخدمونه من آلات وأجزائها، والفرق بين الفصحى واللغة المستخدمة عند الصحفيين في عصرنا، وحقق كتابا موجزا في لحن العامة لابن خاتمة الأندلسي، وبعض المصادر المتعلقة بالمصطلحات الطبية، وبعض كتب التاريخ المتصلة بتاريخ المغرب والأندلس، كما اهتم بالتأريخ للعلاقات السياسية بين المغرب وإسبانيا والقاهرة، وعلاقات مصر باليمن.

كانت العامية المغربية الاهتمام الأول والرئيس لكولان، أما بقية الاهتمامات الأخرى فتجيء لتكون في خدمتها أو ساترا لها، وكان أعظم إنجازاته العلمية «معجمه الكبير» وحمل اسمه، وفيه أمضى زهرة عمره، وحمّله خلاصة تجاربه، وفيه درس اللهجات المغربية من كل جوانبها، فجاء خريطة لغوية تركز على السماع والمشاهدة، وقد نشر بعد وفاته بعناية باحثة مغربية (الدكتورة زكية العراقي).

من يعنى بالعامية المغربية الحالية أو المعاصرة، لابد أن يدرس ابن قزمان، فقد استخدم عامية الأندلس، وكان زجالا فنانا، ووشائج القربى بين العاميتين قوية، وتجلى اهتمامه في عدة أمور:

* صحح بعض القراءات الخاطئة لكل من نيكل وتوليو، على نحو ما ألمحنا قبلا، وكان الحق معه فيما صوّب، وانتقدهما نقدا صارما مقبولا في تفسيرهما لعدد من الكلمات.

* فكرّ جادا في تحقيق الديوان بدوره، على نحو أفضل، وهيّأ نفسه لذلك بالبحث عن مخطوطة أخرى تعينه في مهمته هذه. ويذكر توليو في مقدمة كتابه الذي ألمحنا إليه فيما سبق، أنه تلقى رسالة من كولان في ١٣ سبتمبر ١٩٣٧ يعلمه فيها أنه وقع على خبر يشير إلى أن المكتبة الظاهرية في دمشق (مكتبة حافظ الأسد الآن!) تتضمن مخطوطة أخرى للديوان، وأنه يبذل جهده لكي يصل إليها. ويذكر ليفي بروفنسال في محاضرة ألقاها في القاهرة، سوف نشير إليها فيما بعد، أن « كولان هيأ للنشر منذ بضع سنين مخطوطة الديوان». ولكن أياً من الأمرين لم يتحقق، فلم ينشر كولان الديوان، ولا أحد يعرف شيئا عن جهده في هذا المجال، ولم يتوصل أحد إلى مخطوطة دمشق التي تحدث عنها، وأقرب الظن أن الأمر كان مجرد إشاعة، وهكذا وقف كولان بجهده عند تصحيح أخطاء الآخرين في مجال قراءة المفردات.

كان إرنست ليفي بروفنسال الفرنسي الثاني الذي عنى بابن قزمان، وهو يهودي سفردي، أندلسي الأصول، أسلافه من أولئك اليهود الذين لاحقتهم محاكم التفتيش الإسبانية بعد سقوط دولة الإسلام هناك، فلجأ كثير منهم إلى جنوب فرنسا، بعد جهد مضن، ورشاوى كبيرة دفعوها، وقد بدأ ليفي حياته الاستشراقية مبكرا، منذ عام ١٩١٧، وأهلته يهوديته، وتمكنه من اللغة العربية، أن يكون من بين عيون فرنسا وأدواتها ورجالها في المغرب العربي بأقطاره الثلاثة: المغرب والجزائر وتونس، وكان أحد كبار المستشرقين الذين تجمعوا في معهد الدراسات المغربية العليا في الرباط، واضطلعوا بإصدار مجلة هيسبيرس Hésperis عام ١٩٢١، لتكون ملتقى الأبحاث والدراسات التي تهتم بالمغرب، من وجهة نظر فرنسية، وهم: هنري تراس الأثري، وجورج كولان اللغوي، واختص ليفي بالتاريخ وما يتعلق به.

بدأ خطاه الأولى بعمل منهجي: أن يتعرف إلى مصادر تاريخ المنطقة التي سوف يعنى بها، وطريقه إلى ذلك أن يقوم بفهرسة المخطوطات الموجودة في خزانة الرباط (المغاربة يسمون المكتبة خزانة)، وتتبعها في بقية المدن، وبدأ ينشر المقالات عن نوادرها، ويعرف بالمجهول منها، وكان تراث المغرب في جملته مخطوطا، ولعله أول من أشار إلى وجود مخطوطة لتاريخ ابن خلدون، أهداها المؤلف نفسه إلى خزانة القرويين في فاس.

وبعد وفاة هنري باسيه، مدير المعهد تولى إدارته، ومد نشاطه إلى بقية البلاد المغربية التي تحت الاستعمار الفرنسي، وكان دائم الترحال بين أقطاره الثلاثة، يرى ويدرس ويتأمل ويكتب التقارير، ويوجه الدولة المستعمرة في باريس، ويبحث عن المخطوطات، في مكتبات الجوامع والأربطة والزوايا والمكتبات الخاصة، يستهديها أو يشتريها، ويقتبسها إن لم تفلح هذه أو تلك، وهكذا أتيح له أن يعرف عنها ما لم يتح لغيره، ولم يفته أن يلحظ أنها في جانب كبير منها تتصل بالأندلس، فهداه تفكيره أن يعبر إلى إسبانيا أيضا، حيث دير الإسكوريال، وبه مجموعة قيمة من المخطوطات العربية، هي في الجانب الأكبر منها مغربية المصدر، استولت عليها البحرية الإسبانية قرصنة، أثناء نقلها بحرا. وكان الراهب ميخائيل غزيري الحلبي قد اضطلع بفهرستها بأمر من الملك الإسباني كارلوس الثالث، ونشر عمله باللغة اللاتينية، عدا أسماء الكتب والمؤلفين فكانت بالحرف العربي، في جزءين، في مدريد عام ١٧٦٠ و١٧٧٠م.

ولكنه لم يعد صالحا مع تطور الزمن، فقد ضاع جانب من هذه المخطوطات بفعل الإهمال والحرائق، وأضيفت إليها مخطوطات جديدة عن طريق الشراء والهدايا، فتقدم للاضطلاع بمهمة تجديد الفهرس المستشرق الفرنسي هـ. ديرنبورج، ونشر ما أنجزه في مجلدين في باريس باللغة الفرنسية عام ١٨٨٤ و١٩٠٣، ولكنه رحل عن الدنيا قبل أن يكمل مهمته، فتولاها ليفي بروفنسال، وأكمل الفهرس بجزء ثالث صدر في باريس عام ١٩٢٨.

وكان هذا أول اتصال علمي له بالأندلس، وأول خطاه إلى إسبانيا باحثا، ومن هذه اللحظة أصبح الأندلس مناط اهتمامه الأول ومنحه كل وقته وجهده وعقله، وأصبح مؤرخه الأكبر، ومكنته إقامته في المغرب، وسلطان الدولة المستعمرة، أن يرى من المخطوطات ما لم ينشر منها، وما لم يره غيره، فتميزت أبحاثه بالجدة والأصالة والعمق، وبقدر كبير من الموضوعية والعلمية. وأحسب أن وراء هذا الجهد الخلاق إحساس داخلي يتخفى في طيات ضميره، ولكنه يبدو مواربا فيما كتب، دون أن يفصح عنه صراحة: أن يجلو إسهام اليهود في الحضارة العالمية في العصر الوسيط، من خلال ما قاموا به في الأندلس، حيث تمتعوا بمساحة واسعة من حرية الحركة، أتاحت لهم أن يكونوا ثروات واسعة، وأن يقوموا بجهد

من يعنى بالعامية
المغربية الحالية أو المعاصرة،
لابد أن يدرس ابن قزمان،
فقد استخدم عامية الأندلس،
وكان زجالا فنانا،
ووشائج القربى بين
العاميتين قوية

فكرى مرموق فأحيوا لغتهم العبرية، وقعّدوا لها، وأبدعوا فيها شعرا ومقامات وموشحات، وقاموا بدور بالغ الأهمية فى نقل الحضارة العربية إلى أوروبا، فأيقظتها من غفوة العصور الوسطى، واستشرفت معها نهضة لما تكن معالمها قد اتضحت.

ويلفت النظر فى دراساته التى تتصل بالمغرب أنه اتكأ على ما يتصل بالبربر، فأعطى أولوية لنشر ما وجد من مخطوطات تتصل بهم، فحقق كتاب « مفاخر البربر» لمؤلف مجهول، ونشره معهد الدراسات المغربية العليا فى الرباط عام ١٩٢٤.

شغل بروفنسال أصلا بالتاريخ والحضارة، والأدب ليس بمعزل عنهما، وحديث ابن قزمان ومخطوطة ديوانه يشغل الأوساط العلمية فى مراكز الأبحاث الأوروبية، وما كان بوسعه أن يتجاهل أمره، أو يغفل المشاركة فى كل ما يتصل به، وأدرك واعيا، منذ اللحظة الأولى، أن الاقتراب من نص الديوان أمر بالغ الصعوبة، وأن إمكاناته فى اللغة العربية الفصحى والعامية لا تسمح له بأن يضيف إليه جديدا فى تحقيق النص، أو تفسير ما غمض من ألفاظه، ومع ذلك رآه معيبا أن يعاصر هذا الصخب العلمى دون أن يشارك فيه، وأن يأخذ بحظ منه، فتحسس طريقه إلى الديوان من الباب الذى يعرف الطريق إليه جيدا، وكان لقاؤه معه عند أطول زجل فيه، رقم ٣٨، وأصله فى مدح أسرة بنى حمدين القرطبية الشهيرة، وتولى عدد من أبنائها قضاء الجماعة فى قرطبة، وحفل بالإشارة إلى عدد من الأحداث التاريخية، أبرزها موقعة الزلاقة عام ١٠٨٦، وفيها انتصر المسلمون من مرابطين وأندلسيين بقيادة يوسف بن تاشفين، على ألفونسو السادس ملك قشتالة وحلفائه، وثانيها قيام ألفونسو الأول ملك أرغون، الملقب ردمير المحارب، وحليفه ملك البرتغال، بحصار مدينة المرية حول عام ١١٢٥، وعرض ابن قزمان للأولى راويا، لأنه لم يشهدها، وعاصر الثانية، وفى زجله مدح إلى جانب أسرة بنى حمدين ودورها، وأمراء المرابطين الذين قادوا المعركة وحققوا النصر، وأمراء الموحدين الذين صدوا الهجوم وفكوا الحصار فى الثانية، وحث المسلمين على الجهاد، ودعا لهم بالنصر، وحقّر من شأن الأعداء، وقد درس بروفنسال الزجل جيدا، من الوجهة التاريخية، ونشر الدراسة مع الزجل فى مجلة « الأندلس» (عدد ٦ سنة ١٩٤١).

أما فى الجانب الأدبى من الديوان فآثر منه ما يلقى ضوءا على الشعر الفرنسى فى بداياته، بأن يدرس دور الفن الذى يحتويه هذا الديوان على حركة شعراء التروبادور التى ازدهرت فى مقاطعة بروفانس فى جنوبى فرنسا، بدءا من نهاية القرن الحادى عشر الميلادى، وتناول الديوان بالدرس إجمالا للمرة الأولى فى مقال نشره فى مجلة «الأندلس»، التى تصدرها مدرسة الدراسات العربية فى مدريد وغرناطة بعنوان: « من جديد حول ابن قزمان» عام ١٩٤٤، وفيه علّق، وصوّبَ بعض الأخطاء التى وقع فيها سابقوه من الدارسين، مع إضافات جديدة عن حياة ابن قزمان وسلفه وخلفه.

وكانت المرة الثانية، وتناوله فيها تفصيلا، حين دعته جامعة فاروق الأول (الإسكندرية الآن) أستاذا زائرا لكلية الآداب فى عامين دراسيين متتابعين، ١٩٤٧ و ١٩٤٨، وألقى إلى جانب التدريس فى الكلية ست محاضرات عامة باللغة الفرنسية، تناول فى الثلاث الأولى منها الشعر فى الأندلس بفنونه الثلاثة: القصيد والموشح والزجل، وتوقف طويلا عند ابن قزمان أمير الزجّالين، فيما يرى، وأفاض القول فى مدى تأثير الشعر الأندلسى فى الشعر الأوروبى.

وكانت المحاضرات الثلاث الباقية عن غرناطة والحمراء ومدن المغرب والأندلس، ونظمها المالية والإدارية.

لم يتعرض بروفنسال للمشكلات اللغوية فى الديوان، واكتفى بإبراز قيمته الشعرية، ودراسة معانيه الكلية، ولحظ أن ابن قزمان يلقى بها فى عفوية بالغة، تتجلى فيها ملكته المبتكرة، وفيض أخيلته الحارة، حين يشرب أو يعربد، أو يتافق أو يتملق، وحين يبدو فى صورة سيد عظيم، أو متفنن ظريف، أو محب رقيق، أو رجل بحث، أو مؤمن تقى ورع يؤدى الفرائض فى أوقاتها. ثم درس شكل الأزجال وبناءها وموضوعاتها من مديح وخمريات وغزل، وأن الديوان يعكس حياة ابن قزمان الشعرية والمادية والعاطفية، فى تفاوت حظوظها، سموًا وتدينًا، واغتناءً وفقرًا، واستقامة وتحللاً، وقبل أن تدركه الشيخوخة فينزع إلى الندم والتوبة والتقوى.

ويوجز بروفنسال رأيه: «لست أعرف فى الأدب العربى والغربى شعرًا أكثر استرسالاً مع الطبع، وأكثر أخيلة وحياة وطرافة من أزجال ابن قزمان. فإن كان لابد من مقارنته بشاعر من شعراء العصر الكلاسى، فإنه لا يقرن إلا بأبى نواس، وطريقته أن يدخل كل معانى الشعر الأندلسى الكلاسى فى أزجاله، سواء أكان الموضوع فى الوصف أم الخمر أم الهجاء أم الحرب أم اللذة، ولكنه يطبع كل هذه المعانى بطابعه الخاص، وهو طابع عصى على التقليد».

كانت بريطانيا أقل دول أوروبا اهتماما بالأندلس، تاريخه وحضارته، وليس بين مستشرقيها من تخصص فى هذا الجانب، وإن كان بينهم من قدم لأدب الأندلس تعريفا موجزا، ليس بذى أهمية، ومع ذلك لم يفتها أن تشارك فى الحوار حول مخطوطة ديوان ابن قزمان،فى دراسات مست الزجل والزجّالين مسًا عميقا، على يد يهودى سفردى، مجرى الأصل، من اليهود الذين تدفقوا على ولايات الخلافة العثمانية بعد سقوط دولة الإسلام فى الأندلس، فى أخريات القرن الخامس عشر الميلادى، هربا من محاكم التفتيش، وهو صمويل ميكلوس شتيرن Sannuel Mikklos Stern (١٩٢٠-١٩٦٩). ولا نعرف كثيرا عن طفولته وصباه، ولكننا نلتقى به فى عام ١٩٣٩ طالبا فى الجامعة العبرية فى القدس، يهيم على وجهه فى شوارع المدينة المقدسة، مهموما بقضايا الموشحات العربية والعبرية، وخاصة بعض أجزائها التى جاءت مزيجا من لغات مختلفة، عربية ورومانثية وعبرية،وربما من لغات أخرى كالبربرية والصقليبية، لغة المماليك المجلوبين من أواسط أوروبا، يقلب ظنونا مختلفة تدور برأسه، فى محاولة منه لتفسير هذه المفردات.

كان وراء اهتمام شتيرن بابن قزمان اهتمامه بدراسة الأدب العبرى، إذ كان يرى أن الموشح العبرى خرج من عباءة الموشح الأندلسى، شأن النشاطات الأدبية العبرية الأخرى التى ولدت وترعرعت على أرض الأندلس، ففيه انتعشت الدراسات العبرية فى ظل ازدهار الحضارة العربية، فترجم اليهود «المقامات» إلى لغتهم، ثم احتذوها، وترجموها إلى اللاتينية، وساروا على خطى الشعر العربى جملة وتفصيلاً، فى شتى أنواعه: القصيد والمسمط والموشح، عروضًا وقوافى وبناء، وكانت الموشحات العبرية غير الدينية التى وصلتنا أكثر عددًا من العربية، أبدعها اليهود فى مصر، من أهلها أو وافدين عليها، وعثر عليها فى جنيزة معبد الفسطاط فى القاهرة، ولو أن قيمتها لا تكمن فى كثرتها، وإنما فى احتفاظها بسمات لم تحتفظ بها نصوص الموشحات العربية التى وصلتنا بصورة واضحة وافية، ولأن الموشحة العبرية تعتمد اعتمادًا كبيرًا على النموذج العربى فهى تلقى ضوءًا كاشفًا عليه حين نفتقد بعض أجزائه، أو يصعب علينا تفسير بعض مشكلاته.



كان بحث خوليان ريبيرا بالنسبة للمستشرقين الإسبان خاصة، الخطوة الأولى فى طريق طويل محفوف بالمشقات والمصاعب، ويتطلب إنجازه علماً وذكاء وصبرا، ومكثوا يترقبون الكفاءة الواعدة القادرة على تحقيق ما يطلمحون إليه فى الوصول بمخطوطة الديوان إلى بر الأمان، بتحقيقها ونشرها كاملة بمنهج علمى، يثبت مكانتهم العلمية، فى هذا الجانب على الأقل بين تيارات الاستشراق المتدافعة عبر أوروبا، وشغلت بابن قزمان تعليقا وتحليلا، ونقدا وتصويبا.

ولم يطل بهم الانتظار.

جاءهم فى شخص شاب تجمعت فيه مواهب متعددة تشى بأنه الرجل المأمول المنتظَر: إميليو غرسية غومث Emilio Garcia Gómz (١٩٠٥-١٩٩٥م).

نشأ فى بيئة أحاطته بالرعاية، وأعدته فى سن باكرة ليكون فى قادم حياته مثقفا مرموقا.

فى الرابعة من عمره ألحقته أمه بمدرسة فرنسية، أظهر فيها نجابة جعلته يتمكن من اللغة الفرنسية أصواتا وإملاء وحديثا. وصبيا بدأ يختلف إلى مسارح مدريد، وفى الخامسة عشرة من عمره أصبح عضوا فى منتداها الثقافى Ateneo، يفيد من المكتبة الهائلة التى به، ويستمع إلى المحاضرات التى تلقى فيه، ويحضر الحوارات التى تجرى بين كبار أعضائه. وفى هذه السن قبلته جامعة مدريد استثناء، لأنه لمّا يكمل السن القانونية لدخولها، وفيها جمع بين الدراسة فى كليتى الآداب والحقوق. ولمّا يزل طالبا فى الجامعة بدأ يكتب فى الصحف انطباعاته عن لوحات كبار الفنانين الإسبان فى متحف الباردو.

فى كلية الآداب التقى بأستاذين مستشرقين عظيمين، احتفيا به ورعياه، وكان لهما أبلغ الأثر فى حياته، واحتفظ لهما على الدوام بود وإجلال عميقين: خوليان ريبيرا ومجيل أسين بلاثيوس، والأول منهما عرضنا له من قريب، وكان الثانى راهبا يسوعيا، تخصص فى الفلسفة الإسلامية والطرق الصوفية، وأصبح فيهما مرجعا، وعرّف العالم بأندلسى عظيم: ابن حزم القرطبى.

وفى عام ١٩٢٥ حصل غومث على الليسانس فى الآداب بتقدير ممتاز، وبعدها قدم رسالته التمهيدية للدكتوراه، وكان موضوعها: «حكاية عربية الأصل المشترك لقصة حى بن يقظان لابن طفيل والفصول الأولى لكتاب «الناقد El Criti on» وللإسبانى جراثيان بلتسار Graci?n Baltsar (١٦٠١-١٦٥٨م).

وكان لاكتشافه هذا صدى طيب فى عالم الاستشراق.

وفى أواخر عام ١٩٢٦ عُيّن مدرسا مساعدا فى كلية الآداب، وبعد ذلك بعام حصل على منحة من جمعية تشجيع البحث العلمى للدراسة فى مصر، وحمّله أستاذاه، ريبيرا وبلاثيوس، رسالة توصية لصديقهما فى القاهرة، أحمد زكى باشا شيخ العروبة، وكانت تربطه بهما، وبمفكرى إسبانيا وعلمائها

كانت بريطانيا أقل دول أوروبا اهتماما بالأندلس، تاريخه وحضارته، وليس بين مستشرقيها من تخصص فى هذا الجانب، وإن كان بينهم من قدم لأدب الأندلس تعريفا موجزا، ليس بذى أهمية، ومع ذلك لم يفتها أن تشارك فى الحوار حول مخطوطة ديوان ابن قزمان

علاقات وثيقة، وفى القاهرة أمضى عامين، كان يقطن خلالهما فى «بنسيون» فى ميدان الأوبرا، ويقص علينا أنه كان أصيل كل يوم يسلك طريقه إلى بيت أحمد زكى باشا فى الجيزة على النيل، يأخذ الترام من العتبة الخضراء أحيانا، ويقطع المسافة راجلا أحيانا أخرى، ليحضر المنتدى العلمى والأدبى الذى ينعقد فى قصره كل ليلة، وبعده يبقى مع صفوة من أصدقاء صاحب البيت لتناول العشاء بدعوة منه. وفى تلك الفترة أهداه أحمد زكى باشا مخطوطة كتاب «رايات المبرزين وغايات المميّزين» لابن سعيد المغربى، ويضم مختارات من روائع الشعر الأندلسى، فى مختلف بلدانه ومتنوع عصوره، فحقق الكتاب، وقدم له، وترجم كل أشعاره إلى اللغة الإسبانية، وأهداه إلى «ذكرى أحمد زكى باشا (١٨٦٧-١٩٣٤)» ونشره فى مدريد عام ١٩٤٢ معهد دون خوان فى بلنسية، بالتعاون مع الجمعية الإسبانية الأمريكية فى نيويورك.

وكان لهذه القصائد أثر كبير فى توجيه غومث إلى الشعر الأندلسى، والاهتمام به، وجانب منها سوف يصبح نواة كتابه الشهير «الشعر الأندلسى»، وهو كتاب لقى إقبالا شديدا، وطبع مرات عديدة، وترك أثرا عميقا فى طبقة واسعة من شعراء إسبانيا، وأيقظ فى عقول الأدباء الإسبان من غير المستشرقين اهتماما بالشعر الأندلسى، والوقوف على ما فيه من روائع، لحسن اختيار قصائده، وروعة جمالها، ودقة ترجمتها، وقربها من الذوق الإسبانى، حتى أن القارئ الإسبانى لا يشعر معها أنه يقرأ شعرًا مترجمًا.

وإلى جانب دوره مفكرًا وعالمًا وأستاذًا جامعيًا، هيأته مكانته العلمية أن يكون المستشار الأول لوزارة الخارجية الإسبانية فى علاقاتها مع العالم العربى والإسلامى، ولتكون خطى الوزارة فى هذا الجانب مبنية على العلم، جعلها تنشئ «المعهد العربى الإسبانى للثقافة»، يضم مكتبة حديثة، تلبى حاجات الباحثين فى شئون العالم العربى السياسية والاقتصادية، ويكون أداتها فى رسم خططها والمشاركة فى تنفيذها، وأصبح أول مدير له بدرجة سفير، إلى أن فارقه سفيرًا لوطنه فى بغداد، ثم بيروت، وأنقرة أخيرًا، وكان يأمل أن ينتهى به المطاف فى القاهرة. يختم حياته كما بدأها، على ضفاف النيل، لكن خروج فرناندو كاستيا وزير الخارجية فى تغيير وزارى عام ١٩٦٩، جعله يقدم استقالته فى الحال، لأنه لم يكن مجرد موظف يتلقى أوامر ينفذها، وإنما مفكر يتحرك فى نطاق مبادئ يؤمن بها، لن يتاح له تنفيذها مع الوزير الجديد، وعاد إلى مدريد يحمل مئات المخطوطات، أصلية أو مصورة، وما كان له أن يتوصل إليها بسهولة، لولا سفاراته هذه.

التقت فى شخصية غرسية غومث صفات متعددة عالية، جعلت منه قمة الاستشراق فى وطنه، وفى العالم الغربى أجمع: موهبة فطرية، وذكاء حاد، وتمكن قوى من اللغة العربية، ومعرفة لا بأس بها ببعض اللغات السامية، وإجادة كاملة للغات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية، وإلمام بالألمانية واليونانية، ومعرفة واسعة بآداب هذه اللغات، وتمكن قوى من لغته الإسبانية وآدابها وأساليبها، وقدرة عالية على التعبير فيها على نحو أصبح معه أديبًا إسبانيًا كبيرًا، تعرفه أعمدة كبريات الصحف اليومية والمجلات فى وطنه وخارجه، كاتبًا وناقدًا ومعلقًا وتقلبت عليه مع امتداد عمره عصور سياسية متباينة فى وطنه: ملكية فى الظل، إلى جوارها حاكم عسكرى دكتاتور هو الحاكم الفعلى، ثم جمهورية ذات ظلال اشتراكية فى البدء، شيوعية خالصة فى النهاية، فحرب أهلية امتدت أربع سنوات (١٩٣٦-١٩٣٩)، فدكتاتورية فاشية صارمة، وأخيرًا ملكية دستورية، وكل فترة وجهت تفكيره، وتركت فيه أثرًا، أراد أم لم يرد، ولا يمكن القول إنه تلون مع كل واحدة منها، ولكنه أكيدًا استجاب لمتطلبات الواقع الذى عاشه، وربما كان معتقدًا أنه الصواب.

لم يكن غومث عجلاً من أمره وهو يقترب من نص ديوان ابن قزمان. أدرك واعيًا ومبكرًا صعوبة الأمر، وفداحة المسئولية، فبدأ يتحسس طريقه إلى شخصه وأزجاله على مهل، ولم يقل ما رآه الكلمة الفاصلة فى أمره إلا بعد أن عايشه قرابة نصف قرن من الزمان، جمع خلالها فى مكتبته الخاصة كل ما اتصل به، وما كتبه الآخرون عنه، فى أى لغة، ومهما كان حظه من السمو أو التدنى.

كانت بداية الالتقاء به عبر مقال نشره فى مجلة «أبدًا Cruzy Raya»، التى كانت تصدر فى مدريد، العدد الثالث، ١٥ يونيه ١٩٣٣، وأوضح فيه أن ما شده إلى الديوان هو «العفوية البالغة التى اتسمت بها أزجال ابن قزمان وتصويره الدقيق للحياة الاجتماعية عند الطبقة الدنيا على أيامه»، وأعطاه عنوانا: «ابن قزمان صوت فى الشارع!» ودرس فى إيجاز وعمق مضمونها وبناءها، وما جدّد ابن قزمان فى معانى سابقيه، ووقف عند الصدى الإسبانى فى محتوى الأزجال ولغتها وصورها، وما وفق فيه منها، وألقى نظرة عجلى على حركة سير الديوان.

لم يكد غومث يقترب من ابن قزمان حتى اندلعت الحرب الأهلية الإسبانية، ثم تلتها الحرب العالمية الثانية، وأيامها كان يصعب على الإسبان الحصول على أقلام الرصاص أو الورق للكتابة، فضلا عن إصدار الكتب أو الصحف، فتوقف كل شىء. ولكن ما إن بدأت الحياة تعاود حركتها حتى عاد غومث إلى ابن قزمان من جديد، يتناول فن الموشحات والأزجال بالدرس والتحليل، ويقرأ ديوان ابن قزمان، يفك طلاسمه، ويحل ألغازه، ويضبط كلماته، ويترجم أزجاله، وينشر خلاصة أبحاثه تباعا فى مجلة الأندلس، والمجلات العلمية الأخرى، إسبانية أو أوروبية، ويتابع صدى ما ينشر، وكيف يتلقاه الآخرون.

وبعد أربعين عاما أمضاها فى رفقة ابن قزمان والموشحات والأزجال استجمع رأيه وحزم أمره، ونشر ديوان ابن قزمان كاملا فى ثلاثة مجلدات، ضمت أكثر من ألف ونصف ألف من الصفحات، فى عمل غير مسبوق علميا، عمقا ودقة وإخراجا، ونشرها فى مدريد عام ١٩٧٢.

أوضح غومث منهجه فى التناول، وهو يختلف تماما عن مناهج كل الذين سبقوه، ربما أفاد منهم، وقد يلتقى مع هذا العالم أو ذاك قليلا، ولكنه فى النهاية اختط لنفسه منهجا فذا فريدا، ودراسته فيما يقول هو: ليست تاريخا ولا سيرة، وإن تضمنت شيئا منها، ولا ترجمة لابن قزمان، وإن ألقت بعض الضوء على حياته، ولا كتاب تقنية أدبية، وإن كتب عن هذا صفحات طويلة على امتداد حياته، ولا كتاب نقد. هل هو كتاب فقه لغة؟ الإجابة فيما يرى يمكن أن تكون بنعم أو لا.

ما الذى خطط له غومث فى هذا الكتاب؟

إنه فى جوهره دراسة موسيقا أزجال ابن قزمان، أو عروضها بلغة القدامى والغاية منه التدليل على فكرة آمن بها غومث عن بناء الزجل عروضيا، وأن ذلك يرتبط بعروض الشعر الرومانثى الإسبانى، وتطلب هذا منه أن يقوم بترجمة جميع أزجال ابن قزمان إلى اللغة الإسبانية فى عروض إسبانى معترف به، ويبرر اتجاهه هذا:

«شجعنى على ما صنعت أنه لا يوجد لديوان ابن قزمان نص واضح مضبوط ملزم، وإنما هو مخطوط سيئ النسخ يحتاج إلى تصويب متواصل، وهو خال من الشكل تقريبا، فإن وجد شىء من هذا فليس فى مكانه، ويجىء الإعجام من موضعه فى صورة تقريبية. إن ضبط نص عربى كلاسى أمر بالغ الصعوبة، ولكنه ممكن، أما النص العامى، والذى يختلط أحيانا بكلمات رومانثية، وقام بكتابته ناسخ مشرقى لا يعرف الأولى ولا الثانية، فأمر يكاد يكون مستحيلا، وأدى ذلك إلى أن القارئ، إذا كان مثقفا وعروضيا، يستطيع أن يقوِّم النص حسب البحر العروضى الذى يراه، وخاصة أن ابن قزمان يؤثر تسكين الكلمات فى الغالب، ما كان ذلك متاحا له، ومعها يجىء الزجل فى بحر معين، فإذا ضبطت الكلمة بحركة، فى آخرها أو وسطها حسب ما يتطلبه علم النحو أو الصرف، لم يضطرب الوزن، ولا المعنى، وإنما تغير البحر فحسب. وهكذا سمح غومث لنفسه أن يضبط النص مطبقا نظريته فى وزن أزجال ابن قزمان، دون أن يعير آراء الآخرين اهتماما، وأوضح المنهج الذى التزمه فى هذه القراءة. كان غومث الوحيد الذى قدّم لكل زجل باللغة الإسبانية، موضحا موضوعه، وقيمته الجمالية، وجوانبه الفنية، والمشكلات التى يثيرها، إن وجدت، وموثقا كل زجل، مبينا المصادر التى ورد فيها سواء أكان الديوان أم كتبا ودراسات أخرى، وترجم مقدمة ابن قزمان لديوانه، وشرحها فى إفاضة، وناقشها، وبسط نظريته فى الزجل، وما أورد من تاريخ له.

أورد نص الديوان باللغة العربية كاملاً، واستخدم فى ذلك الحرف اللاتينى، بعد أن بسط منهجه فى طريقة استخدامها، وهدف من وراء ذلك إلى تيسير القضية أمام العلماء المتخصصين فى الدراسات الرومانثية، من غير المستشرقين، فهم بهذه الطريقة يدركون بناء الزجل فى قافيته وخرجاته، أما المعانى فقد تكفلت بها الترجمة الإسبانية التى قام بها لكل زجل فى الصفحة المقابلة للنص العربى، وجاءت شعرًا إسبانيًا مقاربًا لبناء أزجال ابن قزمان، وبأسفل الصفحة فى الجانب العربى التصويبات التى ارتآها لقراءة من سبقوه، أو للكلمات موضع الشك والخلاف، كما أن كتابة النص بالحرف اللاتينى جعلت الخطأ فى ضبطه يكاد يكون مستحيلاً، ولو أن ابتداع النص بالحرف اللاتينى تعبر عن الحروف العربية التى ليس لها مقابل مثل الصاد والظاء والذال والعين والطاء وغيرها، عن طريق النقط فوق الحرف المقارب لها أو تحتها، جعل مهمة المطبعة صعبة ومرهقة، ومع ذلك ليس فى الكتاب على امتداده خطأ مطبعى واحد.

تناولت دراسة غومث، كما رأينا، ابن قزمان من كل جوانبه، ومن هنا كان عنوان الكتاب «إلى ابن قزمان To do Ben Quzman»، وأرسلت بالدراسات التى سبقتها إلى زوايا التاريخ. ومع ذلك كله، يعترف الرجل فى تواضع وقور بأنه أفاد من قراءة ودراسة كل الذين سبقوه، فى كل اللغات، ويعتذر سلفا عما يكون شاب الدراسة من نقص: «لا أحد يجب عليه أن يذكرنى بما يتضمنه عملى من أخطاء، لأنها موجودة، ولكنى لا أعرف أين، ولو عرفت لصححتها. ويختتم مؤلفه: لقد كتبت هذه

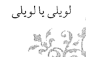
انتعشت الدراسات العبرية فى ظل ازدهار الحضارة العربية، فترجم اليهود «المقامات» إلى لغتهم، ثم احتذوها، وترجموها إلى اللاتينية، وساروا على خطى الشعر العربى جملة وتفصيلاً، فى شتى أنواعه



الأغاني الشعبية في صعيد مصر

غناء السواقي - من دندرة

يا ساقيه دوري يمين وشمال
واسقى العنب والخوخ والرمان
يالويلى يالولها يالويلى (نوع من التغزل)
سلامة الحمره من السكين
معايشه الفقرى والمسكين
يالولها يا لويلى
يا ورق الريحان مالَك دابلى
والعين سوده والحواجب سابلى
يالويلى يا لويلى
صاحبى جبار مارَشَالى (لم ينحاز لى)
حمِّل عليَّه حمول ماتنشالى
يالويلى يا لويلى
الحلس (نوع من السروج للبغال) قال للتور مالك ومالى
اسحب على باطك بلا جمالى
يالويلى يا لويلى
الزين على المعادى (الميعاد)
لابس قميص وفى إيده عاجى
لويلى يا لويلى
يا شايله البلاص دلّى اسقينى
يا حارده القصه علَى الجبينى
لويلى
ياما بكيت عليك يا رفيقى
كيف ما بكى الأعمى على الطريقى
لويلى يا لويلى
يا مطرزه الجبَّه (الزعبوط) لحدَّ الديل
يا محرمه العَشاق نوم الليلَ
لويلى يا لويلى







لم يكـن غـومث عجلاً من أمـره وهو يقترب من نـص ديـوان ابن قـزمان. أدرك واعيًـا ومبكـرًا صعـوبـة الأمر، وفداحـة المسئوليـة، فبدأ يتحسس طريقه إلى شخصه وأزجاله على مهـل، ولم يقـل مـا رآه الكلمـة الفاصـلة فى أمـره إلا بعـد أن عايشـه قـرابة نصـف قـرن مـن الزمـان

الدراسة مخلصا، وفى إخلاص أرجو أن يتقبلها القراء».

وبإخلاص أقرر أن الدراسة رائعة، شيء لا يعلى عليـه حـتى يومنا، ومع ذلك فـإن خطا منهجيا شابها منذ البداية: لقد بدأها الباحث بفكرة مسبقة، هى أن ابن قزمان صاغ أزجاله فى عـروض رومـانثى، وأن فكرة الموشـحـات والأزجال استلهمت فى بدايتها شعراً رومانثيا، دون أن يقدم نموذجا واحدا لقصيدة رومانثية جاءت فى هذا الشكل سبقت ابن قـزمـان أو مبتدع الموشحات، كما أنه تعامل بضراوة مع كل من اختلف معـه فى هذا الرأى، ومن جانب آخر بالغ فى الإطراء والثناء على كل من التقى معه فى هذا الاتجاه، وهم قلة على أى حال.



لم يكد غرسيـة غومث ينشـر ديوان ابن قـزمـان فى صـورتـه هذه حـتى أثار اهتمـامـا واسعاً وجدلا مستفيضاً فى دوائر المستشرقين والباحثين فى الدراسات الرومانثية خاصة، وكـان الحـوار بينه وبينهم يبلـغ حـد العنف أحيانا. فى عام ١٩٧٥ نشر ت.ج. جورتون T.g Gorton . بحثـا فى مجلة الأدب العـربى التى تصدر باللغة الإنجليزية فى لندن (المجلد ٦)، قدم فـيـه آراءه حـول «عـروض أزجـال ابن قزمان: دراسة كلاسيـة»، وأقام دراسة على أن أزجـال ابن قـزمـان تلتـزم العـروض العـربى الكلاسى، وهو ما ينكره غومث بشدة.

وبعـد عـام تقدم جـورتون إلى جـامـعـة أكسفورد برسالته للدكتوراه، وكان موضوعها: « ديوان ابن قزمان القرطبى دراسة عروضية وتحقيق الديوان كاملاً».

Diwan of Ibn Quzman of Cordob: A Metrical Study and Complete Critical Edition, 1976

وبعـدها نشـر مـقـالاً فى مـجـلة Arabica الفرنسية، لسان حال المستشرقين الفرنسيين (المجلد ٢٤، ١٩٧٧) بعنوان: «مشكلات نصية فى ديوان ابن قزمان»، اعترض فيه على قراءة غومث لكثير من نصوص الديوان وتأويلها، فى ثمانية وأربعين موضعًا، ورد عليه غومث فى مجلة الأندلس الإسـبـانيـة (المجلد ٤٣ عـام ١٩٧٨) فى أسلوب لاذع ساخر، كما هو شانه مع معارضيه دائمًا، مبررًا فيه قراءاته، وهو تبرير لا يثبت أمام الدقة العلمية المحايدة.



ولم تهدأ الحركة: فبعـد ثمانية أعوام من نشر تحقيق غومث، قام فيدريكو كورينتى القـرطبى Fedrico Cortiente de Cordovba، بنشر نص الديوان مرة أخرى، كاملاً ومحققًا، بمنهج مـختلف، وعلى أسس علمية لا صلة لها بالسابقين ويعد كورينتى عمدة الاستشراق الإسـبـانى الآن ومع أنه ولد فى كناريس (فى العربيـة الجزر الخالدات أو جزائر السعادة) إلا أنه من أصل قرطبى، كما يهدى إلى ذلك لقبه، وقد تزاملنا، هو وأنا، فى كلية الآداب فى جامعة مدريد المركزية، كان هو يدرس فى قسم اللغة العـربيـة فى مرحلة الليسـانس، وكنت أعد رسالتى للدكتوراه، وحصل على الليسانس فى اللغة العربية واللغات السامية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف، وبعيدًا عن هذه التقديرات الرسمية، وهى ليست مصيبة دائمًا، كان متميزًا حقًا، ينفرد بأنه بين كل المستشرقين على أيامه وفى وطنه، يتكلم العربية بطلاقة، على حين يكتفى الباقون بالقراءة والترجمة فحسب، وكان ينظم الشعر فى اللغة العربية، فى الوقت الذى لا يحسن فيه أنداده كتابة رسالة عربية الرونق والطلاء، وإن جـاءت صـحـيـحـة فى إعرابها وبنائها.

وبعـد تخـرجـه جـاء إلى القاهرة وهو فى نضارة الشباب مديرًا للمركز الثقافى الإسبانى ١٩٦٢ - ١٩٦٥، فازدادت معـرفـتـه بالعـربيـة اتساعـًا وعمقًا وصقلاً، وإن كانت مصر بعامة، والقاهرة بخاصة، تعيش فى تلك الفترة أسوأ سنى حياتها، ومسه وهو الأجنبى، شيء من لفح لهيبها، فبارح مصر إلى وطنه غير راغب فى مزيد من البقاء، فنقلته وزارة الخارجيـة الإسبانية مديرًا للمركز الثقافى الإسبانى فى تطوان عاصمة شمال المغرب، وفى عام ١٩٧٠ حصل على درجة الدكتوراه من جامعة مدريد المركزية، وفى العام نفسه اختارته جامعة بنسلفانيا فى الولايات المتحدة ليشغل فيها كرسى اللغة العربية واللغات السامية، وشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٧٦، وفى هذه السنة عاد إلى وطنه وشغل عن طريق المسابقة كرسى اللغـة العربيـة فى جامعـة سرقسطة، وظل بها حتى عام ١٩٨٢.

ولما كان يحس أن فى قسم اللغة العربية فى الجامعة المركزية فى مدريد من يدفعه عنها، ولا يتمنى رؤيته بين أساتذتها، دخل مسابقة شغل كرسى اللغة العربية فيها، إثباتا لكفاءته، وفـاز بـه، ولما حـقق غـايتـه آثر أن يعـود إلى جامعة سرقسطة من جديد، أستاذًا ورئيسا لقسم اللغة العربية، ويشغل هذا المنصب حتى الآن.

يتميز كورينتى (ويكتب التاء اللاتينية فى لقبه طاء، على طريقة الأندلسيين قديما وشعب المغرب حديثا) بتمكنه العميق من اللغة العربيـة واللغات السـاميـة، وقام بعمل أول معجم إسبانى عربى فى عصرنا الحديث، نشره المعهد الإسبانى العربى للثقافة عام ١٩٧٠،



إن كل نشرة لنص أدبى تثير من المشكلات ما يثيره مثل ديوان ابن قزمان، تحتاج إلى المراجعة من وقت لآخر، بحسب التقدم الذى تحرزه الدراسات النقدية حوله، دون أن يعنى ذلك انتقاصا من جهود المحققين السابقين

أدخل عليه كثيرا من الزيادات فى الطبعات التالية إلى أن بلغ حجمه ١٢٠٠ صفحة، ألحقه بمعجم عربى إسبانى نشره عام ١٩٧٧ فى ١٤٠٠ صفحة، نشره المعهد الإسبانى العربى أيضا.

فى المجال الأدبى كانت فاتحة إنتاجه شيئا أقرب إلى التحدى وإثبات الذات، فقد قام وهو لما يزل فى العشرين من عمره بأول ترجمة إسبانية كاملة لشعر المعلقات، ونشرها عام ١٩٦٦، ونوهت يومها بدقة هذه الترجمة فى إحدى المجلات العربية، وأسهم فى تحقيق بعض ذخائر التراث الأندلسى، ولكنه ما لبث أن صرف جهده كله إلى الجانب اللغوى فى تاريخ الأندلس، يتتبع لهجاته العربية فى خصائصها وتفرعها وتطور دلالاتها.

ولكورينطى فى المجال اللغوى إسهامات أخرى مهمة، فقد حقق المعجم العربى اللاتينى الذى أُلف فى القرن العاشر الميلادى، والمعجم العربى الإسبانى الذى ألف فى القرن الثالث عشر الميلادى، ومعجم بدرو القلعى الذى ألف فى القرن الخامس عشر، وبين هذه المؤلفات أعطى الأزجال والموشحات شيئا من عنايته: محققًا أو معلقًا أو دارسًا، إذ ليس من الممكن أن يتجه باحث إلى الدراسات اللغوية بعامة، وعامية الأندلس بخاصة، دون أن يعرض لابن قزمان، إنه ديوان الزجل الأندلسى الوحيد الذى وصلنا كاملا، ودفعه إلى هذا تحقيق غرسية غومث. وفر عليه كثيرا من الجهد، وذلل له العديد من الصعاب، فرأى أن يحقق نص الديوان من جديد، مستدركا ما فات غومث، وأن يدرسه موسيقيا أيضا، متخذا، منذ البدء طريقا مضادا له:

* أن ينشر النص فى حروفه العربية، متجها به إلى القارئ العربى أصلا، وإلى المستشرقين الذين يعرفون العربية، وكلاهما أحق به من المتخصصين فى الدراسات الرومانية، ولا يعرفون من العربية شيئا.

* أن يدرس الأزجال موسيقيا فى ضوء العروض العربى، وأن يبرهن على أنها فى بنائها هذا، ذات بناء عروضى عربى خالص.

وموضوعيا ومنهجيا الحق معه، وبذلك ألقى بنظرية غومث أرضا، وأتى عليها تماما، وجعل منها مجرد فرض ألقى به صاحبه، وافتعل له الوقائع والأحداث ليبرهن على صحته، وهيهات.

*عبر التحقيق صوّب أخطاء الذين سبقوه فى قراءة النص، بما فيهم غومث نفسه، وكان فى شرحه معانى المفردات أكثر توفيقا، فقد أفاد من كل الذين سبقوه، وهو يعترف بهذا، وأورد فى المقدمة الإسبانية منهجه فى عمله:

«إن كل نشرة لنص أدبى تثير من المشكلات ما يثيره مثل ديوان ابن قزمان، تحتاج إلى المراجعة من وقت لآخر، بحسب التقدم الذى تحرزه الدراسات النقدية حوله، دون أن يعنى ذلك انتقاصا من جهود المحققين السابقين، وبذلك تكون تلك المراجعات المتواصلة، بالإضافة إلى قيمتها الذاتية، اعترافا مجددا بفضل الرواد السابقين، لأنها تأكيد لفضلهم، وثمرة لجهودهم، وقد انبثقت عن تحقيق غرسية غومث للديوان دراسات كثيرة، على امتداد العالم كله، وهى التى حفزتنى إلى تأليف كتابى دراسات نحوية صرفية لمجموعة اللهجات الأندلسية، لأنه يقدم أول دراسة وصفية لتلك اللهجات، فى صورة مخطط هيكلى، ورأيت بناء على هذا التصور الجديد، إلى جانب ما وجه إلى التحقيق من ملاحظات، أن أعيد النظر فى عمل غرسية غومث الرائد، وأن أقوم بمراجعة دقيقة له، انتهيت منها إلى الملاحظات التالية:

* وجدت أن هناك عشرات من المواضع فى قراءته لنص الديوان تحتاج إلى تصويبات، فى ضوء دراساتنا للهجات الأندلسية، وما قدمه دارسون آخرون من نقاد على هذا التحقيق، فصوبتها.

* نشر الديوان فى حروف عربية على أساس أصله المخطوط، مما يسمح بمناقشة المشكلة الشائكة المعقدة المتعلقة بعروض الزجل... وكانت النشرتان السابقتان مطبوعتين بحروف لاتينية، يصعب على القارئ العربى متابعتها، ونحن نرى من حق هذا القارئ أن يكون بين يديه نص الديوان كما ألفه صاحبه، وكما كتبه ناسخه.

* لم أر حاجة لترجمة إسبانية جديدة للديوان خدمة للقارئ غير العربى، لأن الاستدراكات والتصويبات التى يقوم عليها تحقيقى الجديد تنصب على النص نفسه، وعلى تصورى لعروض الأزجال أما فيما يتعلق بمحتواها فلا يختلف فهمى للأزجال كثيرا عن فهم غومث الذى أقام عليه ترجمته لأزجال الديوان، وقد ذيلت صفحات الديوان بتعليقات تسمح للقارئ العربى أو الأجنبى المتمكن من العربية بفهم النصوص الغامضة أو الصعبة لكونها جاءت فى لهجة عامية.

جدير بالملاحظة أن كورينطى لم يتوقف عن إعادة النظر فيما انتهى إليه خاصا بعروض الأزجال والموشحات، ولم يتوقف عن الدرس والاستقصاء ونشر أبحاثه المتصلة بها فى المجلات المتخصصة المختلفة، وهى قضية لما ينته العلم فيها إلى رأى فاصل حاسم، ومطلوب من الباحثين العرب، وخاصة العروضيين منهم أن يأخذوا بحظهم فى هذا المجال وأن يقولوا كلمتهم فى هذه القضية، وأن يجعلوا منها، فى البداية على الأقل، مادة لأبحاث الماجستير والدكتوراه. ■

كتـاب الـزاويـة

الأغانى الشعبية فى صعيد مصر

غناء للعروسة

يا بت ياللى حجْلك (خلخالك) رنّ على الساق

رنّتُه فى المدينه سَمَعتُه بولاق

لا ادعى على صَايْغُه بقلّة الأرزاق

دا اللى عمله شلاشل هيج العشاق

يا بت ياللى حجلك رنّتُه رنّه

رنته فى المدينه سمعته جرجا

لا ادعى على صايغه بقله الرِّزْقه

دا اللى عمل له شلاشل هيِّم الْوَلْهَه

* * *

يا بتْ يَا مْبَنّه يا عاشقه هلّول

تحت من حردة قصتك طرح العنب بلّول (ذو خير كثير)

يا بتْ يَا مْبَنّه يا عاشقه القاضى

تحت من قُصّتك قُلَلْ وبرادى

يا بتْ يَا مْبَنّه يا عاشقه مرسى

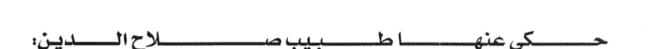
تحت من قُصّتك قُلَلْ على الكرسى

يا بتْ يَا مْبَنّه يا عاشقه اسماعيل

تحت من قُصّتك طرح العنب والتين







الإسكندرية قبل ثمانية قرون

محمد فؤاد الذاكرى

الإسكندرية أخيرًا. الإسكندرية قطر الندى، نفثة السحابة البيضاء، مهبط الشعاع المغسول بماء السماء وقلب الذكريات المبللة بالشهد والدموع.. اللسان المغروس فى البحر الأبيض يجلل جنباته النخيل وأشجار البلح ثم يمتد حتى طرف قصى حيث تفرقع فى المواسم بنادق الصيد.. فتحت شراعة الباب فى بنسيون (ميرامار) وماريانا العجوز ذات الشعر الذهبى المصبوغ والبشرة البيضاء الناصعة تدعونا للدخول إلى عالم ذكرياتها الواسع العامر الذى يموج بالحياة والانطلاق والذكريات السياسية.. الأنفوشى.. التأمل الطويل من الحجرات المطلة على البحر.. العجوز الذى يخفى جسده المحنط تحت بدلة سوداء من عهد نوح.. المتهم وهو يقبض بشدة على قضبان قفص الاتهام صارخًا فى المحكمة: يا فرحتك يا دنف، يا فرحتك فىّ يانعيمة يا ضباطى.

رحلة الإسكندرية

لم يكن نجيب محفوظ وحده الذى طرق باب المدينة الساحلية ذات التاريخ العريق، كما لم يكن إدوارد الخراط صاحب الاهتمام الأكبر بالثغر المتوسطى ولا أولئك اليونانيون، فقبل ثمانية قرون وبالتحديد فى عام (٥٦٧هـ/ ١١٧١م) كان السلطان صلاح الدين الأيوبى يقوم بزيارة مدينة الإسكندرية بصحبة وفد كبير بعد أن استتب له حكم مصر عقب وفاة آخر خليفة فاطمى وهو العاضد لدين الله فى نفس العام، والذى قطعت الخطبة له فى المساجد - بإيعاز من صلاح الدين - وأزيلت عنه بالتالى آخر مظاهر التكريم الصورية، وأقيمت للخليفة العباسى المستضىء بالله، لقد بذل صلاح الدين جهودًا ضخمة فى سبيل استقرار الأحوال فى مصر وضرب خصومه خاصة أنصار الدولة الفاطمية البائدة، فأخمد العديد من الحركات المناوئة التى قامت تهدد حكمه وتوحيد الجبهة المصرية مع الجبهة الشامية ضد الصليبيين وكان ذلك منطلقًا نحو تحرير القدس من براثنهم.

١ - طبع الإسكندرية
ابن جميع
تحقيق د. مريزن عسيرى، د. سعد البشرى.
مطابع جامعة أم القرى. مكة المكرمة.
١٤١٧هـ/١٩٩٧.

٢ - تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى
السيد عبد العزيز سالم
مؤسسة شباب الجامعة. الإسكندرية، ١٩٨٢.

كانت مصر قد شهدت فى تلك الفترة العصيبة صراعًا مريرًا بين وزراء الخلفاء الفاطميين الضعفاء، وطمعهم فى تولى الوزارة وتلاعبهم بمقاليد الحكم. مما أدى إلى إصابة مصر بالوباء وغلاء الأسعار وطمع الفرنجة فى الاستيلاء عليها، كما حدث العديد من الاضطرابات السياسية والحوادث المهمة، ومن أبرزها قرار الوزير شاور السعدى بإحراق مدينة الفسطاط خوفًا من استيلاء الفرنجة عليها.. يقول المؤرخ ابن الأثير:

وأمر شاور بإحراق مدينة الفسطاط تاسع صفر (٥٦٤هـ/١١٦٨م) وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن ينهب البلد، فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة وافتقر أهلها، وذهبت أموالهم ونعمتهم، قبل نزول الفرنجة عليهم بيوم خوفًا أن يملكها الفرنجة فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يومًا.



كان بين البطانة التى رافقت صلاح الدين فى رحلته إلى مصر شخص لا تكاد تخطئه العين، طويل شديد السمرة ذو نظرة نفاذة، تنفرج شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة باردة، يتكلم بأناة وتمهل ويختار ألفاظه وعباراته بعناية، ربط شعر رأسه الأسود الغزير على شكل ضفائر مجدولة، تكاد لا تظهر تحت الغطاء السميك الذى لا يستر رأسه، ولو سألت أحد العارفين ببواطن الأمور لأخبرك أنه من الأشخاص القلائل المخضرمين الذين حافظوا على مواقعهم فى أواخر الخلافة الفاطمية وحكم صلاح الدين، بل ازداد حظوة ونفاذًا، إنه الشيخ الموفق شمس الرئاسة أبوالعشائر هبة الله بن زين بن حسن بن افرائيم بن يعقوب بن إسماعيل بن جميع الإسرائيلى، ويعرف بلقبه المختصر ابن جَمِّيع، من الأطباء المشهورين والعلماء المذكورين، كان متفننًا فى العلوم، جيد المعرفة بها، كثير الاجتهاد فى صناعة الطب، حسن المعالجة جيد التصنيف كما وصفه المؤرخون، ولد فى الربع الأول من القرن السادس الهجرى فى مدينة الفسطاط وبها نشأ. وكانت تتصف بكثرة العمران وازدحام السكان والنشاط التجارى الواسع، وقد بدأ تحصيله العلمى وتكوينه الشخصى بها، لكن طموحه دفعه للسفر إلى القاهرة حاضرة الفاطميين، ليلتقى علماءها وأطباءها وينهل منهم العلوم والمعارف، وأبرزهم الطبيب الموفق أبى نصر عدنان بن العين زربى المتوفى (٥٤٨هـ/١١٥٣م) حتى إذا آنس من نفسه النضج العلمى اتجه للممارسة العملية فعاد إلى مسقط رأسه (الفسطاط) حيث اتخذ له (دكانًا) فى سوق القناديل يستقبل فيه المرضى ويعالجهم. ولكن حادثة عرضت له، صدق فيها حدسه وبراعته فى معرفة العلل غيَّرت مجرى حياته وأصابته الشهرة وبدأت الأنظار تلتفت إليه، رواها المؤرخ ابن أبى اصيبعة نقلاً عن بعض المصريين، مفادها أن ابن جَمِّيع كان يومًا جالسًا فى دكانه بالفسطاط فمرت عليه جنازة، فلما نظرها صاح بأهل الميت أن يقفوا وذكر لهم أن صاحبهم لم يمت وإن هم دفنوه فسيدفنوه حيًا، فتعجب أهل الميت وبهتوا لقوله وبعد مداولة بينهم قرروا أن يعالج المتوفى على سبيل الامتحان، فذهبوا به إلى المنزل وخلعوا عنه أكفانه، فغسله ابن جَمِّيع بالماء الحار وعالجه ببعض العلاجات التى أسخنت جسده ثم غطسه فى المياه، فإذا به يتحرك ببطء فبشرهم بعافيته وأتم علاجه حتى أفاق وسُئل بعد ذلك: كيف عرف أن ذلك الرجل لم يمت عندما مرت به الجنازة؟ فقال: إنى نظرت إلى قدميه فوجدتهما قائمتين وأقدام الذين قد ماتوا منبسطة فحدست أنه حى، وكان حدسى صائبًا. كانت ضربة حظ موفقة ظهرت عنه كالمعجزة، وإن لم يكن لها أى أساس علمى.

أطبـــاء صـــلاح الدين

شعر صلاح الدين بحنكته السياسية بأنه لن يستقر له حكم مصر إلا إذا تعرف بشكل وثيق على طبيعة البلد وأحواله، وكقائد عسكرى مجرب كان عامل الوقت لديه مهمًا، وأخذ زمام المبادرة سيكسبه أكثر ولاء عامة الناس الذين راقبوا ببساطة خلع الفاطميين (الشيعة) وإعادتها إلى الأغلبية (السنية)، وانحسار نفوذهم وقوتهم التى امتدت خارج حدود مصر الطبيعية وصولاً إلى بلاد الشام، نزولاً إلى اليمن وانتشارهم على الساحل المتوسطى، كان دعاتهم فى كل مكان يبثون الدعاية الفاطمية يساندون الولاة والحكام المحليين ومن لا يتعامل معهم كان مصيره الغياب والسقوط.

أدرك صلاح الدين حجم التحدى الذى يواجهه فقرر الاستعانة بخبراء على درجة من الكفاءة والأهمية يكتبون له عن الأحوال ويشخصون له العلل والمصاعب ويقترحون عليه التصورات المطلوبة للتغيير والإصلاح، وقد أحاط نفسه بعديد من العلماء وما يهمنا منهم الأطباء البارزون ومنهم: هبة الله بن جميع والطبيب أبوالبيان المدور وأبوالفضائل ابن الناقد وأبوالمعالى بن تمام.. موفق الدين بن المطران.. ولم تكن مهمة هؤلاء بطبيعة الحال تقتصر على المعالجة والطبابة، بل كان عملهم أعمق من ذلك، كانوا مكلفين بالكتابة أى تقديم تصوراتهم الفنية بحكم اختصاصاتهم للنهوض بالصناعة الطبية فى الديار المصرية،

وكانت العلاقة بين صلاح الدين وأطبائه غامضة إلى حد ما، فقد كان يستفيد من خدماتهم وقدراتهم ويوجهها نحو الصالح العام، ولكن بعض المستشارين استفادوا من تلك المزية واستغلوها لحسابهم، فبدأت تظهر عليهم بعض مظاهر الفساد واستغلال السلطة يشرحها (ابن أبى اصيبعة) فى سياق حديثه عن الطبيب (ابن المطران): «كان له حُسن اعتقاد فى ابن المطران لا يفارقه فى سفر أو حضر، ولهذا فإنه غمره بإحسانه وأترفه بامتنانه، وكان يغلب على ابن المطران الزهو والتكبر حتى على الملوك وكان صلاح الدين قد عرف ذلك ويحترمه ويجله لما قد تحققه من علمه وأسلم ابن المطران أيام صلاح الدين).



وقد بلغ من نفوذ (ابن المطران) حدًا، جعله يتنافس مع (صلاح الدين) فى اللباس والفرش، ومن المعروف أنه من عادة صلاح الدين فى وقت حروبه أن ينفرد بنصب خيمة حمراء ويذكر أنه كان يستعرض الجيش والخيام المنصوبة فى إحدى الغزوات لاحظ وجود خيمة أخرى حمراء اللون، ولما استفسر عنها تبين بأنها عائدة لابن المطران (طبيبه الخاص)، فقال متعجبًا: ما بنا ألا يعبر أحد من الرسل فيعتقد بأنها لأحد الملوك.. وأمر بتغيير لونها، فصعب الأمر على (ابن المطران) وغضب حتى استرضاه السلطان ووهب له مالاً، ولابن المطران من الكتب: «المقالة الناصرية فى حفظ الأمور الصحية» قصد فيها الإيجاز والبلاغ، وقد رتبها أحسن ترتيب وجعلها باسم السلطان الملك الناصر صلاح الدين، و«المقالة النجمية فى التدابير الصحية» وصنفها لنجم الدين أيوب والد صلاح الدين، وكتاب «آداب طب الملوك»، كتاب «بستان الأطباء»، كتاب «الأدوية المفردة» كما كتب (ابن جَمِّيع) المقالة (الصلاحية فى إحياء الصناعة الطبية) بناء على طلب السلطان صلاح الدين، كما شرح فى مقدمة مقالته: «أن السيد الأجَل، الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان.. فحين فرغ من وجود السياسة وحياطة أرجاء المملكة ورأى أن النظر فى صناعة الطب من أهم الأمور النافعة وأعمها وأعظم المصالح وأتمها، وحركته سجيته الفائضة بالجود ورغبته التامة فى الخير إلى النظر فيها والالتفات إليها.. قد أجرى مع المملوك الناشئ فى أيامه، المتقلب فى حال وجوده وإنعامه، هبة الله بن زين الدين بن جميع كلامًا فيما قد آلت إليه فى هذا الوقت من الدثور والدروس وامتحاء المحاسن والطموس واستيلاء الجهل والتقصير على جُلِّ المتوسمين بها والمنتسبين إليها، ألف المملوك هذه الرسالة وجعلها مشتملة على الإشارة إلى طريق إحياء هذه الصناعة ونشورها وتجديدها بعد دثورها مع ما يليق أن يقدم لذلك ويوطأ له».

ولا ريب بأن (ابن جَمِّيع) كان يحظى بأهمية فى بلاط (صلاح الدين) حتى يوجه الخطاب إلى السلطان شخصيًا ويقترح عليه جملة أمور لإصلاح الصناعة الطبية وتنظيمها وتخليصها من العوائق التى تعيق أداء خدمات الطبيب بشكل صحيح ومنتظم. والظاهر أن الموضوع كان حاضرًا فى ذهنه، فمقالته أشبه بتقرير رسمى رفعه إلى السلطان حيث يتحاشى الإطناب ويستخدم عبارات واضحة مختصرة لا لبس فيها، يتظاهر (ابن جَمِّيع) بأن الثقافة الطبية يونانية المذهب، ويكشف جوانب من تحصيله العلمى حيث أتقن علوم الفلسفة والطبيعة والفلك والرياضيات ويدين بالفضل لأبقراط وجالينوس ويعتبرهم المصادر الأصلية الذين لا يستغنى عنهم بالرغم من الاعتراضات التى ظهرت حول آرائهم فى زمنه وشارك فيها بتتبع بعض أعمال جالينوس بالنقد خاصة فيما يتصل بحديثه عن النبض الخاص بحميات العفن فلم يستكمل ويستوف الشرح الكافى، ولم يلتزم القانون أو القاعدة الطبية المتبعة حينها فى تدبير غذاء أصحاب الحميات.



إن موقف (ابن جَمِّيع) يثير الاستغراب والتساؤل، فهو يدافع عن جالينوس دفاعًا مستميتًا برغم أخطائه وعثراته، ويزدرى فى الوقت عينه الأطباء المحدثين، أى أطباء الحضارة الإسلامية من مسلمين ونصارى ويغفل دورهم المهم، بل وصل انتقاده لكتاب أستاذه فى تعليمه الطبى أبونصر العين زربى المتوفى (٥٤٨هـ/١١٥٣م) وهو (الكافى فى الطب) كما ذكر فى معرض تعريضه بالأطباء المحدثين كتاب: «المسائل فى الطب» لحنين بن إسحق (ت ٢٦٠هـ/٨٧٣م) وهو من أهم المصادر الطبية والمدخل إلى صناعة الطب، وكتاب (كامل الصناعة الطبية) لعلى بن العباس (ت ٤٠٠هـ/١٠٠٩م) وكتاب «المنصورى» لأبى بكر الرازى، وكتاب (المغنى فى الطب) لسعيد بن هبة الله بن الحسين (ت ٤٩٥هـ/١١٠١م) ويصفهم قائلاً: «فأما من أتى من بعد هؤلاء من المحدثين الذين وضعوا الكنانيش ونحوها فإن أكثرهم توهموا وأوهموا الاستغناء بما وضعوه فيها من كتب القدماء ومنهم من صرح بذلك كالذى سمى كتابه (كامل الصناعة الطبية) والذى سمى كتابه المغنى أو الكافى وهم فى هذه التسميات كالذى يسمى الغراب أبا البيضاء واللديغ سليمًا)، وهذا يدل

كانت العلاقة بين
صلاح الدين وأطبائه غامضة
إلى حد ما، فقد كان يستفيد من خدماتهم وقدراتهم
ويوجهها نحو الصالح العام، ولكن بعض المستشارين استفادوا
من تلك المزية واستغلوها لحسابهم فبدأت تظهر
عليهم بعض مظاهر الفساد
واستغلال السلطة



على (ازدواجية) تتحكم في تفكيره ومزاجه، فهذا الطبيب اللامع بعد أن بلغ درجة عالية من الشهرة تنكر لهؤلاء الأعلام الأفذاذ في التاريخ الطبي بحجة أن قراءتهم لا تفيد شيئًا ولا تعود على الطبيب بأي نفع، وأعلن انحيازه الكامل لمصادر الطب اليوناني القديم، مع أن أعلام الأطباء العرب ورثة الإغريق في العلوم الطبية تحديدًا، وهو بذلك يكشف عن جانب عنصري فهو من خلال وجوده في بطانة (صلاح الدين) لم يكن في قرارة نفسه مخلصًا للحضارة الإسلامية التي يدين بالفضل الكبير لها، فقد ترعرع في حماها وتلقى علومه الطبية واكتسب مهاراته العلمية من خلال جو التسامح والتآلف الذي كان سمة مميزة لأغلب حكام المسلمين.

لقد واصل الهجوم على أكثر أطباء العراق والشام في ذلك الوقت بدون تحديد أو تسمية واعتبر أنهم مخطئون في أصل عظيم من أصول الطب، وهذا يدل على نزعته الاستعلائية وتفرده، والواقع أنه لم يقدم اقتراحات نافعة مفيدة ومحددة تؤخذ بالحسبان أو تفيد في إصلاح وتنظيم وصنع الأطباء، بل كان هجومه منصبًا على فئة الأغنياء من القوم وفئة العامة واعتبارهم سبب المشاكل والصعوبات التي تعتري عمل الأطباء، وقد يكون في كلامه جانب من الحقيقة، ولكنها ليست كل الحقيقة فهو يرى أحد وجهيها ويغيب عنه الوجه الآخر متعمدًا، فجهود السلطان صلاح الدين في إنشاء البيمارستانات (المشافي) الطبية لا تخفى على أحد بشهادة مؤرخي العصر، فالسلطة الحاكمة في ذلك الوقت لم تقصر في تأمين الخدمات الطبية المجانية لأفراد الشعب كما ذكر ابن جبير في رحلته المعروفة والواقع أن ابن جمّيع كان همه في مقالته (الصلاحية) التهجم على الوضع الاجتماعي القائم الموجود في مصر حينذاك من خلال انتقاد تصرفات بعض الأطباء وكشف بعض العيوب الاجتماعية الموجودة والتي لا تنفرد بزمان ومكان واحد، ويتميز بيانه في الكلام وسرعة خاطره وفصاحته اللغوية وهو الحريص على صحبة كتاب (الصُحاح) للجوهري، جعلت منه حاضرًا فصيحًا في العربية وتحقيق ألفاظها والتستر وراء معانيها المتشعبة، هذه المواقف أسفرت عن مساجلات وخصومات شديدة مع أبناء عصره ولا يفوت ابن أبي اصيبعة إيراد هجاء مقذع في حقه أنشده الشاعر ابن المنجم المصري:

كذبت وصَحَّفتَ فيما ادعيت
وقلت أباك جَمِّيع اليهودي
وليس جَمِّيع اليهودي أباك
ولكن أباك جميع اليهود

رسالة في طبع الإسكندرية

أصبح ابن جَمَيع شخصية متميزة بفضل معرفته القوية بالطب والنباتات والأغذية، ولعل ذلك من أقوى الأسباب التي دفعت صلاح الدين لأن يطلب منه البقاء في الإسكندرية لتقديم تقرير وافٍ عنها ولأحوال أهلها الصحية وأمراضهم، وقد بقي فيها مدة كافية، درس أحوالها دراسة متقصية وخالط أهلها وطبيبهم وتعرف على عللهم وأسبابها، وسجل مجمل مشاهداته واقتراحاته في كتاب دعاه (رسالة في طبع الإسكندرية وحال هوائها ونحو ذلك من أحوالها) وكونه خبيرًا محنكًا حرص على جمع معلومات كافية عن مدينة الإسكندرية قبل زيارتها من خلال روادها وزوارها وقراءة ما كتب عنها.

لقد اعتمد على مصادر متنوعة منها الخطية والمسموعة والمرئية، وفي مقدمتها ما رواه واستمله عن شيخه أبوالحسن علي بن سليمان المعروف بابن البواب، ومصادره المكتوبة تعود إلى أبقراط وجالينوس وابن سينا في كتابه (القانون في الطب) الذي أصبح منذ القرن الخامس الهجري من أشهر الكتب الطبية لدى الأطباء جميعًا وكتاب (دفع مضار الأغذية) لأبي بكر الرازي، أما المشاهدات الشخصية والتجارب فهي أهم مصادر ابن جُمَيع لما تحويه من معلومات وإشارات مهمة عن الإسكندرية وجغرافيتها وهوائها ومياهها وحياة أهلها في معاشهم وعاداتهم وتقاليدهم وطباعهم وغذائهم وأعمالهم، وما يتعلق بذلك بالنواحي الصحية وما استخرجه من ممارسته من آراء وأفكار حول أنجح الطرق والوسائل لتطبيبهم وإصلاح أمورهم.



يبتدئ ابن جَمِّيع رسالته (في طبع الإسكندرية) بإقرار قاعدة أساسية تتعلق بضرورة معرفة الطبيب لطبيعة وأحوال البلد الذي يباشر فيه عمله معرفة تامة فيقول: (إن الطبيب لا يمكنه أن يعالج أحدًا من أهل بلد من البلاد كان علاجًا صوابًا دون أن يكون عارفًا بطبيعة ذلك البلد وحال هوائه ومائه وتدبير أهله ونحو ذلك من أحواله وما يوجبه وتقتضيه من الأمراض وقوانين المعالجات، اللهم إلا أن يكون ممن يقنع بالطب من التسمية دون المعنى وبالشبيه دون الحقيقة). وقد قسم رسالته إلى أحد عشر بابًا، استهله بوصف لمدينة الإسكندرية في القرن السادس الهجري فيما يخص طبوغرافية المدينة وتحديد موقعها من خطوط الطول والعرض وحدودها الجغرافية وموقعها من البحر ومن النيل، وما يجاورها من الملاحات والمزارع والأراضي المخصصة لزراعة البقول ومقابرها (أكثرها داخل المدينة تحويها سورها وبعضها خارجة عنه إلا أنها تحته قريبة جدًا منه) كما يقول وتلالها وروابيها مثل (كوم الدكة) وكوم (عمرو بن العاص) ويقع من غربيها إلى جنوبها، ومدينة الإسكندرية مكشوفة لسائر الرياح غير محجوبة عن شيء منها بجبل أو نحوه بل سائر الرياح تهب عليها وتخرقها وتتسرب فيها، وأبنيتها غير مرتفعة كثيرًا وشوارعها متسعة جدًا وليست بمسقوفة أو مغطاة من الشمس والأمطار، ثم يعطي وصفًا كاملاً لأرض المدينة ومدى صلاحيتها لنشأة المدن وما هو المعمور منها وأقسامها وصورة واضحة عن جغرافيتها وأزقتها وميادينها ومزارعها ويتحدث عن أرباض الإسكندرية فيذكر أن أفضلها هو منطقة الجزيرة، والسبب هو قلة العمارة بها، فإن ذلك أقل لاجتماع الأقذار والأوساخ والعفونات المفسدة للهواء فيها التي تكثر في المدينة بالمواضع الكثيرة العمارة ويتلوها في الجودة الموضع المعروف بكروم الرمل، وذلك لاستيلاء الشمس عليه وبقلة العمارة الموجبة لقلة العفونات، وثمرته في غاية الجودة على مياه المدينة لأن فيها عيونًا عذبة طيبة شروبة صافية، أما الجانب الشرقي من المدينة فتسكنه قبيلتا (لخم وجذام) فهو أجود هواء من الجانب الغربي لأن هواءه أقل رطوبة وألطف لبعده عن البحر ولأنه أقل عمارة أيضًا من الجانب الغربي وأفسح أبنية وأقل ارتفاعًا وانعكس ذلك برأيه على صحة سكانه وأشكالها فهم أحسن بشرة وأجسامًا وأشد سمرة وألوانًا وأكثر بدوًا وأقل أمراضًا، وصار سكان الجانب الغربي أنعم بشرة وأخصب أجسامًا وأقرب ألوانًا إلى البياض والسمرة الرقيقة وأكثر تحضرًا وتهذبًا وأمراضًا.



من الواضح أن المؤلف يجمع عدة موضوعات (الهواء، المياه، المكان) ودراستها في حد ذاتها جغرافيًا وطبيعيًا وعلاقتها بحياة الإنسان، وفي النهاية علاقة ذلك كله بالناحية الصحية، ففي الباب الثاني يتحدث عن هواء الإسكندرية ومناخها وتأثيرها على حياة أهلها فيذكر أن المناخ يميل إلى الحرارة والرطوبة لمسامتة أشعة الشمس لرؤوس سكانها وطول مقارنتها لها، ويربط تأثير ذلك على الصفات الشكلية الشخصية لأهلها وأخلاقهم فيقول: «ولهذا غلب على أهلها الاحتراق وسواد اللون والشعور وجعودتها ومخالفة الوجوه وفضاضة الأبدان ووحشة الأخلاق»، والمؤلف متأثر بتقسيم المعمور من الأرض إلى سبعة أقسام من الشمال إلى الجنوب وتسمية كل قسم إقليمًا، وهو ما اتفق عليه الحكماء والعلماء القدامى ابتداء من بطليموس مرورًا بالجغرافيين العرب أمثال: المسعودي وابن خرداذبة وابن حوقل والإدريسي، فتكون الإسكندرية واقعة في (الجزء الخامس) من الإقليم (الثالث)، وكما ربط القدماء تأثير الهواء في ألوان البشر فيقول ابن سينا في أرجوزته في الطب:

بالزنج حر غيّر الأجسادا
حتى كسا جلودها سوادًا
والصقلب اكتسبت البياضا
حتى غدت جلودها بضاضا

أما ابن خلدون فيذكر (طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء) ويشرح أن الزنوج اختصوا بلونهم لأن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ عليهم وتسود جلودهم لإفراط الحر. أما البلاد التي يضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها، ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور (الشعور الشقراء)، وأثر الهواء في أخلاق البشر واضح فالزنوج (أسرع فرحًا وسرورًا وأكثر انبساطًا) ويلحق بهم أهل البلاد البحرية فتكون حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة، أما أهل المناطق الباردة فترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى أن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئًا من مدخره.

فالإسكندرية تقع ضمن الأقاليم الثلاثة المتوسطة وأهلها كما وصفهم ابن خلدون أهل الاعتدال في خَلْقهم وخُلُقهم وسِيَرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرئاسات والملك، فكانت فيهم النبوات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والأمصار والمباني والفراسة والصنائع الفائقة وسائر الأحوال المعتدلة. وتشمل هذه الأقاليم العرب والروم وفارس واليونان وأهل الهند والصين. في الباب الثالث يستكمل المؤلف تأثير الهواء الرطب الحار للإسكندرية على الأطعمة والأشربة، فيذكر أن الحرارة مع الرطوبة إذا اشتدت لها تأثير كبير على الأطعمة والأشربة، لذلك يعمد الأهالي للحفاظ على أنواع الحبوب مثل القمح الذي يعتمدون عليه كثيرًا في غذائهم والشعير والباقلاء والعدس بتخزينها في الخوابي والجرار بعد سد فوهاتها سدًا محكمًا حماية لها من التسوس، كما كان القدماء يعتقدون أن الأوبئة والأمراض الوافدة تأتي وتستقر مع الرياح العفنة وركودة الهواء الذي يكون الأبخرة الفاسدة، ويلاحظ أن قلة ارتفاع أبنية الإسكندرية واتساع شوارعها وأزقتها وانكشافها لشعاع الشمس جعل الأبخرة الرديئة في هوائها أقل وأبرد، وسبب آخر هو هبوب الرياح عليها وتمزقها لها يفرق شمل ما يجتمع في جوها من تلك الأبخرة ويبدده، فيجتمع بذلك من تكاثفه وتراكمه المفسد للهواء الجالب للعفن، ويفصّل حالة الرياح التي تهب على الإسكندرية فيعتبر أن الرياح الشمالية المعروفة بـ (الملابن) الأفضل لأنها تكسر سورة القيظ وتعدل الحر لأنها تجتاز البحر وتترقرق على الماء فيبردها



فتكون لذلك طيبة مستلذة مصلحة أما الرياح الجنوبية فتأتي حارة شعثة رديئة لما يخالطها من أبخرة الريف والبطائح والمزارع والسباخ.. وإذا هبت اشتد الحر وتوهج وهذا حال الرياح البلدية بها.



والباب الرابع من أهم الأبواب يتضمن أمر المياه ومصادرها وأنواعها، حيث إن أهل الإسكندرية يعتمدون مياه الأمطار ومياه الآبار في شربهم، وماء المطر أفضل لرقته وعذوبته ولطافته وخفته، إلا أنه سريع التغير إلى الفساد وقبول العفن. والسبب هو طريقة تخزين مياه الأمطار الساقطة على أسطح المنازل حيث تسير ضمن قنوات لتصب بعد ذلك في صهاريج مصنعة أو أحواض تجمع فيها، لتستخدم بعد ذلك في الشرب وأغراض أخرى. وينتقد ابن جميع العيوب الفنية لهذه الطريقة لأن أسطحة المنازل مصنوعة من الجير والرمل الرقيق والحشيش وهي غير محكمة الصنعة ومعرضة لتأثير أشعة الشمس وهبوب الرياح وهبوط الأمطار بشدة، مما يؤدي إلى تحات الطبقة السطحية وانفصال بقايا منها، تختلط مع مياه الأمطار التي تحمله بالإضافة إلى ما تسحبه المياه في طريقها من فضلات الطيور والسنانير وما يتولد على الأسطحة من الأعشاب والطحالب والعفن، أضف إلى أن المياه المجمعة في الصهاريج قد يطول خزنها لفترات طويلة مما يؤدي لتغير رائحتها وطعمها وفسادها وتسبب الأمراض مثل: الحصى والقروح في المثانة والكلى وعسر البول وحرقته وبول الدم.

أما مياه الآبار فهي لا تصلح للشرب لأنها في الأصل غير عذبة تغلب عليها الملوحة إلا إذا داخلها ماء النيل، الذي يعتدي عليه السكان فيغتسلون فيه ويغسلون دوابهم والثياب والكتان والصوف والبقول ثم يدخل إلى القنى المتصلة بالآبار مما يؤدي إلى تلوث مياهه، ولاحظ المؤلف أن أكثر شوارع مدينة الإسكندرية مبسوطة بالحجارة الصوان السوداء الصلبة بسطًا محكمًا ومع تقادم الزمن عليها، فإن أكثرها قد قلع وانتزع فصارت المياه الملوثة تتسرب عبر التربة إلى الأقبية والآبار، ويذكر تجربة شخصية حدثت معه حيث تغير طعم ورائحة ماء البئر في منزله بعد نزول المطر بيومين، ولما استفسر فوجئ بأن جميع أهل الحارة يعانون مثله، ويشرح مضارها على الصحة العامة ليستدرك أن طول الاعتياد يقلل مضارها وما هي عليه من الفساد.



في الباب الخامس يتعرض المؤلف للأغذية والأشربة التي يتناولها أهل الإسكندرية وفي مقدمتها الحنطة (القمح) ولها أنواع ثلاثة، الرومية (رزينة صلبة عسرة الطحن محتاجة قوة هضم) الريفية (خفيفة هشة هينة الطحن سهلة الهضم)، أما المصرية فمجلوبة من صعيد مصر، والحيوانات من أهمها الأغنام وهي مستوردة وتعرف (بالأغنام البرقية) والبلدية (المحلية) ويفضلها ابن جميع أكثر لأنها أخصب أبدانًا وأرخص لحومًا وألذ طعمًا وأسهل هضمًا لاسيما الصغار منها، أما الأسماك فمنها النهرية (الراي والابسارية والبلطي) لكن لا يحمدها لأنها تصاد من الخليج والترع المتفرعة عنه، وقد ذكر حال مياهها وتلوثها مما ينعكس سلبًا على الأسماك، ويفضل الأسماك البحرية وتبقى مشكلة سوء تخزينها حتى تصل إلى المستهلك، وأنواع الخضروات التي تشتهر الإسكندرية بإنتاجها فمنها: الكرنب والقنبيط والجزر واللفت والقرع والسلق والكراث والبصل وأجودها ما يجلب من (اتكو) وهي بليدة قديمة قرب رشيد، والباذنجان أجوده ما جلب من (فوة) وهي بليدة على النيل قرب رشيد، أما الفواكه فأشهرها: التين التوني (نسبة إلى جزيرة تونة قرب تنيس ودمياط) والعنب الشنقاري أو (الشنراقي) والتفاح الشتوي واللوز الرميلي والكمثرى (البلدي) أما الرطب (ثمر النخل) فلا يحبه ابن جميع، يصفه (صغير الحجم عظيم العجم هش ملتف اللحم قليل غير لذيذ الطعم).



في الباب السادس مخصص لتدبير أهل الإسكندرية والمقصود (بالتدبير) هو (التصرف في الأغذية والأشربة والحركة والسكون والنوم واليقظة والاستفراغ والاحتقان والأعراض النفسانية)، ويقدم رأيه الشخصي بعين نقادة فاحصة ويذكر بداية أن حكمه مبني وقائم على ملاحظة حال الأكثرية والأغلبية، فيقرر أن سوء التدبير في شؤون الحياة اليومية هو الغالب على المجتمع وارتباط ذلك بشؤون الصحة العامة، ويلاحظ أن الغالبية يميلون إلى تعدد ألوان الطعام وأصنافه والاستكثار منها، مما يؤدي إلى التخمة وسوء الهضم وكثرة (الفضول) في البدن، فهم يستخدمون الحنطة الفاسدة في صنع الخبز، أو يخلطون النوع الجيد بأنواع مخزنة لفترات طويلة فتغيرت وفسدت وذلك لقلة اهتمامهم أو تدني الوعي الصحي، كما لا يعيرون أهمية للقيمة الغذائية لبعض الأغذية التي يتناولونها، مثل نبات (المستعجلة) Satyrium وهو مشهور وينبت بظاهر المدينة ويخرج إليه الأهالي في يوم الموسم المعروف (بيوم اللحات) ويكون لهم فيه مقام مشهود فيأكلون منه شيئًا كثيرًا في ذلك اليوم، ومن الشقاقل الشامي Shekakul (شجر من جنس اليقطين) والمعروف عندهم (بجزر الصحراء) ويتناول البعض لحوم الحيوانات التي يجلبها الصيادون (بقر الوحش والغزلان) وربما أكل البعض أيضًا لحوم الضباع والذئاب والثعالب، ولا يذكر المؤلف الأسباب أو الدواعي ويكتفي فقط بالمشاهدة والعرض ويحاول إظهار حياده في استعراضه للعادات الغذائية ويبين رأيه فيما يتعلق بالجانب الصحي، والآثار السلبية على جسم الإنسان وصحته، ومما يجدر ذكره أن لحوم الحيوانات المذكورة كانت تدخل في المكونات التركيبية لبعض الأدوية المستخدمة سابقًا، ولم يكن هناك أي حرج في استخدامها.

وبالنسبة لأنواع الأطعمة فهي: بيض السمك المعروف (بالبطاريخ) والعصافير الطرية المملحة واللبن والجبن الطري والعتيق والحلوى والناطف المصنوعان من عسل النحل الرومي وعسل القصب الشامي والعسل نفسه. وترد فقرة تلفت الانتباه حيث يذكر أن جمهور أهل الخلاعة والمجون يشربون الخمور المجلوبة من بلاد الروم وعن طريق تجارهم وينبه إلى أن باعة هذه الخمور من (الروم) كثيرًا ما يغشونها بماء طبيخ الجزر أو التمر بغية زيادة الربح المادي بطبيعة الحال، وضررها معروف فهي تولد الحصى في الكلى و(السدد) في الطحال والكبد. ويعلق الدكتور عبد العزيز سالم حول الموضوع أن السواد الأعظم من أهل الإسكندرية ممن يشرب الخمور هم من غير المسلمين وقد كثروا في تلك الفترة وأغلبهم من تجار الروم وكذلك اليهود وكان لهم حارات مخصصة، ويذكر (المقريزي) خبر التجار الإفرنج عندما ثاروا بالإسكندرية سنة (٦١٢ هـ/١٢١٥م) وكان عددهم ثلاثة آلاف، وكان صلاح الدين الأيوبي قد أمر بغلق حانات الخمر وهدم بيوت صناعتها وهدم فيها مائة وعشرين بيتًا.

وقد اعتاد أهل الإسكندرية السفر في البحر لجلب رزقهم ومعيشتهم لعدم وجود فرص عمل كافية تستوعب إمكانياتهم وطاقاتهم الكبيرة، وهم كثيرو الرياضة، بل التعب والنصب في الأعمال، كثيرو الارتكاض والأسفار في البر والبحر والتنقل في البلاد، صبورون على طول التغرب عن الأهل والأوطان لقلة مكانتهم وضيق معايشهم وخاصة في المدينة وحرصهم على الغنى وجمع المال، وأكثريتهم معتادة على الخروج ليلاً بصحبة أولادهم ونسائهم للمشي في شوارع المدينة الفسيحة والنزهة في الليالي المقمرة وخاصة في المحجة العظمى، وهو طريق فسيح كان يمتد من باب رشيد شرقًا إلى الباب الغربي، كما يكثرون من السهر وبالتالي عدم انتظام نومهم أو قلته ومع تأكيد المؤلف بأن هذا النهج له آثار صحية سيئة، فهو يقرر أن اعتيادهم لذلك واقترانه بالانبساط والتفرج يقلل مضاره، وفي ذلك تعبير لمحاولات الإسكندرانيين التخفيف عن نفوسهم وصدورهم من ضغط العمل اليومي والتفكير في المستقبل فهم سريعو الغضب.. يعسر زوال الانفعال الحاصل فيهم عند الغضب.. كثيرو الاهتمام متعوبو الفكر والروية بأمر الأموال. وينبه المؤلف أن أحكامه لا تشمل الجميع، هو يتجنب الوقوع في مزالق التعميم ويذكر أنه إنما يذكر حال الجمهور والأكثر ويعطي جانب الشهادة والحس اهتمامًا كبيرًا فلا يكتفي بسماع الأقاويل والدراسة النظرية، فمن المعروف أن مصر قد خضعت قبل الفتح الإسلامي لسيطرة الدولة الرومانية منذ (٣١ ق.م) حتى (٢٨٤م) وكان الطبيب اليوناني جالينوس قد عاصر قسمًا من هذه الفترة وقام برحلات علمية إلى أثينا وروما والإسكندرية مرورًا بجزيرة قبرص وكريت حتى وصل إلى مدينة أسيوط في صعيد مصر، وقام بتدوين ملاحظاته الكثيرة حول عادات الشعوب التي قابلها وصادفها ومن بينهم سكان الإسكندرية، حيث يذكر أنهم يأكلون العصائد والعدس والأصداف والسمك المالح، وكثير منهم يأكلون لحم الحمير، ويتوقف ابن جميع عند هذه الملاحظة ويقرر أن هذه العادة الرومانية زالت بزوال حكمهم وسيطرتهم، أما الأمراض البلدية المستوطنة التي صادفها عندما خالط أهلها وطببهم وتعرف عللهم وأسبابها فمن ضمنها: الحميات الحادة، الجدري، الحصبة، السعال، أوجاع المفاصل، القولنج، القروح، عسر البول وحرقته.



بعد عرض دراسته الشاملة المتقصية للمدينة وأحوال أهلها الصحية يقدم نصائح طبية في أمر الهواء والمناخ عامة لدفع الضرر وتلافي الأمراض، فينصح أن تكون أبواب السكن ونوافذه إلى المشرق والشمال مستورة عن الغرب والجنوب وأن تكون دور السكن بعيدة عن المزابل والمدابغ ومعامل النشاء لعدم التعرض للأبخرة والأدخنة الغريبة الفاسدة وأن يبخر المنزل دائمًا بأي من أنواع العطور والأبخرة، وأن يجعل به من أنواع الرياحين والأطياب ما يلطف رائحته ويطرد منه الهوام، وغلي المياه وتركها حتى تصفو تجعل في أواني الخزف لتصفيتها، ويؤخذ ما يرشح منها ويشرب ولخطورة هذا الموضوع وأهميته عقد المؤلف فصلاً كاملاً سماه (في إصلاح مياهها ودفع ضررها) اعتبر فيه أن مياه الأمطار أجود من مياه الآبار إذا كانت

إن الطبيب لا يمكنه أن يعالج أحداً من أهل بلد من البلاد علاجا صوابا دون أن يكون عارفًا بطبيعة ذلك البلد وحال هوائه ومائه وتدبير أهله ونحو ذلك من أحواله وما يوجبه وتقتضيه من الأمراض وقوانين المعالجات، اللهم إلا أن يكون ممن يقنع بالطب من التسمية دون المعنى وبالشبيه دون الحقيقة



سليمة، ولتأمين سلامتها يجب التعهد بالتنظيف والغسيل الدورى لأسطح المنازل والصهاريج وإتقان صنعتها وإزالة ما قد تجمع بأرضياتها وجدرانها من الأوساخ والعفونات فى كل سنة قبل نزول الأمطار وتبخيرها بالعود والمصطكى وتركها مفتوحة حتى تجف ويمكن تناول بعض السوائل المطهرة (الخل) مع المياه التى نشك بصلاحيتها. وفى ذلك إشارة ذكية لمزج المطهرات والمعقمات مع المياه ويذكر أن أكل البصل المخلل والثوم، واللوز والسكر يدفع ضرر المياه الرديئة، والمؤلف كثيرًا ما يسأل ويستفسر عن مصادر المياه وتوصل إلى ملاحظات دقيقة عن طريق الاستنباط إلى معرفة أسباب فساد مياه الآبار وما تجلبه من أمراض عديدة، فيقول: إن الأراضى التى يطلق عليها ماء النيل من مواضع أعلى مما يلى الإسكندرية فى الخليج، إذا رويت فتحت لها مواضع ينصب فيها ما فضل عنها من ذلك الماء إلى الخليج، وذلك بعد أخذ النيل فى النقص فيكثر ماء الخليج ويصب فى القنى المتصلة بالآبار، وأهلها يسمون هذا الماء، الماء الثانى ويختارون ملء صهاريجهم فى هذا الوقت، فماء النيل يدخل إلى الآبار الآن وهو بهذه الحال من الفساد والاختلاط والأقذار فيخالط مياهها المالحة التى تقدم ذكر أحوالها ومضارها، ويستقى منها فيودع الصهاريج ويحلل لطيفه وتزداد بالخزن رداءته وفساده، وتتضاعف مضاره وظاهراته وإذا جمع معه ماء المطر كان أردأ وأضر.



ولا ينسى المؤلف الوافدين إلى الإسكندرية فينصحهم بتجنب الأغذية الدسمة الثقيلة (اللحوم، الأسماك المالحة، الجبن العتيق....) والاقتصار على تناول الخبز والفواكه الناضجة الطرية وألبان الحيوانات الصحيحة والحسنة المرعى وأن يكون الغرض من الأكل (الاغتذاء لا التلذذ) وعدم الإفراط والخلط بين أنواع مختلفة من الأطعمة وهو ما ينبه عليه دائمًا كما لا يفوته تقديم نصائحه المبنية على الخبرة والممارسة والتجربة لزملائه الأطباء الذين يباشرون المعالجة والطبابة وهو لا يقصد القوانين العامة للمعالجة، بل يركز على المعالجات العملية الخاصة بأهل الإسكندرية والملائمة لأحوالهم فيوصى باستخدام شراب السكنجبين (خل مخلوط مع عسل) لأنه من أعيان أدويتهم وجياد أشربتهم، والأغذية التى يدخل فى عمادها الخضروات ذوات الألياف (البقلة اليمانية والسلق) والسبانخ ينبغى تناوله بعد خلطه بماء الليمون أو الخل، وتناول شراب التمر هندى محلى بالسكر، ويشير إلى ظاهرة انتشار استخدام الأدوية المسهلة بكثرة وموقف بعض الجهلة من الأطباء فى المساهمة والتشجيع لأنهم لا يشعرون ولا يبالون بما فى ذلك من عظيم الخطر.. لينفق سوقهم ويكثر زبونهم، لأن عامتهم إنما يعتبرون نفع الدواء بكثرة إسهاله، فكلما زاد وأفرط حمدوه وأثنوا على معطيه واعتقدوا فيه الحذق والكمال فى صناعة الطب، ومهما قصر ذموه ونسبوه إلى قلة المعرفة، ولم يعاودوا إلى استفتائه ولا ابتياع دوائه.

ويختم المؤلف كلامه بقانون مهم يتعلق بنظافة البيئة وسلامتها، فالاحتراس من الوقوع فى الأمراض يكون بإصلاح الهواء والماء والتدبير وعلى الأطباء واجب التوعية والإرشاد إلى الطرق السليمة والعادات الصحية وليس علاج الأمراض والعلل فحسب، بل التثقيف والتوعية، وقد قام أطباء الحضارة الإسلامية بواجبهم خير قيام، فأغلبية المصادر لا تهمل شأن البيئة وسلامتها.

لقد قدم ابن جمِّيع لوحة بانورامية كاملة عن الإسكندرية وحياة سكانها وعاداتهم الغذائية والصحية وتصوراته وتصدى لمناقشة مشاكلهم الصحية بذكاء وفصاحة، وهل يصبح الماضى نقطة انطلاق للحاضر (وعند ذلك فقط يجلو الصفاء ويطيب.. إذا انقشعت الظلمات وأسفرت الإسكندرية عن وجه مغسول.. وخضرة يانعة.. وطرقات متألقة.. ونسائم نقية.. وشعاع دافئ.. وصحوة ناعمة.. شىء حدثنى بأن تلك الدراما إنما تحكى أسطورة مطمورة فى قلبى.. وتخط طريقًا مازال غامض الهدف.. أو تضرب موعدًا فى غمغمة لم تفهم بعد).

ويمد المبدع يده نحوك وأنت لا تملك سوى المحبة تبادله. تحرسه أحداق العيون، وتمضى مسيرة الحياة اليومية تكون فيها فى مقدمة النسق تسبق الجميع تعلوك الندوب وآثار الجراحات وبعظام مكدودة وقلب مثقل، تواصل بحثك عن هذا الشىء الذى لم تستطع العثور عليه بعد.

بالشعر والموسيقى والألوان والعطور

منذ العهود القديمة يحاول الفلاسفة والناس عامة فهم الأسباب الكامنة وراء تصرفات البشر والكائنات الحية الأخرى، كما حاول الأطباء منذ أقدم العصور اكتشاف النفس الإنسانية ونزعاتها وميولها وطبائعها وحالاتها المختلفة، وتوصلوا إلى أن للنفس أمراضًا تصاب بها كما يصاب الجسد، ولذا بذل الحكماء الأقدمون، وأهل الطب جهودًا لمعالجة النفس الإنسانية وفقًا لمعالجات بدائية.

وكان المصريون والعراقيون القدماء (البابليون والأشوريون) قد تمكنوا من تسجيل ملاحظاتهم وأفكارهم الطبية وممارساتهم العلاجية على أوراق البردى والفخار والحجارة، وقد احتوت إحدى تلك البرديات القديمة على ثلاثين وصفة لأمراض مختلفة مرتبطة بتغيرات في الرّحم. ومن هنا يرى الباحثون أن الحضارات المصرية والعراقية، كلتاهما قد سبقت تعاليم بقراط وخاصة في تشخيص بعض الأمراض بنحو عشرة قرون.

ومن الطرق العلاجية النفسية القديمة العلاج من خلال زيارة المعابد والنوم فيها سواء في مصر القديمة أو بابل، وكانت المعالجات النفسية تمارس بطرق أخرى سناتى على ذكرها تعكس قوة الارتباط بين العلاج والدين وهو ما عرف بـ«الطب الكهنوتي» Priesthood Medicine.



عـــادل الآلـوســى



وإذا كنا لا نعرف الكثير من الأمراض النفسية عند العرب قبل الإسلام، فإن بعض الأخبار المتعلقة بطبهم وفراستهم تدل على معرفتهم بأمور النفس، والأمراض النفسية، ومحاولتهم علاجها كما كان يفعل الحارث بن كلدة، وضماد بن ثعلبة الأزدي وغيرهما.

بعد بزوغ شمس الحضارة الإسلامية أخذ الطب النفسي وكذلك أساليب العلاج تخطو ثابتة متقدمة على عصرها، وقد مهد لذلك علماء كالطبري (ت ٢٤٧هـ) صاحب كتاب «فردوس الحكمة في الطب» إذ وصف عددًا من الأمراض النفسية التي تظهر على الإنسان وتعكس آثارها على جسده، وكذلك إسحاق بن عمران (ت٢٩٥هـ) الطبيب البغدادي الأصل القيرواني المهجر الذي استعصى الأمراض النفسية ووصف عددًا منها في رسالته المهمة «مقالة في الماليخوليا» حيث وصف وعالج حالات «الاكتئاب».

وقد بنى الأطباء المسلمون معرفتهم الواسعة بخفايا النفس على أساس فكري نظري وعملي مثل الأشعري (ت ٣٢٤هـ) ومسكويه (٤٢١هـ) وابن سينا (ت ٤٢٨هـ) والغزالي (ت٥٠٥هـ) والرازي (ت٦٠٦هـ). وكان ابن سينا قد صور النفس الإنسانية أجمل تصوير ضمنه فيضا من المشاعر، كالألفة والفراق والدمع والديار، كما شبه النفس بالحمامة، تشبيهًا شاعريًا جميلاً باعتبارها رمز الوداعة والجمال، والحمامة أشد الطيور نزوعًا للشوق والحنين، وذلك في قصيدته العينية المشهورة:

هبطت إليك من المحلّ الأرفع
ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف
وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وأظلها نسيت عهودًا بالحمى
بمدافع تهمي ولما تقطع

وربط ابن طفيل (٥٨١هـ) بين النفس ومشاعر المحبة والألفة في روايته الجميلة «حي ابن يقظان»، وهي من روائع الأدب الفلسفي عند العرب، ومن المفكرين المسلمين الذين عنوا بالنفس «ابن الجوزي» الذي تعرض لذكر أسباب نشوء المشاعر، وانعكاساتها على النفس، ودَرَس حالات النفس المختلفة. وكذلك «الديلمي» الذي يرى بعض الباحثين أنه كان يقلّد أفلاطون لكنه خرج عن خطه وأضاف وابتكر، ومن آراء الديلمي «إن الله خلق الأفعى على هيئة الكرة، ثم قسمها بين الخلائق كلها» وقال: «إن الأفعى تتجاذب بعضها إلى بعض، وإن الله يقرب أو يبعد بينها وإن في النفس الإنسانية صراعا أبديا دائما يقوم على طرفي الخير والشر».

ويُعدّ الطبيب الأندلسي عبد الملك بن زهر (ت٥٥٧هـ) من أشهر الأطباء الأندلسيين وله كتاب: «التيسير في المداواة والتدبير» ومثله فعل ابن داود الأنطاكي في كتابه «تزيين الأسواق».

وكانت لتعاليم الرازي آثارها البعيدة في النهوض بالطب، وانتشارها بين العرب في المشرق والمغرب، وكذلك ذيوعها في أوروبا.

أما ابن سينا فقد كان له دور فعال في علاج الأمراض النفسية وقد ضمَّن تجاربه في كتابه المعروف: «القانون في الطب» وطرح فيه مقولته أو نظريته المعروفة «عملية التأثير المتبادل بين النفس والبدن».

وقد أبدى العلماء المسلمون اهتمامًا بالغًا بعلاج المرضى النفسيين، وقام بعض الخلفاء العباسيين ببغداد بإنشاء المستشفيات أو «البيمارستانات» إذ أنشأ الخليفة المكتفي بالله العباسي مستشفى لذوي الإعاقة النفسية وخاصة أولئك الذين يعانون الوحدة والاكتئاب، وأوكل إدارة شؤونه للطبيب العالم أبي بكر الرازي، كما شيدت مستشفيات خاصة بالأمراض النفسية في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين في كل من القاهرة وبغداد ودمشق.

وكان أول مستشفى للطب النفسي في العالم (بمعناه الصحيح) في بغداد سنة (٧٠٥م)، ولم تعرف أوروبا المستشفيات النفسية إلا من خلال إسبانيا، وذلك بتأثير الفتح الإسلامي وإنشاء المستشفيات في إسبانيا، كما عرف مستشفى قلاوون بالقاهرة وكان يضم أربعة أقسام للجراحة والباطنية والرمد (طب العيون) أما أكبر الأقسام فكان قسم الأمراض النفسية، وكان يضم صيدلية كبيرة تشتمل على أنواع الأدوية والأشربة تقدم إلى المرضى النفسيين بغية إراحتهم وإزالة ما يعلق في نفوسهم من مرض وألم واكتئاب.



وعالج الأطباء العرب المرضى النفسيين بالموسيقى بعد توصلهم إلى الأثر الفعال الذي تحدثه النغمات في النفس. وإن كان السبق لليونان (فيثاغورس مثلاً) في اكتشاف الأثر الموسيقي في العلاج النفسي إلا أن العرب جعلوا في ذلك نظرية قائمة بذاتها، والواقع يؤكد أن الإنسان العربي ذو حساسية عالية على استلهام واستيعاب المؤثرات الطبيعية التي تحيط به، منذ عصر مبكر من حياته، فأدرك قابلية النغم في التأثير على النفس، وبذلك قال الشاعر:

إن كنت تنكر أن في الألحان فائدة ونفعًا
فانظر إلى الإبل التي هي أغلظ منك طبعًا
تصغي لأصوات الحداة فتقطع الفلوات قطعًا

والتقى الفلاسفة والأطباء العرب على اصطلاحات علمية موحدة بشأن العلاج النفسي بالموسيقى منها أنهم كانوا يسمون الخاطر المحمود إلهامًا، والخاطر المذموم وسواسًا، كما استعملوا ألفاظ العلاج بالأنغام والتناسب، والتناغم، والتبادل، وغيرها.

وراح المفكرون العرب يبحثون عن أثر الألحان في الخُلق الإنساني، كيف تزداد النفس قدرة بتأثير بعض الصيغ اللحنية، بينما تزداد ضعفًا بتأثير بعضها الآخر، وتوصلوا إلى أن أنغامًا معينة تقرأ عند الصباح، فتزيد النفس بهجة وأخرى غيرها لا تؤدى إلا في المساء، وثالثة يخصص وقتها لليل، وهكذا عملوا تركيبة عجيبة ساحرة بين الألحان والأنغام من جهة والزمن من جهة أخرى، إذن فلكل وقت ألحانه ولكل لحن وقته المعين.. وهذا أمر لم تتوصل إليه حضارة من الحضارات كما توصلت إليه حضارة العرب.

لقد وضع ابن سينا في موسوعته المسماة «الشفاء» أوقاتًا مخصصة للعلاج النفسي بالموسيقى فقال مثلاً: «للصبح مقام وللنهار مقام وللمساء مقام» و«إن الرست يقرأ عند طلوع الشمس، وبعد الظهر مقام الحجاز، وفي المغرب يستحسن سماع النوى..». وبذلك توصل ابن سينا إلى مطابقة اللحون على مزاجية الإنسان، بل تعدى ابن سينا هذا الرأي إلى رأي آخر قال فيه إن للموسيقى أثرا في بقاء النوع. وهو على هذا سبق داروين الذي عَدّ الموسيقى وسيلة من وسائل حفظ النوع، وما ذهب إليه هربرت سبنسر وروسو وغيرهم!

كما عرف العرب مداواة النفس وآلامها وأحزانها بالكلمة المؤثرة وبيت الشعر الجميل. إذ أدرك العرب أن الشعر وسيلة من وسائل التعبير عن الذات، وانعكاس للعواطف والمشاعر، والشعر، كما قالوا، حوار مع النفس وحديث الروح للروح، ولذا كان بعض الفلاسفة والأطباء يوصون بأن تقرأ أبيات من الشعر بمفردها أو تصاحبها النغمات أمام مريض معتل، وذكرت حكايات وأخبار كثيرة لمرضى نفسيين أدركهم الشفاء بفضل ما سمعوا من قصائد أو سمعوا من ألحان.

وفي أكثر كتب الأطباء العرب وخاصة الرازي والكندي إشارات واضحة إلى أثر الشعر في النفس، وشبهوه بالأحلام، وتوارد الأفكار، فالأحلام في رأيهم وسائل غير واعية أو غير خاضعة لسلطة الوعي، لا يتذكرها صاحبها، أو قد يحجم عن البوح بمحتواها، غير أن الشعر عكس ذلك، ففيه تتكاثف الأفكار وتتجمع ويجري متابعتها.

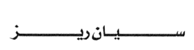
ومن أساليب العلاج النفسي عند العرب، العطور فقد بحث الكندي ولأول مرة في تاريخ الفكر العربي، وربما الإنساني، أثر العطور بالنفس، فقد عمد أطباء مستشفيات العلاج النفسي في العصر العباسي على أن تكون غرف وعنابر المرضى مطلة على حدائق مزروعة بالفل والياسمين والورد الجوري، وأمر رئيس مستشفى بيت الحكمة ببغداد أن يجلب أهل المريض باقة ورد يشمها المريض أو يستنشق رائحتها مرات حتى يتحسن حاله.

وقال الكندي: إنه ليس لرائحة الزهور أثر في العلاج النفسي وحسب، بل لون الزهور ذاتها، فللون أثر في العلاج. وذكر الكندي أن الرائحة الزكية واللون البهيج يشفيان أكثر مما تشفي الأدوية والعقاقير.

وعلى نهج الكندي سار إخوان الصفا الذين ظهر تأثرهم بعلاج النفس بالعطور والألوان بما كتبه الكندي وأضافوا إلى أن الروائح الحسنة والألوان الباهرة تخمد من سَورة الغضب، وتذهب بالأحقاد، وعلى نهج الكندي وإخوان الصفا ردد الأرموي الذي عاش في عصر متأخر ببغداد نظرية العلاج بالموسيقى والشعر والعطر واللون.. وهكذا أصبح تقديم الزهور للمرضى تقليدا قائما حتى اليوم.

حكاية الماخور العائم إلى أستراليا:





السجينات: مارى كافينور ابنة الثالثة عشرة حاولت خطف قطعة قماش من على باب أحد القماشين. وأغارت مارى هوك على مكتب مخدومتها وسرقت أجور خدم المنزل، فى الوقت الذى كان عليها أن تسلق فيه الإستاكوزا فى المطبخ، وسرقت بت فاريل الغسيل من منزل فى ايست سميثفيلد. لأنها لم تكن ترغب فى أن تعمل بغيًا. أما اليزابيث جونز فقد تعرفت على أحد البحارة وسرقت جوربه فى الليل

فى أيام شتوية أوائل عام ١٧٩٨، كان نجارو السفن يجهزون سفينة تجارية فاخرة ذات ثلاثة صوار تحمل اسم «الليدى جوليان»، للقيام بمهمة جديدة. فقد كانوا يحولون السفينة الراسية فى جاليونز ريتش عند مصب نهر التيمز إلى سجن.

كانت «الليدى جوليان» سفينة لها تاريخ: فقد استولى عليها الأمريكيون فى عرض البحر إبان حرب الاستقلال، إلا أن سفينة حربية بريطانية استردتها وأعادتها إلى إنجلترا. والآن عليها أن تنقل حمولة تضم ما يزيد على المائتين من المذنبين كى يقضوا فترة العقوبة فى المستعمرة البريطانية الوليدة على الجانب الآخر من العالم، وهى نيو ساوث ويلز.

وفى تلك الأونة كانت إنجلترا تعانى من موجة جرائم، وكانت السجون مكتظة إلى حد كبير ـ رغم كثرة تنفيذ أحكام الإعدام ـ وقد رؤى أن الحل هو «النفى إلى ما وراء البحار».

والأمر غير العادى فيما يتعلق بالمساجين الذين سيرسلون على متن الليدى جوليان أنهم كانوا جميعاً من النساء. إذ كانت نيو ساوث ويلز بحاجة إليهن، تماماً كحاجتها إلى البذور والماشية والقرميد. فقد كان عليهن استنفاد طاقة المستعمرين الجنسية وأن يكنّ بمثابة سلالة توالد بشرية.

وفى أوائل شهر مارس، وصلت إلى لندن عربة من لنكون. كان مقيداً على جانبيها الخارجيين أربع عشرة امرأة، أخذ منهن الإعياء كل مأخذ، وقد لفت الأصفاد الحديدية حول وسط كل منهن. وكن قد جلسن على هذه الحالة طيلة ست وثلاثين ساعة، معرضات لتقلبات الجو وفضول كل خادم وسائس أثارته الأنوثة المكبلة بالسلاسل. وعلى ما كن عليه من قذارة وبلل ووهن نتيجة للبرد والجوع، أخذوهن إلى ضفة النهر ونقلوهن إلى مركب سارت بهن عبر التيمز إلى الليدى جوليان.

وكان فى انتظار سحبهن هن ومتاعهن إلى ظهر السفينة رجل سكوتلندى فى الرابعة والثلاثين من عمره اسمه جون نيكول، وهو قهرمان السفينة وصانع البراميل فيها. وكان أول ما فعله هو فك القيود البغيضة. وبعد ذلك اصطفت النسوة المرهقات طائعات أمام سندانه وقد مددن أيديهن.

ورغم هذه الظروف المقيتة، كان لإحداهن تأثير فورى عليه. ويقول نيكول وقد تذكر ما حدث بعد مرور ثلاثين سنة: «تعلق فكرى بها أول ما تعلق فى اللحظة التى كسرت فيها البرشامة التى فى أصفادها على سندانى».

كان اسم تلك المرأة «سارة وايتلام»، وكانت فتاة ريفية من لنكونشاير فى السابعة عشرة من عمرها، وقد أدانتها المحاكم الفصلية بتهمة سرقة حمولة ملابس ضخمة «بالقوة والسلاح». ولم يعثر على سجلات رسمية تلقى الضوء على هذا الجرم، إلا أنه يشى بملمح أساسى من ملامح القرن الثامن عشر، وهو سرقة إحدى المخدومات أو اقتحام غرفة فى أحد المساكن.

وبعد أن استراحت سارة من عناء رحلتها فى دفء السفينة ورفاهيتها النسبيين، روت قصتها بالتفصيل للقهرمان الذى طار صوابه أكثر وأكثر.

كان ما روته له إحدى قصص الخيانة وسوء الحظ. فقد كانت تعمل لدى إحدى العائلات وكانت تشترك فى المسكن مع غيرها من الشابات. وكما هى عادة الفتيات الصديقات، كن كثيراً ما تستخدم الواحدة منهن ملابس الأخرى ومتعلقاتها، حيث لم يكن لدى أى منهن ما يكفى من المال لارتداء ما ترغبه من ملابس متنوعة.

وكانت سارة تعيش عيشة بسيطة وتستمتع بحياة بسيطة، إلى أن اتهمتها إحدى الفتيات زوراً بسرقة عباءة. وبعد ثبوت التهمة، حكموا عليها بالسجن سبع سنوات فى أنحاء فيما وراء البحار. وبعد أن كانت فتاة لها آمالها الطيبة، باتت مجرمة محكومًا عليها بالنفى.

وبعد أن أفزعت مأساة سارة القهرمان، وسحره جمالها، وعزم على أن يخفف عنها كربها، وقع فى غرام «هذه الفتاة ذات الطابع البسيط المتحفظ، باعتبارها مخلوقاً طيباً وصادقاً». وكان هو أول رجل تقابله سارة منذ القبض عليها لا يُكذّب ما تقوله ولا يحتقرها ـ أو يعرف حقيقة أمرها. وقابلت هى ذلك بمزيد من الثقة والحب.

ويقول نيكول: «ظللت أطارحها الغرام ما يربو على الأسبوع». وكان من الواضح أن ذلك كان زمناً أطول مما يجب فى خطته لمطارحتها الغرام.

وسرعان ما غادرت سارة عنبر المحكوم عليهن فى بطن السفينة الليدى جوليان ـ وهو المعروف بالعنبر الأسفل ـ وكانت تنام فى راحة وخصوصية قمرة نيكول فى الطابق الأوسط. وما إن حل آخر أبريل، وقبل أن تبدأ الرحلة إلى الجانب الآخر من العالم بكثير، حتى كانت حاملاً.



جيء بالنسوة الأخريات من سجن نيوجيت. فذات صباح، أخذ من السجن ١٠٨ مذنبات ورضيعان عند الفجر ووضعوا على الصنادل عند بلاكفريرز بريدج، حيث سارت بهم فى نهر التيمز المزدحم إلى جاليونز ريتش.

مرت النسوة فى طريقهن على الضفة الشمالية للنهر، حيث عاشت كثيرات منهن وألقى القبض عليهن هناك. ففى فيش ستريت هيل، حاولت مارى كافينور ابنة الثالثة عشرة خطف قطعة قماش من على باب أحد القماشين. وفى الجانب الآخر من النصب التذكارى، فى لومبارد كورت، أغارت مارى هوك على مكتب مخدومتها وسرقت أجور خدم المنزل، فى الوقت الذى كان عليها أن تسلق فيه الإستاكوزا فى المطبخ.

وسرقت بت فاريل الغسيل من منزل فى ايست سميثفيلد. وسرقت مارى أندرسون منزلاً فى فرجينيا ستريت، لأنها لم تكن ترغب فى أن تعمل بغيًا. وخلف المنزل ذاته، استدرجت مارى بتلر وبول راندال رجلاً وسرقتا ٤٠ جنيهاً من جيوبه. واستدرجت مارى بيتمان واليزابيث صالى رجلاً آخر إلى أحد المساكن وسرقتا ساعته الفضية.

وإلى الشرق قليلاً، فى وايتشابل هاى ستريت، تعرفت اليزابيث جونز على أحد البحارة وسرقت جوربه فى الليل. وفى راتكليف هاى واى، قالت آن مورجان لبواب أحد الفنادق الصغيرة: «تعال معى يا ند». ونشلت من جيبه نصف جنيه ذهبى مع أول حضن، ثم هددته عندما حاول استعادته.

ومضوا بالمذنبات أمام السفن السجون، وهى السفن القديمة التى قدمت كحل لازدحام السجون، عندما انقطع نفى المجرمين إلى المستعمرات الأمريكية بسبب حرب الاستقلال. وبقى البعض فيها عشر سنوات، حيث يعيش مئات الرجال مكبلين بالحديد بجوار بعضهم.

وكان نيوجيت نفسه يضم أكثر من ٧٠٠ نزيل مزعج، وكانت حالة زنزاناته تعكس الأزمة التى فى الشوارع خارجه.

كانت البلاد قد ابتليت بالشلل الملكى فى القمة ـ بسبب جنون جورج الثالث ـ وبالتغيير شديد السرعة فى القاع. وكانت هناك زيادة ضخمة فى عدد السكان على مدار جيلين، وزيادة فى الانتقال من لندن وإليها، وزيادة مفاجئة فى البطالة.

وبعد أن هزمت المستعمرات الأمريكية قوات الملك جورج البريطانية والألمانية، عاد ١٣٠ ألف رجل من الحرب. فكانت لندن تعج بالشحاذين المعوقين. كما قام الرجال بأعمال النساء، وانضمت العاملات فى المحال التجارية وبائعات الحليب والخادمات إلى مبتورى الأطراف فى الشوارع، وقد بتن فتيات متمردات

يعشن على الاحتيال وعلى البنسات التي يسرقنها ممن لا يكاد يكون أفضل منهن حالاً، وقدرت صحيفة «التايمز» عدد العاهرات في لندن وما جاورها بخمسين ألفاً.

وجرى التوسع في وسائل فرض القانون والنظام، وكذلك في المحابس. وفي الوقت الذي كانت تجهز فيه «الليدي جوليان» لرحلتها إلى أستراليا، كانت ١٥١ مذنبة يعشن في ثلاث زنزانات في نيوجيت بنيت في الأصل لإيواء ٧٠ وكان يصرف لكل منهن ما قيمته بنس ونصف من الخبز في كل يوم، ولم تكن هناك أسرَّة للنوم. وكانت الأحوال من السوء بحيث كان السجانون يتناول الواحد منهم كوباً من المشروبات الروحية قبل فتح الزنزانات كل صباح، لكي لا يغشى عليه. وكان التمرد متفشياً بتأثير من اللورد جورج جوردون، الذي كان تجسيداً للمتأنق الراديكالي في نهاية القرن، وكان قد سُجن بتهمة التمرد على السلطات ونصَّب نفسه صديقاً للمساجين.

وطوال سنوات عديدة كانت تعد الخطط لمعالجة تكدس المجرمين في السجون، بعدما لم يعد في الإمكان إرسالهم إلى أمريكا. فقد فشلت محاولات المستوطنات التاديبية في غرب أفريقيا؛ وفي سنة ١٧٨٧ اتجه أسطول إلى نيو ساوث ويلز البعيدة حاملاً عدة مئات من المذنبين، بينهم بعض النساء.

وكان إعداد الأسطول الأول هذا الذي يقوده الكومودور آرثر فيليب سيئاً ولم يزود بالمعدات الكافية، ولم يعرف أحد في إنجلترا طيلة عامين إن كان وصل إلى مقصده أم لا. إلا أنه كان مقرراً لليدي جوليان أن تلحق به. وكان اللورد سيدني وزير الدولة للداخلية وشئون المستعمرات يأمل في أن «يحول هذا دون تفشي الفوضى البغيضة» في نيوجيت.

أما الحاكم فيليب فكانت له أسبابه الخاصة في الحصول على النساء. فقد كن ضروريات لزيادة الأعداد والحيلولة دون الرغبات الخطيرة لمستعمرته، التي في أغلبها من الشباب. وفكر فيليب في إرسال كل من يضبط وهو يمارس اللواط إلى ماوريي نيوزيلندا (السكان الأصليين) ليأكلوه، وكتب في إحدى البرقيات التي بعث بها إلى الوطن: «النسبة الضئيلة جداً من الإناث تجعل إرسال عدد إضافي على قدر كبير من الأهمية». وكان دورهن واضحاً؛ إذ كان عليهن توفير أثر الأنوثة المهم الباعث على الاستقرار كزوجات ومحظيات.

وقبل إقلاع الأسطول الأول، كان اللورد سيدني والحاكم فيليب قد اقترحا جلب ٢٠٠ من السمراوات الجميلات من جزر المحيط الهادئ ليكن «رفيقات» لمائتين أو نحو ذلك من جنود البحرية والضباط في الحملة. إلا أن فيليب كتب إلى الوطن بأن هذا «قد لا يحقق أي غرض سوى ذبول أجسادهن حسرة وأسى من البؤس»، ذلك أن الظروف كانت شديدة الصعوبة في المستعمرة الجديدة. وكان لا بد من العثور على مصدر بديل للنساء اللائي يسررن عن الرجال.

وما يعد في وقتنا هذا ضرباً مثيراً للاستغراب من ضروب النفاق الجورجي كان أمراً عادياً تماماً بالنسبة لمن هم على علم بأمر المستعمرات الوليدة. فقد كان دور النسوة اللائي يسررن عن الرجال في المستعمرات معترفاً به. وكان خور سيدني، تلك المستوطنة التي أنشأها فيليب، قد اتبع النموذج الاجتماعي الخاص بالمدن الاستعمارية التي بها حاميات عسكرية في أماكن أخرى من العالم. حيث كان كل زوجين يشكلان معاً اتحاداً لا ينتظر أي منهما أن يدوم.

وكان فيليب يعتقد كذلك أن تشجيع المذنبين على الزواج فيما بينهم سيؤدي إلى حسن الخلق واستتباب النظام في أدنى قطاع من قطاعات المجتمع. إلا أنه كان يعلم أن الزواج لن يأتي على كل الطاقة الجنسية في المستعمرة، وأن الشبان لديهم حاجات لا سبيل إلى إنكارها. وكان من بين الاقتراحات التي تقدم بها إلى سيدني قبل الإقلاع هو إنشاء جيتو للبغايا توضع فيه «الأكثر فحشاً» من السجينات اللائي «يسمح لهن باستقبال زيارات المذنبين في الحدود التي تخصص لهم وفي ظل قيود معينة».

أما سائر النساء فيبقين في السر زوجات للمذنبين أو خليلات لأفراد الجيش.



في الأسبوع الأول من يوليو ١٧٨٩، غادرت الليدي جوليان جاليونز ريتش بعد أن صعد الأقارب والأحبة على متنها كي يودعوا الباكيات من البنات والأخوات والزوجات والأمهات وربما الجدات. سارت السفينة في التيمز مع الجَزْر متجهة إلى القنال الإنجليزي.

لاحظ نيكول من بين النساء فتاة سكوتلندية صغيرة «جميلة حتى وهي في ملابس السجن، ولكن على وجهها صفرة الموت وقد احمرت عيناها من البكاء. لم تكن تتكلم مع غيرها من النساء ولم تكن تصعد إلى السطح». ماتت هذه الفتاة قبل أن تغادر السفينة المياه البريطانية ودفنت في البحر.

وكان على متن السفينة ما بين ٢٢٥ و٢٤٠ امرأة، أصغرهن في الحادية عشرة - وكان اسمها ماري ويد، التي لم تفلت من تهمة القتل الخطأ - وأكبرهن في الثامنة والستين. وكان ٢٠٠ منهن تقريباً ينمن في العنبر الأسفل؛ أما الباقيات فكن ينمن من حين لآخر أو بشكل دائم مع الضباط وطاقم السفينة.

وكانت رفيقة البحار جزءاً من القرصنة الجنسية التي أودعت بعمق في فكرة البحار الأمين عن حقوقه. ولم تكن تلك العلاقات مجرد جزء من السلوك الفوضوي في الطابق الأسفل الذي كان الضباط يغمضون أعينهم عنه؛ بل كان مصرحاً بها إلى حد كبير.

وكان الضباط يمارسون كذلك عادة انتقاء رفيقة من بين المذنبات. وقد نقلت فتاة في الثامنة عشرة سجنت بسبب سرقة القمح سراً إلى كابينة الطبيب في نهاية عنبر المرضى.

ويقول نيكول: «كان كل رجل على السفينة يتخذ زوجة من بين المذنبات، ولم يكونوا يعافون شيئاً».

وعبارة «لم يكونوا يعافون شيئاً» لها وقعها السيئ على القارئ الحديث. فالمرء لا يفكر سوى في موقف النساء. إلا أنه إلى جانب كونه من المستحيل تقريباً أن يقلن لا، فهناك من الأسباب ما كان يجعل بعض النسوة لا يقبلن وحسب، بل يتنافسن على وضع عشيقة البحار.

كانت الحماية أهم ما في الأمر. فقد عاشت كل امرأة على متن السفينة جزءاً من حياتها وهي تتنافس على ضروريات الوجود. وجاء معظمهن من أقصى درجات الشدة والبؤس، وكن بالضرورة أنانيات وماكرات. وكل امرأة أمضت بعض الوقت في السجن، كانت تكتنفها بيئة عليها فيها أن ترشو السجان أو تموت من الجوع، وأن ترشو البلطجية وإلا تعرضت للسرقة بالإكراه، وأن ترشو من هم موضع ثقة وإلا اغتصبت. ولا بد أن كثيرات منهن كن ينمن مع أحد البحارة كسبيل لرشوته، كي يرعى «امرأته» على حساب الأخريات.



كانت معظم النساء اللائي على متن الليدي جوليان في أواخر العقد الثاني أو في العشرينيات. وكان البحارة في نفس السن، بينما الضباط أكبر قليلاً. ورغم ما تتسم به المعاشرة مع الإكراه من وحشية، فهي لم تكن غير طريقة منطقية لمنع الإحباط الجنسي لدى الشبان والشابات العزاب الذين يعيشون بجوار بعضهم. وعلى السفن التي يفصل فيها بين المذنبات والذكور كسياسة متبعة - مثل أسطول فيليب الأول



إلى نيو ساوث ويلز - كانت أعمال الشغب تحدث حينما يدخلون الميناء. فكان الرجال يسكرون ويحاولون الإغارة على عنابر النساء.

ولا تشير سجلات الليدى جوليان إلى أية وحشية تجاه النساء. فبما أن النساء أتين من الشوارع والمحابس وكن فى سبيلهن إلى الأشغال الشاقة فى خور سيدنى، فقد كانت تلك هى فترة الهدوء والرعاية.

ونحن نعرف أسماء بعض «الزوجات» الصغيرات، لأنهن لم يكن على علم النساء الأكبر سنًا فيما يتعلق بمنع الحمل، وسرعان ما حملن. فكانت آن بريانت من ميدستون فى السادسة عشرة وحسب عندما أدينت ووضعوها على الفور على متن الليدى جوليان، حيث اتخذها أحد البحارة واسمه ويليام هيوز شريكة له. بل كانت جين فوربس أصغر سنًا. إذ كانت فى الثانية عشرة عندما حوكمت بتهمة النشل وأدينت بسرقة ثمانية شلنات. وكانت فى الرابعة عشرة عندما أخذها البحار ويليام كارلو إلى مخدعه. ويبدو الأمر وكأنه اختطاف طفلة، وربما كان كذلك بالفعل. إلا أنه ربما كان ويليام كارلو فى نفس سن جين فوربس - فكثير من البحارة كانوا فى هذه السن.

حملت اثنتا عشرة امرأة على متن الليدى جوليان. وأكثر من هذا العدد بكثير مارس الجنس على متنها، ويبدو أن وسيلة ما من وسائل منع الحمل كانت تستخدم. وأكثر تلك الوسائل شيوعاً هو الدش. وكان الواقى الذكرى موجوداً ولكن كان المقصود به حماية الرجال من الأمراض التناسلية أكثر منه منع حمل المرأة. وكان يعرف باسم English over-coat ويصنع من الأنسجة الحيوانية وكان غالى الثمن، بحيث لا يشتريه إلا البحار شديد الحرص على الصحة.

وفى بداية القرن التاسع عشر كان الضابط البحرى تلو الآخر يروى للجان التى عينت للتحقيق فى سوء المعاملة أن اتخاذ «الزوجات» كان ممارسة شائعة منذ عشرات السنين، سواء كان المقصد هو أمريكا أو جزر الهند الغربية أو نيو ساوث ويلز. وكانت هناك فجوة بين الرجال العمليين أصحاب الآراء المتفائلة، مثل فيليب واقتراحه الخاص بجيتو البغايا، والإصلاحيين الذين كانوا يشكون من التلوث الأخلاقى.

وكان الرجال العمليون الذين يديرون سفن النقل يرون أن التلوث الأخلاقى ثمن مقبول لاستتباب النظام. ورأيهم هو أن القلوب المنفطرة فى المقاطعات الإنجليزية لا تفهم الظروف التى على أرض الواقع.

وربما تميل وجهة النظر الحديثة إلى رأى القلوب المنفطرة، بسبب الامتهان الذى كان النظام يفرضه على الإناث، أكثر منه بسبب التلوث الأخلاقى الخاص بالجنس غير المرخص به. إلا أن المنتقدين المحدثين بعيدون من حيث الزمن عن عالم بحارة ثمانينيات وتسعينيات القرن الثامن عشر ومذنبيه وبحريته بُعد المنتقدين المعاصرين لذلك عن تلك الطبقة وظروفها. وربما كان الرجال العمليون أدرى.

لم تكن العلاقات على متن الليدى جوليان جنسية وحسب. فقد كانت المذنبات من ثلاثة أجيال. ومع أن قلة قليلة منهن سمح لها بإحضار الأطفال الرضع معها، فالكثيرات ممن حملتهن السفينة اضطررن لأن يتركن وراءهن أطفالاً كباراً. وهؤلاء كُنّ مرشحات طبيعيات لأن يأخذن المراهقات والفتيات الصغيرات تحت أجنحتهن. ومع أن هؤلاء الفتيات كن فى عمر يسمح لهن بارتكاب الجرائم العنيفة، فقد كن صغيرات بالقدر الذى يجعلهن يفتقدن أمهاتهن وجداتهن.

وكان البحارة على متن السفينة كذلك من الصغر بما يجعلهم أبناء لبعض مذنبات الليدى جوليان. وكان صف الضباط البحريين وصبية السفن يرسلون فى العادة إلى البحر فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. وبغض النظر عن الوجه الرجولى الذى قد يتظاهر به أى فتى صغير على السفينة، فقد كان وهو بعيد عن بيته لأول مرة يفتقد أمه وإخوته، ولا بد أن علاقات الأم البديلة بالابن والأخت البديلة بالأخ كانت موجودة بين هذا الخليط المثير للانتباه الذى تكون على متن الليدى جوليان، حيث أمضى الضباط والطاقم والمذنبات الشهر تلو الآخر وهم لصيقون ببعضهم البعض.

والسفينة التى تشق سبيلها فى البحر حيوان مختلف عن ذلك القابع فى أحد الموانئ؛ حيث الأرض أجنبية والقوانين واللغة لا يفهمها الأغراب. وأصبح البحارة مخلوقات ذات قدرة قابضة يمكنها التجمع فوق السطح بخمسين قدماً وقضاء الساعات بأعلى الصارى لا يحميها سوى إحساس بالتوازن. ولم يعد ضباط الصف وصبية السفينة فتياناً أغراراً تحمر وجوههم خجلاً من تهكم المذنبات.

وكان أكثر التحولات إثارة للانتباه هو تحول الملازم توماس إدجار، الذى كان يقوم بدور مزدوج كربان للسفينة ووكيل للحكومة مسئول عن رعاية المذنبات. فقد تحول من سكير لا تفارقه زجاجة الخمر إلى ملاح كان عليه أن يقود السفينة خلال شهور من الأفق الخالى إلى مصب أحد الأنهار الواقع على بعد ١٣ ألف ميل لم يسبق له أن رآه.



وكان على إدجار والطبيب ريتشارد آلى كذلك أن يجعلا الليدى كوين مكاناً أنظف وأكثر راحة للنوم مما كانت تتحمله أية امرأة قبل الصعود على متن السفينة. وكان النظام والقواعد الصحية الصارمة تضمن نظافة عنابر النساء وجفاف فراشهم، بالقدر الذى يسمح به الطقس.

فبالنهار، كانت ترتيبات الذهاب إلى المرحاض فى عرض البحر تتسم بالنظافة والكفاءة. وكانت «الرؤوس» عبارة عن منصة مفتوحة شقت فيها ثقوب وشدت إلى أبعد جزء من مؤخرة السفينة. وفى الليل، كان العنبر السفلى أقل مراعاة لقواعد الصحة إلى حد ما. فقد كان مزوداً بـ«كراسى الراحة» أو مقاعد بها قصارى، وكانت المضاجع الأكثر تميزاً بعيدة جداً عنها. وضمن إدجار وآلى رفع ألواح أرضية عنابر النوم إلى سطح السفينة مرتين فى الأسبوع، حيث تدعكها النسوة بالفرشاة، وكشط جوانب العنبر السفلى وكنس الأرضية.

وكان هناك غرض آخر مما لا نهاية له من الدعك والتنظيف والتعطير والتهوية، وهو جعل النسوة مشغولات على الدوام. فقد كانت الغالبية كتلة من الوداعة تتكور على رفوف النوم بالليل وتجلس فى جماعات فى أنحاء السطح بالنهار، إلا أن بعضهن كن مشاغبات. وكان القتال على ما هو عليه قتال المذنبين الرجال من قسوة وكثرة. كما أن السرقة والترهيب كانا منتشرين.

أما الراحة من روتين الحياة على متن السفينة فكانت فى أول ميناء تدخله، وهو سانتا كروز دى تينيريفه فى جزر الكنارى. وكانت هناك كمية ضخمة من الغسيل على السفينة، وكان أول استحمام بالماء العذب منذ مغادرة إنجلترا. ومع حلول المساء كانت الحبال والسلاسل تزدان بالملابس المنشورة، وتحول الغسيل إلى لهو مزعج. كانت الصرخات النسائية الواهنة تنساب إلى السفن الأخرى الراسية. وكانت الخيالات عبارة عن أشكال تتمايل ترش بعضها بالماء، وكانت تلك الأطقم التى لا تعلم بوجود سفينة مليئة بالعاهرات الإنجليزيات فى الميناء تتساءل عما يجرى.

سمح لبعض المذنبات بالنزول على الشاطئ، وكانت مجموعة من المساجين اليهود الذين ارتدوا السواد ورفعوا صلباناً كبيرة عليها صور المسيح صنعوها بأنفسهم وكانوا يسيرون فى خشوع من أحد طرفى الطريق الرئيسى إلى طرفه الآخر. وبعد أن انحنى «التائبون» تحت صلبانهم قاموا بحركة مثيرة، وقدم لهم سكان سانتا كروز النقود والإحسان.

ولم يكن خداع سكان سانتا كروز هو أسهل طريقة للحصول على المال، إذ كان البحارة من السفن الأخرى والباحثون عن الإثارة من الشاطئ يذهبون بالقوارب الصغيرة إلى السفينة المليئة بالعاهرات، وإلى بعض رفوف النوم فى بطنها، وتحولت الكبائن التى على سطحها وشبكات النوم التى فى مقدمتها إلى تجارة. ولم يكن هناك شىء غير عادى فى تجارة الجنس، ولكن كان المعتاد هو أن المومسات هن اللائى يذهبن بالقوارب إلى الرجال.

وحيثما توجد المومس يكون هناك القواد. ومن يدرى ما هى الصفقات التى عقدها أحد البحارة الذى لم يكن يرى شريكته الجميلة فى مخدعه وصديقاتها الصغيرات على أنهن نوع من الترويح وحسب، بل مصادر للدخل كذلك؟ ولا بد أنه كان للقوادات دور كذلك. وكانت إليزابيث صالى صاحبة ماخور فى كيبل ستريت فى ويست إند وكانت هناك ثلاث من فتياتها السابقات معها على متن السفينة. ولا بد أنها وغيرها من النساء شديدات الحيطة والحذر كن يعقدن صفقات خاصة بهن.

ومهما كانت الترتيبات التى تتم، يبدو أنهم كانوا يتسامحون معهن على أعلى المستويات. وكانت لدى الملازم إدجار فكرة أفضل من كل ما كانت النساء تنتظره. فقد كان يعلم أن الأموال التى يحصلن عليها فى سان كروز سوف تخدمهم خدمة جيدة فى خور سيدنى. وكان السماح للمومسات بالعمل نوعاً من الشفقة بقدر ما هو ضرب من الإهمال.

وكان أكثر الزبائن إخلاصاً، حسبما يذكر

طوال سنوات عديدة كانت تقدم الخطط لمعالجة تكدس المجرمين فى السجون، بعد أن لم يعد فى الإمكان إرسالهم إلى أمريكا فقد فشلت محاولات المستوطنات التأديبية فى غرب أفريقيا؛ وفى سنة ١٧٨٧ اتجه أسطول إلى نيو ساوث ويلز البعيدة حاملاً عدة مئات من المذنبين، بينهم بعض النساء

نيكول، هما طاقما سفينتين لنقل العبيد تبعتاهم من تينيريفه «من أجل السيدات». فقد نامت بعض النساء مع أحد النخاسين فترة من الزمن جعلت الصلات تتوطد فيما بينهم.

وفى النهاية اتجهت سفينتا العبيد إلى جامبيا واتجهت الليدى جوليان نحو خط الاستواء، حيث هدأت الرياح فى نطاق الرهو الاستوائى. وكانت الحرارة شديدة والرطوبة مرعبة. وعندما نشطت الرياح من جديد، كان الاسقربوط قد انتشر، وكان ٦٠ من النساء على قائمة المرضى وكانت المياه تتسرب إلى السفينة بصورة كبيرة. وهنا اتخذ قرار طوارئ: إذ كان لا بد من الرسو فى ريو دى جانيرو.



فى ذلك الحين كانت سارة وايتلام قد أمضت ثمانية أشهر فى النوم مع نيكول. كما أن حملها بلغ سبعة شهور ونصف. وكانت هناك ثمانى شابات أخريات قد أوشكن على الوضع. وكن جميعاً يشعرن بالقلق. بينما كانت هناك حالة إجهاض واحدة على الأقل على متن السفينة، وكان موت المواليد أكثر شيوعاً مما هو عليه الآن.

كان عمل نيكول يبعده عن سارة بالنهار، ولكنه كان يقضى معظم الأمسيات والليالى معها، وكان هو أكثر العاشقين البحارة إخلاصاً لمن أحبها ورعاية لها. ولم تكن لسارة دراية بالعالم: فقد تعلمت من نيكول كيف تسير الأمور. وكان يحكى لها عن مغامراته فى قتال جنود سفن المجهود الحربى الأمريكية بسيفه فى البحر الكاريبى، وعن الرعب الذى يشعر به الإنسان الذى حجزته الثلوج فى نيوفاوندلاند وقد أحاط به الهنود المعادون.

كما حكى لها كذلك عن اعتزامه الاستيطان. ووعدها ألا يهجرها وأن يتزوجها ويعيدها إلى سكوتلندا بمجرد انتهاء فترة عقوبتها.

وعند وصول نسوة الليدى جوليان إلى ريو، كانت تلك هى المرة الأولى التى يرين فيها عاصمة البرتغال الاستعمارية. وكان ما رأينه جزراً صغيرة كستها الخضرة، وميناء أحاطت به التحصينات، وقوارب الحراسة التى يسيرها العبيد السود، ومدينة متلألئة امتدت أعلى التل قبالتهن. وكانت الكنائس فى كل مكان.

ويسجل جون نيكول أن «السيدات نصبن لأنفسهن ما يشبه الخيمة» على سطح السفينة مستخدمات فى ذلك أحد الأشرعة القديمة. وحسبما يذكر، تولت الأمر امرأة قوية ورشيقة اسمها اليزابيث بارنزلى. كانت الملكة بين لصوص المحال التجارية - حيث كانت تفضل محال بوند ستريت - وأسرتها من قطاع الطرق، وكانت تعرف القراءة والكتابة. وكان الكل ينظر إليها على أنها سيدة محترمة، ولكنها كانت تعرف التوليد كذلك.

كان الربيع قد أقبل على ريو. وكانت سارة وايتلام والمذنبات اللائى فى أواخر حملهن ناعسات بسبب الحر وثقل أجسامهن وهن راقدات فى خيمة الولادة. وكانت الحياة تدب



من حولهن فى السفينة. ولا يتذكر نيكول شيئاً عن مخاض سارة، ولكنه يتذكر أنه فى ريو، شأنها شأن تينيريفه، «لم ينقطع وصول الزوار» القادمين من أجل الجنس على متن السفينة.

كان طفله سيولد فى ظروف من الغرابة الشديدة. فنيكول وغيره من الآباء لم يكن لهم يد فى القرارات الخاصة بإرسال «زوجاتهم» إلى المنفى. فقد كانوا مرتزقة السفن التجارية الذين قبلوا العمل بأفضل الشروط المعروضة عليهم. وإذا كان يتم من خلال عملهم نقل النساء بالقوة من بلد إلى آخر، فإن عليهم السمع والطاعة. وإذا اتخذ أحدهم فتاة فى الرابعة عشرة «زوجة»، فإنه يفعل ما كان سيقوم به أى إنسان آخر ليست له زوجة. فهل هذه هى الطريقة التى تنظر بها الحوامل إلى آباء أطفالهن؟

والقياسات التى فيها حرس يتغاضون عن الممارسات الشبيهة فى معسكرات الاعتقال فى القرن العشرين، أو لا يدينونها على أقل تقدير، غير صحيحة. فأى قياس يفترض وجود ما للقرن العشرين من وجهة نظر أخلاقية واختيار شخصى فى عقلية القرن الثامن عشر لهو قياس لا يعتد به.

وبغض النظر عن العلاقة بين أطفال سفينة ريو وآبائهم، فإنهم سيولدون فى الأسر. وقد نفيت أمهاتهم من إحدى الدول. وكن فى طريقهن إلى دولة أخرى لم تبلغ العامين بعد. إنها لم تكن قد صارت أمة. وكان اسمها غير مؤكد. فهل سيكونون بريطانيين؟ أم إنجليزا؟ أم نيو ساوث ويلزيين؟ من المؤكد أنهم ليسوا أستراليين بعد.

بل سيبقون هم وآباؤهم على قيد الحياة؟

السجن والعواصف والموت جوعاً

الخليج الصغير الواقع بين أشهر معالم سيدنى الحديثة، وهما دار الأوبرا وكوبرى الميناء، هو الآن القلب النابض لهذه المدينة الساحلية المدهشة. إلا أنه كان منذ ٢١٠ سنوات منظراً موحشاً.

ففى سنة ١٧٨٨ أقام هناك «أول أسطول» من السفن القادمة من إنجلترا أكثر المستعمرات عزلة فى العالم. وقد أطلق عليها خور سيدنى نسبة إلى اللورد سيدنى وزير الدولة للداخلية وشئون المستعمرات، وكانت معسكر عمل يعمل فيه المذنبون - حوالى ٦٠٠ رجل وما يقرب من ٢٠٠ امرأة.

وبحلول منتصف ١٧٩٠، كان المستعمرون يترنحون فى شتائهم الجنوبى الثانى. فقد انتشر مرض الإسقربوط. وكذلك انتشرت الدوسنتاريا، وفى شهر مايو بدأ الجدرى فى الانتشار بلا تمييز بين المذنبين وجنود البحرية والضباط. وكان السكان الأصليون من الأبورجين يموتون بالعشرات. وكانت القوارب الصغيرة تخرج يوميًا لجمع جثثهم من على الشواطئ لدفنها. وكانت الرائحة تزكم الأنوف: وكان الدنجو يغزون الشواطئ بعد حلول الظلام ويأكلون من ماتوا حديثاً. وكانت تلك هى أسوأ لحظات المستعمرة.

كانت التربة المحيطة بالأكواخ الصغيرة تفتقر إلى الخصوبة. وكان الحاكم آرثر فيليب قد بعث برسالة إلى الوطن يطلب فيها معدات زراعية وعمالا زراعيين مهرة. كما أنه أرسل فى طلب النساء كذلك، ليكن بنك توليد من ناحية، ويلبين الحاجات الطبيعية للكثير من الرجال من ناحية أخرى. ووصلت سفينة إغاثة متأخرة عن موعدها.

كان يوم الثانى من يونيو ١٧٩٠ يوماً عاصفاً دنت فيه السحب واشتدت الريح الجنوبية. وعلى المرقب الواقع عند ساوث هيد - وهو موقع لا يحظى بالقبول موجود داخل جبانة للأبورجين - تحلق ثلاثة من الجنود حول النار. وفجأة رأى أحدهم شراعاً على مسافة بعيدة داخل البحر. وأرخى الليل سدوله دون أن يظهر شىء آخر. إلا أن الأمر بات جليًا فى اليوم التالى: فقد كانت إحدى السفن تقترب منهم. وعمت الفوضى والاضطراب عندما بلغ الخبر خور سيدنى.

بدأ ضباط الحامية الذين أصابتهم حالة من الهستيريا رحلة الأميال السبعة بالقوارب من خور سيدنى إلى اللسان الممتد فى البحر. لقد حان الوقت كى يروا سفينة تجارية ذات ثلاثة صوارٍ، هى الليدى جوليان، تكاد تتحطم على صخور نورث هيد. وكانت تلك نهاية ينخلع لها القلب لرحلة دامت عشرة أشهر عبر العالم.

كان الطاقم لا يزال ينزل من على الصوارى عندما تجمهرت حفنة من الجنود على جوانب السفينة يضربون البحارة على ظهورهم سائلين عن عدد المواشى وبراميل الدقيق التى لديهم. وأدهشهم الرد. فقد كانت هناك مؤن على متن الليدى جوليان، إلا أن حمولتها الرئيسية كانت من المذنبات، إلى جانب الأطفال الرضع الذين وضعتهم بعضهن أثناء الرحلة نتيجة لاتصالهن بالطاقم.

كانت المستعمرة تتوقع وصول سفينة مؤن على متنها رجال مهرة يتولون أمر المشروعات المعمارية والزراعية. ولكن ما حصلوا عليه هو ٢٢٢ أنثى وأطفالهن لا بد من توفير المآكل والمأوى لهم. وكتب أحد كبار ضباط المستعمرة، وهو رئيس المجلس العسكرى كولينز، يقول: «لم يكن مخجلاً بعض الشىء أن نجد حمولة بهذا القدر من عدم اللزوم وعدم الربحية مثل ٢٢٢ أنثى، بدلاً من حمولة المؤن».

وكان هناك كذلك خبر كئيب، وهو أن سفينة أخرى اسمها الجارديان كانت آتية بالإمدادات ولكنها اصطدمت بجبل جليدى جنوبى المحيط.

أصاب الإعياء النسوة اللائى على الليدى جوليان ونال منهن القلق والخوف. وكان الضباط الذين خرجوا بالقوارب لملاقاتهن يرتدون الأسمال، وكانت أطرافهم عجفاء وقد ترك الجدرى حفراً فى وجوههم وشوه الجوع ملامحهم. وكانت ترقد على اللسان كتلة من الخضرة المبتلة القصيرة. فكانت تلك صدمة شديدة لأى إنسان سبق

كان على متن السفينة ما بين ٢٢٥ و٢٤٠ امرأة، أصغرهن فى الحادية عشرة، وكان ٢٠٠ منهن تقريباً ينمن فى العنبر الأسفل؛ أما الباقيات فكن ينمن من حين لآخر أو بشكل دائم مع الضباط وطاقم السفينة



له سماع حكايات البحارة عن جزر البحر الجنوبى وكان يتوقع رؤية النخيل والوطنيين المبتسمين فى القوارب.



وفى صباح اليوم التالى، أخذت القوارب الطويلة فى الظهور وعلى متنها المذنبون، حيث أرسلوا لتفريغ المؤن. إذ كان الجوع أشد من أن ينتظر حتى ترسو السفينة على المرسى فى خور سيدنى.

وحتى السادس من يونيو لم تكن الريح قد هدأت بالقدر الذى يسمح بقطر الليدى جوليان إلى داخل النهر. وعندما دارت السفينة حول بينيلونج بوينت، حيث تقوم دار الأوبرا حالياً، رأت النسوة خور سيدنى لأول مرة. وكانت المياه عند رأس الميناء تضيق لتصبح حية فضية تنساب أسفل جسر منصبى. وكان يقوم على أحد الجانبين عنبر للنوم كان به رجال أكثر نحافة يشاهدون ويصيحون. وكان بجواره مخزن غلال مسقوف بالقش كان بمثابة المخزن العام. أما على يمينهما فكان المستشفى والمطبخ وجنود يرتدون الأسمال يقومون على حراسة قطع متباعدة مزروعة بالكرنب. وإلى الخلف كانت هناك صفوف من الأكواخ المبتلة وقد تدلت أعواد السمار التى على أسقفها تحت وطأة المطر.

وعلى الجانب الآخر من الجسر كان المنزل الوحيد ذو الشكل اللطيف، وكان من طابقين وله مدخل مزدوج، فى محاولة لعمل مدخل مسقوف، وكانت له حديقة خلفية غريبة تمتد من الدرج إلى حافة المياه ويحرسها حراس حفاة يحملون البنادق.

وكانت النساء على متن الليدى جوليان فى معظمهن أصح مما كن عندما غادرن إنجلترا. فقد كان نظامهن الغذائى فى مجمله طيباً، وكان محظوراً عليهن شرب الخمر. كما أن الهواء النقى والملابس الداخلية النظيفة قد حسنت الجلد والشعر والنفس. وبينما كانت النساء فى انتظار أن ترسو السفينة، أحضرن سحاراتهن من المحبس وأخرجن منها أفضل فساتينهن. وكانت الواحدة منهن قد قامت بإعداد شعر الأخرى بالشكل الذى تسنى لها، ونظفن أظافرهن وأسنانهن، وأزلن الشعر الزائد، وهذبن حواجبهن بالملقاط، واغتسلن بالماء المتدفق.

وكانت آمال النساء الحكيمات وتوقعاتهن تقوم على المعلومات التى وفرها قضاء فترة العقوبة والعمل فى أمريكا وجزر الهند الغربية. فقد كان ذلك تحكمه القواعد الصارمة، ولكنه كان بعيداً عن كونه على وتيرة واحدة من السلبية. فكانت هناك فرص فى ذلك العالم الجديد، وسوف تكون هناك فرص فى هذا العالم. كما كانت هناك طقوس قاسية كذلك. أعقب أحدها وصول الدم النسائى الجديد إلى المستعمرات الجديدة. وسوف يقوم القبطان بعمل ترتيباته مع التجار فى الميناء، وسوف تعرض النساء للبيع، وفى بعض الأحيان من خلال المزاد المفتوح.

احتل توزيع النساء المرتبة الثانية بعد تفريغ المؤن من على الليدى جوليان. وبعد معرفة إجمالى الكمية، حسب أن حصة الفرد الذكر فى المستعمرة يمكن أن تزيد من أربعة أرطال إلى خمسة أرطال ونصف فى الأسبوع لمدة ثلاثة أشهر. ولا تكاد الإغاثة التى جاءت بها الليدى جوليان تحدث أى فرق بالمرة.

وأخيراً وطأت أقدام النسوة أرض الميناء يوم الجمعة الحادى عشر من يونيو وشاهدهن البحارة والحمالون الذين فرغوا الإمدادات، وأى إنسان فى المستعمرة لم يخرج مع جماعات إعداد مواد البناء. وهنا بدأت واحدة من مآسى الرحلة الكبيرة.

سحبت الليدى جوليان إلى الشاطئ الشمالى لإجراء عمليات الصيانة. ولم تنظر أى من النسوة اللائى لم تكن لهن أية صلة عاطفية على متنها إلى الوراء. أما الأخريات، فقد كان ذلك أول فراق لهن عن رجال الطاقم الذين شغفن بهم أثناء الرحلة. وعلى أحد جانبى النهر كان هناك العديد من الآباء الجدد وزوجاتهم وأطفالهم فى أكواخ خور سيدنى وخيامه.

ومن بين الآباء كان جون نيكول قهرمان الليدى جوليان وصانع البراميل عليها الذى وقع فى غرام سارة وايتلام ابنة العشرين. وكان قد حكم عليها فى لنكونشاير بالنفى لمدة سبع سنوات بتهمة سرقة الملابس. وقد شاركته كابينته معظم الرحلة، ولم تبعدهما عن بعضهما سوى ولادة ابنهما جون فى ريو دى جانيرو. وكان نيكول ابن الرابعة والثلاثين قد وعدها ألا يتركها.

وها هو الوقت قد حان لبيان حقيقة القسم الذى أقسمه كل منهما للآخر. فمنذ الوقت الذى غادرت فيه النسوة السفينة لم يعدن ينتمين إلى الليدى جوليان؛ فقد صرن ينتمين إلى حكومة خور سيدنى الاستعمارية. وبينما كانت الليدى جوليان على الساحل الشمالى، تم استيعاب سارة وايتلام والطفل فى أكواخ المستعمرة وخيامها. ومن ناحية أخرى كان نيكول متعاقداً على السفر بالليدى جوليان إلى الصين ومنها إلى إنجلترا.

وعندما أنزل مذنبو الأسطول الأول فى يناير ١٧٨٧، كان يتم التخلص من إحباطات الرحلة الجنسية فى حفلات ماجنة بين الصخور، حيث كانت تتم بما يشبه علم المسئولين ويقترب من تواطؤهم ويكاد يكون إدانة لها. وكان الضباط يعطون البحارة «مشروب الروم كى يمرحوا مع النساء». ولا تسجل مذكرات أى ضابط مثل هذه الحفلات بعد نزول نسوة الليدى جوليان، إلا أنه من المؤكد أن عدداً من البحارة كان يدق بعض الأبواب. بل إن رئيس المجلس العسكرى كولنز كان يستمتع بأحضان مذنبة اسمها نانسى ييتس.



وبغض النظر عن الحرية الممنوحة، فقد كان يعاد تقديم النساء إلى عالم الكفارة القديم المنهك ـ العصا أولاً، ثم الكتاب المقدس. وقد

معظم النساء اللائى على متن الليدى جوليان كن فى أواخر العقد الثانى أو فى العشرينيات، وكان البحارة فى نفس السن، بينما الضباط أكبر قليلاً. ورغم ما تتسم به المعاشرة مع الإكراه من وحشية، فهى لم تكن غير طريقة منطقية لمنع الإحباط الجنسى لدى الشبان والشابات العزاب الذين يعيشون بجوار بعضهم

اقتيد رجلان يوم السبت إلى شجرة الجَلد وكان نصيب كل منهما ٢٠٠ جلدة لسرقتهما السكر. ويوم الأحد جمعت كل النسوة عند الشجرة وسمعن موعظة من القس ريتشارد جونسون، الذى سجل أن العديد منهن تأثر إلى حد البكاء.

وكان جونسون قد جاء مع أول أسطول وله خبرة فى تعميد الأطفال غير الشرعيين ومباركة الاتحادات غير المعتادة. إلا أن ما لم يكن يمكنه عمله هو مباركة التزاوج الذى تم على متن الليدى جوليان.

وكان بعض البحارة يرى فى مفارقة الخليلة والطفل مجرد جزء من حياة البحر، إلا أن نيكول كان يريد الزواج من سارة وايتلام، وأخيراً وجد القس المفوض من الرب والملك جورج كى يعلنهما زوجاً وزوجة.

طلب نيكول السماح له بالبقاء فى نيو ساوث ويلز كى يعمل كرجل حر إلى أن تنتهى فترة عقوبة سارة وبعدها يعود بها إلى الوطن. وكانت هناك حاجة شديدة إلى العمال المهرة هناك. ولكن «ايتكن» قبطان الليدى جوليان ما كان ليحله من تعاقده. فقد كان نيكول قد وقع فى لندن على رحلة لجلب الشاى. وإذا سمح له بالبقاء، فكم غيره سيرغبون فى الشيء نفسه؟ وكان عقد الشاى الذى وقعه القبطان يشترط وصوله كانتون بحلول الخامس عشر من يناير ١٧٩١، وإذا نقص عدد رجاله فسيتعرض لخسارة عمولة مجزية.

وفى الوقت الذى كان نيكول يتشاجر فيه، تحسن الموقف تحسناً كبيراً فى خور سيدنى. ففى الحادى والعشرين من يونيو قطرت سفينة المؤن جوستنيان إلى خور سيدنى. وكانت قد قطعت المسافة من لندن فى خمسة أشهر وأنقذ وصولها المستعمرة. وفى نهاية الشهر جاءت إشارة تدل على رؤية شراع آخر. ولا يمكن أن يكون سوى شراع نبتون أو سكاربره أو سربرايز. وهى سفن سجون كانت تحمل بعض المساجين والعشاق والقوادين وأزواج شحنة الليدى جوليان.

وقضت النساء فى خور سيدنى الليلة فى إعداد أنفسهن قبل قطر السفن التى وصلت حديثاً إلى داخل النهر. إلا أن آمالهن السعيدة سرعان ما تحولت إلى رعب. فقد أمضت أطقم السفن شطراً كبيراً من الليل فى رفع جثث المذنبين الذين ماتوا فى محبسهم وإلقائها من عليها. وظل البحر عدة أيام يلقى بالجثث فى المناطق المحيطة بخور سيدنى، وكانت الأيدى لا تزال مقيدة.

ومن بين المذنبين الذين كانوا على متن نبتون وسكاربره وسربرايز نجا ٧٥٩؛ ودفن ٢٧٣ فى البحر أو ألقيت جثثهم من عليها بعد وصولها، وها هم ٤٨٦ من الناجين الذين تم إنزالهم فى حالة من المرض الشديد، بحيث لا يمكنهم رعاية أنفسهم.

كانوا يدلون بالأجسام المحتضرة كريهة الرائحة من على الأسطح إلى القوارب المنتظرة أسفلها. وكانت الصنادل تسير إلى مسافة قريبة من الشاطئ يمكن عندها خوض الماء، وكان المجدفون يقفون ويرفعون المذنبين فوق الجوانب ويعودون لأخذ المزيد. وغرق عدد منهم. وسقط الذين أمكنهم الزحف حتى الشاطئ أكواماً تئن.

دفع الحاكم بفرق الإنقاذ. ونزل الناس إلى الماء لسحب رفاقهم إلى الشاطئ. وقام الحدادون بكسر القيود على الشاطئ، إلا أن كثيراً من الناجين عجز عن المشى على عضلات ضمرت نتيجة لشهور فى الأصفاد. وحمل الأصحاء المرضى على ظهورهم إلى المستشفى. ويبدو أن الأمر استمر ساعات ـ فقد تلت حمولة القارب من الرجال والنساء الأخرى وكانوا لا يقوون على النظر إلى الضوء وكانوا على قدر كبير من القذارة والتشويه بحيث لم يمكن التعرف حتى على الأحبة والإخوان.

اندفعت نسوة الليدى جوليان إلى الشاطئ وقلبن الجثث وطلبن معلومات ممن لم يمكنهم الرد عليهن. بل إن المذنبين أنفسهم لم يكونوا يعرفون من خرج من المحابس حيّا ومن ألقى به من على جوانب السفن داخل كيس. وكان لا بد من مرور أيام ليتضح من الذى نجا.

لم يتمكن مستشفى المعسكر من التغلب على الأمر. وأشعلت النيران ووضعت فيها الأسمال التى تجلدت بفعل القاذورات البشرية. ولف المرضى العرايا بالبطاطين لحين صنع ملابس لهم. وأرسل الرجال إلى داخل الأحراش، يحرسهم جنود البحرية من السود المعادين، للتزود من جديد بإمدادات من نبات الآس ضد الدوسنتاريا التى اكتسحت المعسكر.

فى خضم هذه الفوضى، كانت بعض النسوة من الليدى جوليان يحددن مستقبلهن بهدوء. فقد بدأت الروابط التى بينهن وبين صحبة السفينة تضعف، وبدأت روابط جديدة فى الظهور بين النساء ورجال المستعمرة.

وسرت شائعة مفادها أن معظمهن سيرسل إلى جزيرة نورفولك، وهى مستعمرة تبعد ألف ميل وأكثر انعزالاً من تلك التى وصلن إليها للتو. واللائى سيبقين على البر الرئيسى هن من لهن أحد يدافع عنهن ، كأن يكون مخدوماً أو سيداً، أو زوجاً يقتضى عمله بقاءه فى سيدنى، أو جندى بحرية يتعاطف ضباطه مع طلبه للاحتفاظ بعشيقة.

وكانت للمسئولين نظرة نفعية تجاه نساء المعسكر، وإن كانت فى الغالب نظرة مشوبة بالتعاطف: فقد كن فى الأساس كتلة لا فرق بينها من الأفواه والأرحام. ذلك أنه جىء بهن من إنجلترا للنوم مع حراس المعسكر وحمل أطفال للمستوطنين الذكور.

ومن الممكن أن نستنتج من خلفية ومهن الرجال الذين تزوجوا عرائس المرسى فى شهرى يونيو ويوليو أن الحاكم جاد على الرجال الذين أراد إبقاءهم فى المستعمرة بشىء من حمولة الليدى جوليان. ونجد أن من بين النساء اللائى تزوجن فى نهاية شهر سبتمبر من تزوجن مذنبين ارتقوا مناصب على قدر من المسئولية، بينما تزوج البعض الآخر رجالاً على علم بالزراعة.

وبحلول أواخر شهر يوليو، كانت الصيانة قد أجريت لليدى جوليان تمهيداً لرحلتها شمالاً إلى كانتون. وها هى تخرج من النهر لتقضى أيامها الأخيرة فى المستعمرة حيث يجتمع شمل البحارة و«زوجاتهم» على متنها.

ولم يكد نيكول يغادر أكواخ خور سيدنى. وهو يقول بعد ذلك بثلاثين سنة: «أية لحظات يمكننى توفيرها كنت أهبها لسارة. فقد كانت الأيام تجرى على عجل، وكنا نمقت ساعة الفراق».




ويبدو أنه سُمح للزوجات بالعودة إلى متن السفينة فى الليالى القليلة الأخيرة فى الميناء، كما سمح للرجال بالنزول على الشاطئ بالنهار. وربما ظن الضباط أن هذا سيخفف من حدة الموقف، إلا أن الأمر لم يكن كذلك. فقد كان على متن الليدى جوليان أزواج عاشوا مع بعضهم ما يربو على السنة، وأصبح منهم الآباء؛ كما بات الذين يربطهم الجنس عشاقاً. وإذا كانت نية القبطان ايتكن عند الرحيل هى إرضاء رجاله بالسماح لهم بالنوم مع المذنبات، فقد كانت لتلك الاستراتيجية نتيجة عكسية، حيث كان لا بد من ترك النساء فى خور سيدنى.

وكان ايتكن قد سمع عند التوقف فى كيب تاون من أحد ضباط السفينة باونتى ـ وهو الربان فراير ـ رواية تتعلق بالتمرد الذى وقع على متنها. فقد تمرد رجال فراير لكى يبقوا مع نسائهم فى تاهيتى. وكانت أعمالهم البطولية معروفة لرجال الليدى جوليان الذين أخذت التماساتهم تتحول إلى مطالب. ووضعت خطط جنونية فى الأيام الأخيرة لليدى جوليان فى خور سيدنى لإخفاء النساء فى السفينة، إلى أن يبحروا شمالاً مسافة يستحيل معها الرجوع.

وفى حديث غاضب من العنبر الأمامى بالسفينة، ناشد ايتكن الحاكم فيليب تقديم العون. وفى ليلة الرابع والعشرين من يوليو، لم تكن النسوة راغبات فى مغادرة السفينة، ولم يكن الرجال موافقين على النزول إلى الشاطئ، وأرسل جنود البحرية إلى السفينة، ووسط دفع جنود البحرية وشتائمهم وصراخ الأطفال، ودع نيكول زوجته وابنه. «تبادلنا القسم فقد أقسمت هى أن تظل على إخلاصها، ووعدتها أنا بالعودة عند انتهاء فترة عقوبتها، وإحضارها إلى إنجلترا». أعطاها كتابه المقدس. وكتب اسمه واسمها واسم الطفل على الصفحة الأولى، ثم دفعوا به إلى الصندل وفرق بينهم الزحام عند خط منسوب المياه.

وفى الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٧٩٠، ترك نيكول سارة وايتلام وأبحر بعيداً. وفى اليوم التالى تزوجت رجلاً غيره. ولكى تحقق الدور المرسوم لها عندما حُكم عليها بالنفى إلى مستعمرة اعتقال، أصبحت زوجة مذنب ناجح كان يقضى فترة عقوبته.

لم يعرف نيكول قط بهذا الأمر. فقد أمضى عشر سنوات محاولاً العثور عليها من جديد، وظل يتحدث وهو بحار عجوز، بعد الحرب والمغامرات فى أنحاء العالم، عن حبيبته المذنبة فى خور سيدنى التى يصعب عليه إدراكها. ■

ترجمة: أحمد محمـود

من كتاب The Floating Brothel
(الماخور العائم)
Sian Rees
London: Headline, 2001, 248PP.

كتاب الزاوية

الأغانى الشعبية فى صعيد مصر

غناء العرب ـ البدو

مالك ومال الهوى يا ابو خَلَقْ (ثياب مهترئة) دايب
تعشق بنات العرب وانْتَ كبير شايب
وانْ هَبْت الريح قلت لَمرْكبى سيرى
وانا اصْبر صَبْر الخشب تحت المناشيرى
ناديت يا طير يا طير بحقّ السمّا العالى
تلِمّْ شملى وتجمعنى على الغالى
يا حارس الكرم يكفيك النُوم فى ضلُّه
أكلت الرُّطَبْ وبقّيت الحنش (البلح الذى لا يؤكل) كَله

❊ ❊ ❊

لو كنت يا حلو ترِبُط على الرَّفَقْ وتدوم
لانصب لك روايه ومن تلا الروايه رقوم (أهداف)
لو كنت يا حلو بالمقسوم تقسم لى
لاذبح جمال صاحْبِى واتنين من زْمَلى (الزملاء)
قالوا السلام بالأيادى قلت أنا بعينى
من يوم ماشفتك عرفت انك غريب بلادى
ماشى مِطَاطِى ولا لِكْ فى الفريق أحباب
وصَّل سلام صاحبى يا عارفين داره
سلِّم عَلِيْه بالنسيم لِئَلاّ يسمعك جاره
لو كان ودَّك بنات البدو يهْوَنَّكْ
جُرْ المناسم (مصاحن البن) وشيل الْبُنْ فى كُمَّك
أربع غزالات والقانص غَلَبَتْنَه
ما ترك الصِّيد غير اللى شبع مِنَّه

عروض موجزة

كتب عربية

الحق يخاطب القوة

المحرر: بول بوفيه
ترجمة: فاطمة نصر
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠١، ٣٦٠ صفحة



خاض إدوارد سعيد حربه على جبهتين، عدو رئيس اغتصب أرضًا وادعى امتلاكه حقوقًا تاريخية فيها، وسلطة وطنية قنعت بالقليل في اتفاقيات جائرة ومجحفة، ومارست قدرًا غير قليل من الاستبداد والفساد السياسي فور استوائها على سدة الحكم.

ومنذ اتفاقيات أوسلو ومدريد، أعلن سعيد رأيه بصراحة: لا حل وفق هذه الاتفاقيات، ولا نجاح لصيغة دولتين فوق أرض واحدة، إحداهما تمتلك عمليًا مقومات الدولة ونفوذها، والأخرى تفتقد كافة تلك المقومات.

وكان صوت سعيد الذي يطل على الجمهور الغربي - خصوصًا الأمريكي - عبر وسائط إعلامية مقروءة ومسموعة ومرئية، هو المكافئ لحالة الكذب الدائمة التي يمارسها اللوبي اليهودي عبر هذه الوسائط، ونجح في أن يوجه النظر إلى زاوية أخرى في المأساة، هي ما يعانيه الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال، وقد اعتاد هذا الجمهور أن يتعامل مع القضية من زاوية عرجاء بائسة: ثمة دولة إسرائيلية تعاني إرهابًا وقلاقل بسبب «حفنة» من المقيمين على أرض هذه الدولة، يدّعون أن لهم حقوقًا فيها، تصل إلى حد إقامة دولة مستقلة.

يقول سعيد بوضوح - كما يبدو في مواضع عدة من الكتاب الذي يشتمل على لقاءات تمت معه أو ندوات أقيمت له أو كتابات تحليلية لآرائه - إن تاريخ الفلسطينيين مرتبط بتاريخ اليهود بشكل لا فكاك منه.. «لدرجة أن فكرة الفصل برمتها والتي تتمحور حولها عملية السلام، أي أنه يوجد شيء فلسطيني وآخر يهودي محكوم عليه بالفشل، فلا يمكن أبدًا أن تنجح».

ينتقد سعيد نظام العزل العنصري الذي تسعى إسرائيل إلى ترسيخه في فلسطين، ومحاولات الإبادة التي تحاكي بها ما فعله الأمريكان بسكان أمريكا الأصليين، وبدا الأمر بسيطًا إلى حد السذاجة.. «ضعوهم في محميات أو أبيدوهم وستنتهي المشكلة».

الجانب المهم أيضًا في محاورات إدوارد سعيد التي يتضمنها الكتاب هو تحليله المجال الأمريكي العام ودور اللوبي اليهودي داخله، حيث يتم إقصاء أي ناقد للترتيبات المفروضة على الفلسطينيين بوصفه عدوًا للسلام أو في أقصى الحالات، بوصفه متعاطفًا مع «الإرهاب الإسلامي البشع». لكن الكتاب يتضمن أيضًا بعضًا من اهتمامات إدوارد سعيد خارج المجال السياسي، ويكشف عن ولعه الشديد بالفنان الإسباني جويا الذي جُذب إليه لعدائه المستمر للسلطة والاستعداد للوقوف منها دومًا باعتبارها شيئًا يغلفه التظاهر (...) تكسو نفسها بأفضل الثياب ولا يهمها سوى مصلحتها الشخصية».

وكذلك شغفه بـ«الجريكو» خصوصًا مشاهده الساكنة. وتلقي المحاورات أضواء على عشقه التاريخي للموسيقى عازفًا ومؤرخًا، كيف بدأ اهتمامه بالموسيقى في سني حياته الأولى، وكيف انعكست على كتاباته النقدية في الأدب المقارن والسياسة والثقافة عمومًا، باختصار.. ثمة رؤية شاملة عن إدوارد سعيد الشخص والناقد والمفكر تقدمها محاورات الكتاب.

□ □ □

الفلسطينيون.. صيرورة شعب

باروخ كمرلنغ ويوئل شموئيل مغدال
ترجمة: محمد حمزة غنايم
رام الله: مدار، ٢٠٠١، ٤٥٠ صفحة



يقدم هذا الكتاب رواية مختلفة عن الصراع العربي الإسرائيلي، وقد صدرت طبعته الإنجليزية عام ١٩٩٣، ومؤلفاه معروفان في مجالهما باعتبارهما من أبرز الباحثين، وهما يبحثان في هذا الكتاب تاريخ الفلسطينيين منذ ما قبل وجود هوية وطنية فلسطينية وحتى اليوم، ويضيفان إلى الطبعة العبرية التي تمت ترجمتها إلى العربية فصلًا جديدًا عن الشعب الفلسطيني بعد اتفاقات أوسلو، ويتوقف المؤلفان عند خطوط التماس بين المشروع الوطني الفلسطيني ومشروعات الاستيطان الصهيوني في فلسطين قبل عام ١٩٤٨ وبعد إقامة دولة إسرائيل.

يطرح المؤلفان سؤالًا بالغ الأهمية يجيبان عليه بالإيجاب وهو أنه لا يمكن فهم المجتمع الإسرائيلي دون معرفة تاريخ الفلسطينيين، ويحلل الكتاب المحن التي مر بها الشعب الفلسطيني على مدار ١٥٠ عامًا، ويفسر أسباب نجاحه أو فشله في الخيارات التي طُرحت أمامه مشيرًا إلى بعض الانعطافات المهمة في تاريخه، كما يبحث في حياة ساكن السهل الفلسطيني وسيرة الفلاح الفلسطيني ويحكي كذلك عن المثقفين والكتاب. ويرى المترجم أن أهم ما عالجه الكتاب هو ما جاء في فصله الخامس تحت عنوان أبعاد النكبة، حيث يحلل المؤلفان أسباب نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ونتائجها، حيث تحولت أكثر من ٣٥٠ قرية وحيًا إلى أثر بعد عين، وهجر السكان مدنهم وقراهم، وسيطر على الفلسطينيين شعور حقيقي بأنهم ضحايا مؤامرة كبيرة وظلم تاريخي مازال يهز النظام العالمي، ويؤكد المؤلفان أن النظام الأخلاقي العالمي كله لن يعود إلى سابق عهده، إلا إذا عادت الأمور في فلسطين إلى ما كانت عليه قبل نكبة ١٩٤٨.

ويشير المؤلفان إلى انهيار المجتمع الفلسطيني ككيان سياسي واجتماعي عندما بدأت العصابات اليهودية المسلحة عملية طرد جماعي للسكان العرب من داخل حدود ما صار فيما بعد دولة إسرائيل: إذ تم طرد نحو ١٠٠ ألف فلسطيني خلال عشرة أيام فقط إلى خارجها.

المهم أن الكتاب يطرح رؤية مغايرة، بل متعارضة مع الروايات الصهيونية الرسمية التي بحثت في تاريخ الصراع منذ الاحتلال وحتى اليوم.

□ □ □

كيف نحمي دارنا؟

سميرة نعيم خوري
رسوم: حلمي التوني
بيروت: دار الحدائق بالتعاون مع المنظمة الفلسطينية لحقوق الإنسان، ٢٠٠١



في مواجهة احتلال فاشي وآلة عسكرية باطشة لا تعرف الرحمة، يمسك أطفال فلسطين بالحجارة، يقذفونها بعزم أياديهم الصغيرة ذودًا عن ديارهم وطيورهم وبساتينهم ومستقبلهم على هذه القطعة من الأرض التي لم يعرفوا لهم وطنًا غيرها.

فيما يشبه التحية والنصيحة في آنٍ معًا يأتي هذا الكتيب للأطفال ليخاطبهم بكلمات بسيطة ورسوم تحمل بصمات فنان كبير عن معنى الوطن، عن ضرورة الدفاع عنه والاستبسال في سبيله، عن مقاومة الظلم والاستمساك بالحقوق مهما كان البون شاسعًا بين أسلحتنا وأسلحة العدو، تقول القصة في جمل بسيطة تلغرافية: القطة لها مخالب لتدافع عن حالها، النسر عنده منقار ليدافع عن حاله، الكلب عنده أسنان ليدافع عن حاله، النحلة لها لسعة لتدافع عن حالها، والوردة عندها أشواك حتى تحمي حالها، الفيل عنده خرطوم ليدافع عن حاله، الحية عندها سم لتدافع عن حالها، وأنا وأنت والأطفال كيف نحمي حالنا.. وندافع عن دارنا؟

وتعطي رسوم حلمي التوني الإجابة: بالمقاومة.. بالمقاومة.

□ □ □

الثقافة العلمية والقيم الإنسانية

سمير حنا صادق
القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠١، ١٣٠ صفحة



في مجتمعات نامية كمجتمعاتنا، تجد الخرافة أسانيدها عند مرافئ شتى، وتسبح وحوش الغيبيات في أنهار كالحة، يختلط فيها الديني بالأسطوري بالقيمي بالموروث في مزيج عصي على التآلف، تلزمه عملية «قسطرة» وتنقية تعيد الموارد إلى مكوناتها الأولى وتفرز من بينها الصالح والطالح. والثقافة العلمية، هي الأقدر على مقاومة ثقافة الخرافة، والتفكير العلمي هو المناهض للتفكير الغيبي الذي يقصي العقل ويقزم طاقاته، وينحي جانبًا مقولة الإمام الغزالي: العقل نور والشرع النوع وكلاهما معًا نور على نور.

والمؤلف هو مقرر لجنة الثقافة العلمية بالمجلس الأعلى للثقافة في مصر، له نحو خمسة عشر كتابًا كلها في العلم والثقافة العلمية، وجمع في كتابه هذا عددًا من الدراسات التي نشرت في المجلات والصحف في محاولة منه لتعميق التوجه نحو الثقافة العلمية في عالم يجتاز ثورة المعلوماتية نحو ثورة جديدة في المعلومات البيولوجية، وقد بات مؤكدًا الأدوار بالغة الخطورة التي ستلعبها الخريطة الجينية في مستقبل البشرية، وهدفه هو تهيئة مناخ مجتمعي مستعد للتعاطي مع تلك المتغيرات المهمة والانقلابية في آن معًا.

ويعطي المؤلف اهتمامًا خاصًا باللغة بوصفها الوعاء الذي تصب فيه الفكرة، فاللغة عنده هي وسيلة التفكير الراقي، وهي كذلك كائن حي متطور تعبر عن الفكر السائد في مرحلة زمنية معينة، فإذا عرفنا - يقول المؤلف - إن المعرفة تتضاعف مرة كل ٨ أشهر، وأننا متخلفون

عــــــروض مــــوجــــزة

بحوالى ٤٠٠ عام عن ركب العلم، وعلينا أن نقطع هذه القرون الأربعة فى عقد واحد وإلا سقطنا من التاريخ، .. «إذا عرفنا ذلك كله قدرنا مسئوليتنا نحو التفكير العلمى ونحو اللغة».

ويشير المؤلف فى دراسة أخرى إلى المخاطر التى تواجهها العلوم الحقيقية من العلوم الزائفة، حيث يقابل علم الفلك بعلم التنجيم ويواجه علم الأحياء بأحاديث عن الوحوش الغريبة، وتواجه الجيولوجيا بحكايات عن القارات المختفية وعلوم الفضاء بقصص الأطباق الطائرة وزوار الفضاء.

فكيف يميز إذن الشخص العادى بين العلم النافع والعلم الزائف؟

يقدم المؤلف وصفة مهمة أو مجموعة من الأسلحة للمواجهة، أولها: إخضاع الزعم لتجارب التكذيب، أى أن ينشر ما يُظن أنه علم فى دوريات علمية محكّمة ليرد عليه العلماء المتخصصون ويثبتوا صحته أو كذبه، وثانيها: إخضاع هذا العلم للتطبيق ومتابعة تطوره التطبيقى، وثالثها: هو المنطق وكى لا يصور العلم بوصفه معاديًا للقيم والدين، يطالب المؤلف عند اتخاذ خطوات مهمة فى تطبيق العلم بالاستعانة إلى جانب العلماء المتخصصين بالمخلصين المستنيرين من علماء القانون والاجتماع ورجال الدين، كى لا يحرم بعض الناس من ثمرات العلم تحت شعارات زائفة تتمسح بالدين والتقاليد.

□ □ □

مهرجان الحيوانات

نزيه جرجس
رسوم: سلمى كمال
القاهرة: الناشر، نزيه جرجس، ٢٠٠١



فكرة الكتاب الذى تقدمه الدكتورة نادية مكرم عبيد وزيرة الدولة لشئون البيئة تستحق الإشادة، فهى تحيل الآلات الموسيقية إلى ما يناظرها من أصوات الحيوانات اعتمادًا على تلخيص لأربعة عشر عملا موسيقيا للموسيقار الفرنسى تشارلز كاميل سانت سون لمصاحبة النص الذى يقدم ثقافة موسيقية رفيعة، وثقافة بيئية تعلّم الطفل كيفية الحفاظ على بيئته وأهمية هذا السلوك.

وقد اختار الموسيقار الفرنسى آلات الفيولا والكمان والتشيلو والكونترباص والفلوت والكلارنييت والإكسيليفون والبيانو.

وقد أخذت كل آلة دورًا داخل مهرجان الحيوانات، فالكمان بوصفها أصغر الآلات الوترية وأعلاها صوتًا تقوم بدور الدجاج ونهيق الحمار والفيولا تمثّل الأسماك، والتشيللو البجعة والكونترباص يلعب دور الفيل، ويقدم لنا الفلوت الطيور وهى تنادى على بعضها والكلارنيت صياح الديك العالى وصوت الطاووس، أما البيانو فتجرى على أنغامه النعامة بسرعة وكذلك يعبر عن حركات الزراف وزئير الأسد، ويعبر الإكسيليفون عن قفزات القرود.

أما تفاصيل الحكاية داخل مهرجان الحيوانات، فتقوم على توزيع الأدوار بينها جميعًا المخلفات من الغابة وكيفية إعادة تدوير وإعادة تصنيع بعضها، وكيفية دفن الباقى فى حفر عميقة تحت الأرض تسمى «مدافن محكومة»، وكيف يمكن أن تساهم كل الحيوانات والطيور، وكيف صارت الحديقة بعد تنظيفها وتنسيقها، مكانًا جاذبًا لكل الحيوانات والطيور التى آثرت العيش فى بيئة نظيفة خالية من كل أشكال التلوث السمعى والبصرى والتنفسى.

□ □ □

الماضى الخرافى.. التوراة والتاريخ

توماس طمسن
ترجمة: عدنان حسن
دمشق: قدس للنشر والتوزيع ٢٠٠١، ٦٢٠ صفحة



منذ البداية، اختلق اليهود الأكاذيب كى يمنحوا الصهيونية بوصفها أيديولوجية سياسية عنصرية قدسية من نوع ما، عبثوا بالتاريخ وبعلوم الآثار وبالكتب المقدسة، كى يؤكدوا تلك الأكاذيب من نوعية «الأرض الموعودة» و«شعب الله المختار» و«الأغيار» وغيرها. ووجدوا قوى عالمية لديها استعداد لتصديق تلك الأكاذيب وربما تروجها لأسباب مصلحية خاصة، وللتخلص من «مشكلة يهودية» تؤرقهم بتصديرها إلى منطقتنا، ومنطقى أن يفند

الأمة والدولة
بيان تحرير الأمة

رفيق حبيب
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١، ٢٢٠ صفحة



يواصل المؤلف فى هذا الكتاب ما بدأه فى كتاباته السابقة: التى يمكن النظر إليها إجمالاً بوصفها مشروعًا متكاملاً عنوانه الكبير «تحرير الأمة»، وهو المشروع الذى صاغ خطوطه العريضة فى المؤلف الذى حمل عنوان «أوراق حزب الوسط».

وكانت دلالة الوسط واضحة ومباشرة: موقع حضارى للأمة يرفض الاستلاب والانسحاق التام أمام النموذج الحضارى الغربى، بالدرجة ذاتها التى يبعد بها عن صيغ التطرف والإرهاب الفكرى باسم الدين.

ويجنح إلى ما يمنح هذه الأمة خصوصيتها وتميزها وتحقق نهضتها، استنادًا إلى المنابع النقية الأصيلة فى الحضارة العربية الإسلامية فقهًا وتشريعًا ومعاملات.

والمؤلف أكد فى كتاباته السابقة - كما فى هذا الكتاب - أن «النهضة لا تبدأ إلا بالأصالة ولا تبقى إلا بالتجديد».

المؤلف هنا لا يستعير موقف «التماهى الكلى» المنبهر بالغرب كما كانت حالة سلامة موسى مثلاً أو طه حسين فى مرحلة أولى، رأى فيها أن الأمة لن تتقدم - كما عبر عن ذلك فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» - إلا إذا احتذت النموذج الغربى تمامًا وصرنا غربيين فى كل شىء.

كما لا يتعاطف مع مواقف الرافضين للنموذج الحضارى الغربى برمته بوصفه شرًا مستطيرًا: هو يحاول أن يتخير موقعًا وسطًا يتواصل فيه مع جذوره الحضارية الإسلامية بحيث تصبح هى المرجع عند كل قياس، مميزًا.. ما يمكن أن نطلق عليه «نقل نموذج» و«استلهام تجربة»، فالنقل أيًا كان مصدره هو عملية تقليد، أما التعلم من تجربة فهو عملية نهوض وابتكار بحسب قوله.

ويبدأ المؤلف مما يمكن أن يميز البنية الاجتماعية للأمة العربية الإسلامية، والتى تحتل فيها الأسرة موقع النواة، وهى فى المفهوم الإسلامى كيان مترابط يجعل البناء الاجتماعى للأمة كله وحدة غير قابلة للانفصال، وهو مفهوم لا يتوفر بالدرجة ذاتها فى البناء الاجتماعى الغربى، ولذلك فهو يرى أن للأسرة دورا مهمًا فى هذه المرحلة الانعطافية، إذ تعيد إنتاج هوية الأمة وقيمتها.

«فالنهضة الحقيقية تحتاج إلى دور الأسرة لتكون هى الحاضنة للتجديد الحضارى»، ويعطى المؤلف أهمية كبيرة لحالة الجماعة وقدرة التكوينات الجماعية سواء كانت جمعيات أو حركات سياسية أو دينية أو مؤسسات أهلية على تحقيق النهضة المنشودة.

ويميز بوضوح بين الجماعة والطبقة والحزب وحالات الصراع داخل كل منها، وينتهى إلى أن الأولى فقط هى الأقدر على تمثيل النهضة وتحقيقها. إذ لا يعد الصراع الطبقى وعمليات الصعود والهبوط فى إطاره شرطًا للنهضة أو من دلائلها، كما أن الطرح السياسى الذى تقدمه الأحزاب لا يحظى باهتمام شعبى يحيله إلى واقع يمشى على قدمين.

وما يدعو إليه المؤلف هو «تطوير البناءات الفاعلة فى حياة الناس لتأتى معبرة عن نمط الحركة الجماهيرية وسببًا فى تقوية الحراك الاجتماعى المحقق للنهوض»، وفى هذا الإطار يسهب فى تناول المؤسسات والجماعات، وحدود التقاطع والتوازى بينها سواء فى صيغتها الرسمية أو الأهلية.

ويقود هذا كله إلى المفارقات بين الدولة والأمة، والأولى تسعى إلى تسييد توجهاتها التى ربما كانت مستوردة بالكامل، بقوة أجهزتها وسلطاتها الأمنية والعسكرية وقوانينها الإدارية، أما الثانية: فتوجهاتها نابعة من إجماع الناس واتفاقها سواء كان ذلك حول قيم دينية أو عرف اجتماعى، وهو ما يفسر رغبة الناس فى التمرد على الأولى، وقبولهم الراضى لقيود الثانية، ويناقش المؤلف فى هذا الإطار فكرة الشرعية والشورى والبيعة والانتخاب والاختيار والاتفاق والإجماع وغيرها، وينتهى إلى أن التراجع الحضارى كان سببًا رئيسيًا فى ظهور الدولة القابضة، ومع التطور والازدهار الحضارى ستختص الدولة القابضة أو ستقلص دورها لحساب الأمة التى تحمل ضمن مكوناتها الأصلية موروث النهضة.

عماد الغزالى

عـــــــروض مـــــوجـــــزة

بعض المنصفين من المؤرخين والكتاب السياسيين هذه الأكاذيب، ويفضحوا زيفها. وهو ما يفعله المؤلف الذي يرى أن الاهتمامات الأثرية التي أيقظتها غزو جيوش نابليون للشرق. أعادت النظر في مكانة التوراة ضمن تاريخ الشرق الأدنى القديم، وشهد القرن العشرون تطورات نقدية لكيفية فهمها باعتبارها شكلاً من الواقعية الساذجة كما يسميها المؤلف، ويقترح المؤلف بديلاً لهذه الرؤية، رؤية أخرى تمنح مكانة أكبر للصفة التاريخية والأسطورة لما يرد في التوراة. إنه يحاول أن يقرأ «الكتاب» بناء على لغته الخاصة، وهي رؤية تمنحه قدرة على التمييز بين الأسطوري والتاريخي، وتضع الخرافي والميثولوجي في موضعه الطبيعي، كي لا يتحول.. وهو ما فعله اليهود دوماً - إلى تاريخي وديني.

وفي القسم الثاني من الكتاب يقدم المؤلف فكرته عن نوع المعرفة التاريخية التي تعامل بها الأكاديميون مع موضوع فلسطين القديمة، ويقارن هذه الفكرة بما قدمه الأثاريون الكتابيون عن موضوع إسرائيل، وحقيقة الدور الذي لعبه الإله «يهوه» واختلاف هذا الدور كما توضحه نقوش الشرق الأدنى وكما يسرده الأحبار في قصة النبي موسى وبدايات دولة إسرائيل.

إن القصة كما يحكيها «الكتاب» تدور حول إله بلا وطن أو شعب اختار شعباً مثله بلا وطن أو إله، وبدا أن ثمة قدرا من التوحد بين هذا الإله وهذا الشعب الشريد، وهكذا نشأت إسرائيل ووجود شعب إسرائيل، ويرى المؤلف في حكايات الكتاب تشابهاً مع حكايات تراثية قديمة جمعت من مصر وبلاد ما بين النهرين وفينيقيا، ما يجعل المعرفة التاريخية التي تقدمها التوراة متشظية ومفككة ولا تقيم بنياناً، وهو ما يقوّض دعاوى الصهيونية القائلة بالحقوق التاريخية وتميز اليهود الساميين من أساسها.

□ □ □

قريبًا من الكرملين

سامي عمارة

القاهرة: دار الهلال ٢٠٠١، ٢٦٠ صفحة



أكثر من ثلاثين عامًا قضاها المؤلف قريبًا من الكرملين ودوائر صنع القرار فيه، وهي فترة كافية كي يضع يده على مواطن الجرح الذي مازال ينزف، في جسد ما كان يعرف سابقًا بالاتحاد السوفيتي، والذي ضم بين ضلوعه أكثر من ١٥٠ قومية عاشت على ما يقارب سدس مساحة اليابسة.

وقد اختزنت ذاكرة المؤلف الذي حصل على درجة الدكتوراة في اللغة الروسية من موسكو، وعمل مراسلاً صحفيًا وإعلاميًا لعديد من الصحف والقنوات التليفزيونية، كثيرًا مما يمكن أن يقال سواء عبر متابعته المهنية ولقاءاته بمسئولين كبار في الحزب الشيوعي السوفيتي الذي يعتبره مسئولاً عما جرى في روسيا خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة، أو من خلال علاقات شخصية غلب فيها أكثر الطابع الإنساني بحكم إقامته الطويلة هناك للدراسة ثم العمل.

وقد مكنته تلك العلاقات من الاطلاع على خفايا وكواليس السياسة السوفيتية، وهي الخفايا التي تكشف حقيقة ما جرى هناك ودوافعه، وهل جاءت تحولات «البريسترويكا» و«الجلاسنوست» مطابقة لمقدمات ما جرى على قمة السلطة هناك أم مغايرة لها. وكيف قاد الخلاف بين «جورباتشوف» وخليفته «بوريس يلتسن» إلى تفكيك الدولة، وخصوصًا الجدل حول المادة السادسة من الدستور التي كفلت دومًا للحزب الشيوعي احتكار السلطة، وحين ألغيت، فتح الباب لظهور تيارات وقوى سياسية وشعبية متباينة، شجعتها أطياف الديمقراطية التي أطلت على استحياء من خلف باب التغيير، على المطالبة بالانفصال، وتأججت الصراعات القومية والإثنية والدينية - ومازالت - بما أدى في النهاية إلى انفراط عقد الامبراطورية واختفاء الاتحاد السوفيتي.

ويلقي المؤلف أضواء مهمة على الدور الذي لعبه المثقفون فيما آلت إليه الأمور، فقد سارعوا منذ البداية إلى تأييد جورباتشوف ودعموا توجهاته، وفعلوا الشيء نفسه مع غريمه التاريخي يلتسن، وكان هذا السقوط المدوي للمثقفين كما يراه المؤلف.. «مقدمة طبيعية للتحولات التي طرأت على مسيرة الصحافة التي ما كادت تحصل على حريتها بعد التخلص من براثن الدولة وأجهزتها الرقابية والحزبية، حتى سقطت في شرك أساطين المال والأعمال ومعظمهم من ممثلي الطائفة اليهودية الذين نجحوا في تحويل أجهزة الإعلام إلى سلعة تباع وتشترى بأبخس الأثمان».

وإلى ذلك يتناول المؤلف بعضًا من نوادر الرئيس يلتسن الذي اشتهر عنه عشقه «للفودكا» وإدمانه للمسكرات، كما يخصص قسمًا للحرب الشيشانية ويتناولها من منظور سياسي لا ديني، أما الفصل الأخير فهو عن قيصر روسيا الجديد الغامض «فلاديمير بوتن» ومواجهاته مع اللوبي اليهودي وأولوياته الخارجية والداخلية.

□ □ □

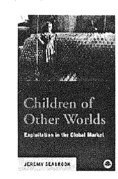
كتب أجنبية

Children of other Worlds: exploitation in the Global Market

(أطفال العوالم الأخرى)

Jeremy Seabrook

Pluto Press, 2001, £10.99



أخذ مؤلف هذا الكتاب على عاتقه الاهتمام بأطفال العالم الثالث خاصة في الدول الفقيرة. هؤلاء الأطفال الذين يتعرضون لأبشع أنواع الاستغلال من أبناء أوطانهم ومن بعض أثرياء الغرب. وقد سبق للمؤلف جيرمي سيبروك أن أصدر كتابًا بعنوان «أسفار في تجارة البشرة» تناول سياحة الجنس تلك التي ابتكرها بعض السياح الغربيين الذين يقومون بزيارة دول من العالم الثالث لممارسة الرذيلة مع الأطفال. وقد أمضى المؤلف شهورًا في تايلاند أكثر دول العالم تعرضًا لهذه الظاهرة، وناقش هذه الفضيحة المشينة التي يحاول العالم التخلص منها دون جدوى.

ويناقش ذلك الكتاب أيضًا قضية البنات وربما أيضًا الأولاد الذين يتم نقلهم من دول العالم الثالث إلى الغرب لكي يستمتع بعض الشواذ الغربيين بهم.

أما الكتاب الجديد «أطفال العوالم الأخرى» فهو ليس فقط دراسة عن عمل الأطفال واستغلالهم خاصة في بنجلاديش التي أجرى فيه الباحث معظم دراساته عن الموضوع لكنه أيضًا تذكير بالمناقشات التي دارت حول عمل الأطفال في الغرب خاصة في بريطانيا سنوات سابقة.

ويقارن سيبردك بين عمل الأطفال في بريطانيا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وبين عمل الأطفال في بنجلاديش من خلال الأبحاث التي أجراها هناك. ويشير إلى ملحوظة مهمة، وهي أن الإسلام الذي يدين به أطفال بنجلاديش يعمل ككابح فعال ضد انتشار الجريمة والعنف على نطاق واسع بينهم أكثر مما قامت به المسيحية لدى أطفال بريطانيا الذين اضطروا للعمل في القرن ١٩.

ويناقش الكتاب عمالة الأطفال من وجهة نظر اقتصادية بحتة، فهناك من يقول: إنه لكي تحقق دولة ما التنمية، فلابد من تشغيل جميع السكان إن أمكن ولذلك من المهم جعل عمل الأطفال شرعيا لكن المؤلف لا يوافق على ذلك مطلقًا، ثم إن دولاً مثل الهند وبنجلاديش وإندونيسيا، حيث تنتشر عمالة الأطفال، لم تستخدم العمالة البالغة لديها لكي تتوجه إلى الأطفال.

□ □ □

Spain Betrayed: The Soviet Union in the Spanish Civil War

(خيانة إسبانيا.. الاتحاد السوفيتي في الحرب الأهلية الإسبانية)

Edited by Ronald Radosh and Mary R. Habeck and Grigory Sevostianov

Yale University Press, 2001, 537PP, $ 35.00

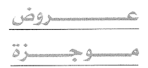


أصبح الأرشيف السوفيتي كنزاً لا يقدر بثمن بالنسبة للباحثين خاصة الغربيين منهم لمعرفة أسرار سنوات الحكم الشيوعي السوفيتي منذ قيام الثورة البلشفية ١٩١٧ وحتى انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١.

وقد صدرت عشرات الكتب عن قضايا مختلفة كان للاتحاد السوفيتي السابق مواقف مهمة فيها، لكن التفاصيل التي أحاطت بهذه المواقف، والجدل الذي تفجر داخل القيادة السوفيتية لم تكن معروفة وجاءت هذه الكتب التي تعتمد أساساً على وثائق الأرشيف السوفيتي بعد فتحه للباحثين في المعهد الروسي الجديد لتميط اللثام عن ذلك كله.

واستمراراً لهذا الاطار نشرت جامعة «ييل» الأمريكية ترجمة لحوالي ٨٠ دقيقة سرية سوفيتية تحلل الموقف السوفيتي من الحرب الأهلية الإسبانية. وكما يقول الباحثون الثلاثة الذين حرروا الكتاب فإن هذه الوثائق لا تكشف أسراراً جديدة عما هو معروف بالفعل لكنها تعطي تفهماً أكثر شمولية لمشاركة الكومنترن وهو المنظمة الشيوعية الدولية التي كانت تديرها موسكو لمساعدة الأحزاب الشيوعية في العالم.

وتظهر الوثائق على سبيل المثال أنه منذ تفجر الحرب الأهلية في إسبانيا عام ١٩٣٦ كانت السياسة السوفيتية تضع قناعاً على هدفها النهائي وهو إقامة ديكتاتورية بروليتارية في إسبانيا أو بمعنى آخر القيام بما كانت موسكو قد استكملته في وقت لاحق في دول أوروبا الشرقية من إقامة نظم شيوعية في هذه الدول.



ولكن في العلن كانت موسكو تطلب من الحزب الشيوعي الإسباني دعم برنامج اجتماعي معتدل إلى أن تحين الظروف المناسبة لاستيلاء الحزب الشيوعي على الحكم في إسبانيا.

ويشير تقرير رسمي سوفيتي خلال الحرب كشفت عنه الوثائق إلى أن الإعلان عن هدف خلق نظام بروليتاري في إسبانيا سيكون خطأ فادحاً إلا أن التقرير يضيف: عندما تقوى مواقعنا فإننا يمكننا أن نمضي قدماً في تحقيق هذا الهدف».

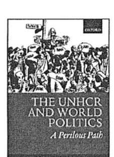
□ □ □

The Unhcr and world Politics: A Perilous Path

(المفوضية العليا للاجئين والسياسات العالمية طريق محفوف بالمخاطر)

Gil Loescher

OxFord University Press, 2001, £ 14.99



يمثل هذا الكتاب أول دراسة تاريخية مستقلة عن المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة. ومؤلف الكتاب واحد من أهم خبراء العالم في شئون اللاجئين، وهو يعتمد في تأليفه لهذا الكتاب على خبرة شخصية تمتد لعشرات السنين ودراسات أجراها حول جذور المفوضية العليا لشئون اللاجئين وتطورها.

ولا يكتفي المؤلف بالحديث عن ماضي المفوضية والأعمال التي قامت بها منذ إنشائها والمشاكل التي واجهتها، بل إنه يحاول استشراف التحديات التي ستواجهها خلال السنوات القليلة المقبلة والإسهام الأساسي الذي يقدمه المؤلف في كتابه هو إلى أي مدى تقاطع تطور المفوضية العليا للاجئين مع الأحداث الحاسمة التي مر بها العالم خلال الخمسين عاماً الماضية، وهل ساعدت تلك الأحداث المفوضية أم أنها كانت عائقاً أمام أداء مهمتها.

ويتحدث الكتاب كذلك عن الأشخاص الذين تولوا رئاسة المفوضية والذين يطلق عليهم اسم مفوضون وعددهم ثمانية حتى الآن، ويشير إلى أن أعمال المفوضية تضخمت خلال الفترة الماضية، بحيث تجاوزت مهمتها الأساسية وهي حماية حقوق الإنسان. ويمكن أن نعزو تضخم مهام المفوضية إلى تزايد أعداد اللاجئين الهائل إضافة إلى اللاجئين الذين بقوا لاجئين منذ عشرات السنين دون أن يتم حل مشاكلهم. ومع ذلك فإن تضخم هذه المهام لم يساعد سوى بنسبة قليلة في تسوية مشكلة تعد من أعقد المشاكل التي تواجه عالمنا المعاصر.

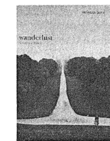
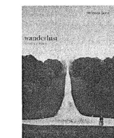
□ □ □

Wanderlust: Ahistory of Walk-ing

(شهوة التجول.. تاريخ المشي)

Rebecca Solnit

Verso, £ 17, 326PP, 2001

تتناول مؤلفة هذا الكتاب موضوعاً طريفاً للغاية وهو تاريخ المشي وهو موضوع قد لا يخطر على بال كثيرين رغم أن الكل يمارسه دون أن يكون هناك تفكير حوله أو ما يحيط به. وهي تتناول أموراً كثيرة ذات علاقة بالمشي تبدأ بتاريخ المشي ولا تنتهي بالمطالبات في عديد من مدن العالم الكبرى بجعل وسط تلك المدن منطقة للمشي فقط ومحظور على السيارات دخولها. ويتحدث الكتاب عن الحجاج الذين كانوا يزورون الأراضي المقدسة في العصور الوسطى سيراً على الأقدام، وكذلك عن مسيرات ومظاهرات الاجتماع ورحلات السفر التي كان يقوم بها الاستعماريون قبل احتلال بلد معين والكتابات التي كانت بمثابة دليل لجيوش الاحتلال فيما بعد، وتحاول المؤلفة أن تربط بين الأنواع المختلفة للمشي وبين عقلية الذين يقومون بالمشي.

إن فيلسوف المشي، كما تقول المؤلفة، هو رمز بارز لعصر التنوير الأوروبي. إنه جان جاك روسو الذي اعترف في مؤلفه «اعترافات» بأنه لا يستطيع أن يفكر إلا وهو يمشي أما إذا توقف عن المشي فإنه يتوقف عن التفكير. ويستطرد قائلاً: عقلي يعمل فقط مع رجلي.

وتفرد المؤلفة مساحة كبيرة من الكتاب لما يمكن تسميته بالمشي في عصر السيارة ويقول خبير مرور إن المشاة يبقون عقبة أمام حركة مرورية سليمة.

والحق أنه في الحرب بين السيارة والمشاة فإن السيارة حققت الفوز في تلك الحرب. لكن المشاة أو دعاة حقوق المشاة كما يمكن أن يسموا يدافعون عن حقوقهم أمام هجمة السيارة وهناك من يقول إن المشي بحرية في المدن حق أساسي من حقوق الإنسان.

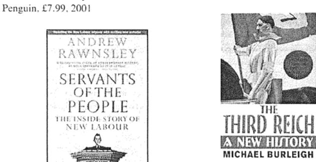
□ □ □

The Third Reich:A New History

(الرايخ الثالث: تاريخ جديد)

Michael Burleigh

Macmillan, £9.99, 900PP, 2001



بعد آلاف وربما عشرات الآلاف من الكتب التي تحدثت عن ألمانيا التاريخ يثور تساؤل: هل يمكن أن يكون هناك شيء لم يكتب بعد عن هذا الموضوع. الإجابة على الأرجح ستكون بلا لكن هذا الكتاب الذي أشاد به النقاد كثيراً وفاز بجوائز عدة يلقي شكوكاً كبيرة على تلك الإجابة.

إن المؤلف يضع عنواناً فرعياً هو تاريخ جديد للعنوان الرئيسي للكتاب وهو الرايخ الثالث وهو يعيد التذكير بحقائق وأفكار عن النازية غالباً ما يتم نسيانها في زحمة النقاش الأكاديمي الذي يدور في الغرب كثيراً عن تلك الفترة.

إن من بين أهم الأفكار الممتازة التي يركز عليها الكتاب أن النازية أصبحت مثل دين سياسي انتعش في ظل الفراغ الأخلاقي الذي ساد ألمانيا عقب الهزيمة في الحرب العالمية الأولى وما تلاها من عقوبات قاسية. لقد كانت النازية كارثة القرن العشرين الأشد فظاعة. ويستخدم المؤلف ألفاظه بحدة وهو لا يتورع عن القول بأن الرايخ الثالث كان نظاماً عنصرياً وإجرامياً مناهضاً للحضارة ولم يترك شيئاً للعالم يمكن الاستفادة منه. ويقول إن النازية اخترقت ألمانيا مثل السرطان.

ويطيل المؤلف في كتابه الذي يبلغ ٩٠٠ صفحة، الحديث عن الفئات التي وقفت ضد هتلر، ويشير إلى أن هناك أوهاماً تحولت بمرور الوقت إلى ما يشبه الحقائق حول دور الطبقة العاملة أو الشيوعيين الألمان في مقاومة نظام هتلر، ويرى أن ذلك لم يكن بالدرجة التي حاول الشيوعيون بعد ذلك تصويرها.

إن التاريخ حسب المؤلف ليس ماضيا فحسب بل هو حاضر أيضاً وأحداثه تتكرر مع بعض التعديلات.

وقصة الرايخ الثالث تذكر العالم بما يمكن أن يترتب على إحباط شعب وتنامي روح العنصرية ومعاداة الأجانب لديه. وأحدث مثال لذلك حكم ميلوسيفيتش في يوجوسلافيا.

□ □ □

Servants of the People
The Inside Story of New Labour

(خدام الشعب ..قصة حزب العمال الجديد)

Andrew Rawnsley

Penguin, £7.99, 2001

ما الذي يحرك الوزراء عند أداء وظائفهم؟ ما هي دوافعهم؟ هل المصلحة الوطنية كما يقولون دائماً أم المصلحة الذاتية أم كلاهما؟

في هذا الكتاب يحاول الكاتب السياسي البريطاني أندرو رونزلي أن يقدم مجموعة من الإجابات الممتعة والجريئة وأيضاً الأقرب للدقة لما يحدث داخل حكومة حزب العمال البريطاني الحاكم، والذي فاز بالانتخابات البرلمانية في يونيو الماضي للمرة الثانية على التوالي. لقد تحدث المؤلف مع اللاعبين الرئيسيين في الحكومة. وكان له عدة لقاءات مطولة مع رئيسها توني بلير. وقد تمكن رونزلي من استخدام المعلومات التي حصل عليها بشكل جيد وممتع وفعال، واستطاع أن يعيد تركيب ما حدث داخل حكومة بلير عند اتخاذ قرارات هامة اعتماداً على المعلومات التي حصل عليها.

ورغم أن المؤلف يبدو متعاطفاً مع الأهداف التي سعت الحكومة إلى تحقيقها إلا أنه يهاجم بضراوة الغرور الشديد وتصاعد «الأنا» عند بعض الوزراء. كما أنه ينتقد بعمق وقوة عدم تعامل بلير بشكل كفء وكاف مع فضائح الفساد المالي التي تورط فيها بعض وزرائه مع العلم أن بلير عندما جاء إلى الحكم عام ١٩٩٧ أكد أن حكومته ستكون أنصع من البياض نفسه وذلك رداً على الفساد الواسع النطاق الذي استشرى بين صفوف حكومة المحافظين.

ويشير الكتاب إلى أن الأحداث الكبيرة المفاجئة هي التي تكشف قدرة أي حكومة وأي رئيس للحكومة، وفي هذا يتناول تعامل بلير مع أزمة خارجية مثل حرب كوسوفا عندما اتخذ رئيس الوزراء البريطاني موقفاً متشدداً للغاية لصالح شن الحرب على يوجوسلافيا لدرجة أن البعض قال إنه تصرف كما لو كان رئيس وزراء الامبراطورية البريطانية.

□ □ □

قـــــراءات جـــــديـدة

آثـــــار

Palestine Twilight: The Murder of Dr. Albert Glock and the Archaelogy of the Holy Land

(الفجر الفلسطيني: مقتل الدكتور ألبرت جلوك وعلم الآثار في الأرض المقدسة)

Edward Fox

Harper Collins, 2001, 227pp, £ 19.99

في التاسع عشر من يناير عام ١٩٩٢ أغتيل الدكتور ألبرت جلوك عالم الآثار الأمريكي أمام منزل في الضفة الغربية المحتلة. ثم تبادل الجانبان الفلسطيني والإسرائيلي تهمة ارتكاب هذه الجريمة.

في هذا الكتاب يقوم الصحفي الأمريكي إدوارد فوكس بنشر تفاصيل البحث التحقيقي الذي قام به حول الظروف المثيرة لهذه الحادثة. ويبين لنا كيف اكتشف أن خيوطها متشابكة مع كل من سياسات الانتفاضة وتاريخ الأرض المقدسة الذي يثبته علم الآثار، والذي قد يؤيد حقوق الطرف الفلسطيني.

فقد كان الدكتور جلوك يعمل مديراً لقسم الآثار بجامعة بير زيت الفلسطينية وكان قد بدأ في نشر أوراق بحثية عن الآثار التي كشف عنها، والتي تؤيد ماضيا فلسطينيا قديما في الأراضي المقدسة، مما أدى إلى عدم ارتياح في الدوائر الإسرائيلية تجاه هذا العالم الأمريكي.

اقتصاد

الغذاء والزراعة في مصر

محمود منصور عبد الفتاح ـ نصر القزاز ـ باسم سليمان فياض

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١

سلسلة جديدة تصدرها الدار ضمن منتدى العالم الثالث، ويناقش هذا الكتاب آفاق تطور الزراعة وهي أقدم حرفة عرفها المصريون منذ عاشوا واستقروا حول وادي النيل، ما الذي يمكن أن تكون عليه الزراعة المصرية بعد عقدين من الآن، هل يسير المنحنى البياني في الاتجاه الصحيح مع الزيادة السكانية المستمرة وعمليات تجريف الأرض الزراعية وفقدان مئات الأفدنة وفق هذه السلوكيات الخاطئة، هذا بعض ما يجيب عنه الكتاب.

■■■

موارد الثروة المعدنية وإمكانية التنمية في مصر

أحمد عاطف دردير

القاهرة: الجمعية الجغرافية المصرية، ٢٠٠١

تتميز مصر بوجود ثروة معدنية هائلة في صحرائها الشاسعة وهي صالحة للاستخدام والتنمية والاستغلال في الصناعة بما يسهم في تنمية الثروة القومية ومصادر الدخل القومي. والمؤلف يبحث في هذه الموارد وكيفية استثمارها ودورها في عملية التنمية.

تـــاريـخ

القدس.. أصالة الهوية ومحاولة التخريب

علاء الجوادي

لندن: معهد الدراسات العربية والإسلامية، ٢٠٠١

دراسة في هوية مدينة القدس وتاريخها، تنفي الأكاذيب الإسرائيلية حول يهودية المدينة المقدسة، وتؤكد عروبتها، من خلال ثمانية فصول تنتهي عند واقعنا الراهن.

■■■

كل رجال الباشا.. محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة

خالد فهمي

ترجمة: شريف يونس

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١

يتناول الكتاب فترة من أهم وأخصب فترات تاريخ مصر الحديث، وهي الفترة التي تولى فيها الحكم محمد علي باشا من (١٨٠٥ـ١٨٤٨)، وتلك الفترة التي وضعت مصر على أعتاب العصرنة والمدنية، والمؤلف يركز بالذات على الدور الذي لعبه جيش محمد علي الذي جال شرقًا وجنوبًا وشمالاً، وهو يتناول هذا الدور من وجهة نظر التاريخ الاجتماعي معتمداً على مادة وثائقية نادرًا ما اعتمد عليها الباحثون وهي مكاتبات هذا الجيش والأوامر الصادرة إليه والتكليفات الصادرة عنه، والتي تشمل ليس فقط كتابات محمد علي إلى قائد جيشه ابنه إبراهيم باشا، وإنما أيضًا تفاصيل مهمة عن المعارك الحربية التي خاضها الجيش.

■■■

ملحمة دجلة والفرات

أفرام عيسى يوسف

ترجمة: علي نجيب إبراهيم

اللاذقية: دار الحوار، ٢٠٠١

أثار هذا الكتاب حين صدوره بالفرنسية اهتمام القراء والدارسين، وقد اعتبره عدد غير قليل من النقاد الفرنسيين من أهم الكتب التي صدرت عن حضارة الرافدين، وما مثلته من فتح للتاريخ نهضت به المدن السومرية والأكادية والآشورية والبابلية، وها هي ترجمته العربية تصدر بعد عامين تقريبًا متيحة للقارئ العربي هذا الجهد البحثي المهم.

■■■

محمد علي

حسين كفافي

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠١

محمد علي هو مؤسس مصر الحديثة وباعث نهضتها في أعقاب الحملة الفرنسية، المؤلف يتناول سيرة محمد علي ومعاركه وخططه التي وضعها لتجديد شباب مصر وتحسين أوضاع شعبها وبعثاته العلمية والتعليمية التي تركت آثارًا طويلة المدى ودخلت بمصر إلى العصر الحديث.

■■■

Warriors of God: Richard the Lionheart and Saladin in the Third Crusade

(محاربو الإله: ريتشارد قلب الأسد وصلاح الدين في الحملة الصليبية الثالثة)

James Reston Jr.

Doubleday, 2001, $ 27.50

يؤكد المؤلف أن أهم حملة صليبية على الإطلاق كانت الحملة الثالثة التي استغرقت السنوات من عام ١١٨٧ إلى عام ١١٩٢، وكانت أيضًا الأكثر إثارة في أحداثها وشخوصها.

يتناول الكتاب أثر توحد الجيوش العربية في رجحان كفة صلاح الدين واستعادته للقدس، وأثر الخلافات الداخلية بين القادة الأوروبيين في خسائر الصليبيين وخاصة الخلاف بين ملك فرنسا فيليب أوغسطس وريتشارد، إلى جانب المشاكل التي كان يسببها لريتشارد أخوه جون في إنجلترا.

ويلمح المؤلف إلى أن نهاية الحملة احتوت على نوع من اللغز الذي استعصى على كثير من المؤرخين، حيث إن ريتشارد ترك القتال وزهد في القدس بعد أن كان على وشك الاستيلاء عليها مرة أخرى من المسلمين.

تـــراث

الجنس في أعمال الإمام جلال الدين السيوطي

تحقيق ودراسة: حسن أحمد جغام

تونس: دار المعارف، ٢٠٠١

يطرح المؤلف علاقة الرجل بالمرأة وبالذات الجنس بوصفه واحدة من أهم خصوصيات هذه العلاقة، كيف تناولها هذا الإمام العلامة وكيف صاغها في إطار الشريعة والأحاديث النبوية الشريفة.

■■■

المقامات أصالة وفنًا وتراثًا

عبد الأمير مهدي الطائي

بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ٢٠٠١

فن المقامة أحد الأجناس الأدبية المهمة في الأدب العربي، المؤلف يبحث في كيفية ظهور هذا الجنس والعوامل التي وقفت وراءه وبعضها اقتصادي ومعيشي، ويبحث المؤلف عن صاحب الريادة في فن المقامة، هل هو السعدي أم بديع الزمان الهمذاني، ويقدم تحليلات لعديد من نصوصهم.

■■■

لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة

ابن مماتي

تحقيق وتقديم: نسيم مجلي

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠١

دراسة لعدد من النصوص الشعرية والنثرية تعكس أحوال الخلافة العربية الأموية في الأندلس وأسباب سقوطها، والتاريخ السياسي والاجتماعي لتلك المرحلة، والحضارة التي شيدوها هناك.

رحـــلات

The Arabian Diaries: 1913 - 1914

(يوميات عربية: ١٩١٣ ـ ١٩١٤)

Gertrude Bell

Edited by Rosemary O'Brien

Syracuse UP, 2001, 258pp.

تعد جيرترود بل أحيانًا النموذج النسائي للورانس العرب. فقد قامت برحلات طويلة في بلاد العرب وفارس. وبالرغم من أنها لم تكن موظفة رسمية في المخابرات البريطانية إلا أنها في رحلتها إلى الحائل قامت بجمع أكثر من مجرد معلومات عابرة، استفادت بها الحكومة البريطانية بعد ذلك أثناء حربها مع الأمبراطورية العثمانية عام ١٩١٤.

ومن ضمن ما دوَّنته جيرترود بل عن رحلاتها هذه اليوميات التي كتبتها أثناء رحلتها من «نجد» إلى «الحائل» عاصمة أسرة رشيد الحاكمة لقبيلة «شمر».

■■■

Inside Notting Hill

(في نوتنج هيل)

Miranda Davies and Sarah Anderson

Portobello, 2000, 251pp, £ 9.99

يستثمر هذا الكتاب النجاح الكبير الذي حققه الفيلم السينمائي «نوتنج هيل» الذي أنتجته هوليوود عام ١٩٩٩، والذي أدى إلى مضاعفة عدد السائحين الزائرين لهذا الركن من منطقة غرب لندن.

يقدم الكتاب معلومات غزيرة عن تاريخ نوتنج هيل منذ الساكسونيين الذين استقروا هناك عام ٧٠٠ ميلادية، وكذلك عرضاً لمختلف الكتابات الأدبية التي ذكرت فيها نوتنج هيل. وإلى جانب هذا يتناول الكتاب الأحياء المختلفة داخل نوتنج هيل والشوارع الرئيسية فيها وأصول الأسماء التي سُميت بها، إلى جانب الحانات والحدائق والمحلات التي تميز هذه المنطقة وترتبط بها قصص أو شخصيات مثيرة.

■■■

Neutral Buoyancy: Adventures in a Liquid World

(القدرة التعادلية على الطفو: مغامرات في عالم سائل)

Tim Ecott

Michael Joseph, 2001, 345pp, £ 12.99

هذا كتاب عن الغوص تحت الماء، تلك الرياضة التي أصبح لها عشاق من محبي المغامرة والمخاطرة، ومن محبي الآثار الغارقة تحت الماء. مؤلف الكتاب في الأصل مراسل أجنبي بمحطة الـ«بي.بي.سي»، ولكنه منذ أن تعلم الغوص تغيرت حياته وذهب ليعيش في جزيرة سيشلز حيث يعمل الآن في وظيفة قائد غوص. وفي هذا الكتاب يقدم «تم إيكوت» مزيجا من المعلومات العلمية والعملية عن الغوص والطفو والتوازن والتنفس وأفضل الأماكن للغوص، إلى جانب معلومات تاريخية عن الغوص في تاريخ الشعوب القديمة، وحكايات عن التجارب الشخصية التي مر بها أثناء حياته المائية.

■■■

قـــراءات جـــــديـدة

Free Flight: Airline Hell to a New Age of Travel

(الطيران الحر: من جحيم الخطوط الجوية إلى عصر جديد من السفر)

James Fallows

Public Affairs, 2001, 272pp, $ 25.00

يتساءل المؤلف، وهو صحفي مرموق في الولايات المتحدة وطيَّار هاو، كيف يمكن لنظام النقل الجوي المعاصر أن يبلغ هذا القدر من التقدم التقني وفي نفس الوقت يؤدي إلى هذا القدر من التجارب غير السارة بالنسبة لمعظم الناس؟

فبالرغم من السرعة الهائلة للطائرات، إلا أن الوصول إلى المطارات القليلة في كل بلد يمثل رحلة طويلة وشاقة لكثير من الناس، بالإضافة إلى أن الانتظار لساعات طويلة في الطوابير والصالات داخل المطار أمر سخيف ومرهق.

يحلل جيمز فالوز هذه المشاكل وغيرها كما يقترح بعض الحلول من ضمنها إنتاج طائرات صغيرة تنقل أعدادا قليلة من الركاب بين المدن الداخلية فيما يشبه تاكسي ـ الجو.

■■■

The Healing Island: A Kalahari Journey

(جزيرة الاستشفاء: رحلة في كلهاري)

Rupert Isaacson

Fourth Estate, 2001, 272pp, $ 16.99

زار المؤلف أفريقيا لأول مرة عام ١٩٨٥، ثم تكررت رحلاته وزياراته إليها كل عام، ونجح في مقابلة آخر مجموعة من قبائل البوشمان تعيش بنفس الطريقة التقليدية. في هذا الكتاب يروي المؤلف تفاصيل رحلاته، كما يتناول تاريخ قبائل البوشمان.

"رواية وقصص"

سفن قديمة

إبراهيم عبد المجيد

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠١

مجموعة قصصية جديدة لصاحب «لا أحد ينام في الإسكندرية» و«المسافات» و«بيت الياسمين» بعضها ينتمي إلى ما قبل هذه الأعمال وبعضها لما بعدها، وفي إحداها يحاكي المؤلف قصة نجيب محفوظ «تحت المظلة» فيكتب «تحت المظلة ٢٠٠٠»، راصدًا التغيرات التي طالت المجتمع المصري طوال هذه الفترة الزمنية الفاصلة.

■■■

الأعمال القصصية

عبد الإله عبد القادر

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

مجلدان يجمعان الأعمال القصصية الكاملة للمؤلف الذي لم تكن القصة همه الأول، بل كان المسرح، والقصص في مجملها تدور حول علاقة الإنسان بذاته وعلاقة هذه الذات بالآخرين، وبالقطع لا يغيب الوطن (العراق) وهمومه عن المجموعة، بل يحضر حتى بين السطور.

■■■

العايقة بنت الزين

محمد ناجي

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١

قدَّم المؤلف من قبل تجارب روائية مهمة على قلتها، تمثل تجريبًا هادئًا في الشكل والمضمون، وهو هنا يقدم تجربة جديدة، الخيط الرئيسي فيها جريمة تعقبها مطاردات، والرواية إضافة إلى مسيرة صاحبها وعنوان على تطوره ورغبته في التجديد.

■■■

بابا سارتر

علي بدر

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠١

تنازعت الأفكار الفلسفية الجو الثقافي العراقي في الستينيات، والتف المفكرون حول «عبد الرحمن» الفيلسوف الوجودي المتميز في العراق، وفي رواية يسرد المؤلف حياة ذلك الفيلسوف وتناقضاته ويقارنه برائد الفلسفة الوجودية جان بول سارتر.

■■■

جروح الذاكرة

تركي الحمد

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠١

عُرف المؤلف بوصفه كاتبا سياسيا وأستاذا في العلوم السياسية، لكنه هنا يكشف عن جانب آخر من إبداعه فيكتب رواية تحكي عن أسرة سعودية انتقلت من عالم القرية إلى عالم الثروة وسكنت العاصمة، ويتابع المؤلف تحولات هذه الأسرة التي يمكن اعتبارها نموذجًا لعشرات الأسر الأخرى التي شهدت ذات التحولات، وانتقلت من عوالمها البسيطة الساذجة إلى علاقات المال والأعمال أو ما بات يعرف بالطفرة النفطية.

■■■

The Wind Done Gone

(الريح التي ذهبت)

Alice Randall

Houghton Mifflin, 2001, 224pp., $22.00

تتحدى أليس راندال في روايتها «الريح التي ذهبت» الرواية الأمريكية الكلاسيكية «ذهب مع الريح» التي قدمت من خلالها مارجريت ميتشيل صورة أسطورية للجنوب الأمريكي إبان الحرب الأهلية، تضم رجالاً اتسموا بأخلاق الفرسان وسيدات جميلات وراقيات.

لذلك فإن «الريح التي ذهبت» تسعى لتقديم نفس شخوص الرواية وأحداثها ومكانها وزمانها، ولكن من وجهة نظر العبيد الذين تم تهميشهم في الرواية الأولى التي احتوت على نبرة عنصرية واضحة.

تضم الرواية الجديدة (التي أثارت دعاوى قضائية من جانب أسرة مارجريت ميتشيل) شخصية «سينارا» الملونة وهي أخت غير شقيقة «لسكارليت» من الأب فقط، حيث إن أمها هي الخادمة السوداء «مامي». وفي هذه الرواية يقع ريت تبلر في غرام سينارا التي تفوق سكارليت جمالاً ولكن سكارليت تغار منها وتحاربها.

"سياسة"

الدولة والقوى الاجتماعية في الوطن العربي

ثناء فؤاد عبد الله

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

عن حالات التردي السياسي والاقتصادي في المجتمع العربي وأسبابه، ودور القوى السياسية المناهضة والسلطة الاستبدادية في غلق أبواب التفاعل الحقيقي الخلاق في المجتمعات العربية.

■■■

نحو جمهورية ثالثة

كريم مروة

بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠١

فشل لبنان في الماضي في إقامة دولة مستقلة ذات سيادة بسبب النزاعات القبلية والحروب الأهلية والاستقطابات الدولية، والعبء كما يراه المؤلف لم يكن كله على الساسة، بل أيضًا على المثقفين والمنتمين إلى التيار السياسي اليساري منهم على وجه الخصوص، وهو هنا يطالبهم باستيعاب ما جرى من تغييرات حتى يمكن التعامل مع الوقائع الجديدة نحو النهوض بجمهورية ثالثة.

■■■

Goodbye America: Globalization, Debt and the Dollar Empire

(وداعا أمريكا: العولمة والديون وامبراطورية الدولار)

Michael Rowbotham

Carpenter, 2001, 209pp

يرى راوبوثام أن ديون العالم الثالث ديون اصطناعية أنتجها النظام المالي العالمي الذي وضعته أمريكا بعد انتصارها في الحرب العالمية الثانية.. هذا النظام المالي يحول دون تكوين الثروة الحقيقية من السلع والخدمات، وإنما يقوم على الانتقال الإلكتروني للعملات المخفضة كل يوم ـ وفي تلك الأثناء يتم سحب معظم الموارد والصناعات والمنتجات المختلفة من الدول الفقيرة إلى الشركات الكبيرة متعددة الجنسيات في العالم الأول وخاصة أمريكا.

أما التناقض الرئيسي فيكمن في كون هذه الدول الكبيرة أيضاً مدينة، فالولايات المتحدة الأمريكية هي أكبر دولة مدينة في تاريخ العالم. أما عن سبب حصانتها من إشهار الإفلاس أو زيادة صادراتها لموازنة ميزانها التجاري فيرجع لكونها مسيطرة على البنوك وعلى النظام المالي حيث تصر على أن تكون كل المدفوعات والديون بالدولار مما يؤدي إلى نقص مصطنع في كمية الدولار وبالتالي يرفع من قيمته، فتستمر في الاستيراد واستغلال شركائها في التجارة خاصة الدول الفقيرة في العالم الثالث.

"سير ومذكرات"

العارف بالله سيدي أبو العباس المرسي

سعد القاضي

القاهرة: دار غريب، ٢٠٠١

يعرف أهل التصوف سيدي أبو العباس المرسي ويعرفه أهل الثغر، حيث صار أحد المعالم الشهيرة بمدينة الإسكندرية، والمؤلف يتناول سيرة حياته وكراماته ورؤيته للنصوص القرآنية وأسفاره وأهم القضايا التي شارك فيها وكراماته التي شغلت الناس في حينها.

■■■

سعيد بن جودي السعدي الألبيدي الأندلسي

محمد رضوان الدايه

بيروت: جمعية الماجد للثقافة والتراث، دار الفكر، ٢٠٠١

عن حياة السعدي وأشعاره وأفكاره ومواقفه السياسية خصوصًا موقفه من الدعوة العربية في الأندلس. ويلحق المؤلف دراسته بآراء عديد من الشعراء في السعدي ورثائه.

■■■

مذكرات طبيب شرعي

عماد الديب

القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠١

سيرة ذاتية عما يعانيه الطبيب الشرعي في عمله وكيف يسير هذا العمل الذي يبدو غامضًا لأغلب الناس إلا من خلال ما تقدمه الدراما السينمائية والتليفزيونية، وتتخلل السيرة حكايات واقعية صيغت بصورة أدبية.

■■■

واصف كمال.. شاهد على قضية فلسطين وقضايا عربية

هالة سليمان الأسعد

عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

ينتمي واصف كامل إلى الرعيل الأول من القوميين العرب الذين قاوموا الاحتلال الأجنبي في فلسطين وغيرها من البلدان العربية، والكتاب سيرة ذاتية لكن يمتزج فيها الهم العربي العام ويبدو بوضوح، حيث يتناول المؤلف الأحداث الجسام التي أوصلت الأمور إلى ما آلت إليه الآن، محللاً أسبابها وتداعياتها.

■■■

Natasha: The Biography of Natalie Wood

(ناتاشا: سيرة حياة ناتالي وود)

Suzanne Finstad

Crown, 2001, 400pp., $ 25.00

قصة حياة إحدى نجمات هوليوود وصلت إلى قمة مجدها في الخمسينيات وأوائل الستينيات. اسمها الحقيقي ناتاشا زخارنكو، جاءت من أسرة روسية مهاجرة إلى الولايات المتحدة، وبدأت تمثل في السينما منذ أن كانت طفلة. تتعمق المؤلفة

قـــــراءات جـــــديـدة

فى شخصية ناتالى وود وأحلامها وإحباطاتها، وتستعين فى كثير من الأحيان بابنتيها اللتين قدمتا الكثير من المعلومات عن شخصية والدتهما للمؤلفة.

■■■

Marie Antoinette: The Journey

(مارى أنطوانيت: الرحلة)

Antoria Traser

Weiden Field and Nicolson, 488pp. £ 25.00

تكتب أنتونيا فرايزر كاتبة السير الشهيرة سيرة حياة مارى أنطوانيت بكثير من التعاطف، حيث تظهرها فى صورة ضحية منذ أن أرسلتها أمها الامبراطورة النمساوية ماريا تيريزا وهى فى الرابعة عشرة من فيينا إلى فرساى عام ١٧٧٠ لتتزوج من لويس السادس عشر زيجة غير سعيدة، لم تثمر أطفالا إلا بعد سبع سنوات من الزواج.

وعندما انتهى التحالف بين فرنسا والنمسا وأعلنت فرنسا الحرب على النمسا عام ١٧٩٢ اعتبرت مارى انطوانيت خائنة، وأخيراً اعتبرتها حكومة الثورة الفرنسية عدوة للشعب وحاكمتها بقسوة وإذلال.

■■■

Loving Picasso: The Private Journal of Fernande Olivier

(محبوبة بيكاسو: اليوميات الخاصة لفرناند أوليفييه)

Translated by Christine Baker

NewYork: Harry N. Abrams, 2001, 296pp, $ 35

فرناند أوليفييه هى أول عشيقة للفنان المعروف بابلو بيكاسو، وصورها تزين لوحات بيكاسو فى المرحلة الوردية والمرحلة الزرقاء وتجاربه الأولى فى التكعيبية، والتى تختلف كثيراً عن لوحاته المتأخرة التى تضم صور بقية عشيقاته حيث تتسم بالتجريد والتجريب.

هذا الكتاب يضم ترجمة ليوميات فرناند التى نشرتها فى الثلاثينيات بعنوان «بيكاسو وأصدقاؤه» وأخرى بعنوان «ذكريات حميمة» حاولت نشرها فى الخمسينيات ولكنها قوبلت باعتراضات بيكاسو الذى حاول منع نشر جميع كتبها. تروى فرناند قصة حياتها منذ الطفولة وتفاصيل حياتها مع بيكاسو.. كما تنقل للقارئ أجواء الدوائر الفنية فى مونمارتر و«باتو لافوار» وما يدور من أحاديث ونميمة وسخرية بين مشاهير الفنانين عندما يجلسون معاً.

■■■

The Immortal Class: Bike Messengers and the Cult of Human Power

(الطبقة الخالدة: سعاة الدراجات وديانة القوة الإنسانية)

Travis Hugh Culley

Viland, 352pp, £ 19.95

فى الوقت الذى يحتل فيه الساسة والأدباء ورجال الأعمال الكبار أغلبية ما ينشر من كتب المذكرات الشخصية، تأتى هذه المذكرات لساعى بريد عمل فى شوارع شيكاغو لبعض الوقت كنوع من التغيير.

شعر

جنة مضيئة

عزت العزاوى

فلسطين: الزاهرة للدراسات والنشر، ٢٠٠١

ديوان تدور قصائده حول الوضع المتفجر اللا إنسانى فى الأراضى المحتلة، صرخة تشير إلى معاناة شعب يتم اقتلاعه أو إقلاعه عن أرضه، لكنه يقاوم ببسالة ممسكًا بحجر فى مواجهة آلة عسكرية جبارة.

■■■

شرير فى السيارة

شارل شهوان

بيروت: رياض الريس، ٢٠٠١

بورتريه يحمل تفاصيل هائلة للحياة اليومية، يشتغل عليها الشاعر ويصوغ من جزئياتها الصغيرة حياة جديدة وتطلعات وأحلاما.

■■■

أمة فى المنفى

شعر: محمود درويش

خطوط: حسن المسعودى

تشكيل: رشيد القريشى

عمان: مؤسسة عبد الحميد شومان، ٢٠٠١

إلى جانب هذا التمازج بين شعر درويش الفلسطينى وخطوط المسعودى العراقى وتشكيلات القريشى المغربى، يأتى نص للمفكر المغربى عبد الكبير الخطيب يتأمل فيه التجربة ويطرح سؤالاً عن كيفية إنشاء أمة فى المنفى على الصعيدين الشعرى والفنى متتبعًا مسارات بناء الخطوط والأشكال.

علوم

الفيزياء الحديثة وميكانيكا الكم

حافظ محمد عبدالراضى

القاهرة: مكتبة النهضة، ٢٠٠١

قدَّم علم الفيزياء إسهامات هائلة فى نهضة العلم فى العصر الحديث، وكان له أثره الفعال فى عصر الثورة الصناعية وما بعدها، المؤلف يشير إلى هذه الاسهامات شارحًا النظرية النسبية فى عدة فصول ومبينًا من ناحية أخرى مخاطر الاشعاعات وتأثيراتها الضارة على الطبيعة والبشر.

■■■

صبى الساحر.. نماذج من العلم الردىء

سمير حنا صادق

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠١

ثمة علم نافع وعلم ردىء، العلم النافع يستند إلى المنطق والعقل وقدرة التفكير العلمى على النهوض بالمجتمع، أما العلم الردىء فهو ذاك الذى تختلط فيه الأساطير والأباطيل بحقائق العلم أو بنصوص مقدسة، والمؤلف يكشف زيف هذه الادعاءات خصوصًا أن بعضها يزعم لنفسه قدرة النظرية العلمية وقوتها.

■■■

Voodoo Science: The Road From Foolishness to Fraud

(علم الفودو: الطريق من البلاهة إلى الغش)

Robert L. Park

Oxford UP, 2000, 230pp., £18.99

الفودو ديانة أفريقية تعتمد على السحر والشعوذة وقد اختار مؤلف الكتاب أن يصف بها الحالة التى وصل إليها العلم والعلماء فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية. يصف روبرت بارك وهو أستاذ فى الفيزياء، أشكال العلم التى ظهرت مؤخرًا والتى يعتبرها «علوما سيئة» ما بين علم يخدع به العلماء أنفسهم والذى يستند إلى نظريات غير مثبتة ويعمد إلى إرباك الناس مثل نظريات الـ UFOS والأشخاص الذين يرون المستقبل وما إلى ذلك.

كذلك يوجه المؤلف اتهاماته لما يسمى «بالطب البديل» و«العلاج البيو - مغناطيسى» والفلك. ويذهب إلى أن مثل هذه العلوم أحيانًا ما يكون أصحابها على علم بأنهم يبيعون نفايات، وبالتالى يصل الأمر إلى مرتبة الغش. يبين بارك بعد ذلك كيف يكون «العلم الجيد» مذكرًا بأسسه وقواعده ووظائفه.

فكر

الحلم المكسيكى

ترجمة: وفاء شوكت

دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠١

ربما حتى الآن، يعد المكسيكيون أنفسهم جزءًا من الولايات المتحدة الأمريكية أو بمعنى أدق أرضًا تم اغتصابها لحسابهم، الكتاب يعود إلى بدايات القرن السادس عشر ويستلهم أحلام الجندى برنال ديازدى كاستيلو، لينسج هذه الدراما فى القتل والتشريد لحساب عالم جديد.

■■■

اليوتوبيا المفقودة

محمد كامل الخطيب

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

لوحة كاملة يرسمها الناقد السورى لحقيقة الوضع العربى بعد كل التحولات التى شهدتها المنطقة فى السنوات الأخيرة، والتى أدت كثيرًا من المشاريع تحت وطأة الاستبداد والانهيار الثقافى والاقتصادى، ولكن المؤلف يرى حلمًا بازغًا فى الأفق لغد عربى جديد شريطة أن نأخذ بأسباب التقدم والارتقاء.

■■■

حقيقة الغرب

مصطفى عبد الغنى

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١

للغرب وجوه كثيرة طالعناها منذ بداية الحملة الفرنسية على مصر فى نهاية القرن الثامن عشر، هل الغرب هو صنو التقدم والازدهار وصانعه، أم هو الجزار الذى يتفنن فى قتل ضحاياه من أبرياء عالمنا الثالث، مستعيرًا دور مصاص الدماء الذى لا يرتوى، الكتاب ينحاز إلى وجهة النظر الثانية ويقدم أسانيده عليها.

■■■

فى فقه النهضة

جمال سلطان

أمريكا الشمالية: كتاب التجمع الإسلامى، ٢٠٠١

مجموعة من الدراسات عن موضوع مهم بات أثيـرًا الآن فى ظل الكلام عن التغريب والعولمة ونعنى به مسألة النهضة، ما هى شروط تلك النهضة وكيف يمكن تحقيقها من داخل الوعى بالذات لا بالانفصال عنها.

■■■

نحن والحضارة والشهود

نعمان السامرائى

قطر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ٢٠٠١

فرضت العولمة بوصفها مرحلة من تطور المجتمعات البشرية على جميع الشعوب والحضارات أن تفكر فى الحفاظ على هويتها وتأكيد ثقافتها وقيمها، والكتاب يدور حول هذا المعنى موضحًا أسباب قوة الحضارة الإسلامية وكيفية استعادتها بالعودة إلى عوامل التطور الكامنة فيها.

فكر دينى

الإسلام والذوق العام

فؤاد شاكر

القاهرة: مكتبة الدار العربية، ٢٠٠١

الحُسن من الصفات التى حببها القرآن وشريعة الإسلام للناس، فالإنسان بطبعه يحب الحسن فى الشكل والخلق والملبس والمسكن وهذه المعانى وردت فى نصوص قرآنية عدة، وكذلك فى الأحاديث النبوية الشريفة، والمؤلف إلى جانب ما يقدمه من نصوص يقدم إحصائية بعدد المرات التى وردت فيها لفظة حسن فى آيات القرآن الكريم.

■■■

التصوف.. حكمه وأركانه وخصال أهله

عثمان السعيد الشرقاوى

القاهرة: المؤلف نفسه

يتناول الكتاب التصوف من حيث منهجه ومبادئه والأسس التى يقوم عليها، موضحًا أن التصوف من صميم الإسلام؛ بل هو الإسلام فى أرقى مدارجه وهو ضرورة لا غنى للمسلم عنها، وهو حقيقة العبادات وجوهرها، المؤلف يتكلم عن هذه المعانى موضحًا للقارئ السبل التى عليه سلوكها ليدخل هذا الميدان.

■■■

بنو إسرائيل لم يدخلوا فلسطين.. قراءة جديدة فى القرآن الكريم والتوراة

الحاج زكى على الغول

عمان: دار الكرمل، ٢٠٠١

يفند المؤلف الدعاوى الإسرائيلية التى

قـــــراءات جــــــديــدة

تدعى حقوقًا فى الأراضى الفلسطينية، ومن القرآن والتوراة يثبت المؤلف أنه لم يقصد أبدًا حضارة يهودية فى فلسطين، فقد خرج اليهود من مصر عن طريق البحر وليس البر، فلم يصلوا إلى سيناء ثم فلسطين، بل عبروا البحر الأحمر إلى شبه الجزيرة العربية، أما حكاية هيكل سليمان فلا أساس لها فى أى نص.

■■■

صور من تسبيح الكائنات

زغلول النجار

القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠١

اشتهر المؤلف بتفسير آيات الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم مستفيدًا من خبراته العلمية واطلاعه على أحدث نظريات العلم الحديث، وهكذا يبدو الكون صورة من إعجاز الخالق التى تؤكد قدرته سبحانه وتحث الناس على مزيد من الإيمان والعبادة.

■■■

The Muslim Jesus: Sayings and Stories in Islamic Literature

(المسيح المسلم: أحاديث وقصص من الأدبيات الإسلامية)

Edited and Translated by: Tarif Khalidi

Harvard UP, 2001, 256pp, $ 22.95

يقدم هذا العمل ترجمة إنجليزية لأكبر مجموعة من الأحاديث والنصوص القرآنية والأدبيات الإسلامية المختلفة التى تصف السيد المسيح، وتبين مكانته فى الإسلام. وبالتالى يعد إسهامًا مهمًا فى تعميق التفاهم بين الأديان السماوية، خاصة للجمهور غير المسلم والذى لا يعرف اللغة العربية.. هذه المجموعة اختارها وحررها وترجمها الدكتور طريف الخالدى مدير مركز الدراسات الإسلامية والشرق أوسطية بكامبردج.

"فلسفة"

العرب وعودة الفلسفة

أحمد برقاوى

دمشق: دار طلاس، ٢٠٠١

يرى المؤلف فى بعض النماذج التى يقدمها من مفكرى المشرق العربى والمغرب، إنجازات مهمة تعيد الفلسفة إلى الفكر العربى بعد أن غابت عنه لقرون طويلة، ويشير إلى بعض هذه الاجتهادات وأهم القضايا التى يثيرها الفلاسفة أو المشتغلون بالفلسفة الجدد.

■■■

ديكارت

ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

يصدر الكتاب ضمن سلسلة «أقدم لك» التى تصدر عن المجلس والتى قدمت من قبل: الفلسفة وأفلاطون، وهى سلسلة تحاول أن تفك غموض الفلسفة وتبسطها للقارئ العادى، ويكشف المؤلف فى هذا الكتاب عن الدور المهم الذى لعبه ديكارت وتأثيره على الحداثة وما بعدها، وعلى الفكر الإنسانى عمومًا.

■■■

ابن رشد الحفيد.. سيرة وثائقية

محمد بن شريفة

تونس: دار النجاح، ٢٠٠١

بمناسبة مرور ٨٠٠ عام على رحيل قاضى قرطبة وفيلسوف العرب والمسلمين، يأتى هذا الكتاب الذى يتضمن شهادات لكبار المفكرين المجايلين له من أمثال صفوان بن إدريس والمؤرخ الحجاج يوسف ابن عمرو، ودراسات حول تلاميذ ابن رشد وكيف حملوا أفكاره من بعده.

"فنــــون"

العمران والذاكرة.. العمران والوهم

رهيف فياض

بيروت: دار الفارابى، ٢٠٠١

يصدر الكتاب ضمن سلسلة تصدرها الدار عن العمارة والعمران، ويركز بالذات على عمارة مدينة بيروت وتخطيطاتها الهندسية والفنية، ولا يفوت المؤلف أن يرصد التفاعل بين العمارة والناس، فثمة حوار ضرورى بين الأشكال المعمارية والطرز التى يتم اختيارها لتمنح المدينة خصوصياتها والبشر الذين يقطنون هذه المساحة من الأرض.

■■■

Revolt of the Filmmakers: the Struggle for Artistic Autonomy and the Fall of the Soviet Film Industry

(ثورة صنّاع السينما: الصراع من أجل الاستقلالية الفنية وسقوط صناعة السينما السوفيتية)

George Faraday

Pennsylvania State University Press, 2001, 252pp.

فى عقد الثمانينيات كان الاتحاد السوفيتى ينتج مائة وخمسين فيلمًا سنويًا، ثم حدث ازدهار قصير الأجل عام ١٩٩١ عندما تم إنتاج ثلاثمائة وسبعين فيلمًا. ولكن فى عام ١٩٩٦ هبط الرقم إلى عشرين فيلمًا. يقدم مؤلف الكتاب جورج فارادى تفسيرًا وتحليلاً لما أصاب السينما فى روسيا.

■■■

Mande Music: Traditional and Modern Music of the Maninka and the Mondinka of Western Africa

(موسيقى الماندى: الموسيقى التقليدية والحديثة لمانينكا وماندنكا فى غرب أفريقيا)

Eric Charry

Chicago UP, 2001, 500pp

تشتهر موسيقى الماندى الأفريقية لعدة أسباب، من ضمنها تاريخها القبلى القديم حيث من السهل تتبع أصولها التى تصل إلى أمبراطورية مالى فى العصور الوسطى. كذلك انتشارها الواسع فى غرب أفريقيا فى كل من مالى والسنغال وغينيا وساحل العاج وبوركينا فاسو، وأخيراً لقدرتها على الاستمرار والتحول والاندماج فى الموسيقى العالمية الشعبية التى تستلهمها والتى تتمثل فى موسيقى نجوم كبار مثل «فانتا دامبا» و«ساليف كيتا».

وهذا الكتاب يقدم أول معالجة علمية شاملة لموسيقى الماندى: تقاليدها وأنواعها وآلاتها وأساليب عزفها ونظمها اللحنية وأشهر الذين يؤدونها فى غرب أفريقيا وفى الموسيقى العالمية.

"نقـد أدبى"

الإنسان المقهور فى أدب صنع الله إبراهيم

فراس عبيد

عكا: مؤسسة الأسوار، ٢٠٠١

اقتراب نقدى مميز لصاحب «تلك الرائحة» و«اللجنة» و«ذات» و«نجمة أغسطس» و«بيروت بيروت»، يركز بالذات على إنسان صنع الله الذى يبدو مقهورًا بفعل السلطة السياسية والاجتماعية وأسباب أخرى، ومنذ البداية يقر المؤلف أن أعمال صنع الله لا يمكن أن تقرأ إلا من داخلها ولا بأس من الاستعانة بالأطر التاريخية التى تحيط بالنص حال كتابته.

■■■

القصة ديوان العرب

طه وادى

القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ٢٠٠١

رؤية للمشهد القصصى فى العالم العربى، حيث يقدم المؤلف دراسة نقدية لنماذج قصصية من التراث ويعرض لنماذج قصصية معاصرة، ويجول فى مختارات من خمسين كاتبًا ينتمون إلى دول عربية عدة، ويستنتج المؤلف من سياحته تلك أن القصة هى ديوان العرب.

■■■

ثياب الامبراطورية.. الشعر ومرايا الحداثة الخادعة

فوزى كريم

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

وجهة نظر فى شعر الحداثة والمؤلف نفسه ينتمى إلى هذا الجيل شاعرًا وناقدًا، وهو يعتمد هنا مقارنة بين هذا الجيل من الحداثيين وسابقيه القدماء مثل أبى تمام والبحترى وأبى نواس وما هى الخطوط التى تجمع شعر الأقدمين بشعراء الحداثة الجدد من حيث الدلالات الإيحائية والتعابير اللفظية وتراكيب الجمل والصيغ الجمالية.

■■■

عالم محمد صدقى بين شهوة الإبداع وضرورة الواقع

مجموعة من الكتاب

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠١

مجموعة من الشهادات عن أحد رواد كتابة القصة القصيرة الذى أسهم بتجربته الإبداعية فى مسيرتها، وهو يجمع هذه الشهادات بعد تجربة مرض ألمت به، وبين الشهادات مقالات نقدية شارك فيها محمود أمين العالم وفخرى لبيب وأحمد خميس وعلاء الديب وسلامة موسى وآخرون.

■■■

لغة الأدب والشعر فى كتابات المرأة العربية

لوسى يعقوب

القاهرة: مكتبة الدار العربية، ٢٠٠١

دراسة لعديد من التجارب النسائية النثرية والشعرية تستعرضها المؤلفة التى تراعى انتماء هذه التجارب إلى أجيال مختلفة وبلدان مختلفة، وبين من تدرس: عائشة عبد الرحمن من مصر، وفاطمة عبد المحمود من السودان، وسحر خليفة من السودان، ونازك الملائكة من العراق.

■■■

من المشهد الشعرى نهاية القرن العشرين فى حمص

محمد علاء الدين عبد المولى

دمشق: دار الذاكرة، ٢٠٠١

تقييم نقدى للنتاج الشعرى لعدد كبير من الشعراء بينهم نزيه أبو عفش وعبد الكريم الناعم وعبد النبى التلاوى وآخرون، حيث يحلل نصوصهم ويجول فى عوالمهم الشعرية ومفرداتهم وسماتهم الجمالية والتعبيرية.

■■■

تجليات الشعر الصوفى

أمين يوسف عودة

عمان: بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠١

دراسة ثانية للمؤلف تأتى بعد دراسته الأولى عن تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، وهو هنا يواصل ما بدأه محاولاً سبر أغوار الفكر الصوفى من خلال شعر ابن عربى وآخرين، وفى هذا الجزء يبحث فى الخصائص الأسلوبية والفنية للشعر الصوفى.

■■■

قراءة جديدة لقضية الشك فى أدب الجاهلية

مصطفى الجوزو

بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠١

بعد ما يزيد على ثلاثة أرباع القرن من كتاب طه حسين «فى الشعر الجاهلى» يعيد المؤلف طرح قضية الشك فى أدب الجاهلية من جديد، لأسباب بعضها دينى وبعضها تاريخى وأكثرها أدبى ولغوى.

■■■

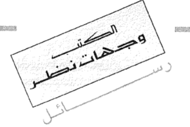
إخوانيات الصكار ومجالسه الأدبية

محمد سعيد الصكار

دمشق: دار الهدى ٢٠٠١

أكثر من ٢٠٠ نص عن أكثر من ١٥٠ شخصية كتبها المؤلف بطريقة سمّاها الإخوانيات - وهى بحسب قوله - فن من الفنون الشعرية شديدة الخصوصية التى تدور بين الشعراء بتلقائية وحميمية وحرية، بما يكشف عن الموقف الشخصى للشاعر وعلاقاته بالناس والبيئة من حوله.

■■■



سينما عبد الوهاب

نشرت «وجهات نظر» في عدد يوليو ٢٠٠١ دراسة قيمة عن «الموسيقى العربية في مواجهة العصر» بقلم الأستاذة سمحة الخولي وقد استوقفتني للتأمل العبارة التي اقتطفها المحرر لإبرازها بالبنط الأسود في ذيل الصفحة ٦٢ من العدد والتي نصها كما يلي:

(كان بزوغ السينما من أخطر المؤشرات الخارجية على الموسيقى وعندما أنشأ طلعت حرب ستوديو مصر للسينما في القاهرة أسهم بشكل غير مباشر في وضع أساس لتطورات موسيقية جديدة).

لذا قمت بإعادة قراءة متأنية للمقال علّني أخرج بنتيجة موضوعية عن دور غير مباشر لطلعت حرب في وضع أساس لتطورات موسيقية جديدة فوق دوره كرجل اقتصاد وطني ومؤسس لبنك مصر وشركاته الرائدة ومن بينها شركة مصر للتمثيل والسينما التي قامت بإنشاء ستوديو مصر.

لقد تم وضع حجر الأساس لأستوديو مصر في ٧ مارس ١٩٣٤ كما أنه في يوم ١٢ أكتوبر ١٩٣٥ أقيم حفل الافتتاح الرسمي للأستوديو (مرجع «معجم الفن السينمائي» للأستاذين أحمد كامل مرسي ومجدي وهبة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٣).

فإذا علمنا أن أول أفلام الموسيقار محمد عبد الوهاب «الوردة البيضاء» قد تم عرضه بتاريخ ٤ ديسمبر ١٩٣٣ (المرجع ذاته) أي قبل افتتاح ستوديو مصر بحوالي عامين فإنه طبقًا لفرضية أن بزوغ السينما كان من أخطر المؤثرات الخارجية على الموسيقى، فسوف يكون صحيحًا حذف الإشارة إلى طلعت حرب واستبدالها بعبارة (وعندما قدم عبد الوهاب أول أفلامه «الوردة البيضاء» أسهم بشكل غير مباشر - بل مباشر - في وضع أساس لتطورات موسيقية جديدة).

ولعل الاعتراف بهذا الدور لعبد الوهاب أمر لا يروق للكاتبة بالنظر لتوجهاتها التي نحترمها ولكن تجيير هذا الدور لطلعت حرب لا يخلو من التجني على الحقيقة والبعد عن الموضوعية مما اقتضى التنويه.

وجدي قبلاوي
عمان - الأردن



إعادة اكتشاف أمريكا

ليسمح لي الأستاذ الفاضل محمد حسنين هيكل أن أعبِّر عن إعجابي وتقديري العميق بكل ما تكتبونه خاصة مقالتكم الأخيرة أو المحاضرة الشيقة المتعمقة في تاريخ فكر أمريكا.

لقد أشرتم تحت «المفتاح السابع» عن المناطق أو الولايات التي اشترتها الولايات المتحدة.. وليسمح لي أن أضيف عليها «ألالسكا» التي اشترتها من روسيا عام ١٩٦٧ بمبلغ ٧,٢ مليون دولار والتي كما هو معروف تزيد مساحتها عن كل الولايات الأخرى. أكرر إعجابي وتقديري.. وتفضلوا السلام.

محمد السمنودي
أثينا - اليونان



السوبر مان الأمريكي الجديد.. يهودي دائمًا

عرض الأستاذ محمد حسنين هيكل تحت عنوان «المؤامرة والسياسة والجريمة» المنشورة في عدد وجهات نظر رقم ٢٩ لشهر يونيه ٢٠٠١ لرواية «العملية هبرون» والتي كتبها أريك جوردون، وقد أشار الأستاذ هيكل في معرض حديثه عن أهمية هذه الرواية وما دعاه إلى الكتابة عنها هو أن كاتبها كان مسئولاً بارزًا في المخابرات المركزية الأمريكية وعمل في الشرق الأوسط وفي العالم العربي تحديدًا وهي أول مرة يكتب فيها مسئول عن تجربته في العمل السري.

وما دفعني إلى الكتابة بعض ملاحظات، وهي ملاحظات عامة تتبدى للقارئ والمتابع للروايات والأفلام الأمريكية بصفة خاصة وهي الولع الدائم بشخصية السوبر مان أو بفكرة البطل الأوحد الذي يعزى إليه حل جميع أنواع الصراع وتتدرج هذه التيمة أو النمط السائد أو الكليشيه من الصورة المباشرة (فيلم سوبرمان وفيه تعود قوته الخارقة إلى عنصر غير موجود على كوكب الأرض) مرورًا بالبطل الذي يحمل صفات إنسانية، ولكنها صفات خارقة (أرنولد شوارتزنيجر في فيلم المدمر ومثله سيلفستر ستالوني في مجموعة أفلام روكي) وانتهاء إلى السوبرمان المودرن أو العصري الذي يملك مواهب وقدرات خارقة تتنوع بين قدرته الفائقة على استخدام التكنولوجيا الحديثة وامتلاكه لبصيرة نفاذة تمكنه من معرفة نوايا أعدائه ومخططاتهم وهي مازالت في أدمغتهم وقدرته على حل أصعب المشاكل في أقل وقت وبكفاءة نادرة وبدون أي نسبة خطأ (سلسلة جيمس بوند).

الملاحظة المهمة التي تشد انتباهنا وتستحق التسجيل الآن هي أنه في معظم الروايات والأفلام الأمريكية التي ظهرت في الثلاثين سنة الأخيرة ظهر فيها هذا الربط الخبيث بين السوبرمان الأمريكي الجديد (البطل المحبب إلى الجماهير) وكونه ينتمي إلى الجماعة اليهودية. وهذا الربط يرمي دائمًا إلى ترسيخ بعض المفاهيم في وجدان المتلقي وهي نفس المفاهيم التي تروجها الصهيونية من أجل التأثير في الرأي العام العالمي ويمكن تلخيصها في المفاهيم التالية:

١- ترسيخ مفهوم أن اليهود يمثلون جنسًا مختلفًا (لا يوجد ما يدل على أن هناك صفات مشتركة تجمع بين اليهود في أمريكا ويهود الفلاشا في أثيوبيا مثلاً) وأكثر سموًا بين سائر الأجناس الأخرى في كثير من الصفات (انظر إلى بعض الأسماء اليهودية وتعني الرجل الذهب، سيلفرمان Goldman المتداولة كثيرًا في أمريكا جولدمان وتعني النوع الجيد وكذلك Goodkind وتعني الرجل الفضة، وجودكيند Silverman وتعني الراعي الجيد إلى آخر هذه الأسماء التي توحي بالتميز Goodcare جودكير والتفرد أو التعالي على الآخرين).

وفي قصة «العملية هبرون» كما يعرضها الأستاذ هيكل تكون المنقذة هي «بريندا شتراوس» المحققة الأنشط والأكفأ في مكتب التحقيقات الفيدرالي والتي يصفها الكاتب بأنها يهودية ولكن غير صهيونية!! لأنها استاءت عندما عرفت أن والدها على اتصال سري بسفارة إسرائيل وتأكدت من عدم ولائه لوطنه الجديد (لاحظ أنها استاءت فقط رغم أنها بحكم موقعها الحساس في مكتب التحقيقات الفيدرالي كان (الأجدر أن تتخذ إجراء ما تجاه والدها لإيقاف نشاطه في الاتصال بإسرائيل وبريندا هي التي أقنعت رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي بالرقابة المباشرة على مكتب السفير الإسرائيلي في واشنطن باستخدام وسائل جديدة مذهلة في دقتها وتعقيدها (لاحظ ما يوحي به ذلك من قدرة على استعمال أجهزة تكنولوجية معقدة ومتقدمة كنتيجة لقدرات عقلية فائقة).. وهي أيضًا التي اقترحت على رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالي زيارة المرشحين الثلاثة للرئاسة الأمريكية والإشارة بطرف خفي لكل منهم بإيماء بـ «تدخل أجنبي في الانتخابات الأمريكية» ويرصدان في هذه الأثناء رد الفعل على جهاز تسجيل لا يعرف سره أحد سوف تخفيه بريندا في حقيبة يدها (لاحظ أن فكرتها الذكية هي التي هيأت الحل لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي بكامل أجهزته وأشخاصه ومسئوليه) ثم تأتي نهاية القصة والتي توضح أن بريندا وبريندا فقط هي التي تابعت القاتلة المحترفة التي اغتالت رئيس أمريكا المنتخب ومدير الموساد بواشنطن (لاحظ أن القاتلة المحترفة صربية واغتالت رئيس أمريكا المنتخب وبدون مقاومة من حراسه) وطاردتها إلى أركان الأرض وفجرتها بقنبلة رتبت وضعها في القارب الذي خرجت به القاتلة المحترفة إلى أحد خلجان مايوركا الأسبانية تحسب نفسها آمنة في فضاء البحر وتقيد الحادثة ضد مجهول (لاحظ القدرات السوبر والولاء السوبر للوطن الجديد كما لاحظ الربط بين السوبرمان أو قل «السوبرومن»، ثم أضف إلى ذلك فكرة كونها يهودية «فهي من الأقلية ذات الصفات المتميزة»، وكونها امرأة «فهي من الأقلية الضعيفة التي تطالب بحقوقها وتعتبر من جماعات الضغط في أمريكا». إذن هي توليفة كاملة تحتوي على كل التوابل والمشهيات المحببة إلى المتلقي جرى خلطها بدقة شديدة وبذكاء من أجل توصيل رسالة مهمة له تستقر في وجدانه وتؤثر في قدرته على الرؤية الصحيحة لحقائق الأمور.

٢- النقاء: تجنح الدعاية الصهيونية إلى إظهار اليهود بمظهر النقاء الخالص والروحانية والبعد عن المادية الغربية ويشار دائمًا إلى اليهود على أنهم المتدينون في وسط المجتمع الغربي العلماني والذي ينظر إلى التدين وكأنه موضة قديمة. وقد ظهر هذا التوجه في الكتابات الروائية والأفلام الجديدة كمحاولة لتغيير الصورة المستقرة في وجدان العالم تجاه اليهود منذ القرون الوسطى والتي تصورهم كشياطين وأن الشر لصيق بطبيعتهم. إذا تابعنا مثلاً شخصية «فاجين» في فيلم أوليفر تويست المأخوذ عن رائعة تشارلز ديكنز نجد الفيلم يقدم لنا اليهودي «فاجين» زعيم النشالين الصغار الذي يعشق المال ويدربهم على النشل والسرقة.

٣- الاضطهاد: يؤدي تركز اليهود في حقل الإعلام خصوصًا في الصحافة والإذاعة والسينما (٢٥,٨٪ من العاملين في الإعلام الأمريكي من اليهود حسب إحصائيات الثمانينيات) وهذا التركيز الكبير يهيئ لهم تسليط الأضواء وتكريس بعض المفاهيم في وجدان المتلقي وإعطاءها أكثر مما تستحق. ولعل ظاهرة الهولوكوست أو تعرض اليهود للإبادة في معسكرات التعذيب إبان حكم النازي في ألمانيا من أكثر الظواهر التي سلط عليها الإعلام الصهيوني نشاطه وجعلها من المسلَّمات التي لا يمكن الاقتراب منها (انظر محاكمة المفكر الفرنسي الشهير «رجاء جارودي» لمجرد تشكيكه في أعداد من فقدوا الهولوكوست وليس في الهولوكوست نفسه). ويسعى الإعلام الصهيوني دائمًا إلى تكريس الشعور بالذنب جراء ما عاناه اليهود فقط، ولكنه شمل جميع الأقليات الأخرى وكل ما هو غير ألماني مثل الغجر والزنوج والأتراك المسلمين وغيرهم. وأن تظل هذه الفكرة قائمة في أذهان البشر لا تهدأ ولا تنام وتظل البشرية كلها في حالة استنفار مستمر للتعويض ودفع الفاتورة لليهود ولامانع من أن يصبح لهم وطن في فلسطين حتى يأمنوا الاضطهاد مرة أخرى. وتظهر هذه التيمة في غالبية الأفلام الأمريكية سواء بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة تستشعرها في مشهد أو تسمعها في جملة حوار. وليس



أدل على ذلك من أن المخرج اليهودي «ستيفن سبيلبرج» الذى أخرج أفلامًا تعد من علامات السينما الأمريكية مثل «الفك المفترس» و«أى تى» و«لقاءات وثيقة من النوع الثالث» لم يحصل على الأوسكار إلا عندما قدم فيلم «قائمة شندلر» والذى اعتبره النقاد من أقل أفلامه قيمة.

لو تابعنا مثلاً القصة الحائزة على جائزة بوليتزر الخاصة بالرواية لعام ٢٠٠١ (من أرقى الجوائز الأمريكية فى الأدب والصحافة) لوجدنا أن الرواية الفائزة هذا العام هى رواية من الرسوم تحت عنوان «المغامرات المدهشة لكافاليير وكلاى التى كتبها «مايكل شابون» وهى تحكى القصة الحقيقية لهروب المؤلفين اليهوديين لشخصية «سوبرمان» من تشيكوسلوفاكيا إلى أمريكا هربًا من الاضطهاد ويرتكب بطلاها نفس الغلطة القانونية القاتلة التى ارتكبها الرسام والكاتب الحقيقيان، إذ يوقعان مع ناشرهما عقدًا يتنازلان فيه عن «كل حقوقهما القانونية لاستغلال شخصية» الهروبى التى اخترعاها ويعيشان فى ضنك بينما يرفل ناشر «الهروبى» فى نعيم الملايين بالضبط كما حدث مع ناشر «سوبرمان» فى الحقيقة!! والرواية تجعل كلا من الرسام وكاتب القصة يهوديين مثلما كان رسام «سوبرمان» وكاتبه من اليهود، والرواية تؤكد الحادثة الحقيقية لاستغلال الناشر الدنىء للرسام والكاتب لكنها تلقى ضوءًا جديدًا فى سياق الرواية الجديدة. مبدعان يبذلان الجهد ويتعرضان للموت خلال هروبهما من الاحتلال النازى ويعبران الأطلسى ليصلا إلى أمريكا «بلاد الحرية»، ثم يخلقان بطلاً أمريكيا وطنيًا «ناجحًا» يغمر ناشريه بالمال والسعادة ويسعد الفقراء الأمريكيين ويمجد قيم مجتمعهم المنتصر. وينتهى هذا كله بتناسى الجميع لجميل اليهوديين وبإلقائهما فى غياهب الجحود والظلم ويبدو فى هذه الرواية الإلحاح التقليدى من جانب صانعى الأدب الأمريكى الحديث على ضمير العالم وتذكيره الدائم بجحوده تجاه اليهود وإنكاره لهم ودورهم: «العظيم» فى رفاهية البشر ومقاومتهم للظلم.

لكى نفهم طبيعة عمل اللوبى الصهيونى الأمريكى (مجموعة من المنظمات الأمريكية مثل مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية واللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشئون العامة أيباك وغيرهم كثير، فهو يسعى إلى كسب تعاطى الرأى العام الأمريكى والتأثير فيه وقد ظهرت هذه المنظمات فى بداية الأمر من أجل السعى لإنشاء دولة إسرائيل ثم تأييدها بعد ذلك وتعمل هذه الجماعات فى عدة محاور تتراوح بين إنشاء المدارس والمستشفيات وإنتاج الأفلام السينمائية وإصدار الصحف والبرامج التليفزيونية وتمويل رحلات الباحثين الأمريكيين إلى إسرائيل. وهناك رأى يرى أن اللوبى الصهيونى فى أمريكا نجح فى جعل الرأى العام الأمريكى مواليا لإسرائيل كما نجح أيضًا فى تغيير صورة اليهود فى أمريكا وقلب الحقائق عن ممارسات إسرائيل فى فلسطين ونستطيع أن نستشعر ذلك من مجموعة الأعمال التى عرضناها فى هذا السياق والتى تؤكد النية لصرف انتباه الضمير العالمى عما يحدث بالفعل وإلهائه فى التذكير المستمر لمعاناة اليهود. وهو يعمل بطريقة مركبة فهو فى بعض الأحيان يجنح إلى الدعاية المنظمة وعقد المؤتمرات وفى أحيان أخرى يسعى لعقد تحالفات دائمة مع جماعات المصالح الأخرى مثل العمال والمرأة والمنظمات الدينية وتلك التى تمثل الأقليات الأخرى وجمعيات حقوق الإنسان وفى بعض الأحيان جمعيات الحفاظ على البيئة واستخدام هذه الجماعات للتأثير على الرأى العام.

د. حسين الشرقاوى
أستاذ طب الأسنان - جامعة القاهرة



آفة التكرار

أعبر - أولاً - عن شكرى لإعطائى الفرصة من أجل إبداء هذه الملاحظة فى عدد «وجهات نظر» لشهر أغسطس الماضى.. وقع خطأ تمثل فى إعادة إحدى زوايا كتاب الزاوية «شكاوى الفلاح الفصيح» حيث تكرر نشرها فى صفحتى ٥٤ و٥٩. وكم كنت أتمنى بدلاً من تلك المساحة الضائعة أن تنشروا خريطة ضمن موضوع «مخطط إسرائيل ٢٠٢٠» أو صورة أخرى فى الموضوع الرائع «رحلة العائلة المقدسة إلى مصر» أو حتى كان يمكنكم نشر إعلان لعله يساعدكم ماليا، بالرغم من أن الإعلانات فى مجلتكم بدأت تتجاوز الحدود المقبولة فى مساحتها.

ندى باسل حيدر
فرنسا





تنويه

وقع خطأ فى العدد الماضى فى مقال الأستاذ فاروق عبد القادر عن الكاتب المسرحى محمود دياب.. والعنوان الصحيح هو: «من أعماله الأولى إلى أيامه الأخيرة»، كما تكرر سهواً نشر زاوية من كتاب الزاوية «شكاوى الفلاح الفصيح» فى صفحتى ٥٤ و٥٩.

المحرر

كتاب الزاوية

الأغانى الشعبية فى صعيد مصر

فى غناء الحجاج

وابور السفر (الباخرة) لا احَنّى قلوعك
سيد المرسلين يكتب رجوعك

* * *

قايم من النوم يبكى دموعه بَلَيلَه
عاشق المصطفى ومعاه الدليله
قايم من النوم يبكى مشَّرك (ممزق) هدومه
عاشق المصطفى ما حدَّش يلومه
قايم من النوم يبكى مشرَّك عزَاله (حاجياته)
عاشق ابو ابراهيم ما حدَّ لاَمُه
قايم من النوم يبكى مشرَّك خُلَقُه (ملابسه)
عاشق المصطفى حتى العيش حَارِبُه

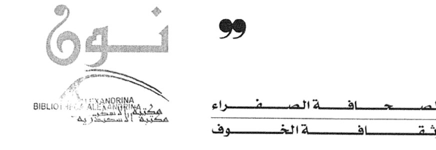
* * *

حجِّ منْ عندنا صغيِّر بشوشه
السَّنه حجتَّك ومن عاش عروسه
حجِّ منْ عَندنا صغيِّر بشَمّلَه
السَّنه حجتَّك ومن عاش مُجامله

* * *

طريق الحجاز جنينه نَشْوها
زيِّنوها الملوك لفاطمه (بنت النبى ص) وابوها
طريق الحجاز جنينه وجَنَّه
زينوها الملوك لمن صام وصلى
يا نجوم السما وكونوا حناين
ما تبخُوش ندا تبلُّوا العمايم
يا نجوم السما وكَونوا دراويش
ما تبخوش ندا تبلوا الطرابيش



الصحافة الصفراء وثقافة الخوف

لم يحدث من قبل أن شاع استخدام مفهوم الصحافة الصفراء فى مصر والوطن العربى، كما هو شائع الآن، تعبيرًا عن القدح والاستنكار لنوع الكتابات الصحفية التى تخاطب الغرائز، وتتوسع فى نشر الفضائح، ولا تعتمد الدقة والأمانة فيما تنشره من أحداث وقصص، ولا تضع حدودًا على ما يمثل اجتراءً على الأخلاق والآداب، وما يمكن أن ينطوى عليه ذلك من تشهير لا يخفى رائحة الابتزاز.

وقريب منها تلك الأعمال الفنية السافرة، والكتابات الأدبية المكشوفة التى يرى بعض الأدباء والروائيين أن حرية الإبداع لا تكتمل إذا فرضت القيود على ما تجود به أحلامهم ورؤاهم سواء فى الفنون التشكيلية أو الفنون الأدبية.

وبالمنطق نفسه ينسحب الاعتراض على المؤلفات والمصنفات التى تخالف الرأى السائد فى شئون الدين والعقيدة والفكر، وما يمكن أن يفتح الباب للشكوك والشبهات التى يمكن أن تزلزل العقائد لدى العامة وتولد الفتن. فكلها كتابات صفراء لا يطيقها المجتمع ولا يتسامح فيها.

هذه هى الحالة السائدة فى المجتمع العربى اليوم. تتساوى فيها المجتمعات الليبرالية والمحافظة، الغنية والفقيرة. أهل الحضر وأهل المدر.. لا فرق. ولا يكاد يمر أسبوع دون أن تنفجر أزمة ثقافية هنا أو هناك، سرعان ما تنقلب إلى أزمة سياسية، يفرضها منطق الخوف أو ثقافة الخوف. حيث تسعى السلطة إلى فرض معاييرها بوسائل تتراوح بين التعسف فى استخدام القانون فى أفضل الأحوال، أو اللجوء إلى البطش والعنف والتخويف، الذى ينتهى إلى المنع والحظر وإبادة الفكر فى أسوئها.

هناك إذن علاقة مباشرة ومطّردة بين أجواء الخوف وبين انتشار الكتابات الصفراء.. تقود إلى وقوع ما نراه فى حياتنا الفكرية والثقافية من التباس فى المعايير، تجعل التمييز بين الغث والسمين أمرًا واردًا فى كل الأحوال. ويؤدى غياب القدرة على التفكير النقدى لدى أفراد المجتمع إلى البحث دائماً عما يسميه البعض «الخطوط الحمراء»، وهى خطوط وهمية هلامية يفرضها مناخ الخوف وتستغلها السلطة بحسب الحاجة، للدفاع عن نفسها وعن المستفيدين بها. وهذه الخطوط الوهمية تخلع نوعًا من القداسة على أفكار الزعماء والقادة المستأثرين بالحكم، أو على الذين يجعلون من التراث نصوصًا مقدسة تعلو على التفكير والتساؤل. والتمترس خلف هذه «الخطوط الحمراء» هو أسهل الطرق التى تسلكها الأجهزة البيروقراطية لالتماس الأمان، والإذعان للأوضاع السائدة، والترقى فى سلم النفاق بلوغًا للمراتب الأعلى فى المجتمع.



ولا حاجة بنا إلى البحث عن الأسباب التى تقود إلى غياب التفكير النقدى وشيوع القلق والاضطراب مع كل أزمة كهذه فى المجتمعات العربية. فنظام التعليم، والأسرة، والعلاقات الاجتماعية بين الكبير والصغير تخلق كلها نسقًا تقليديًا.. يحجب القدرة على التفكير المستقل، والاعتماد على الذات وعدم الخوف من الكبار والرغبة فى الانطلاق والتحرر واستكشاف البيئة المحيطة. وهذه النظرة النقدية للحياة والفكر والمجتمع هى التى تمكن المواطن فى المجتمعات المتقدمة من تمثل القديم وتجاوزه بحثًا عن الجديد، ومن تجربة أساليب مستحدثة وطرائق مختلفة فى التفكير والتطبيق هى مصدر الإبداع والابتكار فى الفنون والعلوم والتكنولوجيا وفى كل صور التفكير الإنسانى، بشرط أن يتم ذلك فى أجواء تحررت من الخوف والحذر والتوجس، والتزام الخطوط الحمراء والمحاذير التى توقع صاحبها ضحية لغضب السلطان واتهاماته بالتآمر والخيانة والعمل لصالح الأجنبى، أو بالكفر والخروج عن الدين.. وهى اتهامات سهلة وجاهزة فى معظم الأحيان.

والنتيجة الطبيعية لذلك هى ما نراه اليوم، من لجوء مستمر غير مرغوب إلى سلطة أعلى، طلباً للفتوى والمشورة فى صغائر الأمور وكبائرها، فى الجاد والتافه من شئون الحياة، مع استبعاد للفطرة والعقل وتنازل عما أمر به الدين كل مسلم من تشغيل فكره واستنطاق بصيرته والاهتداء بعقله. وهى تعكس الاتجاه العميق إلى عدم تحمل المسئولية وإلقائها على الآخرين. وعدم الرغبة فى المجاهرة بالرأى وتقديم النصح لصاحب السلطة حتى يظل الفرد آمنًا على نفسه من العقاب والمؤاخذة والنقد.

إلى هذه الدرجة من الجبن الاجتماعى والشلل العقلى والفكرى، بلغت حالة معظم المجتمعات العربية. فرأينا أخيرًا فى مصر كيف سعى بعض المتعصبين الذين نخر سوس الجمود والتعفن فى عقولهم إلى مصادرة كتب عدد من فلاسفة الصوفية ومن بينها كتب محيى الدين بن عربى سلطان العارفين، الشيخ الأكبر وصاحب الفتوحات المكية الذى انتقلت أفكاره وشاعت بين مفكرى الغرب منذ عصور النهضة لمجرد أن كتاباته انطوت على نظرية فى التصوف تقوم على وحدة الوجود.

ولولا نفر قليل من المثقفين المستنيرين مازالوا فى صفوف الأزهر لكنا اليوم أمام فضيحة ثقافية عالمية لا تضاهيها غير الفضيحة التى تفجرت عندما تقرر حذف بعض الفصول والعبارات من «ألف ليلة وليلة»، وإعادة طبعها منقحة خالية مما ألمّ بها من عبارات مكشوفة. أو حين ثارت ضجة مشابهة حول ديوان أبى نواس فى الغزليات وجرت مصادرته بحجة أنه تضمن أشعاراً إباحية. ومازالت محاولات المصادرة لرسائل علمية أو دراسات فلسفية وأدبية تقع كل يوم فى الخفاء وقليل منها ما تناهى إلى أسماع الرأى العام. وهو ما يحق لنا أن نتساءل بشأنه كيف احتملت مجتمعات المسلمين وأمراؤهم وسلاطينهم فى عصور سبقت مثل هذا الإنتاج العقلى والفكرى المتفتح، دون خوف من غضب الخاصة أو جهل العامة؟



فى مرحلة التصدع الفكرى والثقافى التى نعانيها حالياً ذهب البعض إلى القول بأن انتشار الكتابات الصفراء وغياب الثقافات الرصينة مرجعه إلى أن الدولة فى عديد من المجتمعات العربية رفعت يدها أو انسحبت تدريجيًا من إدارة المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً. وأنه فى ظل التعددية السياسية والديمقراطية المظهرية لم تعد الدولة تمارس سلطانها على العقول والأذواق والسلوكيات، وهى كذبة كبيرة لأن غياب ثقة المجتمعات العربية فى مؤسساتها ـ وعلى رأسها المؤسسة الإعلامية ـ هو الذى فتح الطريق أمام الصحافة الصفراء لملء الفراغ الإعلامى. ويرى «نبيل على» خبير المعلومات المعروف أن الصحافة الصفراء: «نجحت فى أن تقيم اتفاق عدم اعتداء غير معلن مع السلطة الحاكمة وهو الذى مكّنها من أن تختلى بقرائها، فراحت تملأ الفراغ الإعلامى بكل ما هو رخيص وتافه من حديث الفضائح والخرافة ونفاق العواطف».

وبعبارة أخرى فإن علاقة السلطة الحاكمة بالقوى الرمزية فى المجتمع جعل الطابع الدعائى المباشر هو السائد فى علاقتها بالإعلام الرسمى وهو الذى روّج لنوع من التفكير المزدوج يسمح لك بأن تؤمن من ناحية بالتقدم العلمى، ولكنه يشجع من ناحية أخرى على الهروب منه وتجنب التفكير فى تحمل تبعاته. فالمجتمع يرحب بالسلع الغربية وبالإنتاج الغربى من علوم وتكنولوجيا وفنون وثقافة، ولكنه لا يقبل النتيجة المنطقية لذلك: وهى أن هذا التقدم ما كان ليتحقق بدون ذات حرة فاعلة مستقلة، مالكة لحياتها وقدراتها العقلية والجسمية.

وفى مثل هذه الأجواء التى تتحدد فيها مهمة الإعلام إما بإضفاء المشروعية والتقديس على السلطة أو بكونه أداة للترفيه والترويح عن النفس.. تنمو الصحافة الصفراء نموًا عشوائياً غير محكوم وغير خاضع لأية معايير، فتتحول دون أن يدرى أحد إلى أداة لإشاعة التعصب والعصبية والعنصرية ونزعات الكراهية ومخاطبة الغرائز ونشر الفضائح والعبث بالعقول والأفهام، مستخدمة فى ذلك أحدث تقنيات الطباعة والتصوير وأساليب الصحافة الحديثة التى تميزت منذ منتصف القرن الماضى بالمانشيتات الفاقعة المثيرة، والقصص الصحفية المفبركة، والمبالغات الفجّة، واللغة السهلة الرخيصة، والاستسهال الشديد فى تناول الموضوعات الجارية بأساليب ساذجة مسطحة مزوقة بالقفشات والنوادر والحكايات الغريبة.

وهكذا تكتمل الدائرة: فراغ إعلامى ناجم عن سيطرة ثقافة الخوف وارتعاش العقول والأقلام نتيجة علاقة مريضة معتلة بين السلطة الحاكمة والإعلام، يؤدى إلى ضمور فكرى وهزال إعلامى وازدواج فكرى.. تقفز الصحافة الصفراء إلى ملئه بالغث التافه من الأمور وبالترفيه الساذج الرخيص، حتى إذا انفجر الموقف واختلطت الأمور.. أصبح المنع الشامل والتفتيش فى العقول والضمائر هو أسهل الطرق لاستعادة زمام الموقف. وضاعت فى الزحمة كل الحدود الفاصلة بين الإبداع الحقيقى والإباحية، بين الابتكار والتجديد وبين التبذل والإثارة، ويصبح الصمت هو الطريق الآمن الوحيد فى روشتة العلاج التى كتبها صلاح عبدالصبور فى قصيدته على لسان بشر الحافى:

احرص ألا تتكلم
قف
وتعلق فى حبل الصمت المبرم
اللفظ حجر
اللفظ منية
فإذا ركّبت كلاماً فوق كلام
من بينهما استولدت كلام
لرأيت الدنيا مولوداً بشعاً
وتمنيت الموت
أرجوك.. الصمت.. الصمت!

سلامة أحمد سلامة